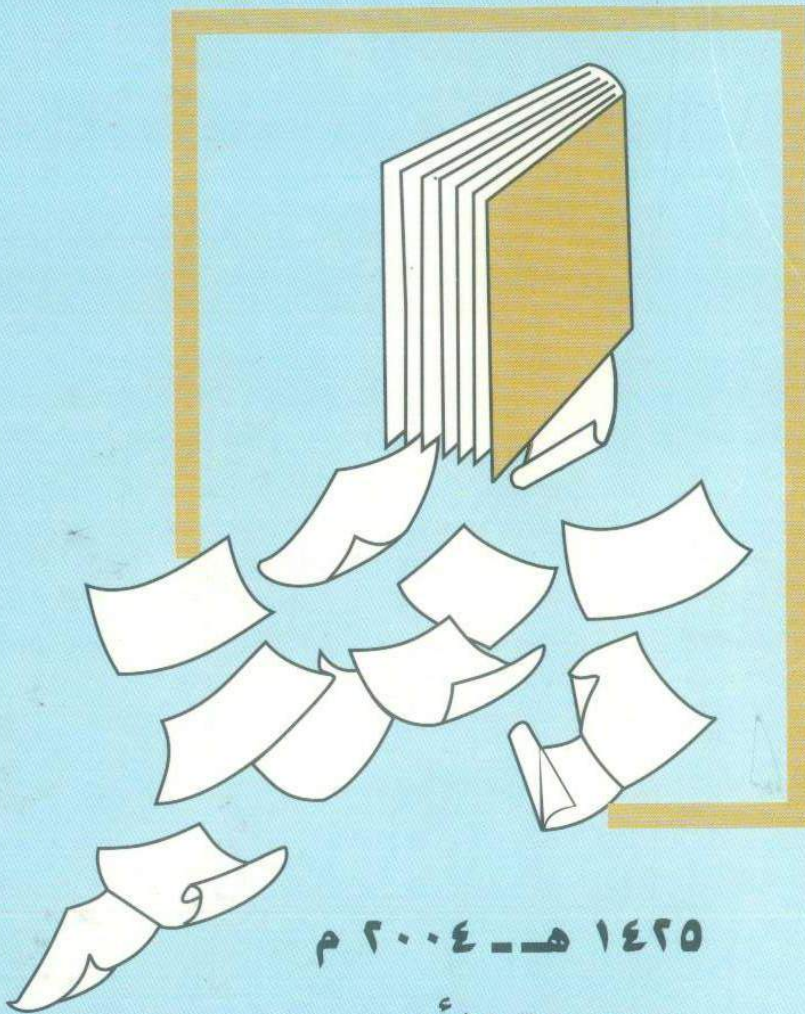


الدكتور رجا سميرين

أوراق الشتات

سيرة ذاتية ومذكرات

١٩٢٩ م - ٢٠٠٤ م



١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

الطبعة الأولى

دار اليراع
للنشر والتوزيع

الناشر

دار اليراع للنشر والتوزيع

□ عمان/ الشميساني/ مقابل السيفوي

مجمع بسام عمر ط ٣

هاتف ٥٥١٣٩٧٤ ص.ب ٩١١٨٣٤

خلوي: ٠٧٩٧٥٧٩٢٤/٠٧٩٥٥١٩٣٠٣

□ رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٢٠٠٤/٣/٥٩٠

□ حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

□ التنضيد الضوئي/ مركز اليراع للتصميم والتنضيد الضوئي - دلال عبد العزيز

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٤/٣/٦٢٨)

٩٢٨،١١

سمرين ، رجا محمد

أوراق الشتات : سيرة ذاتية ومذكرات / رجا محمد

سمرين . عمان : دار اليراع ، ٢٠٠٤ .

() ص .

ر. : (٢٠٠٤/٣/٦٢٨) .

الوصفات : / الشعراء العرب// السيرة الذاتية // الشعر العربي /

* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الإهداء

إلى روح ولدي الشهيد محمد في عالم المخلود ...

وإلى أبنائي الأحبة نزار ونرياد وكامل ...

وإلى بناتي الحبيبات جميلة وليمى وفاطمة ...

وإلى أحفادي الأغزاء ...

وحفيداتي العزيزات ...

وإلى القراء الكرام ...

أقدم هذه السيرة التي آمل أن يجدوا فيها ما يتوقون إلى معرفته عن
مسيرة صاحبها ومسيرة الآباء والأجداد ليأخذوا منها من العبر
والعظات ما ينفعهم في مسيرة حياتهم التي أرجو أن تكون
سعيدة وموفقة بإذن الله .

صاحب السيرة

الدكتور رجا سمرين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله مقدّر الآجال، ومحقق الآمال، والمتمتع وحده بالآباد والأزال، صاحب الحول والطول، والمنزل على رسوله محمد ﷺ أفضل قول . وبعد، فقد استغرقت كتابة هذه السيرة والمذكرات ثمانية أعوام، بدءاً من عام ١٩٨٨م وانتهاءً بعام ١٩٩٦م . وقبل أن أدفع بها إلى المطبعة رأيت أن أضيف إليها قليلاً من الصفحات تحدثت فيها عما جدّ من أهم الأحداث التي حدثت ما بين عامي ١٩٩٧م و ٢٠٠٤م .

في الواقع إن بداية عهدي بهذه السيرة إنما يرجع إلى عام ١٩٤٨م، وهو العام الذي غادرت فيه فلسطين . فقد وقع في روعي - منذ أن غادرتها- أن ابتعادي عنها سيطول، وأدركت منذ ذلك الحين أنه لا مندوحة لي من تسجيل ما يعرض لي من أحداث، حتى لا يطويها النسيان، كما طوى أخبار الآباء والأجداد الذين لا نعرف عنهم غير اليسير الذي لا ينقح الغلة، ولا يبيل الصدى، ولا يطفىء الأوام .

منذ عام ١٩٤٨م، بدأت أحرص على اقتناء مفكرة صغيرة تحمل تقويم كل عام جديد، وشرعت أسجل فيها ما يعرض لي ولأسرتي من أحداث، وما تتعرض له أمتنا العربية من وقائع جسام بإيجاز شديد .

ولم تكن مفكراتي هذه المصدر الوحيد لهذه السيرة وهذه المذكرات التفصيلية التي أدونها الآن . بل إن مصادر أخرى أجد أنه لا بد من الإشارة إليها وتحديثها لأنني استعنت بها في كتابة هذه السيرة .

من هذه المصادر :

- القسم الأول من مذكراتي المفصلة حتى عام ١٩٥٦م، والتي توقفت عن مواصلة كتابتها بعد ذلك لأسباب لا تخفى على فطنة القراء .
- بعض المراجع التاريخية المتعلقة بتاريخ الأردن وفلسطين وغيرهما من الاقطار العربية، وبخاصة تلك الفترة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين .
- ما استقيته من معلومات من والدين - طيب الله ثراهما، وأسكنهما فسيح جناته - ومن بعض شيوخ البلدة من الأقرباء وغيرهم، رحمهم الله جميعاً.

والمطلع على هذه المذكرات يلاحظ أنني قد حرصت على أن أمزج فيها بين الأحداث الخاصة، وبين الأحداث العامة لسببين :

- **الأول :** اعتقادي بأنه ليس في استطاعة أي إنسان يرغب في الحديث عن حياته أن يفصل بين الخاص والعام، لأن كلا منهما متأثر بالآخر، ومؤثر فيه .

- **الثاني :** رغبتني في وضع من سيطلع على هذه السيرة من الأبناء والأحفاد في الإطار التاريخي الذي أحاط بي وبأسرتي، عبر مسيرتنا المتواضعة في هذه الحياة، وتعريفهم بمدى إسهامنا في صنع أحداثها - إن كان لهذا الإسهام قيمة جديرة بالإثبات أو التدوين .

وقد يتساءل بعض القراء عن السبب الذي دفعني إلى التوقف عن كتابة هذه السيرة عام ١٩٥٦، وعلى وجه التحديد بعد ولادة أكبر أبنائي "تزار" ببضعة أيام .

وإجابة على هذا التساؤل أقول : "إن توقفي عن ذلك مرّة إلى اقتناعي بأنني لن أكون قادراً على توخي الدقة والصدق والصراحة في كتابة الأحداث بسبب الظروف السيئة التي مرّت بها أمتنا العربية في هذه الحقبة من تاريخها المعاصر الرديء .

ومهما يكن من أمر فقد أحسست أن عام ١٩٨٨م هو العام الذي أصبح في استطاعتي أن أوصل فيه كتابة هذه السيرة والمذكرات .

في اللحظة التي أدفع فيها بهذه السيرة إلى المطبعة أكون على وشك أن أفني من حياتي خمسة وسبعين من الأعوام . وإنني أضرع إلى الله أن يمد في أجلي حتى أشهد اليوم الذي تنتصف فيه أمتنا من أعدائها الخيئاء، وحتى أصلي في المسجد الأقصى صلاة الشكر، لا صلاة الخوف والتوجس .
ثمّة شيء آخر أود أن ألفت إليه الأنظار... وهو أن القارئ الكريم سوف تعثره دهشة بالغة بسبب الأثر الكبير الذي تركه عامل الصدفة في حياتي .

لقد غيرت الصدفة المحضّة عدداً من المواقف والقرارات التي كان لتغييرها في اللحظة الأخيرة أثر كبير في تغيير مجرى حياتي تغييراً يدفعني إلى القول - وبحق - أنه لولاه لاتخذت هذه الحياة منحى يختلف كل الاختلاف عما هو عليه الآن .

ولكن، أليست الصدفة في حقيقتها تدبيراً إلهياً يأتي في موعده المقدّر ؟ وليست أمراً عشوائياً كما يظنه البسطاء والحمقى الذين لا يعلمون الفكر في أمور هذه الحياة . ومما يدعو إلى العجب والاستغراب أن الفيلسوف المصري الوجودي الدكتور عبد الرحمن بدوي يرى أن الصدفة ليست إلا شيئاً ناجماً عن أسباب عارضة يدفع بعضها بعضاً فتؤدي إلى إيجاد ما يوجد وإعدام من يُعتم^(١) .

أليس في هذا الرأي مقدار من الحماقة التي لا ينبغي أن يتصف بها فيلسوف؟

(١) د. عبد الرحمن بدوي - سيرة حياتي الجزء الأول ص ٦.

من هذه المصادر :

- القسم الأول من مذكراتي المفصلة حتى عام ١٩٥٦م، والتي توقفت عن مواصلة كتابتها بعد ذلك لأسباب لا تخفى على فطنة القراء .
- بعض المراجع التاريخية المتعلقة بتاريخ الأردن وفلسطين وغيرها من الأقطار العربية، وبخاصة تلك الفترة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين .
- ما استقيته من معلومات من الوالدين - طيّب الله ثراهما، وأسكنهما فسيح جناته - ومن بعض شيوخ البلدة من الأقرباء وغيرهم، رحمهم الله جميعاً.

والمطلع على هذه المذكرات يلاحظ أنني قد حرصت على أن أمزج فيها بين الأحداث الخاصة، وبين الأحداث العامة لسببين :

- **الأول :** اعتقادي بأنه ليس في استطاعة أي إنسان يرغب في الحديث عن حياته أن يفصل بين الخاص والعام، لأن كلا منهما متأثر بالآخر، ومؤثر فيه .

- **الثاني :** رغبتني في وضع من سيطلع على هذه السيرة من الأبناء والأحفاد في الإطار التاريخي الذي أحاط بي وبأسرتي، عبر مسيرتنا المتواضعة في هذه الحياة، وتعريفهم بمدى إسهامنا في صنع أحداثها - إن كان لهذا الإسهام قيمة جديرة بالإثبات أو التدوين .

وقد يتساءل بعض القراء عن السبب الذي دفعني إلى التوقف عن كتابة هذه السيرة عام ١٩٥٦، وعلى وجه التحديد بعد ولادة أكبر أبنائي تزار^(١) ببضعة أيام .

وإجابة على هذا التساؤل أقول : "إن توقفي عن ذلك مرّة إلى اقتناعي بأنني لن أكون قادراً على توخي الدقة والصدق والصراحة في كتابة الأحداث بسبب الظروف السيئة التي مرّت بها أمتنا العربية في هذه الحقبة من تاريخها المعاصر الرديء .

ومهما يكن من أمر فقد أحسست أن عام ١٩٨٨م هو العام الذي أصبح في استطاعتي أن أوصل فيه كتابة هذه السيرة والمذكرات .

في اللحظة التي أدفع فيها بهذه السيرة إلى المطبعة أكون على وشك أن أفني من حياتي خمسة وسبعين من الأعوام . وإنني أضرع إلى الله أن يمد في أجلي حتى أشهد اليوم الذي تنتصف فيه أمتنا من أعدائها الخبثاء، وحتى أصلي في المسجد الأقصى صلاة الشكر، لا صلاة الخوف والتوجس .
نمّة شيء آخر أود أن ألفت إليه الأنظار... وهو أن القارئ الكريم سوف تعثره دهشة بالغة بسبب الأثر الكبير الذي تركه عامل الصدفة في حياتي .

لقد غيّرت الصدفة المَحْضَة عدداً من المواقف والقرارات التي كان لتغييرها في اللحظة الأخيرة أثر كبير في تغيير مجرى حياتي تغييراً يدفعني إلى القول - وبحق - أنه لولاه لاتخذت هذه الحياة منحى يختلف كل الاختلاف عما هو عليه الآن .

ولكن، أليست الصدفة في حقيقتها تدبيراً إلهياً يأتي في موعده المُقَدَّر ؟ وليست أمراً عشوائياً كما يظنه البسطاء والحمقى الذين لا يُعْمَلُونَ الفكر في أمور هذه الحياة، ومما يدعو إلى العجب والاستغراب أن الفيلسوف المصري الوجودي الدكتور عبد الرحمن بدوي يرى أن الصدفة ليست إلا شيئاً ناجماً عن أسباب عارضة يدفع بعضها بعضاً فتؤدي إلى إيجاد ما يوجد وإعدام من يُعَدَم^(١) .
أليس في هذا الرأي مقدار من الحماقة التي لا ينبغي أن يتصف بها فيلسوف؟

(١) د. عبد الرحمن بدوي - سيرة حياتي الجزء الأول ص ٦ .

وبعد، فإن في استطاعتي أن أزعم أن كل واحد من أبنائي وأحفادي سوف يجد في هذه السيرة ما ينفعه من العبر والعظات . وإذا لم يشارك القاريء العادي الأبناء والأحفاد في شيء من ذلك، فإنه سيجد فيها - على الأقل - عملاً روائياً يُصوّر معاناة إنسان فلسطيني مشرد، فرضت عليه الأقدار أن يعيش في الشتات، بعد أن حلّ في بيته وأرضه يهودي لا يعلم إلا الله من أية بقعة من بقاع الأرض قد جاء .

صاحب السيرة

الدكتور رجا سميرين

الفصل الأول

قريتنا

هي قرية قالونيا، وهي واحدة من ست وستين قرية تابعة للواء القدس الذي يضم بالإضافة إلى هذه القرى ثمانى مستعمرات يهودية، وعشيرة بدوية واحدة . على مسافة سبعة كيلومترات غربي مدينة القدس وإلى يمين المسافرين على الطريق الذي يربط بين القدس ويافا تقع قريتنا. وهي قرية صغيرة شُيّدت منازلها من الحجارة البيضاء التي أكسبتها منظرًا بديعاً أخذاً يسر الناظرين . وقد شُيّدت على سفح جبل تحيط به الكروم والبساتين التي حفلت بشتى ضروب الفاكهة وأشجار الزيتون واللوز والخروب، وترتفع عن سطح البحر بمقدار ٦٠٠ متر تقريباً . والناظر من سكان القرية جنوباً تطالعه قرية عين كارم على بعد ثلاثة كيلومترات والتي يفصل بينها وبين قريتنا مرج عين كارم المغروس بأشجار الزيتون المعمرة .

وقد روى لي عدد من شيوخ القرية بأن جدي سميرين كان يملك مساحة واسعة من هذا المرج وأنه - غفر الله له - باع ما كان يملكه منه إلى أهالي عين كارم ليفي بمتطلبات عشيقاته، فقد كان من الأثرياء المعدودين المقيّلين على الميزات . وفي الاتجاه نفسه يطالع الناظر من سكان قالونيا قرية دير ياسين وجزءاً من مستعمرة جبعات شاوول ومستعمرتي آرزا أو موتسا الفوقا ومستعمرة موتسا التحتا .

وإذا وجه الناظر من أهل القرية بصره إلى الغرب طالعته قرية القسطل بمنازلها القليلة المكدودة . والقسطل تحتل مكاناً استراتيجياً يتحكم المسيطر عليه بالطريق الذي يصل بين القدس ويافا . ومن أجل ذلك كانت

مسرحاً لمعارك متعددة بين المجاهدين من أهل فلسطين والعصابات اليهودية.

وقد دخلت التاريخ بعد أن استشهد فيها القائد الفلسطيني البطل الشهيد عبد القادر الحسيني . سكان قريتنا عند سقوطها في أيدي العصابات اليهودية لم يكن يتجاوز عددهم ألف نسمة أما عددهم الآن فإنه يقدر بما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة. وقد تفرقوا في أقطار الأرض؛ غير أن معظمهم لا يزال يعيش في مدن الضفة الغربية وقطاع غزة والأردن . وقد هاجر بعضهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية . وفي مدينة شيكاغو وحدها ما يربو عن خمسمائة نسمة من أبناء قالونيا .

إن أكثر البلدان شبيهاً بقريتنا هو الجزء الذي يراه المسافر من مدينة السلط وهو مقبل عليها من عمان قاصداً فلسطين. ويطلق أهل السلط على هذا الجزء من مدينتهم اسم "حارة الجدعة" .

في قريتنا هذه، وفي الأراضي التابعة لها والتي تبلغ مساحتها (٤٨٤٤) دونماً عدد من عيون المياه العذبة التي كان يستقي منها أهل البلدة.

أما هذه العيون فهي :

١. عين الليمونة أو العين التحتا : وهي بالقرب من منزل فوزي نسيبه، وهي تسقي عدداً من البساتين والجنان القريبة منها .
٢. العين الفوقا : وهي بجوار منزل حافظ نسيبه، وتظل هذه العين شجرتان معمرتان، ومن مياهها يُسقى عدد من البساتين والجنان القريبة منها .
٣. عين الشامية : وتقع في أرض الحبايل داخل مغارة صخرية مستطيلة لا يقل طولها عن عشرة أمتار. وعند مدخلها تقع بركتها الصغيرة التي تتجمع فيها مياهها العذبة ومنها تتساب إلى الجنائن المجاورة .

٤. عين علي جودة : وهي إلى الغرب من عين الشامية، ومياهها تميل إلى الملوحة . وقد كان المصابون بالحكاك من أهل البلدة يستشفون بالاستحمام بمياهها.

٥. عين العصافير : وتقع في أسفل الجبل الذي تقوم عليه مستعمرة "آرزا" وهي تشبه في شكلها عين الشامية، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن العصافير كانت أكثر المخلوقات استفادة من مياهها .

٦. عين الجسر : وهي بالقرب من جسر قالونيا الكبير وعلى بعد أمتار قليلة من استراحة نقولا اليوناني .

٧. عين السنيورة : وهي على مسافة ثلاثين متراً من عين الجسر . وكانت العائلات المسيحية التي استوطنت قريتنا تأخذ ما تحتاجه من المياه من هذه العين ومن عين الجسر لقربها من منازلها. ومن هذه العائلات : عائلة نقولا، وعائلة متري مروم وعائلة يوسف مروم .

٨. عين البيارة : وهي في أرض رباح الحسيني وإلى الشمال من بئر كدس اليهودي التي حفرت في الحد الفاصل بين أراضي رباح وأراضي داوود يلين اليهودي .

وهذه العيون الثمانية كلها تقع في القسم الجنوبي والجنوب الشرقي من قالونيا .

٩. عين الجوز : وقد سميت كذلك لأن شجرة جوز معمرة تقع فوق هذه العين . وتقع في سفح الجبل الذي يكثر هامة الخور الواقع إلى الغرب من قالونيا .

وهذه العين على شكل مغارة قليلة العمق في أرضها بئر ماء لا يزيد عمقها عن أربعة أمتار، يهبط إليها من يريد الاستقاء بضع عشرة درجة حتى يصل إلى مزاربها الشحيح الذي كان يملأ الوعاء الموضوع تحته في وقت يجعل صبر المرأة المستقية يوشك على النفاذ.

١٠. عين الجاج، أو عين الدجاج : وهي في أراضي دار بكر غربيّ البلدة.

وهي أقرب العيون إلى عين الجوز. وقد سميت كذلك لأن أسراباً من الشنار أو الدجاج البري كانت تفرّ إلى هنا لتأخذ حاجتها من مياهها قبل أن يزاحمها في ذلك الإنسان . ومياه هذه العين تجف في معظم أيام الصيف .

١١. عين فرحان : وقد عرفت بهذا الاسم نظراً لوقوعها في أرض محمد فرحان الملقب بالتوم - أي التوام - أما مياهها فتنبع من أراضي شحادة بكر. وهي على مسافة بضعة مئات من الأمتار من عين الجوز. ومياه هذه العين تنضب في أيام الصيف، وتقتصر الفائدة منها على ما يأخذه أصحاب الكروم من مياهها في فصلي الربيع والخريف .

١٢. عين زديّة : وهي غار محفور في الصخر إلى الشمال من عين الجوز، خلف بلوطات الشيخ حسين . وتقع في أراضي أولاد غنام التي اشتراها منهم فيما بعد ناصر الخطيب .

هذه هي عيون الماء التي كان يأخذ منها أهالي بلدتنا حاجتهم من المياه . وقد امتازت مياه معظمها بالعذوبة والنقاء، وهما صفتان تفتقر إليهما المياه التي نشربها في هذه الأيام التي لوّثت فيها المدنية الحديثة كل شيء حتى الماء والهواء والنفوس .

كانت النساء والفتيات هن اللواتي يقمن بمهمة جلب الماء إلى البيوت، وكن يحملان الماء في الجرار أو الصفائح على رؤوسهن. وكانت بعض الأسر كبيرة العدد تستخدم الحمير في نقل الماء . وكانت حمولة الحمار لا تقل عن أربع صفائح في المرة الواحدة، وهو ما يعادل حمولة أربع نساء .

وكانت الفتاة التي تتمتع ببنية قوية، وقوة بدنية غير عادية تنبأها بحمل صفيحتين، تضع الواحدة منهما فوق الأخرى، وتمشي بهما باعتدال واعتدال نحو المنزل صاعدة في طريق العقبة الصعبة التي تخترق القرية

من أسفلها جنوباً حتى أعلاها شمالاً، وتتفرع إلى عدة طرق شرقي البلدة وغربها مشكلاً تفرعها حارات البلدة وأحيائها السكنية .

وفي المناسبات العامة كالأعراس كانت الأسر التي لا تملك حماراً تضطر إلى استئجار حمار أو استعارته وذلك من أجل نقل الماء اللازم لتلك المناسبة .

ومن الحالات التي كانت هذه الأسر تلجأ فيها إلى مثل ذلك، طحن ما تحتاجه من القمح في مطحنة عين كارم. وقد قمت بهذه المهمة عدة مرات حيث كنا نستعير حمار العم سليمان عثمان أو حمار العم سلامة حسين .

ومن هذه الحالات أيضاً البناء لأنّ تشييد المنزل يحتاج إلى كميات وفيرة من الماء . ولأن عين الجوز هي أقرب العيون إلى منزلنا فقد كانت الوالدة أو إحدى الشقيقات تجلب منها الماء . وكان أهل البلدة يغبطون أسرنا فيقولون "إن دار أبي رجا يستشقون أطيب الهواء ويشربون أعذب المياه قبل أية أسرة في القرية" وذلك لأن منزلنا كان في آخر نقطة إلى الغرب من قالونيا .

كانت مياه عين الجوز أكثر صفاء من عين الديك، وأشهى مذاقاً من الشهد المذاب، وأكثر إنعاشاً من النسيم العليل . وعلى قدر ما شربت من ماء في مختلف الأقطار التي قدر لي أن أعيش فيها فإنني لم أجد لها مثيلاً في عذوبتها وقدرتها على الإرواء، فسبحان الذي حرمانا من مياه هذه العين، وأخفى عن أفهامنا علة ذلك الحرمان .

بالإضافة إلى عيون الماء فقد كان في بلدنا عدد من الآبار من أشهرها :

١. آبار بيت مزة : وهي سبعة آبار حفرت منذ العهد الروماني، وكانت إحداها تقع في أرض تعود ملكيتها إلى العم مصطفى رمضان، وهي البئر الوحيدة التي كان يتوافر فيها الماء طوال أيام السنة . وكانت الآبار الأخرى مهملة قد عبثت بها أيدي الخراب فلم تعد ذات فائدة .
٢. كان في القرية عدد من الآبار الخاصة التي حفرها أصحابها في ساحات منازلهم . ومن أهم هذه الآبار : بئر إسماعيل خليل رمضان، وبئر جامع الشيخ حمد، وبئر محمد علي سلامة، وبئر اخليل شرقي الجفير، وبئر عيسى حمدان، وبئر الموسوس في أراضي الصفحة .

وقد تعاون أهل القرية فقاموا بحفر بئر مشتركة في أراضي دير نحلة ليستقوا من مياهها في موسم حصاد الذرة. ولا بد من الإشارة إلى بئر "مبخل" وكانت ملكا لرجل يهودي يدعى "ميخائيل شتا ينبرك" من أهالي مونتسا المحتا، وهو ألماني الأصل وقد هاجر إلى فلسطين بعد أن أقام فترة في مصر، وأقام معملًا لإنتاج الطوب والقرميد الأحمر. وكان ودودا في تعامله مع أهالي بلدتنا التي كان يشكل رجالها النسبة الأكبر من العمال الذين كانوا يعملون في معمله .

وكان أهل البلدة يشاطرونه الود ويطلقون عليه لقب "أبو اليتامي" .

وقد أتقن كثير من شبان البلدة الذين عملوا في هذا المعمل الحديث باللغة العبرية نتيجة لمخالطتهم زملاءهم من العمال اليهود.

وكانت هذه البئر على شكل بركة سباحة كبيرة . وكان لها الفضل في تعلم كثير من شبان قريتنا السباحة، أما الاستفادة من مياهها فقد كانت وفقا على معمل الطوب والقرميد وصاحبه .

تُقدّر المساحة التي شيدت عليها بلدتنا بنحو مائتين وثمانين دونما تقريبا. وكلمة قالونيا تحريف لكلمة كولونيا الرومانية Qoloniya المحرفة بدورها عن كلمة كولون Colon اليونانية والتي تعني الفلاحون. أما كولونيا الرومانية فمعناها المستعمرة أو المستوطنة أو دار العسكر .

وكان الحويون- وهم بطن من بطون العرب الكنعانيين- أول من سكن قالونيا سنة ١٢٠٠ ق.م. وكانت تعرف آنذاك باسم "دولة موصة الكنعانية" حيث كانت واحدة من تلك الدويلات الصغيرة التي تشكلت في تلك الحقبة من التاريخ . وفي سنة ١٠٠٤ ق.م. سقطت هذه الدويلات التي قضى عليها داوود ملك العبرانيين.

وكانت دولة موصة الكنعانية آخر دولة تسقط في أيدي العبرانيين الذين أعمالوا في أبنائها قتلا وذبحا تنفيذا لتعاليم ديانتهم المحرفة .

وقد حدثني الأستاذ محمد سليم الرشدان- وهو أديب وشاعر من مدينة السلط تنتمدت على يديه في كلية روضة المعارف الوطنية في القدس سنة ١٩٤٥- أن اسم بلدتنا قد ورد في كتب التاريخ اليهودي القديمة، وأنها معروفة في تلك الكتب باسم "كالوفينا" وأن خط الحدود الوهمي الذي كان يفصل بين مملكتي يهوذا وإسرائيل كان يمر في بلدتنا .

والأستاذ رشدان هذا مثقف كبير وشاعر مجيد يتقن اللغة العبرية، وكان له الفضل في تشجيعي على قول الشعر، حيث كان يطلب إليّ وإلى صديقي الشاعر الغزي الأستاذ يحيى برزق رحمه الله أن نسمعه أمام زملائنا في الصف الأول الثانوي آخر ما نظمنا من قصائد، وكان يُصَوِّب لنا عثرات اللغة والوزن التي ترد في قصائدنا برفق مضمخ بالحنو والذوق الرفيع .

وقد أعرب الأستاذ رشدان ذات يوم عن رغبته في زيارة قالونيا والاطلاع على معالمها، فدعوته إلى بيتنا وأمضى في ضيافتنا نهائراً كاملاً، وقد قمت بمصاحبته في ذلك اليوم بزيارة مدرسة آرزاء، وكان الأستاذ

رشدان يتحدث مع مدرسيها باللغة الإنجليزية، وقد حدثني بعد أن التقيت في السلط بعد تخرجي من الجامعة والتحاقى بالعمل في مدرسة السلط الثانوية، وبعد أن غدت أهلاً لأن يتبسّط معي في الحديث، وكان قد جاء إلى منزلي للزيارة برفقة أحد أقربائه، وهو الأستاذ بشير الكلوب... أقول : لقد حدثني الأستاذ رشدان بأننا قد نجونا في أثناء زيارتنا لمدرسة آرزو من الموت بأعجوبة، فقد استمع إلى أحد المدرسين اليهود يقول لزميله باللغة العبرية التي لم يتوقع أن أحداً منا يعرف شيئاً منها : ها هما اثنان من العرب يأتيان إلينا بنفسيهما، فما أجدرنا بالآ نجعلهما يعودان من حيث جاءا سالمين . ولكن زميله أجابه قائلاً : كلا لن نسميهما بسوء، فإن تعليمات بمثل هذا التصرف لم تصدر إلينا حتى الآن .

عند ذلك فقط أدركت لماذا تسرع الأستاذ رشدان في إنهاء زيارته للمدرسة، على الرغم من أننا لم نكن قد أتممنا بعد التجول في مبنى المدرسة والتعرف على معالمها .

قبل سقوط القرية في أيدي العصابات الصهيونية كان معظم أبناء القرية يعملون في الفلاحة، وكان تسعة وعشرون منهم يعملون في دائرة البريد والهاتف، وينتمي معظمهم إلى حمولة دار الغليظ .

وقد عمل معظم هؤلاء بعد النكبة في الكويت، وأسهموا إسهاماً فعالاً في إنشاء وتنظيم شبكة الهاتف في تلك الدولة .

وقد عمل أربعة من أبناء القرية في دائرة الأشغال العامة، وثلاثة في دائرة المساحة، واثنان في دائرة الزراعة، وآخران في دائرة الصحة، ومثلهما في دائرة المالية وجباية الضرائب. وواحد وهو صاحب هذه السيرة في دائرة المعارف .

ولم يلتحق بالعمل في دائرة الشرطة وقوة الحدود سوى ستة من الشباب، وأما الذين تطوعوا للقتال في صفوف القوات البريطانية خلال

الحرب العالمية الثانية فلم يزد عددهم عن ثلاثة أفراد. وقد استهجن أبناء القرية ما أقدم عليه هؤلاء لأحد لأنّ أحداً من أبناء فلسطين لم يكن ينظر بعين الرضا إلى كل من يفكر في التعاون مع الإنجليز نظراً لما ذاقوه على أيديهم من ألوان الذل والإضطهاد .

أما في القطاع الخاص، ففضلاً عن العاملين في فلاحة أراضيهم كان في البلدة اثنا عشر رجلاً يقومون بتربية الأبقار، وأحد عشر آخرون يقومون على تربية قطعان الضأن والماعز .

وكان بين رجال القرية ثمانية من معلمي البناء الذين امتازوا بالمهارة والإجادة في هذا المجال . وقد امتن ثلاث عشرة من رجالها قيادة السيارات، وتخصص ثمانية منهم في قطع الحجارة ونقشها وتحضيرها للبناء، كما عمل ثمانية منهم في التجارة . ولم يكن بين رجال القرية من المهنيين الفنيين سوى أربعة رجال اختص أحدهم بخياطة الملابس الأوروبية، وتخصص اثنان بصناعة الأحذية وتخصص الرابع في ميكانيكا السيارات .

وقد تخصص أربعة في تجارة الحبوب ونقلها على ظهور الجمال .

وقد سبقت قريتنا غيرها من قرى قضاء القدس في إنشاء مدرسة ابتدائية للبنين، حيث أنشأت تلك المدرسة سنة ١٩٢٠ . وكان أول من قام بالتدريس فيها عبد الفتاح الخاروف من نابلس . وكان قد قام بالتدريس في كتاب البلدة قبل إنشاء المدرسة الحديثة عامين دراسيين كاملين .

وقد التحق بالمدرسة في أول أعوامها سبعة وعشرون تلميذاً، بينهم تلميذة واحدة هي ابنة الشيخ نفسه . لم يمكث الشيخ عبد الفتاح في المدرسة التي كان له فضل كبير في تشجيع أهالي القرية على إنشائها سوى عام واحد، نقل بعده منها إلى مدرسة سلواد، إحدى قرى رام الله .

وقد حلَّ محلُّه الشيخ حسن نسيبه الذي كان يرتدي الزي الأوروبي بدلاً من الزي الديني الذي كان يحرص على ارتدائه من سبقه من الشيوخ والمعلمين الذين قاموا بالتدريس في كتاب القرية وهم على التوالي : الشيخ مصطفى عبود من قالونيا، والشيخ حامد من دير ياسين، والشيخ أحمد الغزاوي من غزة، والشيخ محمد القطناوي من قطنا، والشيخ عبد الفتاح الخاروف من نابلس .

كانت المدرسة تضم أربعة صفوف ابتدائية لا غير، ولذلك فإن الغالبية العظمى من أبناء الأسر في قريتنا قد وقف بهم الحظ عند هذا القدر من التعليم . وكانت الأسرة تفتخر بابنها الذي تسعفه قدراته وتمكنه من إنهاء الصف الرابع الابتدائي، وتقول عنه إنه "ختم" أي إنه ختم الحد الأعلى من التعليم في تلك المدرسة بعد أن أصبح قادراً على تلاوة القرآن الكريم .

ولم يكن الشيخ حسن نسيبه يُدرّسُ اللغة الإنجليزية لتلاميذ الصف الرابع في مدرسة بلدنا لأنه كان يجهل تلك اللغة، ولا يرى فائدة من تعليمها لتلاميذه الذين كان يعرف مقدماً أن إنهاء الصف الرابع سيكون الغاية القصوى التي يسعون إلى بلوغها من التعليم . وكان عدم دراسي اللغة الإنجليزية في الصف الرابع في مدرسة بلدنا سبباً في إضاعة عام كامل من عمري عندما قرر والدي أن يلحقني بمدرسة لفنا الابتدائية الكاملة لأتم فيها المرحلة الابتدائية التي كانت تتألف حينذاك من سبعة صفوف . فقد اضطررت لإعادة هذا الصف من أجل اللغة الإنجليزية، وقد ترتب على ذلك حرمانني من الالتحاق بالكلية الرشيدية بسبب زيادة سني عن السن القانونية على الرغم من أن ترتيبي كان يؤهلني للالتحاق بها . وقد حظي بمقعد زميل لي يدعى عبد الكريم العسّس الذي كان ترتيبيه الرابع على طلاب صفنا الذين كنت أحتل فيه المرتبة الثالثة بينهم .

لقد حظي الشيخ حسن نسيبه باحترام أهل بلدتنا وتقديرهم حيث كان يتصدر المجالس في المناسبات الاجتماعية المختلفة .

وكان أهل البلدة يرهنون عنده حليّ نسائهم لقاء ما يقترضون منه من مبالغ نقدية . وأذكر فيما أذكر أن الشيخ حسن - رحمه الله - كان يجلس في ليالي الزفاف في صدر المجلس بين وجهاء البلدة، ليسجل بنفسه وبخطه الجميل أسماء الذين كانوا يقدمون "النقود" للعريس في قائمة يدون فيها اسم المنقذ وقيمة ما يقدمه أمام اسمه ثم يدفع بالقائمة في نهاية السهرة إلى "العريس" ليحتفظ بها من أجل أن يتذكر أولئك الذين "نقّطوه" فيبادر إلى القيام بالواجب ورد النقود إلى صاحبه أو قريبه في المناسبات المماثلة . لقد حال وجود الشيخ حسن نسيبه في بلدنا بين المدرسة وبين التطور والنمو قرابة ربع قرن حرص في خلاله على أن يبقى المعلم الوحيد الذي يستأثر بتلك المكانة الاجتماعية الهامة التي كونها لنفسه بين أبناء قريتنا الطيبين .

وبحلول عام ١٩٤٥ عجز الشيخ حسن عن الوقوف في وجه تيار الرغبة العارمة لدى أهل البلدة في تطوير مدرستهم فأضيف إليها الصف الخامس الابتدائي . وقد عيِّنَ لهذا الصف معلم آخر يدعى محمد وكان من قرية الخضر، ولم يستمر هذا المعلم في مدرستنا سوى عام دراسي واحد، وجاء بعده مدرس آخر يدعى عُمر القواسمي. وكان شاباً مقدسياً يشتغل وطنية وحماسة . وينتمي إلى عشيرة كبيرة من عشائر مدينة الخليل هي آل القواسمي.

وقد توثقت العلاقة بيني وبين المعلمين المذكورين لأنني كنت بالنسبة إليهما زميل مهنة، حيث أنني عملت مدرساً في المرحلة الابتدائية بعد أن أنهيت في كلية الروضة في القدس الصف الأول الثانوي وعُيِّنْتُ معلماً إضافياً في مدرسة إشوع الابتدائية التي كان فيها ستة صفوف ابتدائية كاملة . كان الأستاذ عمر الذي نال شرف الشهادة في معركة الشجرة وهي المعركة التي استشهد فيها الشاعر الفلسطيني المعروف عبد الرحيم محمود في ١٣/٧/١٩٤٨، وكان يسكن في عليّة دار العم محمد حسين، وكنت أزوره كثيراً وبخاصة بعد أن قدمت استقالاتي من عملي حين أصبح وصولي

إلى إشوع التي كنت أعمل فيها مستحيلاً بسبب اضطراب حبل الأمن في البلاد نتيجة للقتال الذي كان قد نشب بين العرب واليهود، وكان - رحمه الله - شاباً دمث الأخلاق. وقد ترك استشهاده أثراً عميقاً في نفوس أهالي البلدة الذين بدعوا يعرفون الفرق بين النوعية المستبيرة التي يمثلها هذا النوع من المعلمين وبين النوعية المتحجرة التي كان يمثلها الشيخ حسن نسييه رحمه الله .

قبل سقوط قريتنا في أيدي العصابات الصهيونية شَهِدَ الشيخ حسن نسييه له ولاسرتة منزلاً جميلاً لم تمهله الأحداث لينعم فيه بالعيش ولو لليلة واحدة، فقد غادر القرية مع سائر أهلها قبل أن ينتقل إلى مسكنه الجديد .

كان الشيخ حسن يتمتع بامتيازات متعددة لا أعتقد أنَّ معلماً حظي بمثلها من أبناء جيله في أية قرية من قرى فلسطين. ومن تلك الامتيازات أنه كان يسكن في شقة بمنزل العم إسماعيل خليل بدون مقابل ولم يكن يفصل تلك الشقة عن المدرسة التي كانت تتألف من غرفتين متلاصقتين يصل بينهما بابان مفتوحان في منزل العم إسماعيل نفسه سوى بضع درجات يهبطها الشيخ حسن ليجد نفسه بين تلاميذه الذين كانوا يرددون عندما يحسون وقع خطواته عبارة تتم عن خوف وتحذير: "أجا الشيخ... أجا الشيخ... أجا الشيخ"، ومن تلك الامتيازات أنه كان مُعفى من دفع أجرة الباص في أثناء تنقله بين القدس وقلونيا . وكان ذلك من جملة الامتيازات التي مُنحت له من قبل العم إسماعيل رحمه الله ، ومنها أنه لم يكن يتورع عن توجيه أوامره إلى أية امرأة أو فتاة من نساء القرية بإفراغ "تنكة" الماء التي كانت تحملها على رأسها في زير منزله . لأن امرأته المدنية لا تستطيع أن تجلب الماء بنفسها كما تفعل نساء بلدتنا الفلاحات !

وكان الشيخ حسن مستودع أسرار أهل البلدة، ومصرفهم الذي يودعون عنده أموالهم وأماناتهم . ومما يذكر للشيخ حسن أن أحداً من المودعين لم يُشكك في أمانته أو نزاهته .

ولم تكن تتألف جاهة، أو يُعقد صلح، أو يُفض نزاع إلا والشيخ حسن واسطة عقد القوم، وكبيرهم المُقَدَّم .

وكان تلاميذه يرتعدون منه خوفاً سواء في داخل المدرسة أو خارجها . وكان أي تلميذ يراه سائراً في طريق من طرق البلدة يبادر بتغيير اتجاهه حتى لا تقع عينه الشيخ عليه . فقد كان - رحمه الله - قاسياً لا يلين، وكانت أحب العصي لديه تلك التي تُقَطَّع من غصون أشجار الرمان . ولكنه بقدر ما كان يقسو على الكسالى ومحدودي الذكاء من التلاميذ، فإنه كان يعامل المجدين والأذكياء بالرفق والأناة، وقد كنت واحداً من هؤلاء والحمد لله .

وإن أنسَ قلن أنسى أن الشيخ حسن لم يكن يتورع عن أن يُلَهَبَ بعصاه ظهر من يضربه من التلاميذ حتى يسرع في بسط كفيه لينتقي العدد المطلوب من الضربات التي كان عددها يتناسب مع مدى التقصير المنسوب إلى التلميذ، والذي يرجع تقديره إلى الشيخ وحده، وليس إلى أي إنسان سواه.

وقد دفع ذلك بأحد التلاميذ الذين حرمهم الله من الذكاء، والقدرة على الفهم والاستيعاب، إلى ارتداء معطفه الشتوي المصنوع من الصوف السميك، في جميع الفصول، لكثرة ما كان يتعرَّضُ للضرب من الشيخ حسن، عليه وعلى تلميذه الذي لحق بربه هو الآخر رحمه الله .

على هذا النحو كانت الحالة التعليمية بين أبناء قلونيا قبل النكبة. ولكنهم وبعد أن شَرُّدوا من قريتهم وجدوا في التعليم السبيل الأمثل لمقاومة ما فرض عليهم من ضياع، فأقبلوا على دور العلم في سنى مراحلها ونهلوا منها ما شاء الله لهم أن ينهلوا .

وأصبح الحصول على شهادة الثانوية العامة أو ما يعادلها هو أدنى ما يتطلع إليه أي فرد من أبناء قلونيا .

إن إعطاء صورة دقيقة وصحيحة عما وصل إليه أبناء قريتنا في مجال العلم من الأمور الصعبة، لأن ذلك يتطلب الاتصال بتجمعاتهم المختلفة في شتى أنحاء المعمورة وسؤال كل أسرة عما وصل إليه أبنائها في هذا المجال .

ومهما يكن من أمر فإن أبناء هذه البلدة الصغيرة التي لم يكن بينهم حتى عام ١٩٤٨ من يحمل شيئاً من المؤهلات العلمية قد أصبح بينهم حتى عام ٢٠٠٠ أربعة من الحاصلين على شهادة الدكتوراه، وستة ممن يحملون شهادة الماجستير، كما أن بينهم اثنا عشر طبيباً، وستة عشر من المهندسين وإثنان من المحامين .

وفي دار عسكر وحدها وهي الحمولة التي أنتمي إليها واحد من الحاصلين على الدكتوراه، وأربعة من حملة الماجستير، وعشرون من حملة البكالوريوس في مختلف التخصصات، وأربعة من الأطباء، وسبعة من المهندسين، وعشرة من حملة الدبلوم المتوسط، وثلاثون من الذين وقفت بهم همهم عند الحصول على الثانوية العامة .

من معالم البلدة الشهيرة، جامع الشيخ حمد الواقع في وسط البلدة بجوار المقبرة القديمة . ولا يُعرف الكثير عن الشيخ حمد الذي سُمّي هذا الجامع باسمه، ولكن طراز بنائه والقبّة التي كانت تعلوه، يدلان، أو يُرجّحان أن الشيخ حمد هذا كان رجلاً صالحاً استوطن قالونيا مع أسرته في أواخر العهد الفاطمي، وسكن بجوار المقبرة . فلما وافاه الأجل دفن فيها، وأقيم هذا الجامع فوق ضريحه وضريح تابعه "العبد" سادن الجامع وأحد المريدين المخلصين للشيخ حمد المذكور .

ومنها قصر المفتي، وهو دارة جميلة تقع على مقربة من العين الفوقا، وكان الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر يقضي فيه أيام

الصيف وذلك قبل أن تشغله هموم العمل الوطني، بعد أن أصبح الزعيم الذي لا يُنازع في فلسطين .

وكان في القرية فرن واحد يملكه العم إسماعيل خليل رمضان الذي كان أكثر أهل البلدة وعياً في استثمار أمواله فيما يعود عليه وعلى أبناء القرية بالخير المشترك والنفع العام، حيث كان يملك بالإضافة إلى ذلك دكاناً وملحمة وشركة للباصات يشاركه فيها علي حسن وأخوه موسى وابن عمهما سليمان زريقة وهم من المشاعلة. وكان في قريتنا عدد من الدكاكين الصغيرة بالإضافة إلى دكان العم إسماعيل خليل، ومنها دكان صالحة أم عطا وزوجة المرحوم محمود سلمان، ودكان الحاج محمد جودة ودكان محمد سلمان ودكان محمود شحادة .

وفي عام ١٩٤٢ شيد أهالي بلدتنا على نفقتهم الخاصة مدرسة جديدة في قمة الجبل الذي تنتشر على سفحه منازل البلدة عند بداية منطقة الجفير لتحل محل الغرفتين اللتين كانتا تشكلان المدرسة القديمة في منزل العم إسماعيل خليل . وقد استأجر أهل قريتنا غرفة في وسط البلدة لتكون مقراً للصف الخامس الابتدائي الذي أضيف إلى المدرسة سنة ١٩٤٥ .

وقد ظلت شركة الباصات التي يملكها العم إسماعيل وشركاه من المشاعلة تعمل على خط القدس - قالونيا - منذ إنشائها حتى بداية الثورة التي أعلنتها الفلسطينيون على حكومة الانتداب البريطاني وربائتها من الصهيونيين بعد صدور قرار مشروع التقسيم .

لقد أصبح السير متعذراً على هذا الطريق لأن باصي الشركة لم يعد في إمكانهما اختراق ضاحية محنات يهودا التي لا بد من المرور بها للوصول إلى باب الخليل حيث نهاية الخط بالنسبة لهذين الباصين . عند ذلك قام أصحاب الشركة بتسيير الباصين على خط قالونيا - الرملة . وصار أهل بلدتنا يؤمّن الرملة لشراء حاجياتهم بعد أن حالت نيران القناصة من اليهود بينهم وبين الوصول إلى القدس فسبحان مغير الأحوال .

لقد أدت باصات بلدنا خدمات جَلَى إلى عدد كبير من أهالي القرى المجاورة فضلاً عن أهالي بلدتنا، فقد كان ينتقل بها كذلك أهالي بيت إكسا وعين طلما وبيت سوريك والقسطل وبعض أهالي عين كارم من الذين كانوا يُمضون عدة شهور من السنة في أراضيهم بالمرج المعروف بمرج عين كارم .

وبعد سقوط بلدتنا في أيدي العصابات الصهيونية، لجأ أصحاب الباصين مع باصيهما إلى أريحا وقاموا بتسييرهما على طريق أريحا- عين السلطان .

وكان العم إسماعيل قد باع حصته لشركائه من المشاعلة قبيل حدوث النكبة بقليل، ولم تعد تربطه بهذه الشركة أية رابطة، ولما سقطت الضفة الغربية عام ١٩٦٧ في أيدي القوات الإسرائيلية انتقل أصحاب هذه الشركة بباصيهما إلى الضفة الشرقية وقاموا بتسيير باصيهما على خط عمان- الزرقاء فترة من الوقت قاموا بعدها بإلغاء الشركة والتخلص من الباصين اللذين لم يعودوا صالحين للعمل .

والحقيقة أن لي مع أحد هذين الباصين قصة لا تنسى سأسردها في موضعها المناسب من هذه المذكرات إن شاء الله .

ومن معالم البلدة الشهيرة مقبرتها التي تقع جنوبي البلدة وبمحاذاة طريق القدس- يافا وقد أزال اليهود معالم هذه المقبرة بعد احتلالهم للقرية وضموا جزءاً كبيراً منها إلى الطريق العام الذي قاموا بتوسيعه . وعلى مقربة من تلك المقبرة يقع كراج شركة باصات البلد .

ومنها مطحنة درويش الداوودي التي شيدها المقدسي درويش الداوودي بمشاركة رجل من قريتنا يدعى قاسم حضر فوق الجبل المطل على عين طلما .

كان أهالي البلدة ينقسمون إلى أربعة حمائل هي :

حمولة خطاب التي تنسب إلى رجل من العرب البمانية الذين شاركوا في الفتوحات الإسلامية، وقد عرف بهذا الاسم "خطاب" والذي يشير إلى أنه كان وجيهاً في قومه، وأنه قد اتخذ مع أبنائه وذرائه من قالونيا دار سكن له، ويبدو أن عشيرة عسكر التي أنتمي أنا إليها كانت أول من استقر في قالونيا من أبنائه، وأن عشائر حمدان ومخلوف ودرباس وهم يؤلفون حمولة خطاب مع عشيرة عسكر قد استقروا في بلدنا بعد استقرار دار عسكر بقليل .

ويبدو أن دار عسكر قد اكتسبت لقبها هذا من المعنى الذي يدل عليه لفظ قالونيا أو كولونيا والذي يعني بالرومانية دار العسكر أو استراحة العسكر . والراجح أن آل خطاب بفروعهم الأربعة ينتمون إلى بطن من بطون قبيلة لخم اليمنية . وأنهم قد حطوا رحالهم في قالونيا عام ٦٣٦م . أي في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه .

أما الحمولة الثانية فهي حمولة الغليظ وقد وفد أجدادها إلى قالونيا من مصر في أوائل العهد العثماني على الأرجح أي عام ١٧٩٩م في أثناء حملة إبراهيم باشا على فلسطين . ويقال بأن لهذه الحمولة أقارب في مدينة طنطا المصرية يحمل أبنائها هذا الاسم حتى الآن .

أما الحمولة الثالثة فهي حمولة مشعل، وهي بطن من بطون جهينة القحطانية الأصل، الحجازية الإقامة . ويبدو أن أجداد هذه الحمولة، قد استقروا في قالونيا قادمين من مصر التي يوجد فيها عدد كبير من بطون جهينة الأنفة الذكر . والمرجح أنهم قد وفدوا إليها في أثناء عصر المماليك أو الأيوبيين، أي ما بين عامي ١٢٥٠ و١٤٩٥م.

وأما الحمولة الرابعة، فهي حمولة دار أبو سعد التي تنسب إلى قبيلة جذام اليمنية، وهي إحدى القبائل التي أقطعها صلاح الدين الأيوبي

أجزاء من الأراضي المحيطة بمدينة القدس وكان ذلك عام ١٨٨٧م، وأن "دار أبو سعد" كانت قد أُقْطِعَتْ جزءاً من أراضي قالونيا التي استقروا فيها وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع القالوني الكبير .

عندما حدثت النكبة لم يكن في بلدتنا من يحمل مؤهلاً علمياً واحداً، وقد كنت أول فتى في القرية ينهي الصف الأول الثانوي، ويتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، ويعمل في حقل التدريس .

وكان كل أب في القرية إذا أنهى ولده الصف الرابع الابتدائي في المدرسة، دفع به إلى العمل في مصنع "مixel" أو في أرضه، أو في أي مجال آخر يُتاح له أن يعمل فيه .

وكان أهل البلد يقولون عن الذي يُنهي الصف الرابع "فلان ختم" أي أنه أصبح يجيد قراءة الختمة، وهي القرآن الكريم . وكانوا يرون في ذلك غاية العلم ونهايته كما أسلفت .

وقد شدَّ عن ذلك بعض الآباء الذين أرسلوا بأبنائهم إلى مدارس دير ياسين وعين كارم ولقتنا . ومن التلاميذ الذين حظوا بذلك : محمد أمين بن عبد الله محمد، وعثمان محمد عثمان، وعبد اللطيف ناصر الخطيب، وعطا محمود سلمان، الذين التحقوا بمدرسة عين كارم، ومنهم : راغب عبد الرحمن، ورجا سمرين، ومحمد أحمد محمود لقح، وحسين محمود اخليل، ومحمد إسماعيل سالم، وحمد محمد مطر، وغالب سمرين، ووديع محمود جودة، وصالح خضر صالح، ومحمد إبراهيم الصرص، وقد التحق هؤلاء العشرة بمدرسة لقتنا .

ومدرسة لقتنا هذه، وهي المدرسة التي كنت قد التحقت بها مدرسة ابتدائية كاملة، وتقع في قرية لقتنا المجاورة لحيّ محنات يهودا إحدى ضواحي القدس الغربية اليهودية .

وقد أمضيت في هذه المدرسة أربعة أعوام كاملة لأنني اضطررتُ إلى إعادة الصف الرابع بسبب اللغة الإنجليزية التي لم يكن الشيخ حسن نسيبه يقوم بتدريسها لتلاميذ هذا الصف في مدرسة بلدنا .

بعد أكثر من نصف قرن مرّت على وقوع النكبة تضاعف سكان بلدتنا، وأصبحوا لا يقلون عن عشرة آلاف نسمة يعيشون كلهم في الشنات . وقد جعلوا - كغيرهم من أبناء فلسطين الذين شملتهم النكبة بأرزائها - من التعليم حصنهم الذي يقيهم من عوادي الزمن، ووسيلتهم التي تعينهم على التشبث بالحياة، ودرعهم التي تقيهم من الذوبان، ومجنهم الذي يصدون به ضربات العدوان .

لقد أحس أبناء بلدتنا أن المؤهل العلمي هو السلاح الأمضى الذي سوف يواجهون به أعاصير الحياة بعد أن فقدوا الأرض التي كانوا عليها يعتمدون، ومن خيراتها يُرزقون .

لقد أصبح إنهاء المرحلة الثانوية والحصول على شهادة الثانوية العامة الحد الأدنى الذي تحرص على تحقيقه معظم الأسر بالنسبة لأبنائها من الجنسين .

وقد التحق عدد كبير من أبناء القرية وبناتها بمختلف الجامعات في الأقطار العربية والأوروبية والأمريكية والآسيوية، وتخرجوا فيها وحملوا شهاداتها في مختلف التخصصات . وأصبح أهل القرية يفاخرون بأبنائهم العاملين في حقول الطب والهندسة والمحاماة والمحاسبة والتعليم الجامعي والتدريس في المراحل التعليمية المختلفة.

ولا يفوتني أن أذكر أنه لم يكن من بنات قريتنا ممن أُلْمِنَ بشيء من القراءة والكتابة سوى فتاتين : الأولى هي نعمة حسين بنت المرحوم الشيخ حسين سلامة والثانية هي نعمة سمرين شقيقتي الصغرى، وكانت نعمة حسين قد أدخلت إلى دار الأيتام الإسلامية في القدس مع أخيها

الأصغر أحمد في أعقاب استشهاد والديهما سنة ١٩٢٩، أما الثانية فقد درست مدة سنتين في مدرسة الذوق ميكائيل في لبنان في أثناء وجود أسرتنا في ذلك البلد الذي كان قد لجأ إليه الحاج أمين الحسيني بعد هروبه من وجه السلطات البريطانية سنة ١٩٣٨ م . أما الآن فإن الفتاة القالونية تواصل تعليمها إلى نهاية ما هو مقسوم لها شأنها في ذلك شأن أخيها الفتى وقد حصل عدد كبير منهم على شهادات جامعية ومتوسطة وانخرطن في سلك الوظائف العامة .

كان في قريتنا ثلاثة مخاتير، يمثل كل واحد منهم حمولة . وقد عاصرت من مخاتير دار خطاب المرحومين المختارين مصطفى طه وابنه إبراهيم الذي تولى المختره من بعده . ومن مخاتير دار الغليظ ومشعل عاصرت المرحومين سعيد سلمان وعلي حسن . وكان الأول غليظاً والثاني مشعلياً . أما دار أبو سعد فلم أعاصر من مخاتيرها سوى المرحوم يوسف الحاج حسن الخطيب وهو أطول مخاتير بلدتنا عمراً فيما أظن .

كانت العلاقات بين أبناء البلدة ودية للغاية . وكانوا متكافلين في السراء والضراء . يشارك كل منهم الآخر أفراحه وأتراحه في المناسبات الاجتماعية المختلفة . وخلال تسعة العشر عاماً التي سلختها من عمري بينهم لم تحدث جريمة قتل واحدة في البلدة .

وما كان يحدث فيها من منازعات لم تكن تتجاوز الجنب البسيطة العادية التي يحو أثرها الصلح الذي كان يسعى لإقامته بين المتخاصمين لجنة مؤلفة من إثني عشر رجلاً يمثلون حمائل البلدة يطلق عليها "لجنة الإصلاح" وكانت آخر لجنة شكلها أهل البلدة مؤلفة من : المخاتير الثلاثة : إبراهيم مصطفى طه وعلي حسن سليمان ويوسف حسن الخطيب ومحمد صباح ومصطفى رمضان وأحمد عطية وإبراهيم عياش ومحمد سلمان ومحمد الصرص وطه اسعيد وحسن افقيس وناصر الخطيب رحمهم الله جميعاً .

لقد امتاز أهل بلدتنا بدمائه الخلق والمسالمة وحب السعي في طلب اللقمة الحلال . كما تميزوا بالحرص على الروابط الأسرية المقدسة، وليس أدل على ذلك من أن عدد النسوة المطلقات لم يكن يتعدى الاثنتين بين نساء القرية حتى نيسان ١٩٤٨ م .

تنادى أهل بلدتنا في مطلع الأربعينات إلى إنشاء ناد رياضي ثقافي . وقد شكلت إدارة النادي فريقاً لكرة القدم كان يمارس تدريباته في ملعب الدباغة وفريقاً للتمثيل . ولم يُقدّر لنادي قريتنا أن يفوز في أية مباراة خاضها مع نوادي القرى المجاورة، فقد هزم فيها جميعاً هزائم نكراء . ومن النوادي التي تبارى معها : نوادي قرى عين كارم ودير ياسين والمالحة .

أما فريق التمثيل فقد قدم مسرحية "وامعتصماه" على مسرح أنشئ خصيصاً في ساحة منزل آل صباح . وقد نجحت المسرحية نجاحاً باهراً، وكان الإقبال على مشاهدتها من رجال البلدة إقبالاً شديداً . وقد خصص ريع المسرحية لمصلحة النادي الذي كان يتخذ من العلية في بيتنا مقراً له .

وفي عام ١٩٤٦ عرفت معنى الموت معرفة حقيقية، وذلك بعد أن فقدت أول وأعز صديق لي عرفته في مرحلة المراهقة وهو المرحوم محمد أحمد محمود لقح . وكان من زملائي في مدرسة لفتا . وقد لقي وجه ربه إثر سقوطه عن ظهر فرس والده التي كان يستخدمها في تنقلاته بين قرى القدس لتطعيم أطفالها حديثي الولادة ضد الجدري والحصبة وغيرهما من أمراض الأطفال .

كان الوقت صيفاً، وكنا نقضي العطلة الصيفية بعد أن أنهينا الصف الأول الثانوي حين سقط محمد عن صهوة فرسه فوق صخرة صماء لمساء كبيرة تدعى "عراق علي إسماعيل" بالقرب من أراضي التعميرة . نقل محمد

إلى إحدى المستشفيات في القدس، ولكن القدر كان أسرع من الأطباء إذ لم يلبث أن قضى نحبه قبل أن يتم السابعة عشرة من عمره .

لفت عويلي وأنا أبكيه بحرقة في أثناء تشييع جنازته أنظار جميع المشيعين، مما جعلهم يتعاطفون مع هذا الفتى الصغير الذي يبكي وبمنتهى الصدق والحرارة خير الأصدقاء .

والآن وبعد أن مضى على انتقاله إلى جوار ربه أكثر من نصف قرن فإنني لا أزال أذكر تلك العرافة التي تنبأت له ذات يوم وهي تضرب الودع بأنه سيتزوج أربع مرات، وأذكر في الوقت نفسه قول الرسول ﷺ: **"كذب المعجمون ولو صدقوا"** فيزداد إيماني بكل ما يقوله الرسول كما يزداد مقتي للمنجمين والدجالين الذين يمتنون ببيع الكذب للبسطاء والمغفلين مستغلين فيهم رغبتهم الملحة في معرفة ما يخبئه لهم المستقبل المجهول .

شيء واحد كان يُشوّه صورة بلدنا الجميلة النقية، وهو وجود بيت للدعارة كان يؤمه الجنود الإنجليز . وكانت تديره امرأة مقدسية تدعى "منيرة" وكانت هذه المرأة تزعم أنها تنتمي إلى إحدى العائلات المقدسية الكبيرة، ولكن في الغالب أنها لم تكن كذلك، بل كانت واحدة من الذين قدموا من دمشق فيمن قدم منها من الرجال والنساء .

كان في منزل منيرة هذا بعض البغايا من الفتيات اللواتي جاءت بهن من مدن فلسطين الساحلية . أما منيرة ذاتها فقد كانت امرأة ممثلة ضخمة الجثة ببيضاء اللون تنبىء ملامحها عن وسامة غريبة وملاحة أقله كانت تتمتع بهما أيام الشباب . وكانت على صلة وثيقة بكبار الرسميين من موظفي حكومة الانتداب وأخص بالذكر منهم العاملين في دائرة المخابرات المعروفة آنذاك بالـ C.I.D. (سي.آي.دي) .

وكانت تهدد كل من يحاول أن يمد لها يد الأذى بهذه الصلة، ومن أجل ذلك حرص أهل بلدنا على تحاشيها وعدم الاحتكاك بها اتقاءً لشرها ودفعاً لما تجلبه من متاعب ومشكلات .

وقد ساعد على عدم التحرش بها بُعد المنزل الذي كانت تقيم فيه عن منازل القرية، حيث كان موقعه في أسفل جبل الصفحة في أقصى الجنوب الشرقي من القرية - وهو الجبل الذي تقع على قمته الشامخة دير ياسين، كما أن موقعه يشكل البداية للطرف الشرقي لمرج عين كارم، ويفصل بينه وبين البلدة الطريق الذي يربط بين القدس ويافا وتل أبيب .

وكان يصل المنزل بالطريق العام طريق فرعي على يسار القادم من القدس لا يزيد طوله عن مائة متر . أما موقعه فكان قبيل الجسر الممتد فوق الوادي الكبير وعند الشاخص الذي يحمل الرقم (٧) والذي يشير إلى المسافة التي تبعد بها قريتنا عن مدينة القدس . ويشكل هذا المنزل نقطة البداية لما يسمى بقالونيا التحتة أو قالونيا الجنوبية والتي لم يكن عدد منازلها ليزيد عن عشرة منازل هي : دار الشيخ إسماعيل سالم ودار ذيب عزيزة ودار عبد الرحمن سالم ودار إبراهيم ثريا وأخيه محمود ودار سليم خضر ودار خليل خضر ودار طه ورده ودار نقولا ودار متيا مروم ودار تيم خضر .

كان هذا المنزل في الأصل ملكاً للشيخ إسماعيل سالم وقد اضطر لبيعته إلى رجل تلحمني بسبب ديون تراكمت عليه عجز عن سدادها . وقد قام هذا التلحمني الذي تبين فيما بعد أنه من كبار المرابين بتأجيرها إلى منيرة . ومما يُذكر ولا يُنكر لهذه المرأة أنها لم تتعرض في أية لحظة لأية فتاة أو امرأة من نساء القرية بسوء . وكانت كل ما تطمع فيه هو أن يدعها أهل البلدة في سلام .

إن الذي جعلني أسهب في الحديث عن هذه المرأة وعن منزلها السيء الذكر هو أن والدي رحمه الله كان قد فكر في تطهير البلدة من درنها ودرن منزلها القبيح . وقد أحس فاسق من زبائن هذه المرأة بما يدور في خلد الوالد، فتطوع بتحذيرها منه .

بعد أن حذرت المرأة بأيام قلائل فوجيء الوالد صبيحة يوم جمعة وهو يسير في طريق باب الخليل في القدس متوجهاً إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة... أقول فوجيء الوالد بيد تمتد إلى جيب معطفه وتدس فيه شيئاً لا يدري ماهيته ثم تخرج تلك اليد من جيبه في سرعة مذهلة .

وضع الوالد يده في جيبه، وأخرج ما دسسته فيه تلك اليد المجهولة ففوجيء برزمة كبيرة من الجنيهات الفلسطينية مربوطة بقطعة من المطاط . تلفت الوالد حوله بسرعة فوقع بصره على منيرة وهي تحت الخطى محاولة تجاوزه والاختفاء في الزحام . إلا أن التفاتة منها إلى الخلف وشت بأنها هي التي فعلت ذلك .

لحق بها الوالد واستوقفها ثم قال لها وهو يمد يده وفيها الرزمة التي دسها في جيبه : ما الذي حملك على فعل ذلك يا امرأة ؟ أجابته متلعممة وبصوت لا يكاد يسمع : أنا دخيلتك ودخيلة عرض بناتك يا أبا رجا . قال الوالد : ما الذي تخشينه حتى تطلبي أن تكوني دخيلتي ودخيلة بناتي ؟

قالت منيرة مستعطفة : أسألك بالله أن تتركني وشأني وألا تمد يد الأذى إليّ ما حييت .

قال الوالد في دهشة ظاهرة : وما الذي حملك على الاعتقاد بأنني سوف أمد إليك يد الأذى أيّتها المرأة ؟

قالت المرأة بعد أن استعادت شيئاً من رباطة جأشها : لقد أبلغني بعض أهالي قريتك بأنك تفكر في اغتيالتي، وأنه ليس بين أهالي البلدة من يفكر في إيذائي سواك .

قال الوالد (وقد قرر وضع حد للحوار معها) : وفري نقودك أيّتها المرأة، واعلمي أنك آمنة منذ اليوم ولن يصيبك مني ما تكرهين، وأن حسابك على الله، وأن كل ما أريده منك هو أن تظلي بعيدة بخيرك وشرك عن البلدة وأهلها .

قالت المرأة : وهل رأى مني أحد من أهالي البلدة ذكراً كان أو أنثى ما يكره ؟

قال الوالد : وهل تعتقدين أنه كان سيمتد بك الأجل حتى اليوم لو أنك فعلت شيئاً من ذلك ؟

قالت المرأة في غبطة ظاهرة : أعلم أنك ما كنت لتتركني آمنة حتى اليوم لو أنني فعلت شيئاً من ذلك .

وانطلق الوالد إلى الحرم الشريف ومضت المرأة في طريقها بعد أن دست في حقيبة يدها نقودها التي عادت إليها .

عاشت منيرة بعد هذا اللقاء العابر آمنة في سربها لا يروّعها مَرَوَع، ولا يُعَكِّر صفو عيشها مُعَكِّر، وظلت تمارس عملها الذي ارتضته لنفسها حتى سقطت قالونيا في أيدي اليهود .

ولجأت منيرة إلى دمشق، وقد قيل إن بعض أهالي البلدة قد شاهدها هناك . ولست أدري كيف قضت بقية حياتها ولكن الذي أدريه هو أن منيرة قد تشردت كما تشرد غيرها من آلاف الشرفاء من أبناء الوطن وبناته . وقد كان لي بعض الذكريات مع هذه المرأة .

وتتلخص هذه الذكريات في أن منيرة وبعد أن أمنت جانب الوالد كانت تمر بي وبيعض زملائي ونحن نقف أمام مدرسة لغتا بعد انتهاء دوامنا المدرسي فيها في بعض الأحيان وهي مع إحدى فتياتها اللواتي يعملن في منزلها أو وحدها راكبة سيارة أجرة من القدس عائدة إلى منزلها . وعندما كانت ترانا كانت تأمر السائق بالوقوف وتصر على اصطحابي مع زميل آخر من زملائي على الأكثر لتوصلنا إلى البلدة .

الفصل الثاني

الجزور

اسمي رجا بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن سمرين بن مسلم بن عسكر بن خطاب، هذا ما أميل إليه، وما يراه بعض المسنين من رجال حملتنا . غير أن بعض المسنين منهم يرون أن عسكر ومسلم اسمان لشخص واحد . وأن عسكراً لقباً لمسلم .

وقد اكتسب هذا اللقب لأن حملته كانت أول من نزل من حمائل خطاب في قالونيا المحرقة عن كلمة كولونيا الرومانية والتي تعني استراحة العسكر، أو دار العسكر . ثم حلت بعدها على التوالي حمائل حمدان ومخلوف ودرباس وكلها تنتسب إلى خطاب .

وقد حلا لبعض أقاربنا أن يصل بنسب هذه الحمائل الأربع إلى أحد أحفاد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - معتمدين على مصاحبة ولديه عبد الله وسالم له في رحلته إلى عمواس بعد أن تسلّم مفاتيح القدس، وعلى وجود قطعة من أراضي الجنائن في بلدنا تُعرف حتى اليوم بحوض عمر بن الخطاب .

ونحن - وإن كنا نتمنى أن نتشرف بالانتساب إلى هذا الخليفة العظيم - فإننا لا نستطيع أن نوكد ذلك، أو نثبت، أو ندّعيه، كما نرى أن ما استدلوا به لا يُعدُّ كافياً لإثبات ما أرادوا من صحة انتسابهم إلى عمر بن الخطاب .

واعتقد أن الأمية التي غلبت على أبناء هذه الحمائل وبخاصة في عصور التطاحن والإقتال بين العرب والمسلمين من جهة، وبينهم وبين

ولم تكن قادرين على رفض ذلك لأنها كانت تصر عليه إصراراً عجيباً . وكانت توصلنا حتى موقف باصات البلدة . وعندما كنت أقوم بإخبار الوالد أن منيرة قد أوصلتني بسيارة التاكسي التي كانت تستأجرها اليوم كان رحمه الله يبتسم ابتسامة عريضة ثم يتبعها بعبارة : وماذا في ذلك بابني ؟ ما أنت إلا رجل وليتها توصلك كل يوم .

في هذه القرية التي أسهبت في وصفها ولدت وأمضيت فيها تسعة عشر ربيعاً هي أجمل ما أمضيت من سنوات العمر .

غادرت قالونيا إلى مصر في العشرين من آذار - مارس - ١٩٤٨ .

أي قبل سقوطها في أيدي العصابات الصهيونية بعشرين يوماً وحسب . ولم تكن العصابات اليهودية قد شكلت كيائها السرطاني المأفون، لأنها لم تفعل ذلك إلا بعد سقوط بلدتنا بستة وخمسين يوماً كما هو معروف .

وقبل أن أسترسل في تسجيل أهم وقائع حياتي وما صاحبها من أحداث وما تركته هذه الوقائع والأحداث من الانطباعات أجدني ملزماً بأن أمهد لذلك بنبذة موجزة عن جذور أسرتنا وأصولها علّها تلقى بصيصاً من الضوء على هذه الجذور التي ضربت بعمق في تراب فلسطين قبل أن أستهل صارخاً معلناً عن احتجاجي على القُدوم إلى هذه الحياة في السابع من آذار - مارس - عام ١٩٢٩ م .

التنار والصليبيين من جهة أخرى هي التي حالت دون اهتمام هؤلاء الناس
البسطاء بحفظ أسابهم أو تدوينها .

وآل خطاب الذين انتسب إليهم بطن من بطون قبيلة لخم اليمنية التي
استوطن عدد من بطونها بلاد العراق والشام ونجد والحجاز، بعد أن أرسل
الله سبل العزم على السبئيين في اليمن، وبذلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل
خمط وأثل وشيء من سدر قليل .

وقد حدث ذلك بعد أن أدى السيل إلى انهيار سد مأرب الذي تسبب
في خراب اليمن وهجرة عدد كبير من قبائله إلى البلاد المجاورة .

وفد آل خطاب الذين استوطنوا قالونيا إلى فلسطين مع جيوش الفتح
الإسلامي، لأنهم كانوا من اللخميين الذين أقاموا في نجد بعد هجرتهم من
اليمن .

وكان كثير من بطون لخم وجذام اليمانيتين قد حاربت المسلمين
تحت راية هرقل في معركتي مؤتة واليرموك وغيرهما من المعارك، وقد
شاركهم في ذلك قبائل قضاة وبهراء ووائل والقين وبللي وغيرهم ممن كان
قد استوطن بلاد الشام بعد سيل العرم ودخلوا في النصرانية، وهي ديانة
الرومان البيزنطيين .

وقد سبق لهذه القبائل أن حاربت مع جيوش زنوبيا ملكة تدمر
ضد الروم، وانتصروا على جيوش الإمبراطور الروماني "غالينوس"
(٢٥٣م-٢٦٨م) .

وقيل إن الذي استخرج يوسف بن يعقوب من الجُب الذي ألقاه فيه
إخوته عام ١٦٧٨ ق.م كان رجلاً لخمياً من قافلة تجارية لخمية بقيادة مالك
بن ذعر اللخمي .

وقيل إن أصحاب الكهف كانوا من اللخميين . وصفوة القول كما
يقول المرحوم الأستاذ مصطفى الدباغ إنَّ جلَّ أهل فلسطين كانوا وما زالوا
من لخم وجذام . وكثيراً ما سميت بلاد الشام بأرض لخم وجذام .

ولما كان الأمر كذلك كان من حقنا أن نتساءل هل يعقل أن يكون
جدي الخامس أو السادس خطاب هو الذي شارك في الفتوحات الإسلامية ؟
أم أن هذا الاسم تكرر في القبيلة التي ينتسب إليها فجاء قبله أكثر من
خطاب؟! الله سبحانه وتعالى — وحده يعلم ذلك .

إن الذي أستطيع أن أؤكد وأطمئن إليه هو أن أجدادي قد عاشوا
جميع العصور التاريخية التي مرت على فلسطين بدءاً بالعهد الراشدي
ومروراً بعهود بني أمية وبني العباس والفاطميين والإيوبيين والمماليك
والأتراك وانتهاءً بعهد الانتداب البريطاني البغيض الذي أدت سياسته إلى
اجتثاثنا من جذورنا وتشريدنا خارج الوطن الذي ورثناه عن الآباء والأجداد
لآلاف السنين . إن كل ما تحمله ذاكرة أبي وجدي ومن عاصرهم من أبناء
جيلهم من ذكريات إنما ترجع إلى عهدين هما عهد الأتراك العثمانيين وعهد
الانتداب البريطاني .

ومن هذا المنطلق فإنني سأركز على تسجيل ما وعته ذاكرتهم من
أحداث تتصل بعائلتنا في هذين العهدين، وما وعيته أنا شخصياً وما
عاصرته من أحداث ووقائع .

يقول التاريخ : أن العثمانيين قد أخضعوا فلسطين لسلطانهم سنة
١٥١٧ بعد أن انتصرت جيوش السلطان سليم الأول على جيوش السلطان
طومانباي آخر سلاطين المماليك في مصر في معركتي اللجون ومرج
دابق. وقد قسم العثمانيون فلسطين إلى أربعة أقسام إدارية هي لواء القدس
الذي تعد قرينتا واحدة من القرى التابعة له، وكان هذا اللواء يرتبط ارتباطاً
مباشراً بوزارة الداخلية في السلطنة العثمانية نظراً لأهمية القدس الدينية وما
تمثله عند المسلمين . أما الألوية الثلاثة الأخرى فهي لواء عكا ولواء نابلس
ولواء الكرك . وقد كان لواء عكا ونابلس مرتبطين بولاية بيروت، بينما
أحق العثمانيون لواء الكرك بولاية سوريا .

لقد ساء العثمانيون طوال حكمهم أهل فلسطين كما ساموا غيرهم من العرب سوء العذاب، وحكموهم حكماً استبدادياً مباشراً، وحاولوا القضاء على قوميتهم فاهملوا اللغة العربية، وجعلوا من اللغة التركية اللغة الرسمية في المعاملات والتعليم . وقد فرضوا التجنيد الإجباري على شباب الأمة العربية وزجوا بهم في أتون الحروب التي كانت تخوضها في الشرق والغرب .

وقد صادروا الحريات، وحرّموا تشكيل النقابات والجمعيات أو عقد الاجتماعات العامة . وكانت الرشوة والفساد والإهمال من الأمراض التي تنخر في جسد الأجهزة الحكومية في طول البلاد وعرضها . وقد أقتلوا كاهل المواطنين بالضرائب والرسوم فعمت الفوضى، وخيم الجهل، وعانى الأهالي في كثير من الأحيان من المجاعات . وقد عاصر بعض كبار السن من رجال قريتنا بعض هذه المجاعات ورووا لنا أن الناس كانوا يضطرون إلى أكل لحوم المينة من الحيوان، وأنهم كانوا يفتشون عن الحبوب في روث الحيوان .

وقد حل القرن التاسع عشر وليس في فلسطين كلها سوى (٩٥) مدرسة ابتدائية تضم بين جدرانها (٧٧٥٨) تلميذاً وتلميذة يقوم على تدريسهم (٢٣٦) معلماً ومعلمة . ولم يكن في طول البلاد وعرضها سوى مدرستين اعداديتين إحداهما في مدينة عكا والثانية في مدينة نابلس، ومدرسة ثانوية واحدة في القدس عرفت باسم "المكتب السلطاني". وإلى جانب ذلك كان في فلسطين (٥٠٠) مدرسة أهلية وأجنبية .

وبدهي أن قرية صغيرة كقريتنا كانت خالية من المدارس، غير أنه كان فيها كتاب صغير ملحق بالمسجد، يجلس فيه شيخ معمم يعلم الصبية مبادئ القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم وشيئاً من السيرة النبوية المشرفة . ولم تكن الحياة الاقتصادية في فلسطين بأفضل من الحياة الثقافية، فوسائل الزراعة الحديثة معدومة وهي كما عرفها الأقدمون بدائية متخلفة،

والبلاد خالية من المصانع . وتوزيع الأراضي غير عادل، فقد كان (٢٥%) من أبناء القرى الذين يشكلون (٧٥%) من مجموع السكان لا يملكون شبراً واحداً من الأراضي، ولكنهم كانوا يستأجرونها من أصحابها المنتمين إلى العائلات الكبرى في المدن ويفلحونها مقابل ثلث ما تغله من المحاصيل .

وقد منح الأتراك بعض الأسر السورية واللبنانية مئات الألوف من الدونمات في منطقة مرج ابن عامر بالجليل الأعلى نتيجة لصلّة زعماء هذه الأسر بالباب العالي وبالحكام الذين يسلطهم على رقاب العباد . وعندما مُنيت فلسطين بالانتداب البريطاني باعت هذه الأسر ما تملكه من هذه الأراضي لليهود بأثمان باهظة مما أدى إلى تشريد الألوف من المزارعين الفلسطينيين الذين كانوا يعملون في هذه الأراضي .

وقد كان في بلدنا عدد من الأسر التي لا تملك شبراً واحداً من الأرض. وكان أبناء هذه الأسر يعملون إما عمالاً بأجر يومي، أو مرابحين في أراضي غيرهم . والمرابح هو من يفلح أرض غيره مقابل ربع المحصول يأخذه لنفسه ويعطي ثلاثة أرباعه لصاحب الأرض .

وكانت الرعاية الصحية معدومة، والاتصالات بين المدن والقرى على درجة كبيرة من الصعوبة بسبب عدم صلاحية الطرق ووعورتها وعدم تعبيدها، وكانت الفوضى ضاربة أطنابها في البلاد، فلم تستطع الحكومة العثمانية — على جبروتها — أن تقضي على العصبية القبلية التي ورثها سكان القرى الذين انقسموا إلى قيسية ويمنية . وكان أهل هذه القرى يغزو بعضهم بعضاً، ثاماً مثلما كان أجدادهم الجاهليون يفعلون .

وكانت آخر معركة حدثت بين القيسيين واليمنيين هي معركة خروية عام ١٨٥٨م بالقرب من جنين . وكانت بين آل عبد الهادي الذين يمثلون القيسيين، وبين آل طوقان والصقور اليمنيين . وقد وقف بنو عدوان القيسيون إلى جانب أبناء عمومته آل عبد الهادي في تلك المعركة .

وقد حدثني الوالد - رحمه الله - أن جدّه أحمد سميرين قد أصيب برصاصة في ساقه في إحدى الغارات التي شنّها رجال بلدتنا المنحدرين من أصول يمانية على عين كارم القيسية . وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر للميلاد .

أما فيما يتعلق بالصحافة فإن الفلسطينيين لم يعرفوها إلا سنة ١٩٠٨، وهو العام الذي صدر فيه الدستور العثماني الذي أباح صدور الصحف والمجلات . في هذه الأجواء التي وصفت عاش الآباء والأجداد .

كان لجدي الثالث سميرين شقيق يُدعى سمور، وقد أنجب سميرين ولدين هما أحمد ومحمود، وقد أنجب أحمد ولداً واحداً هو عبد الله "جدي لأبي" وأنجب عبد الله ولدين هما محمد "والدي" وأخاه الوحيد حمدان .

أما محمود فلم ينجب سوى مصطفى الذي لم ينجب بدوره سوى ولد واحد هو "ذيب" . وأما سمور أخو سميرين فقد أنجب ولداً واحداً هو حسن، وقد أنجب حسن هذا عثمان الذي أنجب ثلاثة أبناء هم محمد وحسن وسليمان .

أما والدي محمد سميرين فقد أنجب عشرة أبناء، سبعة منهم من البنين، وثلاث من البنات . أما البنون فهم ناصر، وعبد الله، وعوده، وشبلي، ورجا وغالب، وفرج الله . وقد مات الأربعة الأوائل منهم صغراً، وعاش الثلاثة الباقيون وأكبرهم رجاً كاتب هذه السطور وشقيقه غالب وفرج الله . وقد قدر لنا - نحن الثلاثة - أن نعيش ونتزوج وننجب ويمتد بنا العمر حتى أصبح لكل منا عدد من الأولاد والأحفاد .

لم يصلنا من أخبار الأجداد إلا القليل . وكل ما وصل إلينا عن سميرين أنه كان وجيهاً في قومه . وأنه كان من الأثرياء المبذرين الذين ينفقون أموالهم على النساء والملذات . وقيل إن إسرافه اضطره إلى بيع ما

كان يملكه من أراضي المريج المعروف بمريج عين كارم المغروس بأشجار الزيتون المعمّرة .

ومهما يكن من أمر فإن جدي سميرين وولده أحمد قد عاشا كل حياتهما في العهد العثماني . ولم يقدّر لهما أن يعيشا في ظل حكومة الانتداب البريطاني التي جعلت ممارساتها التعسفية سكان فلسطين يترحمون على أيام الحكم العثماني الغاربة .

في استطاعتنا أن نتصور قالونيا في العهد العثماني . إنها على الأرجح لم تكن سوى خربة صغيرة تتكون من عدد قليل من البيوت الحجرية المتلاصقة . وقد ظل عدد من هذه البيوت قائماً حتى دمره اليهود مع منازل البلدة الحديثة سنة ١٩٤٨ . وكنا نطلق على هذا الجزء من البلدة اسم "الحارة الشرقية" لوقوعه شرقي البلدة .

وقد دمر زلزال عام ١٨٣٧ عدداً من منازل قالونيا، كما تشقّق عدد من منازلها في زلزال ١٩٢٧ .

وقد أصبحت الحارة الشرقية هذه غير صالحة للسكن وتحولت غرف منازلها التي سلّمت من الزلزال إلى مخازن للتبن والقصول وغير ذلك مما يخزنه الفلاحون .

وكانت الحارة الشرقية هذه محاطة بمنازل جديدة صالحة للسكن شيدها أهالي البلدة حول هذه المنازل المتداعية لتظل شاهداً على ما فعله الزمن بالإنسان وبما يشيد من أبنية وعمارات .

في سنة ١٨٥٢ تقريباً انتقل أحمد سميرين إلى رحمة الله وليس له من الأبناء سوى عبد الله الذي تركه في رعاية عمه محمود وهو لم يتجاوز ربيعته الخامسة عشر .

لقد أوصى أحمد وهو على فراش الموت أخاه محموداً بأن يرعى ولده عبد الله، وأن يعلمه كيف يعتني بأرضه ويفلحها، فقد ترك له من

الأرض ما يكفل له حياة كريمة إن هو أحسن استثمارها وإعمارها . كانت مساحة الأرض التي تركها أحمد سمرين لولده عبد الله لا تقل عن ستة وثمانين دونماً، ستة منها مزروعة بأشجار المشمش والبرقوق والعنب والتين الشوكي "الصبر" والزيتون واللوز والخروب. وأما الباقي فقد كان صالحاً لزراعة الحبوب والخضراوات .

وكانت هذه الأراضي موزعة على النحو التالي :

١. خمسة وأربعون دونماً في الجفير وتقع إلى الشمال من القرية .
٢. ستة عشر دونماً في القرنة، وهذه القطعة تعد امتداداً لأراضي الجفير من الجهة الشمالية الشرقية، وتشكل أراضي الجفير والقرنة سهلاً منبسطة تتخلله صخور كثيرة . وهذه الأراضي صالحة لزراعة الحبوب . وقد أقامت العصابات الصهيونية فوقها فوق الأراضي المجاورة لها والمعروفة باسم التعامير مستوطنة أطلقوا عليها اسم "مفسيرت بروشلايم" وقد ضُمَّت إليها لاحقاً مستعمرة "معوز تسيون" التي شيدها اليهود سنة ١٩٥١م على أراضي القسطل لتشكل معاً صاحبة القدس المسماة "مفسيرت تسيون" . ويسكن هاتين المستعمرتين ما لا يقل عن "عشرة آلاف نسمة" من اليهود الشرقيين .

وقد حدثني الوالدان أنهما زارا أطلال بلدتنا في الأيام التي تلت النكسة، والتي فتحت فيها العصابات الصهيونية حدود الهدنة بين ما يُسمى بإسرائيل، وبين الضفة الغربية على مصاريعها، وأنهما مرا بالقرب من هذه المستعمرة، وأن بعض الأطفال من اليهود ممن يقيمون فيها قد قذفوهم بالحجارة، وبسيل من الشائم البذينة التي كانت أكثر إيذاءً لنفوسهم من الحجارة والحصباء .

٣. سبعة عشر دونماً في جبل "الزحيلة" غربي القرية، وهي على شكل مدرجات، دونمان منها فقط مزروعان باللوز والعنب، والباقي كان مخصصاً لزراعة القبول والحمص والبازلاء والعدس والطماطم .

وقد قضى اليهود على الطبيعة المعروفة للزحيلة تنفيذاً لمخططهم الذي يقضي بتغيير طوبوغرافية الأرض، فغرسوا جبل الزحيلة بالأشجار الحرسية وحولوه إلى غابة .

٤. ثلاثة دونمات في أرض الحريقة شرقي البلدة، وهي من أجود الأراضي التي كنا نملكها، وكانت مغروسة بالمشمش والتين الشوكي "الصبر" والخروب والزيتون .

٥. ثلاث دونمات في الطرف الغربي من البلدة، وهي جزء من أرض الخور التي تمتد بين عين فرحان شمالاً حتى أسفل عين العصافير في الجنوب . وقد آلت هذه القطعة إلينا باعتبارها جزءاً من مهر الشقيقة مدلة . وقد رأى الوالد أن يضمها إلى أملاكه ليبنى عليها بيتاً جديداً لنا . وقد نفذ الفكرة وعوض الشقيقة مدلة عن هذه القطعة بأن اشترى لها ثلاثين ليرة ذهبية رشادية . وكانت هذه القطعة مؤلفة من ثلاث قطع على شكل مدرج مزروعة بأشجار البرقوق . وكنا نغرس فيها ما يلزم البيت من البقول والبصل والخضراوات .

٦. دونمان في أرض الحبايل جنوب القرية على الضفة الشمالية للوادي الكبير الذي يفصل بين بلدتنا وبين مستعمرة مونسالتحتا . وقد غرست بأشجار البرقوق والمشمش والزيتون، وهي من أجود الأراضي . وكانت مياه الوادي الكبير تجور في بعض مواسم الشتاء التي يغزر فيها المطر على الأرض المحاذية لضفتيه، حيث كان يتحول إلى نهر هادر تهدم مياهه الجدر — والسناسل — التي تفصل بينه وبين الحبايل . وقد أعدنا بناء السلسلة التي تفصل قطعة أرضنا هذه عن الوادي عدة مرات .

كان لدى محمود سمرين من الأراضي مثلما كان لدى أخيه أحمد — إن لم يكن أكثر — وكان بالإضافة إلى ذلك بملك أكبر قطيع من الغنم والضأن في قالونيا . وعلى الرغم من ذلك فقد وسوس له الشيطان أن يتصرف بصورة تتناقض مع وصية أخيه أحمد له عندما حضرته الوفاة . فكان أول ما فكر فيه هو التخلص من الراعي الذي كان يستأجره لرعاية غنمه بعد أن هيات له الأقدار من يقوم بهذه المهمة دون مقابل . وهكذا أسند رعاية القطيع إلى ابن شقيقه اليتيم عبد الله .

كان عبد الله فتى باقياً طري العود لا يستطيع أن يقف في وجه عمه، أو يخالف أوامره، فاستسلم للأمر الواقع، وراح يغدو بغنم عمه في الصباح لترعى مما خلق الله من حشائش الأرض ونباتها في شعاب أراضي قالونيا ووهادها وهضابها وجبالها، ثم يعود بها في المساء ليتولى عمله الإضافي وهو القيام على خدمة عمه وضيوفه وتقديم القهوة لهم في أثناء سمرهم . وكان هذا العمل يحرم الفتى الصغير من أن يأوي إلى فراشه مبكراً الأمر الذي يحول بينه وبين أخذ القسط الكافي من الراحة والنوم .

أما عمه فقد أزال الحواجز التي كانت تفصل بين أراضي وأراضي أخيه أحمد، وراح يستغلها لحسابه دون أن يفكر في عاقبة، أو يحسب لتقلبات الأيام أي حساب .

مضى عام أو أكثر وعبد الله مستسلم لإرادة عمه الظالمة، يرعى غنمه نهاراً، ويقوم على خدمته ليلاً، ولا يسلم جسده المنهك إلى فراشه قبل أن ينفض ضيوف عمه من حوله في وقت متأخر من الليل .

وفي يوم قائظ من أيام صيف عام ١٨٥٤ وبينما كان عبد الله يراقب أغنامه في البرية رأى شجرة أعراة ظلها الوارف بأن يتقياً ظلال أغصانها ففعل . وما هي إلا دقائق حتى غلبه النوم . وعندما أفاق من نومه تلفت يمينه ويسرة باحثاً عن قطيعه دون أن يعثر له على أثر .

صُعِقَ عبد الله للمصيبة التي لم تكن في الحسبان وراح يضرب كفا بكف ويصرخ ويولول دون أن يجد أحداً يسأله عن مصابه أو يسرّي عنه . أين ذهب القطيع؟ هل تفرق في أنحاء الأرض؟ أم أن عصابة قد استأفقه وذهبت به غنيمة باردة منتهزة غفلة راعيه الذي يغط في سباته العميق تحت الشجرة؟ أم أن الأرض انشقت وابتلعت؟ الله وحده يعلم بما حدث لذلك القطيع .

إن كل ما يعلمه عبد الله أن قطيعه قد تلاشى . وبدأ يفكر في عواقب ما حدث . وكان أول ما تبادر إلى ذهنه هو أن العودة إلى بيت عمه غدت أمراً مستحيلاً . كما أدرك أن وراء ما حدث حكمة لا يعلمها إلا الله . كيف يعود إلى بيت عمه وليس معه شاه واحدة من القطيع؟ ترى هل يمكن أن يتركه عمه على قيد الحياة؟ وسرعان ما توصل الفتى إلى قرار . لم يعد أمامه سوى الفرار . أجل إن الهرب من وجه عمه هو الحل الوحيد لهذه المعضلة التي وضعت فيها الأقدار . ولمعت في ذهن الفتى خاطرة أدخلت إلى نفسه شيئاً من الراحة المطعمة بالشماتة . لا شك أن ضياع القطيع عقاب قد أنزله الله بعمه الظالم؟ ولم لا يكون الأمر كذلك؟ ألم يستول عمه على أرضه التي ورثها عن أبيه؟ ألم يخن هذا العم وصية أخيه دون أن يطرف له جفن أو تتحرك في نفسه عاطفة؟ ويمم الفتى وجهه شطر المشرق دون أن يدري إلى أين تقوده خطاه . لقد قَدَّرَ أن توجَّهه شرقاً هو الأفضل، فالشرق بر متصل يمتاز بالعمق الذي لا يعرف له نهاية، أما الغرب فإن السير في اتجاهه سيسلمه لا محالة إلى البحر . لقد كان يسمع ممن يسمرون مع عمه أن آخر مدينة فلسطينية في الغرب هي يافا، وأن يافا ميناء بحري لا يستطيع أحد تجاوزه إلا إذا ركب سفينة تمخر به عباب البحر، وهو في وضعه الحالي لا يملك ما يمكنه من ركوب حمار، فضلاً عن ركوب سفينة .

وأدرك عبد الله أن عمه سيصل إليه لا محالة فيما لو أتجه إلى الغرب . إذن فلا مناص من توجيهه نحو الشرق . وهكذا كان . كانت مسألة بحث عمه عنه أمراً ترتد له فرائصه، ويملاً نفسه بالرعب والهلع . ولكي يتحرر من البقاء تحت سيطرة هذا التفكير المرعب قرر أن يستمر في السير شرقاً حتى يصل إلى نقطة يصبح فيها عثور عمه عليه من قبيل المستحيلات . استمر الفتى في سيره أياماً وليالي مرّ فيها بعدد من مدن قضاء القدس وقراه، وكان يزاول في كل مدينة أو قرية ينزل بها من الأعمال ما يكفل له سد رمقه، ولكنه حرص أشدّ الحرص على ألا يبقى في أي منها أكثر من ثلاثة أيام . كان يبيت أحياناً في مضافة القرية التي يمر بها، أو في مسجدها إن لم يكن فيها مضافة تصلح للمبيت .

وكانت أريحا هي آخر مدينة فلسطينية مرّ بها عبد الله وما أن تجاوزها حتى بلغ نهر الشريعة الذي طالما سمع عنه . لم يكن النهر على الصورة التي تخيلها . كان يظنه نهراً عظيماً عميق الاتساع غزير المياه . أو هو في أبسط حالاته يفوق ما كان يراه من صورة تدعو إلى الرهبة للوادي الكبير والوادي الغربي في أيام الشتاء . ولم يكن عبد الله يعرف أنّ مياه نهر الأردن في الصيف تشح إلى حد يجعل أي طفل قادراً على اجتيازها دون أن يضطر إلى السباحة . ومهما يكن من أمر فقد شعر عبد الله بالغبطة والارتياح لأن هذا النهر لم يشكل حاجزاً يصعب عليه تخطيه وهو يُعْذُ السير لينأى بنفسه عن أنظار عمه الذي لا شك في أنه بدأ يطارده ويبحث عنه .

واختار الفتى مخاضة عبر منها إلى ضفة النهر الشرقية واستمر في سيره وقد اطمأنّت نفسه بعد أن أدرك أنه أصبح في قطر غير القطر الذي يعيش فيه عمه محمود .

مضت عدة أيام والفتى يُعْذُ السير نحو الشرق لا يلوي على شيء . وكان كلما تغلغل أكثر صوب الشرق ازدادت طمأنينته واستراحت نفسه .

ومرّ في مسيرته بقرى الشونة الجنوبية والسلط وصويلح، ولم يكن يستقر في أي بلد يمر به أكثر من بضعة أيام تنتهي بقرار الاستمرار في الرحيل إحساساً منه بأنه لم يصل بعد إلى البلد الذي يراه مناسباً للاستقرار فيه .

وأسلمته قدماه ذات يوم إلى جرش التي لم يكن عدد سكانها يتجاوز بضع مئات ينتمي معظمهم إلى الشركس الهاربين من ظلم قياصرة روسيا . لم تسترح نفسه إلى البقاء في جرش . لقد أدهشته تلك الأعمدة الرومانية التي لا تزال قائمة عند مدخلها الجنوبي متحدية الزمن . ماله هو ولهذه الأعمدة . وماذا يفعل شاب مثله في مثل هذه القرية التي لم يسترح إلى حديث أهلها الذي لا يشبه حديث البدو ولا حديث الفلاحين . وكيف يعيش عبد الله في مثل هذه القرية التي تكاد تخفيها الجبال التي تكتنفها من معظم الجهات وهو الذي اعتاد على الحياة في روابي كالونيا وجبالها السماء .

وسأل عن الطريق المؤدي إلى جبال عجلون فدلّه عليه بعض الناس فصعد في الطريق المؤدية إلى تلك الجبال واستمر في سيره إلى أن بلغ قرية تدعى ساكب .

وشعر الفتى المنهك بالتعب الشديد فقرر أن يستريح قبل أن يدخل إلى تلك القرية كما دخل غيرها من قبل . وانحاز الفتى إلى ظل شجرة كبيرة في أحد بساتين القرية، وتحت ظلها توسد ذراعه وراح يغط في سبات عميق . ولم يدر الفتى كم مضى عليه من الوقت وهو نائم عندما امتدت إليه بلطف يد حانية توقظه وصوت صاحبها يمطره بوابل من الأسئلة قائلاً: استيقظ أيها الرجل، من أنت؟ وما الذي جاء بك إلى ديارنا؟ وما هو خطبك؟ هبّ الفتى من نومه مذعوراً وراح يجيب على أسئلة الرجل المتلاحقة قائلاً: رويدك يا عم ما أنا إلا عابر سبيل ألجأ التعب إلى ظل هذه الشجرة ليأخذ نصيباً من الراحة بعد طول السير .

قال الرجل في عطف ظاهر: هوّن عليك يا بني، فإن لجوءك إلى ظل شجرتي كلجؤتك إلى بيتي . ولن تلقى مني ما تكره إن شاء الله .
قال الفتى: بارك الله فيك يا عماء، فما أرى إلا أنك رجل شهيم في زمن ندرت فيه الشهامة أو تكاد .

قال الرجل: لا تكن متشائماً يا بني، فالطييون كثيرون .
قال الفتى: لا شك في ذلك يا عماء، لأن الدنيا إذا خليت خربت . وأسأل الله أن تظل عامرة بأمثالك .

قال : هيا يا بني إلى البيت فما أنا بتاركك قبل أن أعرف ما وراءك، وقبل أن أقوم بواجب ضيافتك، فما أرى إلا أنك لم تذوق ما أنت بحاجة إليه من الطعام منذ مدة ليست بالقصيرة .
قال الفتى: بارك الله فيك، وأرجو ألا أثقل عليك .
قال الرجل: لن تُثقل عليّ إن شاء الله فامض بنا فما أرى إلا أن طعام الغداء يوشك على النضج .

وسار الرجل ومعه الفتى وهو يحمد ربه الذي هياّ له هذا الرجل الطبيب الذي تمنى من أعماق قلبه أن يكون لقاءه به بداية لصفحة جديدة من حياته .

لم يلبث الرجلان أن وصلا إلى البيت . وما هي إلا دقائق حتى تناول طعام الغداء . وشبع عبد الله لأول مرة منذ أن غادرت قدماء أراضي قالونيا .

وجلس الرجل يتبادل مع ضيفه أطراف الحديث وقد بدأه بقوله: لن أسألك عن قصتك قبل أن تُمضي في ضيافتني ثلاثة أيام، فهذه عادتنا يا بني . ولا يغرنك أننا تحضرنا وأصبحنا فلاحين . فالبدواة تعيش في أعماقنا .

قال الفتى: أنتم الخير والبركة يا عماء، وإن شئت أن أحدثك بقصتي الآن فإنني لن أتردد في ذلك، فليس في قصتي والله شاهد على ما أقول ما يحجل أو يشين .

قال الرجل: لست على عجلة من أمري يا بني . فأنت ضيفي كما قلت لك . وإن لم تكن في طريقك إلى هدف محدد صحبتك معي كل يوم إلى الأرض لتتسلى معي سحابة اليوم ثم تعود بعدها إلى البيت . وبعدها تحدثني بقصتك من الألف إلى الياء .

قال الفتى: حسناً يا عم فلقد اشتاقت نفسي والله إلى فلاحه الأرض التي حرمت منها من غير ذنب .

ومضت الأيام الثلاثة، وفي اليوم الرابع قص عبد الله قصته على الرجل بالتفصيل .

وعلق الرجل على القصة قائلاً في تعجب ظاهر ودهشة بالغة: ما أغرب قصتك يا بني وما أشد قسوة عمك إنني لا أكاد أصدق أن في الدنيا مثل هذه النوعية من الأعمام . وإنني أعرض عليك يا بني أن تعتبرني عمّاً لك بل أباً إن شئت، وسوف تلقى عندي كل حفاوة وتكريم إن رأيت أن من مصلحتك البقاء في ديارنا؛ لقد حرمني الله من الأولاد، وليس لي سوى بنت واحدة فإن رأيت أن تكون بمثابة ولد لي يعينني على مصاعب الحياة وشدها كنت لك خير أب يعوضك عمّاً فقدت من عطف الأب، ويشد أزرعك حتى تبلغ مبلغ الرجال، وتصبح قادراً على مواجهة عواصف الأحداث . وقد يأتي يوم تصبح قادراً فيه على استعادة أرضك من عمك الذي لا يرحم .

قال الفتى: لا يضيع حق وراءه مطالب، ولقد أسبغت عليّ من الفضل ما يطوق عنقي أبد الدهر، وما يجعلني أكثر الناس تقاولاً على هذه الأرض . وإنه لما يملأ نفسي غبطة وحبوراً أن أكون لك الابن البار والخادم المطيع الذي لن تجد منه ما تكره إن شاء الله .

خلا عبد الله إلى نفسه في ليلة اليوم الرابع، واستعرضت مخيلته شريط الأحداث الأخيرة من أيام حياته... موت أبيه - وصيته لعمه - خيانة عمه لتلك الوصية - غدواته وروحاته مع قطيع عمه - إغفائه تحت الشجرة

التي كانت السبب في ضياع القطيع - هروبه المستمر الذي أسلمه إلى هذه البقعة من أراضي شرق الأردن... استعرضت مخيلته ذلك الشريط ثم تمت قاتلاً: سبحانه اللهم، إغفاء تحت شجرة تتسبب في تشريدي من وطني، وإغفاء أخرى مثلها تيسر لي سبيل العمل والاستقرار . كم أنت كريم يا إلهي، لتكن مشيئتك في هذا العبد الفقير الذي لا يدرك الحكمة الكامنة وراء ما كتبت عليه من التشرد والحرمان .

ومرّت خمسة أعوام أظهر فيها عبد الله من الجد والإخلاص في العمل ما أكسبه حب الرجل وزوجته، فأنزلاه من نفسيهما منزلة الابن الوحيد وقد زاد من حظوته عندهما أنهما لم يرزقا إلا ببنت واحدة أسمياها فاطمة.

وأحب الرجل أن يوثق علاقته بعبد الله فزوجه ابنته بعد أن أنس من كليهما ميلاً إلى الآخر .

ومضى عام على زواج عبد الله من فاطمة . دون أن تظهر أية دلائل تشير إلى إمكانية الإنجاب . وبدأت الأم تسأل نفسها: ترى هل سيتأخر حمل فاطمة كما تأخر حملها ؟ وهل تتكرر قصتها مع الإنجاب مع ابنتها الوحيدة ؟ ما أسوأ حظك يا فاطمة !

وظلت الوسواس تنتاب الأم إلى أن كانت ذات ليلة اختلف فيها عبد الله وفاطمة في شأن من الشؤون التي يختلف فيها الأزواج . وتطور الخلاف بين الزوجين تطوراً أدى إلى ارتفاع حرارة الملاحاة التي نشبت بين الزوجين .

لقد رأت فاطمة أن عبد الله قد تجاوز حده في تعنيفها ولومها فقالت محاولة إقحامه ووضع حد لتجاوزته: إن أمرك عجيب يا عبد الله، أتراني مستحقة منك كل هذه الثورة، وكل هذا التأنيب، ألا يكفي أنني ما زلت على عذريتي بالرغم من مرور عام كامل على زواجنا، فليسامحك الله يا عبد الله.

وأحسّ عبد الله أن قولها هذا قد مسّ رجولته في الصميم. فقال لها في صوت يكاد يخنقه الحرج والغضب: أنا لم أنس ذلك يا فاطمة، وهل تظنّيني سعيداً بذلك ؟ لن أتردد لحظة واحدة في تسريحك تسريحاً جميلاً إن رغبت في ذلك . فما أنا بالأثاني الذي يرضى بأن يفرض عليك حياة لا تريدونها، وزوجاً لا يحقق لك أُمُومتك كغيرك من النساء؛ فانظري ماذا ترين لأتخذ لك ما ترغبين .

قالت فاطمة: ما إلى هذا قصدت يا عبد الله، وإن كل ما رجوته منك أن لا تتسى ذلك، وأن تقدّر صبري عليك ولا تسرف في لومك وتعنيفك لأتفه الأسباب .

لم يبقَ أمر هذه المشادة محصوراً بين عبد الله وزوجته فاطمة. فقد مكن صوته المرتفع أم فاطمة من أن تسمع كل ما دار بينهما في الملاحاة . أدركت أم فاطمة السر في عدم حمل ابنتها كما تحمل النساء . واطمأنت نفسها بعد أن علمت أن السبب في ذلك لا يتعلق بابنتها بل بزوجها. وبادرت المرأة بإبلاغ زوجها بما سمعت ففكر في الأمر ثم انتهى إلى قرار .

لا بد من التفريق بينهما يا أم فاطمة . قالها الرجل بمرارة لم يحس بطعمها طوال حياته . قالت زوجته: أجل لا بد من ذلك، فإن من الظلم لكليهما أن يبقيا على هذا الحال .

وظلّ عبد الله فاطمة، ولم يمضِ عام على طلاقها منه حتى تزوجت وأنجبت . وتزوج عبد الله من أرملة من قرية برما كانت متزوجة من رجل من آل الهقيان من قرية ساكب وقد مات عنها بعد أن أنجبت منه ولدين هما إبراهيم وعبد وابنة واحدة هي هدواشة .

وفي عام ١٨٨٢ أنجب عبد الله من زوجته البرماوية هذه - وكان اسمها فاطمة - أول ذريته وكانت بنتاً أسماها عوفة . وفي عام ١٨٨٤ رزقه الله بأول ولد من أبنائه وهو والدي محمد، ثم رزق بعده بستة عشر عاماً - أي في سنة ١٩٠٠ - بولده الثاني "حمدان" .

كان عبد الله سعيداً بأسرته الصغيرة، وكانت سعادته تكبر كلما كبر أبنأؤه الذين خففوا عنه وطأة الإحساس بالغربة والبعد عن الوطن .
لم يعد عبد الله وحيداً . لقد أصبح له ولدان لا شك في أنهما سيكونان له سنداً وعزوة .

ومات الرجل الذي احتضن عبد الله وماتت زوجته؛ ولكن العلاقة بينه وبين مطلقة فاطمة لم تمت، إذ ظل عبد الله يقوم على خدمة أرضها التي ورثتها عن أبيها وفلاحتها وفاءً لذكرى الرجل الذي كان سبب استقراره وسعادته . الشيء الوحيد الذي كان يؤلم عبد الله ويحز في نفسه هو أن أهل ساكب كانوا يطلقون عليه وعلى أبنائه وعلى غيرهم من الأعراب الذين يعيشون بين ظهرانهم اسم "الغرباوية".

ذات يوم سأل محمد والده : لماذا يطلق أهل ساكب علينا اسم الغرباوية يا أبي ؟
قال والده: لأننا أعراب عن هذا البلد يا ولدي .
قال محمد: وكيف ذلك يا والدي ؟

هنا قصّ عبد الله على ولديه قصة حياته، وعرف محمد ولأول مرة أن قالونيا هي بلده، وأن له في قالونيا أرضاً تفوق في مساحتها وخصوبتها الأرض التي يعمل فيها مع والده، وأنه لو قدر له أن يستردها ويعمل فيها فإنه لن يعمل فيها كمرابع .

وفي كثير من الأماسي التي كانت تجمع بين عبد الله ولديه كان يقص عليهما من أنباء قالونيا قصصاً ينطرق فيها إلى كثير من التفاصيل التي جعلت الولدين يعرفان قالونيا وكأنهما يريانها بعيونهما .

حدثني الوالد - رحمه الله - أن والده قد وصف القرية وصفاً جعله يحس - وهو الذي لم يرها قط - أنه يكاد يعرف فيها كل حجر وشجرة .
لقد حدثه أبوه عن شجرة الخروب المَعْمَرَة التي يراها القادم من القدس قبل غيرها من معالم القرية . وحدثه أنهم كانوا يأخذون من فروعها وأغصانها حطباً يتدفنان على ناره طوال فصل الشتاء، وحدثه عن الحريقة ومشمشها وصبرها الذي لا مثيل لحلاوته، وعن الجفير وامتداد أرضه وما تبعث صخوره في النفس من رهبة، وعن الزحيفة وكهوفها التي تأوي إليها بنات آوى، ومدرجاتها التي تقف متحدية تلك المستعمرة الكريهة موتسا الفوقا أو أرزا والتي شيدها اليهود فوق قمة الجبل المقابل الذي يسيطر على ما حوله من الطرق والقرى، وحدثه عن أقاربه ودرجة قرابة كل منهم بالنسبة إليه .

وقد أقسم والدي - رحمه الله - بأنه قد عرف بلدنا منذ أن رأى جانبها الشرقي عندما أشرف على الوصول إليها لأول مرة بعد أن رآها من الطريق العام الذي يعلو "عين طلما" وهي قرية تقع على ضفة الوادي الكبير بين لقنا وقالونيا، وسكانها من أهالي "بيت إكسا" .

أدرك الوالد أن ما يراه جزء من قالونيا لمطابقة أوصافه للأوصاف التي سمعها من جدي عبد الله .

في عام ١٩٠٥ تزوج والدي من فتاة من بني محمد تدعى "حبوس" وقد كره والدي هذا الاسم فاستبدله باسم "فاطمة"، فأصبح اسمها فاطمة بنت مفلح العبد اللطيف العياصرة . وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، أما هو فقد كان في ربيع الحادي والعشرين .

في أواخر عام ١٩١١ داهمت ساكب مجموعة من الجنود الأتراك وجمعت منها عدداً من الشباب وساقوهم إلى أحد المعسكرات لتدريبهم ثم الزج بهم بعد ذلك في إحدى الجبهات المشتعلة في مختلف الجبهات. وكانت إيطاليا قد أعلنت الحرب على تركيا في أواخر سنة ١٩١١ وهاجمت ولاية طرابلس الغرب مما جعل الأتراك بحاجة إلى مزيد من الجنود، فراحوا يذاهمون القرى لجمع الشباب العرب، ويسقونهم إلى معسكرات التدريب، ثم لا يلبثون أن يدفعوا بهم إلى ميادين القتال .

كان محمد عبد الله سمرين واحداً من الشباب الذين أمسك بهم الأتراك من قرية ساكب وساقوهم إلى أحد معسكرات التدريب في درعا، إلا أنه تمكن من الهرب من المعسكر بعد أن قضى فيه شهراً واحداً تحت التدريب .

وكان لهذه الفترة القصيرة التي أمضاها الوالد تحت التدريب في المعسكر أكبر الأثر في جعله من أفضل الرماة في البندقية . وقد كان أهالي البلدة يضربون به المثل في دقة الرماية وإصابة الهدف .

ولا يفوتني أن أذكر حادثة طريفة تتعلق بالرماية ودقتها . وتتلخص هذه الحادثة في أنه عندما نشبت الثورة الفلسطينية إحتجاجاً على صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ بدأ شباب قريتنا وكهولها كما بدأ غيرهم من أهالي فلسطين بالتدرب على إطلاق النار .

وقد اختار رجال بلدتنا أراضي بيت مزة للتدرب على الرماية . وقد صحبتهم في إحدى المرات لأحصل على نصيبي من التدريب . ولما كنت من الذين لا يملكون بندقية - شأني في ذلك شأن معظم أبناء القرية - فقد أعارني العم سلامة حسين بندقية . ولما جاء دوري في الرماية صوبت البندقية نحو صفيحة صدئة تبعد عن المكان الذي أقف فيه ما لا يقل عن مائتي متر، وحسبت أنفاسي منتظراً أوامر المدرب بالضغط على الزناد .

قال المدرب الذي لم أعد أذكر اسمه : هيا يا أستاذ رجا- واحد- اثنان- ثلاثة . ضغطت على الزناد وانطلقت الرصاصة لتستقر في هدفها وتزحج عن مكانه . وتعالّت هتافات الإستحسان : اللهم صلّ على النبي، والله يا عمي فرخ البط عوام، صوب مرة أخرى يا أستاذ رجا . ورفضت التصويب مرة أخرى حتى لا ينكشف أمرى ويعلم الحاضرون أن رميتي الأولى كانت رمية من غير رام كما يقول المثل العربي القديم .

وقد بررت رفضي إعادة الرمي بضرورة المحافظة على الرصاص، وعدم الإسراف في استخدام الذخيرة . وقد استحسن أبناء بلدتي الطيبون هذا التبرير، وقال أحدهم مؤمناً على ما أقول: "معك حق والله يا أستاذ، نحن لا نحصل على حاجتنا من الرصاص إلا بطلوع الروح".

فوجيء جدي عبد الله بعودة ابنه الأكبر محمد فاراً من خدمة العلم التركي، وراح يتشاور معه فيما ينبغي عمله بعد هذه الخطوة الجريئة. وانتهت المشاورات بضرورة مغادرة محمد وزوجته ساكب لأن الأتراك لن يتركوه وشأنه، ولا شك أنهم سيبحثون عنه في كل مكان. واستقر الرأي على اختيار مكان لا تصل إليه يد الأتراك .

ولم يكن هذا المكان سوى جبل الدروز، عرين سلطان باشا الأطرش الذي لا يذل له جار، ولا تستطيع يد أن تمتد إلى جاره بسوء ما دام لائذاً بحماه .

وهاجر محمد وزوجته إلى جبل العرب، ولجأ إلى منزل سلطان باشا في قريته "القرية" بالقرب من السويداء . وهياً الباشا لمحمد سبيل العمل في إحدى إقطاعياته، فأقام في جواره آمناً مدة عامين.

في عام ١٩١٢ أعلنت الحكومة العثمانية عفواً عاماً عن جميع المخالفات والجرائم، وألغت الحكومة قرارها السابق بإحصاء النفوس وتجنيد الأهلين، وأصبح في إمكان محمد وزوجته أن يعودوا إلى ساكب .

عاد محمد وزوجته إلى ساكب بعد أن خلفوا وراءهم في مقبرة "القرية" بجبل الدروز أول ولد يرزقان به وهو ناصر . وكان قد ولد بعد وصولهما إلى جبل الدروز ببضعة أشهر .

ولم يقدّر لهذا الطفل أن يعيش أكثر من عام ونصف مات بعدها بمرض من أمراض الطفولة .

حزن الجدان عبد الله سمرين وفاطمة البرماوية لأنه لم يقدر لهما رؤية حفيدهما ناصر، فقد كانا في أشد اللهفة لأن يريا أحفاداً لهما من محمد قبل أن يودعا هذه الحياة .

استأنف محمد وعائلته حياته المعتادة في ساكب . وبدأت نذر الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق . واستأنف الأتراك ضغطهم على العرب، وراحوا يطاردون شبابهم في كل مكان ويزجون بهم في معسكرات التدريب ليدفعوا بهم بعد ذلك إلى ميادين القتال ليحققوا لهم الانتصارات التي تحفظ لهم مجد السلطنة وعنفوانها .

ولم يدرك الأتراك أن إمبراطوريتهم أصبحت تعرف في العالم بالرجل المريض، وأنها قد شاخت وأصبحت عاجزة عن المحافظة حتى على بقائها . وكان هناك عاملان مهمان أدبا إلى ضعف الإمبراطورية العثمانية وهزالها:

- **الأول :** رفض السلاطين الأخذ بأسباب التقدم التكنولوجي الغربي، وإصرارهم على أن يظلوا على ما كانوا عليه في مجال السلاح، وعدم الاهتمام ببناء أسطول بحري مؤلف من سفن كبيرة تتمكن من مواجهة سفن الغرب المتطورة .

- **الثاني :** كراهية العرب لهم كراهية بلغت الحد الأقصى بسبب ما ذاقوه على أيديهم من النذل والهوان .

لم يعد للعرب أية رغبة في الوقوف إلى جانب الدولة التي تحكمهم وتحكم بلادهم حكماً عنصرياً استبدادياً . صحيح أن العثمانيين حكموا العرب وغيرهم باسم الإسلام، ولكن الصحيح أيضاً أنهم لم يطبقوا في حكمهم مبادئ الشريعة الإسلامية في يوم من الأيام .

من أجل ذلك راح الشباب العرب يفرون بالمئات من معسكرات التدريب . وكان كلما داهمت ساكب ثلة من الجند لجمع الشبان أسلم محمد سمرين ساقبه للريح وراح يختبئ في أحراش ساكب وبراريها وليس له من رفيق سوى بندقيته التي فر بها من معسكر درعا قبل سنوات .

وفي عام ١٩١٥ انتقل جدي عبد الله إلى جوار ربه عن ثمانية وسبعين عاماً، ولم تلبث زوجته فاطمة أن لحقت به بعد قليل .

وفي عام ١٩٢٠ شرع حمدان يفكر في الزواج... كان قد وصل إلى سن العشرين، وأصبح شاباً مكتمل الرجولة يتميز بقوة بننية خارقة جعلت من المستحيل على أحد من أبناء جيله من شباب ساكب أن يلقيه أرضاً . وقد تحاشاه معظم الشباب عندما كان يتحداهم لمصارعته.

وقد حدثني الوالد عن هذا الأمر بالذات قائلاً : لقد وسوست لي نفسي ذات يوم أن أدعوه للمنازلة، فحاول جاهداً أن يقنعني بعدم ضرورة ذلك تأدياً منه . وقد قال لي في ذلك فيما قال : إنك أخي الأكبر يا محمد، وإنني لأستحي والله أن ألقى أرضاً، كما أن نفسي لن تسمح لي بأن أتركك تلقيني على الأرض، فلنبتعد عن ذلك فهو أفضل لكلينا . واستطرد الوالد في حديثه قائلاً: على الرغم من هذا الحديث المنطقي والذي هو فعلاً أفضل لكلينا إلا أنني - وقد خُيلَ إليّ أنه يخشى منازلتي - قد أصررت على منازلته. وطوق كل منا أخاه بذراعيه وراح يحاول أن يطوح بمنزله بمنة وبسرة دون جدوى. خُيِّلَ إليّ في بادئ الأمر أن قوتينا متعادلتان، ولكن تكرار المحاولة جعلت كفته تميل إلى الرجحان، ولما أحسست بأنه لن يلبث

أن يلقى بي على الأرض قلت له ضاحكاً: يكفي هذا يا حمدان، زادك الله قوة وصحة يا أخي الحبيب .

وأرعى حمدان ذراعيه عن جسدي وهو يقول: مهما كانت قوتي يا محمد فإنك ستظل زينة شباب ساكب، وشجاعها المهاب .

وقد سألت الوالد بعد أن حدثني عن هذه الواقعة: بالله عليك يا والدي أجبني بصراحة، هل سرك أن تنتهي منازلتك لعمي هذه النهاية أم ساءك ذلك؟

قال الوالد رحمه الله : بل سرّني ذلك يا ولدي أيما سرور فقد علمت منذ ذلك الحين أن الله سبحانه قد شد أزرعي بأخ قوي مقدام، وأنا الوحيد الذي لم يكن لي أحد غيره أعتر به وأتقوى .

كان حمدان قد رشّح الفتاة التي اختارها لتكون شريكته حياته. وكانت من جميلات بني حمدان إحدى الحمائل الثلاث التي تقطن ساكب . وقد شاع نبأ عزم حمدان على الزواج من تلك الفتاة، وتناقل الناس نبأ الحب الذي كان يربط بين الاثنين .

ويبدو أن رجلاً من أقارب الفتاة كان ينوي أن يتخذ منها زوجة له. ومن أجل ذلك فقد صمّم أن يقضي على أية عقبة يمكن أن تحول بينه وبين ذلك.

وتتفيداً لهذه الخطة فقد فوجئ أهالي ساكب في ليلة من ليالي الحصاد عام ١٩١٩م بصرخات متتالية تعكر هدوء الليل معلنةً مصرع حمدان الذي كان يحرس بيده كغيره من الحصادين الذين اعتادوا أن يبيتوا وهم يحرسون أكداً سنابل القمح التي يكسونها فوق بيادرهم طيلة موسم الحصاد تمهيداً لدرسها بالنوارج .

ويبدو أن القاتل قد تسلل وبيده بلطة إلى حيث يرقد حمدان، وأنه عاجله بضربة على رأسه بتلك البلطة التي أحدثت فيه جرحاً غائراً بليغاً،

جعل حمدان يتضرج بدمائه مطلقاً صرخة مدوية تنم عن ألم مبرح ليس في مقدور إنسان أن يتحمّله .

وقد أسلم القاتل ساقيه للريح بعد أن أذهلته صرخة حمدان، وخشي إن هو أهوى على رأسه بضربة ثانية ألا يسعفه الوقت بالنجاة، ففر قبل أن يتأكد من القضاء على حمدان .

أقبل حراس البيادر المجاورة لبيدر حمدان بالوصول إليه لرؤية ما حدث، فهالهم منظر حمدان المضرج بدمائه، وحاولوا إسعافه قدر استطاعتهم، وراح بعضهم يولول صاخاً : أيها الناس لقد قُتل حمدان، لقد قُتل حمدان .

وانطلق أحدهم إلى منزل أخيه محمد سمرين لينهي إلى مسامعه أشأم خبر سمعه طوال أيام حياته، أفاق محمد على ذلك الصوت المشؤوم وانطلق يعدوا حافياً إلى حيث يرقد أخوه الأوحد المغدور .

تدافعت جموع أهالي ساكب وراء محمد الذي ما أن بلغ البيدر حتى أخذ أخاه بين أحضانه وهو يبكي مولولاً قائلاً: قل لي من فعل بك ذلك يا حمدان ؟!

ولم يكن حمدان في حالة تسمح له بالإجابة على تساؤلات أخيه التي كررها مرات عديدة .

قال أحد الحاضرين : ليس هذا وقت البحث عن المجرم الأثيم، إنه أوان إسعاف حمدان ومحاولة إنقاذه، فأسرعوا به إلى جرش لعل الطبيب يدركه قبل أن يموت .

قال رجل آخر، وكان خبيراً في قصص الأثر : والله لو كان حمدان أخي لأخذت بثأره قبل أن تطلع شمس هذا اليوم المشؤوم، فإن أثار قدمي القاتل أظهر من أن تخفى .

وحاول محمد جاهداً أن يقنع قصاص الأثر بالبوح باسم القاتل، ولكن القصاص أبى ذلك بشدة . وقد برر رفضه ذلك بعدم رغبته في أن يكون سبباً في مقتل رجل آخر قد يكون هنالك نسبة - ولو ضئيلة - في احتمال براءته .

ونقل حمدان إلى جرش، ولم يتمكن الطبيب الوحيد فيها من إنقاذ حمدان الذي انتقل إلى جوار ربه بعد عشرين يوماً من إصابته . وقد قضى نصف هذه المدة تحت رعاية الطبيب الذي نصحه بنقله إلى منزله، فقد كان طوال فترة علاجه بين الحياة والموت، لا يخرج من غيبوبة إلا ليدخل في أخرى .
صحيح أن الطبيب قد تمكن من إيقاف النزيف، ولكن ذلك لم يكن كافياً لإنقاذ حمدان .

مات حمدان وهو أكمل ما يكون صحةً، وأوفر ما يكون شباباً، وأوفى ما يكون حيويةً ونشاطاً، وحُرِمَ محمد من شقيقه الوحيد الذي كان يعادل في نظره عشرة رجال . لقد ذهب السند الذي كان يدّخره للملمات، والعزوة التي لم يكن له بديل عنها بين الناس، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

بعد أن ووري حمدان التراب ببضعة أيام، قال محمد لزوجته التي كانت قد أنجبت له طفلتين هما : امدش ودله، وكانت امدش في الرابعة من عمرها، أما دله فلم تكن قد تجاوزت السنين إلا بقليل .
قال محمد لزوجته : هيئي نفسك، وهيئي بناتك للرحيل يا فاطمة .
قالت فاطمة : الرحيل... الرحيل إلى أين يا محمد ؟
قال محمد : إلى فلسطين... إلى بلدتنا قالونيا يا فاطمة .

قالت فاطمة متظاهرة بعدم معرفتها للسبب الذي يدعوهم إلى الرحيل : وما الذي يدعوننا إلى الرحيل يا محمد ؟

قال محمد في دهشة واضحة : أتجهلين حقاً ما يدعوننا إلى الرحيل ؟ ألا تعلمين أنه لم يعد لنا في هذا البلد مكان بعد مقتل حمدان ؟
قالت فاطمة : ألم تجد غير قالونيا مكاناً ترحل إليه ؟ أليست قالونيا هي البلد الذي أخرج أبائك؟

قال محمد : لا تنسي أنني فلسطيني، وأنه لا بُدَّ لي من العودة إلى بلادي طال الزمن أو قصر، وقد فكرت بالعودة إليها قبل مصرع حمدان عدة مرات، وكل ما في الأمر أن مصرعه قد عَجَّلَ بتلك العودة وجعل منها أمراً ملحاً لا ينبغي تأجيله أو التردد فيه .
قالت فاطمة : ألا تعلم أن عودتك إلى قالونيا ستشكل فصلاً جديداً لمتاعب جديدة لا يعلم مدى ضراوتها إلا الله .

قال محمد : ما الذي ترمين إليه يا امرأة ؟
قالت فاطمة : ألسنت تفكر في استعادة أراضيك التي استولى عليها أبناء عمومتك ؟

قال محمد : هذا أمر مفروغ منه، ولا مندوحة من حدوثه، وإذا لم أفعل ذلك فإنني سأكون غير جدير بالحياة .

قالت فاطمة : أتظن أن ذيب سمرين سيقدم لك أراضيك على طبق من الذهب أو الفضة ؟

قال محمد : أنا على يقين من أنه لن يفعل ذلك، وليكن في علمك أن لكل حادث حديثه المناسب .

قالت فاطمة : ماذا تعني ؟

قال محمد : سوف ألجأ إلى القضاء لاسترداد أرضي عن طريقه، ولا أظن أن القضاء سيخذلني ما دام الحق بجانبني .

قالت فاطمة : أتمنى ذلك يا محمد، ولكن لا تتسَّ أن حبال القضاء طويلة،
وأن يوم الحكومة بسنة كما يقولون...

قال محمد : لم يغب عن خاطري شيء من ذلك، ولتأخذ قضيتنا العادلة
مجراها بغض النظر عن طول مجراها أو قصره .

قالت فاطمة : ولكن دعني أذكرك بأن هذه القضية سوف تستنزف كل
مُخَرَّاتنا التي جهدنا في جمعها حتى الآن .

قال محمد : لمثل ذلك تُدخِر الأموال يا فاطمة، وأرجو أن يبارك الله لنا في
كل ليرة من الليرات الذهبية التي جمعناها . واعلمي أنني لن أرغمك على
شيء، فإن اقتنعت بالبقاء معي ومع الطفلتين، كان ذلك غاية ما أتمناه، وإن
رأيت غير ذلك سرحتك سراحاً جميلاً لتظلي بين أهلك وذوك .

قالت فاطمة : إنك تخبرني بين أمرين أحلاهما مر، وما أنا بالمرأة التي
تتخلى عن حليها الذي لم تجد منه ما تكره، ولا عن طفلتها اللتين ما
ترالان في عمر الزهور .

قال محمد وقد رضيت نفسه عن زوجته : بارك الله فيك يا فاطمة، فما
توقع منك غير ذلك .

استسلمت فاطمة لرغبة زوجها الذي كانت تعرف في قرارة نفسها
أن أحداً لا يستطيع أن يثنيه عن أمر عزم عليه، وكانت تهابه وتجله، ولكن
مهابة لم تكن لتمنعها من مناقشته في كل ما يتعلق بحياتهما من أمور .

قالت فاطمة : هل تعتقد أن أبناء عمومك في فلسطين سرحبون بقدمنا ؟
قال محمد : نحن عائدون إلى بلدنا على أي حال، سواء رحب بنا الأقارب
أم لم يرحبوا... ولكني أعتقد أنهم سيقفون منا مواقف متباعدة .

قالت فاطمة : وما الذي يمتنعهم من أن يتكاتفوا جميعاً لمواجهة هذا القريب
الذي نبت لهم فجأة من تحت الأرض .

قال محمد : لقد حدثني الوالد- رحمه الله- أن بين أقراننا من يحبنا، وأن
غالبيتهم لن تُصَارَ بعودتنا بل ستجد في انضمامنا إليها مزيداً من العزة

والمنعة . الذين استولوا على أرضنا فقط هم الذين سيتضررون، وهم
الذين لن يرحبوا بعودتنا .

استغرقت رحلة محمد سمرين وأسرته وأسرته صديقه محمد طليب
التي قررت العودة أيضاً إلى فالونيا أكثر من أسبوع، ونزلوا ضيوفاً على
كبير دار عسكر في ذلك الحين وهو المرحوم الشيخ الشهيد حسين سلامة
حسين .

رحَّب الشيخ حسين بضيوفه بحرارة لم يكونوا يتوقعون أفضل
منها. وقد أكرم وفادتهم، وأعلن غبطته بعودتهم إلى أرض آبائهم وأجدادهم .

لم تمض سوى أيام قليلة حتى أُسرَّ محمد إلى عمه الشيخ حسين بأنه
مضطر للعودة إلى ساكب لإحضار "خضرة طليب" ابنة صديقه محمد
طليب، حيث لم تسعفهم الظروف بإحضارها معهم من ساكب .

وانطلق محمد سمرين إلى ساكب لا يلوي على شيء بعد أن ترك
زوجته وابنتيه أمانة لدى عمه الشيخ حسين .

وصل محمد سمرين إلى ساكب في وقت قياسي، ولم يشأ أن يضيِّع
وقته فيمَّ وجهه مباشرة شطر منزل سالم أبو بكر الرجل الذي كان قد تزوج
من خضرة طليب .

فوجئ الزوج بعودة محمد السريعة إلى ساكب، وفوجئ أكثر من
قدومه إلى بيته دون غيره من بيوت أهل القرية فقال وهو يجاهد في إخفاء
دهشته .

زيارة عزيزة يا أبا ناصر، خيرٌ إن شاء الله !
قال محمد : أعزك الله يا أخي... أعلم أن الأمر مرهون بموقفك، فأنت
تستطيع أن تجعله خيراً أو شراً .

قال زوج خضرة : سترك اللهم، ما الذي تقصده يا رجل ؟

قال محمد : إنني لعلني يقين من أنك تعرف مقصدي تمام المعرفة، فما عهدتك إلا من الذين يفهمون بالإشارة .

قال الزوج وقد أدرك التهديد الكامن خلف كلمات محمد :

قل لي بصراحة، ما الذي تريده مني على وجه التحديد .

قال محمد : إن ما أريده منك هو أن تسرح زوجتك خضرة سراحاً جميلاً كي أعيدها إلى أهلها الذين لن يصبر على فراقهم إلى الأبد .

قال الرجل : وإن لم أفعل... هل سترغمني على ذلك ؟

قال محمد : معاذ الله أن أرغمك على شيء من ذلك، لأن الأمر كله متعلق بك وبزوجتك خضرة .

قال الرجل : ما دمت تقول ذلك... فلماذا لا ندع الأمر لخضرة حتى تقرر ما تريد .

قال محمد : لا مانع لدي من ذلك، أدعها حتى نسمع رأيها في هذا الموضوع .

ونادى الرجل زوجته، فذلفت إلى المجلس وحيّت عمها محمد سمرين وعيناها مغرورتان بالدموع .

انتهر محمد الفرصة وقال موجهاً حديثه إلى الزوج الذي يوشك على الاستسلام : أرايت إلى دموع خضرة التي تعبر عما يعتل في نفسها من الأحاسيس والمشاعر والرغبات .

قال الزوج المسكين وقد أحس بأنه يخوض معركة خاسرة : ما رأيك يا خضرة فيما يطلبه عمك أبو ناصر ؟ هل تفضلين البقاء في عصمتي، أم أنك تؤثرين الطلاق لتلحقي بأبويك ؟

قالت خضرة : والله ما رأيت منك إلا كل خير، ولكني لا أستطيع أن أقضي بقية حياتي وأنا محرومة من أهلي، كما أن عدم إنجابنا للأطفال حتى الآن سوف يهون من أمر انفصال كل منا عن الآخر .

وطلق الرجل زوجته، وعاد محمد بها إلى قالونيا في زمن قياسي . ولم تثبت بعد أن انقضت شهور العدة أن تزوجت من شاب من بني عمومها يُدعى محمد عطوة، وأنجبت منه عدداً من البنين والبنات .

قلت للوالد بعد أن أخبرني بقصة عودته إلى قالونيا : ألم يكن في وسعك يا والدي أن تلجأ إلى القضاء للكشف عن قاتل أخيك قبل عودتك إلى فلسطين .

قال الوالد : أي قضاء هذا الذي تتحدث عنه يا بني ؟ إنك لا تعرف شيئاً عن الأوضاع التي سادت شرقي الأردن في هذه الحقبة من التاريخ .

عندما قتل حمدان لم يكن قد مضى على انحسار ظل العثمانيين عن البلاد سوى عامين، وكان الإنجليز جاہدين في تثبيت أقدامهم في البلاد التي ورثوها عن الأتراك، ولم يكن في شرقي الأردن حكومة مركزية تستطيع أن تفرض سلطانها على البلاد، وكانت الفوضى فيها ضاربة الأطناب، وكان حيل الأمن مضطرباً أشد الاضطراب .

وكان البدو الذين يتمتعون باستقلالهم منذ أقدم العصور قد ازدادوا عنوةً وجبروتاً، وقد حاولوا فرض سيطرتهم على سكان القرى من الفلاحين، وكانوا يغيرون عليهم وينهبون مواشيهم وأموالهم، وعلى سبيل المثال فقد هاجم بنو صخر قرى ناحية الرمثا في العهد الفيصلي، وقد تزعم حركة مقاومتهم الشيخ فواز البركات، واستعان بنو صخر بدورهم بقبائل الغزاوية في الغور والصخور النازلين فيه، وهاجموا قرى عجلون من الغرب والشرق وعند ذلك تصدى لهم أهالي ناحية بني جهمة بقيادة سعد العلي وأهل الكورة بزعامة كليب الشريدة، وانضموا إلى أهالي الرمثا وهزموا البدو هزيمة منكرة .

وبقي العداء متأصلاً بين البدو والفلاحين إلى أن تم الصلح بين الفريقين على يد الشيخ عقاب بن حمزة قاضي العشائر في جرش، ويتوجيه من الشريف عبد الله بن الحسين . والأدهى من ذلك يا بني أنه لم يكن في شرقي الأردن كما قلت حكومة مركزية واحدة بل كان فيها خمس حكومات، تألفت في إربد حكومة عرفت باسم حكومة عجلون برئاسة القائم مقام علي خلقي الشرايري، وقد أبى سكان منطقة عجلون الاعتراف بهذه الحكومة فألف الأهالي فيها عدداً من الحكومات منها : حكومة دير يوسف أو حكومة قضاء المزار بزعامة الشيخ كليب الشريدة، وحكومة ناحية عجلون بزعامة الشيخ الخزاعي زعيم عشيرة الفريجات، وحكومة جرش برئاسة القائم مقام محمد علي المغربي، هذا بالإضافة إلى حكومتي السلط والكرك .

وهكذا ترى يا بني أن في منطقة عجلون وحدها كان هناك عدة حكومات... فإلى أية حكومة من هذه الحكومات الهزيلة يمكن أن ألجأ وأطالب قضاءها بالقصاص من قاتل حمدان ؟

من أجل ذلك أثرت أن أحسب أخي عند الله، وأوكلت أمر الاقتصاص من قاتله إليه، فهو وحده المنتقم الجبار .

الحياة آنذاك في شرقي الأردن يا ولدي كانت لعنة من اللعنات، إذ لم يكن في استطاعة الضعيف أن يعيش، ولكي يتمكن الإنسان في تلك الأيام من الاستمرار في البقاء، فقد كان لا بد له من أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه، وعدم السماح لأحد بالاعتداء عليه .

وقد بلغ الأمر بكثير من العائلات أنها كانت ترفض في تلك الأيام تزويج بناتها من غير الفئاك واللصوص .

وكان لسان حال المجتمع في تلك الحقبة يقول : إذا جاءكم من يستطيع السرقة والنهب لإطعام زوجته وأبنائه فزوجه . كانت القدرة على السلب والنهب هي المقياس لشجاعة الرجال . ولم يكن في ارتكاب ذلك ما يشين الرجل أو يعيبه . وكنت بدوري مع من اصطفتهم من الأتراب

والأخذان نغير على أطراف مضارب البدو، وننهب من أنعامهم ما نقدر على نهبه، ونعود به إلى أهلنا غانمين مسرورين .

وكان يدفعنا إلى ذلك سببان :

- الأول : رغبتنا في الإنتقام من هذه العشائر التي طالما أذلتنا ومدت إلينا أيديها بالشر والعدوان .

- الثاني : ضالة المردود الذي كنا نحصل عليه من فلاحة الأرض، وعدم وفائه بمتطلبات الحياة .

توفيت عليا - وهي جدتي لأمي - بعد هجرة ابنتها مع زوجها وابنتيها بشهور قليلة حزناً على فراق وحيدتها فاطمة .

وقد علم بذلك حسين فقيس، وهو من الفقيسات إحدى فصائل حمولة "دار أبو سعد" وكان قد مرّ بساكنب ليعودها، فأخبروه أنها قد انتقلت إلى جوار ربها .

وقبل أن ينفذ عن كاهله وعناء السفر، عرّج على منزلنا، وأخبر الوالدة ب وفاة والدتها . ولما عاد الوالد من عمله رأى زوجته في شرّ حال. ولما سأل عن السبب أبلغته بما حدث، فانطلق إلى منزل حسين فقيس يؤنبه ويصب عليه جام غضبه لحماقته التي دفعته إلى التسرع في نقل هذا الخبر السيء إلى زوجته بهذا الأسلوب الأرعن الذي لم يسبقه أي تمهيد .

حدثني الوالد - رحمه الله - ذات يوم أنه بعد عودته إلى قالونيا بثلاثة أعوام قابل رجلاً من أهالي بلدة أخواله "برما" في ساحة المسجد الأقصى بعد أن أدى صلاة الجمعة .

وقد فوجيء بالرجل يُحمَلُ فيه ويستوقفه قائلاً : قل لي بربك، ألمت أنت محمد الدبس ؟ - وكان الدبس أحد الألقاب التي عُرف بها جدي عبد الله لإفراطه في حب الدبس وهو مربى العنب وإكثاره من تناوله -

قال الوالد : نعم أنا هو أيها الرجل، فمن أنت ؟
 قال الرجل : أنا واحد من أبناء خؤولتك البرماوية .
 قال الوالد : أهلاً وسهلاً بك في بلادنا أيها الخال .
 قال الرجل : ألسنت أنت الذي قتل سلمان أبو بكر في ساكب قبل ثلاثة أعوام ؟!

قال الوالد : بنس الخال أنت .. أنتستوقفني لتلقي عليّ بمثل هذه التهمة .
 قال الرجل : هوّن عليك يا ابن الأخت، فوالله ما كنت لأفشي لك سرّاً، أو أدل على مكان وجودك، أو ألومك على ما فعلت - إن كنت قد فعلته - فإن فقدان الشقيق لأمرٌ جَلٌّ، ومصاب لا يمكن احتمالَه، ووالله الذي لا إله إلا هو ما في جبل عجلون من يجهل أنك قد أخذت بئارك .
 قال الوالد : دع عنك هذا اللغو أيها الرجل، ووالله لولا أنك جبهتني بهذه التهمة لأنزلتك في ضيافتي معزراً مكرماً... أما وقد قلت ما قلت فليس لك عندي أي حق من حقوق الضيافة، فاذهب غير راشد ولا مشكور .
 وانطلق الوالد ليلحق بباص البلدة تاركاً البرماوي مشدوهاً من موقفه هذا الذي لم يكن يتوقعه .



منظر عام لقرية قاتونيا قبل ان يهدمها
 الصهيونيون عام ١٩٤٨

الفصل الثالث

في قالونيا

بدأت أسرة محمد سميرين الصغيرة مسيرتها مع الحياة في قالونيا .
وكان أول ما فكر فيه رب الأسرة بعد أن استقر به المقام في بلدته الأصلية
هو البحث عن طريقة يستخلص بها أرضه من قبضة ابن عمه ذيب سميرين
حفيد محمود سميرين الذي تسبب في تشريد والده عبد الله من بلده .
فاتح محمد عمه الشيخ حسين بما يجول في خاطره فقال له الشيخ :
سوف نحاول ذلك، وأرجو أن يلهم الله ابن عمك ذيب ما بكفيك ويكفيه
مؤونة الخلاف والخصام .

قال الوالد : أُمِرَ عليّ يا عماه، فإنك سندي الوحيد في هذه الحياة، وما أنا
براد مشورتك أو متعافل عنها في أي أمر تراه إن شاء الله .
قال الشيخ : سنأخذه أولاً بالحسنى فإن رضى لصوت العقل والضمير فيها
ونعمت، وإن كان غير ذلك فسيكون لنا معه شأن آخر .
قال محمد : أرجو الله أن يهديه إلى الصواب فليس لي والله رغبة في
مخاصمة أحد من الناس .

جمع الشيخ حسين وفداً من وجوه القرية بينهم مختبرها الثلاثة
مصطفى طه ويوسف حسن وسعيد سلمان، وتوجه ومعه محمد إلى منزل
ذيب سميرين بعد أن كانوا قد أبلغوه بأنهم يرغبون في شرب فنجان من
القهوة في داره .

أخذ أعضاء الوفد أماكنهم في دار ذيب كل حسب مكانته التي
يعترف لها بها المجتمع وأخذ العم ذيب يرحب بهم، وبعد أن فرغوا من

مراسم الترحيب بدأ الشيخ حسين حديثه قائلاً : الدنيا مساء جعل الله كل أمسياتكم سعيدة .

ردد الجميع : الله يسعد مساءك يا شيخ حسين .

واصل الشيخ حديثه فقال موجهاً إياه إلى ابن عمه ذيب سمرين :

يا عم ذيب، هذا ابن عمك محمد سمرين قد رد الله غريته، وعاد ليعيش معزراً مكرماً بين أبناء عشيرته وبلده، وإن هذه الوجوه الطيبة التي يتألف منها وفدنا ما جاءت إلا لترجوك أن تعينه على ذلك .

قال ذيب : وكيف أعينه على ذلك يا عمي الشيخ .

قال الشيخ : بأن ترد عليه أرضه التي ضمها جدك محمود إلى أرضكم بعد وفاة أخيه أحمد .

قال ذيب : ما علمت أن لمحمد أرضاً في ذمتي حتى أردّها عليه .

قال الشيخ : إنك والله لتعلم ذلك، وإن جميع أهل البلدة ليعلمون .

قال ذيب : إن كان لابن عمي أرض في حوزتي فليثبت ذلك إن استطاع .

قال الشيخ : سيثبت ذلك طال الزمن أو قصر، ولكن تسوية الأمر بينك وبينه خير لكل منكما ولا شك .

قال ذيب : والله ما أنا بمتنازل عن شبر واحد من الأرض التي في حوزتي، وها هي ذي القدس قريبة يا عمي الشيخ، وإذا كان ابن عمي محمد لا يعرف طريق المحكمة فيها فإنني سأدله عليه .

قال الشيخ : لقد اخترت الطريق الأسوأ ورب الكعبة، وما أظنك بمبق على ما بينك وبين ابن عمك من صلة الرحم والقرابة، ففكر في عاقبة موقفك هذا قبل أن يفوت الأوان .

قال ذيب وقد رأى أعضاء الوفد ينهضون : مهلاً يا جماعة فإنكم لم تتناولوا قهوتكم بعد .

قال أحد المخاتير : قهوتك لا تصلح للشرب أيها الرجل ما دمت جاهلاً بأقدار الرجال .

وخرج أعضاء الوفد وقد امتلأت صدورهم بالغضب . ولم ينسَ محمد أن ينظر إلى ذيب وهو يضع حذاءه في قدميه قبل أن يخرج ويقول : بنس اللقاء لقاءك يا ابن العم، والله لقد كنت أتعشم في أن أجد فيك البديل لأخي حمدان، ولكنني لم أجد فيك إلا رجلاً هو أشبه ما يكون بقاتله .

لم يفهم ذيب ما عناه محمد بهذا القول، فلم يكن يعرف أن لابن عمه هذا الذي نبت له فجأة من تحت الأرض أخاً اسمه حمدان، ولم يكن يعرف أن حمدان هذا قد لقي مصرعه على يد إنسان لا يعرف من هو إلا الله .

قال الشيخ حسين وقد توجس خيفة من المعاني الكامنة وراء هذه العبارة التي تقوه بها محمد : اسمع يا محمد دعك من قصة حمدان، ولا تشر إليها بعد الآن من قريب أو بعيد، فإنني أخشى عليك أن تصبغ وتصبغ حقك إن أنت اتخذت من التهور والقوة وسيلة في الحصول على حقوقك، واعلم أنك الآن في بلد يحكمه القانون، فلا تتعجل في الحصول على حقوقك فإن الله جلت قدرته مع الصابرين .

قال محمد وقد أدرك أنه قد تسرع وقال ما لا ينبغي أن يقال : أمرك يا عمي الشيخ فادع الله أن يجعلني من الصابرين .

عاود الشيخ حسين اتصاله بذيب محاولاً اقناعه بأن يتنازل ولو عن جزء من الأرض التي استولى عليها جده، واعداً إياه بأنه سيقنع محمداً بالاكفاء بما سوف يتنازل له عنه، ولكن ذيباً ركب رأسه وكرر رفضه التنازل عن أي شبر من أراضي محمد التي في حوزته معتقداً أن محمد لن يستطيع إثبات ملكيته لأي جزء من هذه الأرض . ولجأ محمد سمرين إلى القضاء واستمر التقاضي بينه وبين ابن عمه عشر سنوات تمكن محمد في نهايتها من انتزاع جميع ما كان في حوزة ذيب من أراضيّه .

في سنة ١٩٣٠ تمكن محمد من استرجاع آخر قطعة من أرضه المغتصبة، وقد عانى هو وأسرته الأمرين خلال هذه السنوات العشر العجاف، نظراً لما تطلبتُه القضايا من مصروفات أثقلت كاهله وكاهل أسرته التي أصبحت تتألف من ستة أفراد، وكادت أن تأتي على تحويشة العمر التي جمعها في العشرين سنة الماضية .

في أثناء هذه السنوات العشر أنجب محمد أربعة من الذكور هم عبد الله وعودة وشبلي ورجا وبنّاً واحدة هي نعمة .

وقد لحق كل من عبد الله وعودة وشبلي بأخيه ناصر حيث ماتوا جميعاً قبل أن يتم كل منهم العام الثاني من عمره، أما رجا - وهو كاتب هذه السطور - فقد قُدر له أن يعيش وكان مولده في يوم الأربعاء السابع من آذار (مارس) سنة ١٩٢٩، وكذلك عاشت شقيقته الثالثة نعمة التي ولدت سنة ١٩٢٧م .

حدثتني الوالدة - برحمها الله - أنها قد عاشت في الحولين الأولين من عمري في خوف دائم وقلق مستمر، كانت أشد ما تخشاه أن يحدث لي ما حدث لإخوتي الأربعة الذين سبقوني إلى الدار الآخرة، وقد وقع في روعها أنه إذا مرّ حولان كاملاً وأنا لا أزال على قيد الحياة فإنني سأعيش لا محالة .

لقد حرمت نفسها من كثير من ألوان الطعام والشراب التي كانت تحس أن تناولها يمكن أن يؤثر في تركيبة حليبها الذي ترضعني به . وقد تقاءلت خيراً عندما مرّ عامان على ولادتي دون أن يحدث لي مكروه .

وفي عام ١٩٣٣ رزق الوالدان بـ غلام آخر أسمياه غالب، وقد سعدت الأسرة بهذا المولود، وابتهلت إلى الله أن يطيل عمره ليكون عضداً

لأخيه الوحيد رجا. وفي دار صباح في الحارة الشرقية - وهي الدار التي ولدتُ فيها ولد شقيقي غالب .

وعلى الرغم من أنني لم أكن قد تجاوزت الرابعة من عمري إلا شهرين فقد فرحت فرحاً عظيماً . وأذكر أنني قد طلبت من والدتي أن تضعه على ذراعي وهو ما زال في الأسبوع الأول من عمره .

وقد استجابت الوالدة لرغبتني فتمددت على الأرض وأضجعت غالباً على ذراعي الأيسر للحظات أمطرته في خلالها بوابل من القبلات .

لا أذكر كثيراً من أحداث الطفولة التي تنتهي بسن الرابعة، وكل ما أذكره أننا كنا نعيش في غرفة بالحارة الشرقية تسمى دار سمرين وهي بالقرب من دار صلاح . ومما أذكره أن خالي إبراهيم قد جاء لزيارتنا من ساكب، وأنه أمضى في زيارتنا قرابة الشهر . وأذكر أنني كنت برفقة والدي في ليلة من ليالي الصيف نحرس ثمار أرضنا في الحديقة شرقي البلدة، وأن الوالدة قد جاءت مهرولة قبل صلاة العشاء وانزعجتني من بينهم وعادت بي إلى المنزل خوفاً على من البرد ومن هوام الأرض . وأذكر أنني كنت ألعب مع إحدى لداتي من البنات لعبة "العريس والعروس" وأن والدة الطفلة قد مرت بنا ونحن نمارس هذه اللعبة فأنتهرتنا وانهالت علينا بالضرب والتأنيب . والطريف في الأمر أنني ذهبت إلى والدتي وشكوت إليها ببراءة تلك المرأة وكأنني لم أت ما يوجب الضرب والتأنيب .

وكان من أثر ذلك أن معركة كلامية قد نشبت بين المرأتين بعد أن ذهبت أُمي لمعاتبتها على ضرب طفلين لا يدركان ما يفعلان . وقد استخدمت المرأتين في هذه المعركة الكلامية كثيراً من ألفاظ السباب والشتائم .

وأذكر فيما أذكر أنني استيقظت في ليلة من ليالي الصيف القانظ وأنا أشعر بظماً شديداً، وأنني بدلاً من أن أشرب الماء تناولت جرعات من

وعاء كان مملوءاً بالكاز وموضوعاً قرب الزير . وقد استيقظ الوالدان على صراخي، ولست أدري كيف أسعفاني وجعلاني أتخلص مما قد عبيب من الكاز، غير أن الذي أدريه هو أنني ما زلت على قيد الحياة حتى كتابة هذه السطور .

كنت لا أزال في السادسة عندما شرع الوالد في بناء بيت جديد لنا . وقد اختار له موقعاً جميلاً في أقصى الطرف الغربي من قريننا على طريق عين الجوز .

كان البيت مؤلفاً من غرفتين ومطبخ وسقيفة وطابون ومرحاض . أما الغرفتين فكان يطلق على أحدهما اسم الدار التحتة، وعلى الثانية الدار الفوقة . وكانتا مربعين طول ضلع كل منهما خمسة أمتار . وقد بُنيتا من الحجارة البيضاء التي أخذت من الموقع الذي بُنيتا فيه . وكان سقف الغرفة التحتة بمثابة الشرفة أو الساحة التي يفتح عليها باب الدار الفوقة . وكان بابها في الجهة الشرقية . أما نافذتها الوحيدة فقد كانت تطل على الناحية الجنوبية المقابلة لمستعمرة آرزا . وكانت أرضيتها مكسوة بطبقة اسمنتية ناعمة الملمس تضطر نعومة ملمسها كل من يمشي فوقها أن يتوخى الحيلة والحذر حتى لا تزل قدمه . وكان لكل من هاتين الغرفتين مركس تطوى عليه المراتب والألحفة والبطانيات والوسائد في النهار .

وكان إلى جانب مركس الغرفة التحتة الواقع في جدارها الشمالي خزانة خشبية ثبتت في تجويف في الجدار . وأذكر أن خشبها كان مطلياً باللون الأزرق .

أما مركس الغرفة الفوقة فقد كان في جدارها الغربي، أما جدارها الشمالي فقد ثبتت فيه خزانتان تشبهان خزانة الغرفة التحتة . وكانت أرضيتها مكسوة بالبلاط الأبيض الصقيل تتوسطه صينية من البلاط الملون المزين

برسوم جميلة متناسقة وقد سقفت الغرفتان بالإسمنت المسلح بالحديد الضخم الذي يشبه قضبان السكة الحديدية التي تسير عليها القطارات .

وقد بنينا مطبخاً أمام الغرفة الفوقة وجعلنا له نافذة صغيرة تطل على الناحية الجنوبية وباباً يفتح على الناحية الشرقية .

وقد أقمنا مظلة من القرميد أمام الغرفة الفوقة وقد قام بتنفيذها اليهودي إبراهيم النجار . وهو من يهود مستعمرة آرزا وكان من اليهود القلائل الذين يحبون التعامل مع العرب والعمل عندهم .

وكان من الأصدقاء الودودين للعم محمد عثمان رحمه الله، وكثيراً ما لعبت أنا وعثمان مع ولديه الياهو وساسون .

وفي أقصى الأرض الفضاء التي كانت تشكل ساحة أو حوشاً للغرفتين من الجهة الشرقية بنينا بالحجارة العادية سقيفة وطابوناً . وفي أقصى الطرف الجنوبي منها أقمنا المرحاض الذي حفرنا له حفرة امتصاصية عميقة . وكان عبارة عن كشك صغير من الصفيح . أما بابها فكان عبارة عن قطعة من الخيش تسدل على فتحته .

كان جيراننا من دار محمد طليب ومحمود طليب يملكون حق المرور إلى عين الجوز من أمام السقيفة والطابون والمرحاض العتيدين .

وكان من يستعمله يتحفظ إلى حد كبير في حالة مرور أحد منهم أمام المرحاض حتى لا يسمع من الأصوات ما لا يستحب سماعه .

وإلى جانب هذا المرحاض كان يقع الخم الذي كانت تبيض فيه دجاجات أم رجا . كانت السقيفة تستخدم لمبيت الغنم في الأوقات التي كنا نقتني فيها الغنم، بالإضافة إلى دجاجنا الكثير الذي كان يأتي إلى هذه السقيفة . أما الطابون فقد كان المكان الذي تخبز فيه الوالدة أشهى أنواع الخبز الذي عرفناه في حياتنا .

كنا نطلق على الدار الفوقية اسم العلية أو دار رجا، وكان إطلاق دار رجا عليها يعبر عن نية الوالدين وأملهما في أن تكون هذه العلية مقراً لرجا وعروسه في المستقبل . ولكن القدر لم يحقق لهما هذه الأمنية فقد عرف رجا وزوجته فيما بعد كثيراً من الغرف التي قدر لهما أن يقطنها، ولكنهما لم يبيتا في العلية التي سميت باسمه ليلة واحدة .

كانت الوالدة مغرمة بتربية الدجاج، ولما كان يقل ما تقتنيه من هذا النوع من الطيور عن مائة دجاجة . كانت دجاجتنا تأوى إلى السقيفة مع مغيب الشمس، وكانت الوالدة تفتح لها بابها بعد صلاة الفجر بقليل باحثة عن رزقها في ساحة البيت وحوله، وكان بعضها يتوغل بعيداً عن الدار فيدخل في أرض الجندية إلى الشمال الشرقي من البيت، وكانت ملكاً لحافظ نسبيه . وكان بعضها يصل إلى مقربة من بيدر دار لقح في طريق عين الجوز، أو يمضي صُعداً إلى أن يصل دار سعيد الأصفر التي لم يكن قد اكتمل بناؤها بعد .

وكان مما يبعث البهجة في النفس منظر الدجاجات وهي تهرول وتطير مستجيبة لنداء الوالدة عندما كانت عقيرتها تتطلق منادية دجاجاتها : تبعه، تبعه، تبعه، تبعه . فتراها وقد تحلقت حولها تتناول ما تلقى به إليها من حبوب الذرة مرتين في اليوم على الأقل .

وكان لبنات آوى نصيب في دجاجتنا هذه، فقد كانت الدجاجة التي تبعد أكثر مما ينبغي عن البيت تعرض نفسها للخطر فتصبح فريسة سهلة لابن آوى الذي كان يدفع به الجوع في كثير من الأحيان إلى أطراف القرية.

وفي بعض الأحيان كنا نفوت عليه هذه الفرصة عندما نتنبه لوجوده بعد أن يتعالى صوت الدجاج المعبر عن الخطر الذي يهددها. وأحياناً كان يسبقنا إلى اختطاف إحدى الدجاجات . فتحزن الوالدة لذلك أشد الحزن ولا تجد أمامها سوى أن تنفس عن نفسها بإمطار رؤوس بنات آوى باللعنات .

منذ أن استخلص الوالد أرضه من برائن عمه ذيب سميرين وهو يجد في إعمارها وخدمتها . ولكن عدم استخدامه للوسائل الحديثة في الزراعة - شأنه في ذلك شأن معظم الفلاحين - لم يجعل أرضه تدر عليه من الغلال والدخل ما يكفيه ويكفي عياله . لذلك فإنه كان يمارس إلى جانب الفلاحة أعمالاً أخرى حتى يفي دخله منها بحاجته وحاجة أسرته .

ومن الأعمال المنتظمة التي مارسها الوالد فترة طويلة أعمال الحراسة في مجالين :

- **المجال الأول :** حراسة الأدوات التي كان يستخدمها العمال الذين عملوا في شق الطريق البديل لمنعطقات القسطل والتي تقع أسفل مستعمرة آرزا من الجهة الشمالية، وقد استغرق عمله هذا أكثر من عامين وقد عملت أنا شخصياً في هذا الطريق في العطل الصيفية حيث كنت أنقل التراب في قفة على عاتقي . وقد بدأت أجرتي اليومية بثمانية قروش ووصلت بعد عامين إلى خمسة عشر قرشاً .

- **المجال الثاني :** حراسة حقول القمح لجميع أهالي البلدة . وقد كان رحمه الله يحرسها بهيبته وخوف الناس منه، إذ لم يكن يجرؤ أحد من الرعاة على أن يسمح لشاة من شياهه أو نعجة من نعاجه بدخول حقل من حقول البلدة المزروعة بالقمح، وبخاصة بعد أن سمع الناس بما فعل محمد سميرين مع رجل غفل عن قطيعه فضبطه أبو رجا لسوء حظه وهو متلبس بالغفلة عن بعض شياهه التي راحت ترعى في أحد هذه الحقول، فما كان من أبي رجا إلا أن أشبعه صفعاً وركلاً ثم أجلسه على أشواك نبات القنديل وراح يسحبه فوقها حتى أدمى إثنين .

وقد عمل الوالد مساعد بناء، حيث كان يبحث عن الحجر الذي يطلبه البناء، ثم يقيسه ويضعه فوق ظهر عامل آخر ينقله إلى حيث يكون المعلم .



الحاج محمد سمير بن شيخ المجاهدين
في منطقة لواء القدس

وكان التحاق الوالد بالعمل في حراسة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني من أهم الأعمال التي قام بها في حياته، وأكسبته شهرة وشرفاً بين كل من عرفه من أهل فلسطين، فقد التحق به عام ١٩٣٦ واستمر برفقته حتى هروبه من لبنان عند قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، ثم استأنف عمله معه عام ١٩٤٦ وبقي في خدمته حتى سنة ١٩٥٠ .

وفي عام ١٩٢٠- وهو العام الذي استقرت فيه أسرتنا في فالونيا، أعلنت حكومة الانتداب البريطاني إنتهاء الإدارة العسكرية في فلسطين وقيام إدارة مدنية وضعت على رأسها اليهودي الصهيوني هريبرت صموئيل . وهو أول مندوب سام للإنجليز في فلسطين .

وبدأت هذه الإدارة في تنفيذ المخطط الذي رسمته الحكومة البريطانية لتهويد فلسطين . ولم يكن أمام الشعب الفلسطيني سوى التصدي لإحباط ذلك المخطط .

وكان صدام الأول من أيار- مايو- سنة ١٩٢١ في يافا فاتحة الثورة التي أعلنها الفلسطينيون على الإنجليز وربانهم اليهود . وقد أسفر هذا الصدام عن مصرع خمسين وإصابة مائة وخمسين من اليهود، كما أسفر عن استشهاد خمسين وإصابة خمسة وسبعين من العرب، وقد سقط معظم الضحايا العرب برصاص الجنود البريطانيين .

وقد شن العرب بعد هذا الصدام هجوماً واسعاً على المستعمرات الممتدة بين يافا وطولكرم . ثم توالى الثورات بعد ذلك، ففي مساء الرابع من أيلول- سبتمبر- سنة ١٩٢٨، والذي صادف يوم عيد الغفران عند اليهود، أحضر اليهود أدوات جديدة إلى حائط المبكى وأقاموا ستاراً يفصل بين الرجال والنساء، ونفخوا في الصور، فأثارت أعمالهم هذه مخاوف المسلمين واستقرازاتهم؛ وجعلتهم يعتقدون أنهم يتحذرون للاستيلاء على المسجد الأقصى بالتدريج ليقموا على أنقاضه هيكلمهم المزعوم .

وقد ضاعف من خطورة هذا الحادث أن اليهود لم يذعنوا لأوامر السلطات الحكومية عندما أمرتهم بنزع الستارة التي نصبوها، وإعادة المواد التي أحضروها .

وأخذ اليهود يستعدون لعمل استقرازي آخر بعد أن تولى رجال الشرطة نزع الستارة ومصادرة الأدوات، ففي الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٢٩ - وهو يوم ذكرى خراب الهيكل - قاموا بمظاهرة كبرى في تل أبيب رفعوا فيها أعلامهم، وأخذوا يهتفون بالعبرية (الحائط حائطنا) .

وبعد ذلك بيومين خرج المسلمون بعد صلاة الجمعة من المسجد الأقصى في مظاهرة عارمة متجهين نحو حائط المبكى وقلبوا منضدة لشماس يهودي، وأحرقوا الأوراق التي اعتاد اليهود أن يدسوها في نقوب الحائط .

وفي يوم الجمعة التالي الموافق للثالث والعشرين من آب - أغسطس - سنة ١٩٢٩ غادرت جموع المصلين ساحة الحرم الشريف وقامت بهجوم عام على يهود مدينة القدس .

وسرى نياً ذلك الهجوم إلى سائر المدن والقرى في مختلف أنحاء فلسطين، فاندلع لهيب الثورة ضد اليهود وحماتهم في كل مكان من أنحاء البلاد .

ومن الأحداث الهامة التي وقعت في إطار هذه الثورة ما حدث في مدينة الخليل التي قام أهلها في الرابع والعشرين من آب - أغسطس - سنة ١٩٢٩ بمداومة الحي اليهودي في مدينتهم وقتلوا من سكانه أكثر من ستين يهودياً وجرحوا أكثر من مائة، وأجبروا من بقي منهم على الخروج من المدينة التي ظلت طاهرة من دنسهم حتى نكسة حزيران - يونيو - سنة ١٩٦٧ حيث عادوا إلى الاستيطان فيها من جديد والانتقام من

أهلها شر انتقام. وفي إطار هذه الثورة الشاملة فإن وفائي لقريتي يفرض عليّ إبراز دورها فيها ودور والذي بالذات .

في التاسع والعشرين من آب- أغسطس- سنة ١٩٢٩ هاجم العرب جميع المدن والمستعمرات اليهودية وأشعلوا فيها النيران مما أجبر الحكومة البريطانية على استقدام نجذات عسكرية من الخارج للقضاء على هذه الثورة العارمة .

وقد نجم عن هذه الاشتباكات وفقاً للتقديرات الحكومية سقوط (١٣٥) قتيلاً و(٣٤٠) جريحاً من اليهود، واستشهد (١١٦) عربياً وجرح (٢٤٠) منهم، سقط معظمهم برصاص الإنجليز الذين دأبوا على توجيه رصاصهم ضد العرب دون اليهود في جميع المواجهات .

وقد أدانت المحاكم البريطانية (٧٩٢) عربياً وحكمت عليهم بالسجن لمدد مختلفة، وكان بين هذه الأحكام عشرون حكماً بالإعدام خفض (١٧) منها إلى السجن المؤبد، ونفذ الحكم في ثلاثة من أبطال ثوار الخليل وهو الشهداء عطا الزير ومحمد مجوم وفؤاد حجازي . وقد خلّدهم شاعر فلسطين الكبير المرحوم إبراهيم طوقان في قصيدته الخالدة "الثلاثاء الحمراء" .

ومن باب التلميح حكمت إحدى المحاكم على يهودي واحد بالإعدام، ثم خفض عنه الحكم إلى السجن لمدة خمسة عشرة سنة، ولم يلبث أن أطلق سراحه بعد صدور الحكم بشهور قليلة .

وفي إطار هذه الثورة الشاملة فإن وفائي لقريتي يفرض عليّ إبراز دورها ودور والذي بالذات فيها .

في صبيحة السبت الرابع والعشرين من آب- أغسطس- سنة ١٩٢٩ هاجم أهالي قريتنا بقيادة الوالد مستعمرتي مونس الفوقه "آرزا" ومونس التحنة. وكان محمد سميرين والشيخ علي محمود لقح ونعمان عبد الله كنة في مقدمة المهاجمين .

وقد أحرق المهاجمون عدداً من بيوت المستعمرتين، وقتلوا سبعة من سكان مونس التحنة. وقد استشهد في ذلك الهجوم من أهالي قريتنا الشيخ علي محمود لقح ونعمان كنة . وفي عصر ذلك اليوم وصل من القدس أربع دبابات لحماية مونس. وقد تمركزت تلك الدبابات في نقاط مختلفة من شارع القدس يافا الذي يقسم المستعمرة إلى قسمين.

اتخذت واحدة من هذه الدبابات مكاناً لها فوق منزل عبد الرؤوف نسيبه الذي كان يقع في أسفل مستعمرة آرزا- ولم يكن يفصل بينه وبين المستعمرة المذكورة غير الشارع - وكان المكان الذي وقفت فيه تلك الدبابة مشرفاً على القرية بحيث يمكن من فيها من تصويب سلاحه إلى أي منزل من منازل القرية .

وفي فجر يوم الخامس والعشرين من آب- أغسطس- ١٩٢٩ نهض الشيخ حسين سلامة حسين وزوجته من نومهما وأخذاً يتوضآن للصلاة الفجر، فأوجس من في الدبابة من جنود بريطانيا الأوغاد منهما خيفة، وظنا أنهما سيطلقان النار على الدبابة، فقد كان الشيخ وزوجته ينمان فوق سطح المنزل بسبب شدة قيظ صيف ذلك العام .

قرر طاقم الدبابة أن يأخذ زمام المبادرة فوجه نيرانها حيث يوجد الشيخ وزوجته وأرداهما قتيلين وأصاب صغيرهما أحمد الذي هبّ مذعوراً إثر سماعه أصوات الرصاص بجراح .

فقد الوالد باستشهاد الشيخ حسين نصيره الأول في قالونيا، فازداد حقه على اليهود وحماتهم من البريطانيين، وقد استقر في أعماقه أنه أصبح

له عندهم ثأراً خاصاً بالإضافة إلى الثأر العام الذين يدينون به لكل عربي ومسلم إلى يوم الدين .

بعد الهجوم على دار مكلف التي كنا نطلق عليها اسم دار النمر شدد الإنجليز من قبضتهم على قالونيا . وقد تمثل ذلك في تغريم أهالي البلدة مبلغ عشرة آلاف جنيه فلسطيني على الرغم من تبرئة جميع القلاونة من التهم الموجهة إليهم .

وقد تعاون أهالي القرى المجاورة مع أهالي قالونيا فقاموا بالتبرع بجزء من هذه المبالغ، وقام القلاونة بدفع جزء آخر منه جمعه من القادرين من أبناء البلدة، وقام المجلس الإسلامي الأعلى بدفع المبلغ الذي عجز القلاونة وأهالي القرى المجاورة عن جمعه .

وفي السابع والعشرين من آب - أغسطس - سنة ١٩٢٩ قامت إحدى الدبابات الإنجليزية التي كانت تسير بسرعة جنونية وهي متجهة إلى القدس بإطلاق النار على أربعة رجال هم: الشيخ عبد الرحمن سالم إمام القرية، ويوسف مروم - أحد مسيحي البلدة - وأحمد الديسي وأنيس المالحي وهم جلوس أمام منزل يوسف مروم فقتلت عليهم في الحال.

منذ ثورة عام ١٩٢٩ وحتى نشوب الانتفاضة الثانية المسماة بانتفاضة الأقصى قدمت قالونيا حتى عام ٢٠٠٤ ثمانية وعشرين شهيداً منهم تسعة شهداء عام ١٩٢٩ وهم على التوالي:

نعمان عبد الله درباس، وعلي محمود حمدان، والشيخ حسين سلامة عسكر، وعزیه محمد علي سلامة عسكر، والشيخ عبد الرحمن سالم، ويوسف مروم وهو من مسيحيي البلدة، وأحمد الديسي، وأنيس المالحي، وزريفة موسى حمدان.

وفي عام ١٩٤٨ استشهد كل من محمد دالح عبد ربه وتيم محمد خضر - زوج شقيقتي الوسطى دله - وإبراهيم محمود خضر، وحلوة عبد ربه، وهاشم سعيد سلمان - الابن الوحيد لمختار دار الغليظ - وامدته محمود لقح، ومحمد مصطفى صباح، ومحمد الحاج حسن الخطيب.

وفي عام ١٩٦٧ استشهد مجدي محمد مطر وهو شقيق حمدي مطر عضو المجلس الوطني الفلسطيني وعضو اللجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وفي عام ١٩٦٨ استشهد عز الدين عبد الكريم صباح، وفي عام ١٩٧٠ استشهد صلاح طالب خضر، وأحمد محمد خليل خضر وهو ابن شقيقتي الكبرى امدته.

وفي عام ١٩٧٣ استشهد محمد محمود الحاج حسن الخطيب، وفي عام ١٩٧٨ استشهد زهدي أيوب مصطفى خليل.

وفي عام ١٩٨٢ استشهد ولدي محمد رجا سمرين، وفي عام ١٩٨٨ استشهد وديع محمود صلاح، وأيمن محمود جبران.

وفي عام ١٩٩٦ استشهد فايز مشهور محمد فرحان. وكان آخر الشهداء الذين قدمتهم قالونيا على مذبح الغداء الشهيد رياض سعدى سلامة عسكر وذلك في انتفاضة الأقصى سنة ٢٠٠٠م.

كان الهجوم على مستعمرة مونتسا عام ١٩٢٩ هو العملية الجماعية الوحيدة التي شارك فيها الوالد . وقد حز في نفسه وآلمها أشد الألم فقدان القرية لاثنتين من رجالها البررة، فألقى على نفسه بعد ذلك أن يقوم بمفرده بتنفيذ ما يستطيعه من العمليات .

ولقد سأله ذات يوم عن الفلسفة التي انطلق منها في اتخاذ هذا القرار فقال رحمه الله : لا فلسفة ولا يحزنون يا ولدي، إنكم معشر المتعلمين تحبون أن ترجعوا تصرفات أي إنسان إلى فلسفة من الفلسفات،

وأنا يا بني لا أعرف شيئاً عما تسمونه فلسفة. إن كل ما في الأمر هو أن الغالبية من أبناء بلدتنا كانوا من الفقراء، وأن العائلة التي تفقد عائلها إنما تفقد مورد رزقها الوحيد، لذلك آليت على نفسي ألا أسمع امرأة من قالونيا وهي تدعو على محمد سمرين الذي كان سبباً في فقدان عائلها الوحيد.

لم يكن الوالد ملتزماً في بدايات نضاله بالانضمام إلى أي فصيل من فصائل الثورة، وإن كان قد أصبح بعد أن غدا من رجالات المفتي المعدودين مجلسياً متعصباً يضرب بسيف الحاج أمين، ويدعو إلى طاعته، ويأتمر بأوامره، ويدعو غيره إلى تنفيذها .

وكان على صلة وثيقة بعدد من قادة الفصائل الثورية ورجالها المعروفين منهم : الشهيدان سعيد العاص وعبد القادر الحسيني وعبد الرحمن الحاج محمد والشيخ يوسف أبو درة وعبد الحليم الشلف وأبو شعبان ومحمد البطق و خليل منون وعبد الرحمن شحدة وسواهم .

وعلى الرغم من معرفة الوالد بهؤلاء وبغيرهم من الوطنيين الأفاضل إلا أنه كان يستقل بالتخطيط بنفسه لما كان ينوي أن ينفذ من عمليات .

وقد تمكن - رحمه الله - من تنفيذ عدد من العمليات الناجحة في عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧، وهو العام الذي عادت فيه الثورة إلى الإشتعال من جديد بعد أن تبين لأهل فلسطين كذب الوعود التي قطعها بريطانيا على نفسها بشأن تحقيق العدالة في البلاد إذا هم أنهوا إضرابهم العتيد الذي أعلنوه عام ١٩٣٦ م .

وكانت بندقية محمد سمرين السواري رفيقته في جميع العمليات التي قام بها بعد عملية بيت دار النمر. وكثيراً ما رأيته وهو يحرص على تنظيفها وتزيينها والعناية بها. وكان يضعها في جراب مطاطي يقيها من العوامل الجوية، وقد اختار لها مخبئاً هو عبارة عن كهف صغير في أرض الزحليقة، وكان يدفنها مع ذخيرتها ومسدسه أبو طاحونة. ونظراً للمكانة

التي كان يحتلها السلاح في حياة الوالد فإنني سأورد قصة حدثت لهذه البندقية في مكانها الملائم من هذه المذكرات إن شاء الله .

وفي اليوم التالي للهجوم على دار مكلف طوق الإنجليز البلدة وألقوا القبض على نحو خمسة وأربعين من رجالها، ولكنهم لم يلبثوا أن أفرجوا عن معظمهم، وقدموا ثلاثة عشر رجلاً منهم إلى المحاكمة بتهمة القتل والتخريب وقطع خطوط الهاتف. وكان الوالد أحد هؤلاء الرجال الذين قدموا للمحاكمة .

وقد استغرقت المحاكمة مدة شهرين برزت في نهايتها ساحة جميع المتهمين من تهمة القتل وحكم على أهالي البلدة بغرامة قدرها عشرة آلاف جنيه فلسطيني .

وكانت المدة التي قضاها الوالد في المعتقل بسبب عملية النمر هي أطول مدة قضاها في معتقلات حكومة الانتداب. وقد بلغت حوالي ستة أشهر تقريباً .

كنت في الشهر السادس من عمري عندما قام أهالي بلدتنا بالهجوم على موتسا، وقد حدثني الوالدة - رحمها الله - أنها ذهبت لزيارة الوالد في معتقله بالمسكوبية وهي تحملني بين ذراعيها، فاستبشر المعتقلون، وتفاعلوا خيراً بهذا الطفل البريء الذي جاء لزيارة والده في المعتقل.

وقد شاء الله أن لا يخيب قائلهم إذ لم تلبث سلطات الانتداب أن أفرجت عنهم جميعاً بعد أن أسفرت المحاكمة عن عدم وجود أدلة كافية لإدانتهم .

وفي اليوم التالي للهجوم على موتسا ظهرت في وجنتي اليسرى ندبة صغيرة أرجعتها الوالدة إلى فساد لبنها بعد أن أصيبت بهلع شديد عند ورود أبناء في يوم الهجوم تتحدث عن استشهاد عدد من رجال البلدة في ذلك الهجوم .

لقد دخل في روح الوالدة أن الولد لا بد وأن يكون واحداً من الشهداء فهي تعرف أكثر من غيرها بسالته وإقدامه.

قالت الوالدة : ظهرت تلك الندبة بعد أن أرضعتك من لبني وأنا خائفة، وقد ظلت تكبر وتكبر إلى أن اضطررتنا إلى عرضك على طبيب ألماني في القدس. وقد استغرق علاجك عند هذا الطبيب فترة طويلة. وبقي أثر الندبة واضحاً في خدك الأيسر متخذاً شكل تفاحة .

والحقيقة أنني أتذكر كثيراً من الآلام التي عانيت بها من ذلك فقد استغرق علاجها أكثر من ست سنوات عانيت في خلالها من الآلام مالا يمكن احتماله .

وليت الأمر توقف عند الألم الحسي، ولكن تعداه إلى الألم النفسي، بسبب التشوه الخلقي الذي أحدثته تلك الندبة في وجهي والذي جعل رفاق الصبا - غفر الله لهم - يطلقون عليّ لقب : "أبو تفاحة" وكانوا يدعونني أحياناً بـ "أبو خد مخشوم" . وأذكر فيما أذكر من حوادث الصبا أنني كنت عائدات ذات يوم من المدرسة - وكنت في الصف الرابع الابتدائي - أي في الحادية عشرة من عمري - أقول كنت عائداً من المدرسة، فلما وصلت في مسيري إلى دار علي أبو حنين تصدى إلي ولد من أترابي وهو واقف أمام منزله وقال مستهزئاً بي دونما سبب يدعو إلى قوله : هيه... أبو تفاحة... أبو تفاحة، وراح يرددتها حتى غبت عن ناظريه . اكتفيت ساعته بشتمه ومضيت في طريقي وفي أعماقي نيران الغضب المشتعلة ما يكفي لإحراق ذلك الولد وأهل بيته . وكتمت عدوانه هذا في نفسي إلى أن كان ذات يوم صادفته فيه في زقاق ضيق لا يكفي إلا لمرور شخصين يقع بين منزل سعيد سلمان مختار دار الغليظ ومنزلي خليل عاصي وحسين افقيس، واهتبلت الفرصة وأسرعت إلى تناول حجر يملأ كفي الأيمن وأسكت بذلك الولد وطوقته بذراعي الأيسر وشرعت أضرب رأسه بالحجر... أدقه به دقاّ مرات متتالية، وأنا أقول : خذها من يد أبي تفاحة أيها الكلب .

وراح الولد يصرخ بأعلى صوته، وقد حرمته المفاجأة والآلام المبرحة حتى من التفكير بالمقاومة. وقد ظل يصرخ بين يدي حتى ساق الله له امرأة كانت في طريقها إلى بيتها عبر ذلك الزقاق الضيق، فخلصته من بين يدي وهي تقول: حرام عليك يا رجلاً... إنك ستقتل الولد... كيف يقولون عنك إنك ولد طيب .

عندها لم أجد مفرأ من تبرير فعلتي لتلك المرأة التي لم أعد أذكر اسمها، فعذرتني على ما فعلت وعلقت على ذلك قائلة: (يستحق ما حدث له... الله لا يردّه ولا يرد الذين أنجبوه... كان ينبغي أن يفكر طويلاً قبل أن يتعرض لابن محمد سمرين) وانطلق الولد يعدو بسرعة الريح إلى منزله وهو يصرخ بأعلى صوته والدماء تسيل غزيرة من عدة جروح في رأسه .

والطريف في الأمر أن هذا الولد قد أصبح بعد ذلك في عداد أصدقائي . وقد أعطيته بعد أن أصبحت معلماً بعد ذلك بسنوات عدداً من الدروس الخصوصية في اللغة الإنجليزية.

بعد مرور نحو ستين عاماً على مهاجمة أهالي قريتنا موتسا نشرت جريدة الأنباء الكويتية في الثامن من أيلول - سبتمبر - سنة ١٩٨٩ مقالاً مترجماً أورد فيه كاتبه الصهيوني "إيلات نيجف" مزيداً من التفاصيل حول أحداث عام ١٩٢٩ تمثل وجهة النظر الصهيونية .

يقول الكاتب في هذا المقال :

" لقد شهدت البلاد - يعني فلسطين - هدوءاً تاماً منذ أحداث عام ١٩٢١، غير أن النيران كانت مشتعلة تحت الرماد وعندما انفجرت لم يكن بمقدور أحد إيقافها أو دفعها، وبدأت بوابر الانفجار في مطلع أيلول ١٩٢٨ يوم "عيد الغفران".... ويمضي الكاتب قائلاً :

غادر المندوب السامي البريطاني (تشنسلور) البلاد في صيف عام ١٩٢٩، وتسلم إدارتها (هاري لوك) السكرتير الأول للمندوب، وهو يهودي مرتد، ومعاد للصهيونية، وقد صادق لوك على منح إجازات لموظفين حكوميين وضباط شرطة بالرغم من أنهم كانوا في حالة تأهب واستعداد....

وقد استغلت الزعامة العسكرية العربية وعلى رأسها المفتي الحسيني هذه الظروف، وأصدرت أوامرها إلى الجماهير العربية المستنفرة والمحرضة للتفتيش عن غضبها في اليهود، ولأول مرة في تاريخ النزاع العربي اليهودي يأخذ العرب زمام المبادرة العسكرية في أيديهم، ويستخدمون فيها وسائل وإمكانات غير قليلة لتحقيق أهداف سياسية، وقد اختبرت القدس هدفاً للأحداث كي تجذب انتباه العالم بأسره .

وبعد عدة أيام من التاسع من آب ١٩٢٩ أخذ القرويون في القرى العربية يتهايمسون قائلين: إن المفتي أصدر أمراً بالتوجه إلى القدس يوم الجمعة القادم لمحاربة اليهود .

وشرعت (مناجر) القدس تعد هراوات طويلة وفي رأسها عدة مسامير قوية مغروزة، وخفضت أسعار الخناجر والسكاكين، وروّجت إشاعات تقول: إن اليهود يعتزمون الاستيلاء على بيت المقدس وإقامة الهيكل على أنقاضه...

وفي صبيحة يوم الجمعة الموافق ١٩٢٩/٨/٢٣ تدفقت جماهير غفيرة من الفلاحين على القدس من القرى والضواحي، ولم تصحب تلك الجماهير كما هي عادت أطفالها ونساءها معها، وبدلاً من ذلك تسلحت بالهراوات والمدى والخناجر واصطف الآلاف منهم في باحة المسجد الأقصى يصغون إلى خطبة الخطيب التي تحضهم على الجهاد وذبح اليهود. وفي حوالي الثانية عشرة والنصف اندفع المصلون من باحات الحرم وأزقة البلدة القديمة ملوحين بالحرايب والهراوات مطلقين صرخات الانتقام نحو الأحياء الشمالية والجنوبية للمدينة .

ووقفت الشرطة البريطانية موقف المتفرج بينما لم يكن في حوزة أعضاء (الهاغاناه) الذين تطاردهم القوات البريطانية والاستيطان اليهودي المحافظ أيضاً سوى النزر اليسير من الأسلحة والذخائر .

وطيلة يوم الجمعة قام عرب قرية (قالونيا) برشق السيارات السائرة على طريق القدس تل أبيب بالحجارة . وتقول شوشنة بروزة: قطعت خطوط تليفوناتنا في ساعات ما بعد الظهر، فأدركنا أن الأوضاع ليست على ما يرام. وتحت ستر الظلام جاء إلى منزلنا عامل عربي كان يشتغل لدى أبي ولدي "مكلف" وطلب التحدث مع أبي على انفراد، وقال له: لقد قدم إلى قريتنا بعض المحرضين، وحرصونا على ذبح اليهود. ثم عاد إلى قريته. غير أن أبي لم يتأثر وقال: (إن أهالي قالونيا لن يمسون بأي أذى فهم إخوة لنا) . غير أن أخي "منتيهاو" لم يقف مكتوف الأيدي بل اصطحب موشيه مكلف وتوجها إلى القدس لطلب المساعدة من الإدارة الصهيونية، وعادا وبصحبتهما أربعة مسلحين من أعضاء منظمة "الهاغاناه" .

اليعازر ليرمان (٣٨ سنة) كان عامل بناء في تلك الآونة وعضواً في منظمة الهاغاناه منذ عام ١٩٢٧، وقد تم استدعاؤه عندما انفجرت الأحداث، ويقول بهذا الصدد: سلمونا "أي المسؤولون في الإدارة الصهيونية" مسدسات ثم منحونا لباساً مزيفاً يدل على أننا من رجال شرطة خاصة كي نتمكن من التحرك في المدينة برغم نظام حظر التجول المفروض وخلال توجهنا إلى (مصّا) أطلق العرب النار على سيارتنا ولم يكن بمقدورنا الرد على النار لأن مسدسينا كانا مخبأين أسفل السيارة خشية التفتيش .

وعندما وصلنا إلى (مصّا) وجدنا اليهود ينتظروننا هناك. وكنت أنا قائد المقاتلين فقلت لهم: اسمعوا أيها اليهود، نحن مجرد أربعة مقاتلين فقط، وأنتم كثيرون ومنازلكم متباعدة، لذا أقترح عليكم أن تتجمعوا في مكان واحد

كي يكون بمقدورنا الدفاع عنكم. غير أنه كان هناك عائلات متنازعة مع بعضها البعض.

ويضيف ليرمان : توجهت مع المقاتلين إلى منزل المختار "شطينبرج" ولو أن العائلات المتنازعة وافقت على الاجتماع سوية لكان بالإمكان الحيولة دون وقوع المذبحة .

لم يحضر العربي الذي اعتاد صبيحة كل يوم جلب الحليب إلى القدس. وفي الخامسة والنصف من صبيحة يوم السبت سافر حاييم مكلف وبن تسبون بروزة في سيارة لإحضار الحليب اللازم لمستشفى هداسا في القدس، لكنهما عادا في الساعة والنصف فاستقل الأب السيارة وتوجه إلى المنتجع اليهودي القريب للاتصال بالقدس، وطلب العون، غير أن الخطوط كانت مقطوعة هناك أيضاً . وفي الطريق اصطدم بصلاح، الراعي العربي الذي يعمل لدى عائلة مكلف فقام بإطلاق النار عليهما .

يقع منزل عائلة مكلف على يمين الطريق المؤدية إلى تل أبيب، وهو منعزل عن باقي المنازل اليهودية الأخرى. وكان فيه في تلك اللحظة خمسة من المصطافين الذين اعتادوا القدوم للاستشفاء فيه خلال الصيف وهم الحاخام زلمان شاخ (٨٣ سنة) ودنئيل جلزر (٦٠ سنة)، ويافا تشفنيك وابنتها سارة (١٤ سنة) من تل أبيب، ومريم سيركيس.

وفي ذلك اليوم تأخر حاييم مكلف في منزل مختار القرية "شطينبرج" كي يطرح أمام أعضاء منظمة الهاغاناه مخاوفه من الأحداث القادمة عارضاً عليهم بنديته القديمة .

وتقول شوشنة بروزة : جلست تحت إحدى الأشجار أقرأ كتاباً، وفجأة وجدت القرية محاطة بالعرب المتدفقين إليها من رؤوس الجبال، فسارعت لدخول المنزل بينما بادر العرب برشق النوافذ بالحجارة . وشرع أبي في إطلاق النار من مسدسه عليهم، وعلى ما يبدو أنه أصاب أحداً ما.

بعدها غادر المهاجمون القرية بسرعة، وانضموا إلى الجماهير التي هاجمت منزل "مكلف" .

وقد سمع حاييم أصوات الصراخ وإطلاق النار وعاد إلى منزله مسرعاً من منزل شطينبرج، غير أن الوقت كان قد فات، فعلى درجات السلم كان الأب والأم والأخ موشيه مطروحين على الأرض فاقدى الحياة. والأخت منيه قتيلة في غرفتها، وقد اخترقت صدرها رصاصتان. وفي المطبخ كانت أخته (رفكا) تتوسد الأرض فاقدة الحياء بعد أن أصابها رصاصة في رأسها، وفي الغرفة الكبيرة كان الحاخام جلزر والحاخام شاخ قتيلين .

وجه حاييم بنديته نحو المهاجمين وأطلق النار فأردى واحداً منهم قتيلاً، غير أن الرصاصة الثانية انحسرت في فوهة البندقية مما جعل البندقية مجرد عصاة استخدمها للدفاع عن نفسه .

ويقول حاييم: وجدت حنا ومردخاي لا زالا على قيد الحياة لم يمسهما سوء فدفعتهما نحو شرفة المنزل الخلفية وجعلتهما يقفزان منها، وقفزت خلفهما، وسارعنا إلى الحظيرة، وأخرجنا حصاناً محاولين الهرب، غير أن العرب أطلقوا النار على الحصان فقتلوه، مما اضطرنا لقطع المسافة إلى منازل اليهود ركضاً .

مكث يوحنا رتر أحد كبار الهاغاناه إبان تلك الأحداث في القدس. وقد أمر باصطحاب ستة من المقاتلين والتوجه بهم نحو تل أبيب بحثاً عن ناقلة محملة بالمواد الطبية فقدت في الطريق والتأكد من الشائعات حول قرية مصّا. وفي الطريق أمطروهم العرب بوابل من النيران. وفي تلك الأونة عاد العرب إلى مصّا وأضرموا النيران في منزل مكلف، وأمطر منزل شطينبرج بنيران غزيرة.

لقد كان ذلك اليوم بمثابة يوم عصيب لليهود، ففي الخليل وحدها قتل (٥٩) يهودياً من الجالية اليهودية التي قدرت آنذاك بستمانه نسمة، وخلت أماكن السكن اليهودية من أصحابها نهائياً حتى عام ١٩٦٧ .

كما سارع يهود نابلس وطولكرم وجنين بمغادرة منازلهم حتى الأبد، كما حدثت أعمال شغب في تل أبيب وحيفا وصفد وفي عشرات النقاط الاستيطانية اليهودية الأخرى. وبلغت حصيلة القتلى (١٣٣) يهودياً .

لقد هجر المستوطنون اليهود مصفاً في أعقاب الحادث ولم يعودوا إليها إلا بعد حوالي عام كامل كي يرموها ويعيشوا فيها من جديد. وفي عام ١٩٤٨ مسحت قرية قالونيا من الوجود .

وفي السادس والعشرين من شهر تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٢٩ بدأت محاكمة (٢١) شخصاً من قالونيا بتهمة قتل عائلة مكلف. وكان حاييم هو الشاهد الوحيد في تلك المحاكمة. حيث تمكن من تشخيص جميع الأشخاص الذين شاركوا في الحادث. وبعد شهرين من المحاكمات عقدت خلالها خمسون جلسة رفضت المحكمة جميع الشهادات التي أدلى بها أفراد عائلة بروزة. نظراً لرفضهم تقديم أية معلومات حول أسماء أعضاء الهاغاناه الذين تواجدها في القرية.

وفي ختام الجلسات برأت المحكمة المتهمين العرب لعدم توافر أدلة الإثبات الكافية، وأمرت بتقديم شموئيل بروزة وحاييم مكلف للمحاكمة بتهمة قتل عرب خلال أحداث الشغب المذكورة لكنها في النهاية برأتهم. وهكذا حاول البريطانيون المحافظة على التوازن وعدم إغضاب أي طرف من الطرفين أكثر مما ينبغي... وفي أعقاب تلك الأحداث بذلت الهاغاناه جهودها لتعزيز قوتها وتسليحها...

لقد أنهى مردخاي مكلف المدرسة الابتدائية في القدس عام ١٩٣٣ ثم ألحقه جده بالمدرسة الإعدادية والثانوية (هرثيل) في حيفا... وقد جند مكلف لسرايا (واينجط) الليلية اليهودية، وخلال الحرب العالمية الثانية خدم

كضابط في إحدى الفرق البريطانية. وفي عام ١٩٤٦ أنهى خدمته العسكرية وسكن في مستوطنة (برس حنا) ومع انفجار حرب عام ١٩٤٨ شارك في القتال الذي دار لاحتلال حيفا والجليل الشرقي .

وفي عام ١٩٤٩ عُيِّن نائباً لرئيس الأركان . وفي عام ١٩٥٢ عُيِّن رئيساً للأركان، ومن ثم عُيِّن عضواً في إدارة شركة الكهرباء، ثم مديراً عاماً لمصانع البحر الميت، ومديراً عاماً لمجلس تسويق الحمضيات، ومات إثر إصابته بنوبة قلبية عام ١٩٧٩ .

إن المغالطات والافتراءات والإدعاءات الكاذبة التي أوردها الكاتب الصهيوني (إيلات نيغف) في مقاله السابق أظهر من أن تخفى على الإنسان العربي وبخاصة الفلسطيني، لقد تحدث الكاتب عن لعبة التوازن التي كانت تحرص السلطات البريطانية على أن تلعبها مع أن تلك السلطات لم تضع هذه اللعبة يوماً ما في حساباتها، ولا في مخططها الذي رسمته لتهويد فلسطين .

لقد كان انحيازها إلى جانب اليهود طوال مدة انتدابها على فلسطين أظهر من أن يخفى على إنسان .

وقد حاول حاييم مكلف أن يرسم لنفسه صورة البطل منقذ الأطفال عندما ادعى أنه قام بإنقاذ شقيقه حنا ومردخاي، مع أنني واستناداً إلى ما سمعته من رواية الوالد ورواية العم محمد مطر حول هذا الموضوع عرفت أنه لم يكن لحاييم أي فضل في إنقاذ هذين الطفلين .

كان في إمكان الوالد ورفاقه أن يقتلوا الولدين ولكن أخلاقهم العربية والإسلامية منعتهم من ذلك حيث طلب الوالد يرحمه الله من رفاقه ألا يمسوهم بسوء، وأشار على ابن عمه محمد مطر أن يوصلهما إلى مكان يأمان فيه على نفسيهما فأوصلهما إلى بيت شموئيل بروزة. لقد كان الوالد ضعيفاً أمام الأطفال بعد أن جرب فقد أربعة من أبنائه في سن الطفولة

المبكرة، ولو أطلع الوالد ورفاقه على الغيب وعرفوا أن أحد هذين الطفلين سيغدو في المستقبل رئيساً لأركان جيش الدفاع الإسرائيلي لما أبقوا عليه وعلى أخيه .

وقد تحدث الكاتب عن تبرئة الاثنى عشر متهماً من أبناء قالونيا من التهم المسندة إليهم في تلك الأحداث، وعزاها إلى رفض حاييم مكلف وآل شموئيل البوح بأسماء رجال الهاغاناه الذين هبوا لنجدهم، وحاول من خلال ذلك أن يوحي للقارئ أن منظمة الهاغاناه كانت منظمة محظورة بل ومطاردة من قبل السلطات البريطانية، مع أن المعروف جيداً أنها كانت تعمل تحت سمع سلطات الانتداب وبصرها على الرغم من أنها اتبعت بصورة غير قانونية من منظمة الحرس الذي شكلته حكومة الانتداب نفسها لحراسة المستعمرات .

أما السبب في تبرئة المحكمة لأبناء قالونيا من التهم المسندة إليهم فإنما يرجع إلى براءة المحامين الذين دافعوا عن رجال قالونيا، وأرجعوا ادعاء تعرف الشهود عليهم إلى معرفتهم السابقة بهم وليس إلى مشاهدتهم في مكان الأحداث .

أما مجموعة المحامين التي انتدبها المجلس الإسلامي الأعلى للدفاع عن أبناء قالونيا فقد كانت مؤلفة من السادة: فخري الحسيني وجورج صلاح وفايز نزال وإبراهيم كمال ونصري نصر . وكانوا من خيرة المحامين في البلاد .

وقد أشار الكاتب إلى غزارة النيران التي كان يطلقها العرب على موصاً مع أن الوالد - رحمه الله - حدثني بأنه لم يكن مع أهالي بلدتنا المهاجمين سوى بندقية واحدة كانت مع أحمد محمود حمدان لقح، وأن الأسلحة التي كانت معهم لم تكن سوى سيف مع أحمد عويدات وشبرية مع محمد سمرين وخنجر مع محمود طليب وفأس مع رمضان علان وشبرية

مع نعمان عبد الله كته وعصا مع الشيخ محمود حمدان لقح وموسى مع أحمد حامد، وأن الباقيين منهم لم يتسلحوا بغير الهراوات .

في بداية العام الدراسي من سنة ١٩٣٦ ألحقتني أمي بمدرسة القرية، وقد أسلمتني إلى الشيخ حسن نسيبه المعلم الوحيد في المدرسة وهي تقول: وديعتك رجا يا سيدنا الشيخ، نريده أن يتعلم على يدك المباركتين . ووعدها الشيخ خيراً بعد أن سألها عن أخبار أبي رجا الذي كان معتقلاً في القدس إثر إلقاء القبض عليه بعد أن قام بإحدى عملياته الفدائية ضد اليهود قبيل بدء العام الدراسي بقليل .

وقد أخبرته والدة بأن أبارجاً مازال في انتظار فرج الله في معتقله العتيد بالمسكوبية .

كان عام ١٩٣٦ هو العام الذي نشبت فيه ثورة فلسطين الكبرى تلك التي صاحبها اضطراب عام استمر ستة أشهر كاملة. وقد شل الاضطراب معظم مرافق الحياة في فلسطين، وقد شارك فيه معظم فئات الشعب الفلسطيني.

وقد اتفقت كلمة الأحزاب على تأليف لجنة عربية عليا للإشراف على الحركة الوطنية وقيادتها وتنظيمها. وانبثق عن هذه اللجنة لجان مصغرة في كل مدينة وقرية تقوم بتنفيذ التعليمات التي تتلقاها من اللجنة العليا .

وقد تألفت اللجنة العليا برئاسة مفتي فلسطين الأكبر أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وعضوية حزب الدفاع- وعوني عبد الهادي- أمين سر حزب الاستقلال- والدكتور حسين فخري الخالدي- رئيس حزب الإصلاح- وعبد اللطيف صلاح- رئيس حزب الكتلة الوطنية، ومحمد يعقوب الغصين- رئيس مؤتمر الشباب العربي، وثلاثة أعضاء آخرين عن المستقلين وهم: أحمد حلمي عبد الباقي ويعقوب فراج وأنفريد روك .

وقد ابتهج الشعب الفلسطيني بالأحزاب الذي طالما ثمنه ودعا إليه، وبتأليف اللجنة القومية العليا، فالتف حولها وأبدى استعدادة للكفاح المستميت بقيادتها .

وفي السابع من أيار - مايو - ١٩٣٦ دعت اللجنة العليا للجان القومية المتفرعة عنها إلى مؤتمر وطني في القدس، فعقد المؤتمر وأصدر إعلاناً بالعصيان المدني والامتناع عن دفع الضرائب.

وقد ردت حكومة الانتداب على ذلك القرار بالإعلان عن أنها تعترم إدخال (٤٥٠٠) مهاجر يهودي إلى فلسطين في النصف الثاني من ذلك العام.

ورداً على ذلك تشكلت فرق من الفدائيين كان يطلق عليهم الفلسطينيون لقب الثوار، وتحول الإضراب العام الذي كان قد بدأ في العشرين من إبريل إلى ثورة مسلحة شملت جميع أنحاء البلاد .

وقد لجأ الثوار الفلسطينيون إلى نفس طرق المواصلات، وخطوط السكك الحديدية، وقطع أسلاك البرق والهاتف، واغتيال كبار الموظفين الإنجليز، وبخاصة العسكريين منهم، واغتيال الخونة والجواسيس والسماسرة وبائعي الأرض لليهود، ومهاجمة المستعمرات اليهودية، والأحياء اليهودية في المدن الكبرى، وقتل من يستطيعون الوصول إليه من سكانها .

وقد ازدادت الثورة تاجحاً واتساعاً بتدفق وفود المتطوعين إليها من الأقطار العربية المجاورة، ولا سيما مصر وسوريا والعراق والأردن ولبنان.

وقد تحققت الوحدة العربية بأجلى صورها، وأروع مظاهرها في ذلك الجهاد المقدس الذي وقف فيه أبناء العروبة فيه جنباً إلى جنب مع إخوانهم من أبناء فلسطين. وقد حاولت حكومة الانتداب إخماد الثورة بشتى الوسائل، ولكنها أخفقت في ذلك إلى حد كبير .

ولما تأكد الإنجليز من فشل جميع وسائلهم التي لجأوا إليها لوقف الثورة وإطفاء جذوتها لجأوا إلى وساطة ملوك العرب وأمرائهم لإخمادها وإجهاضها .

واستجابة لهذا المسعى وجه كل من الملك عبد العزيز آل سعود والملك غازي والإمام يحيى حميد الدين والأمير عبد الله بن الحسين إلى أهل فلسطين نداءً طالبوهم فيه بإنهاء الثورة، والإخلاق إلى السكينة حقناً للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتهم بريطانيا التي أعلنت رغبتها في تحقيق العدل .

وفي تشرين أول - أكتوبر - سنة ١٩٣٦م أصدرت اللجنة العربية العليا نداءً ناشدت فيه الشعب الفلسطيني الاستجابة لنداءات ملوك العرب والأمير عبد الله، ودعتهم إلى إنهاء الإضراب اعتباراً من صباح يوم الاثنين ٢١ تشرين أول - أكتوبر - سنة ١٩٣٦، والتبكير في التوجه إلى المساجد والكنائس للصلاة على أرواح الشهداء، والشكر لله على ما ألهمهم من صبر وجلد، ثم يخرجون بعد الصلاة لفتح حوانيتهم ومزاولة أعمالهم المعتادة .

وهكذا أنهى عرب فلسطين ثورتهم بعد إضراب دام ستة أشهر تقريباً . وقد ورد في تقرير نشرته بعض الصحف اليهودية أن هذه الثورة قد أسفرت عن استشهاد (٢٠٠) من العرب، ومصرع (٨٠) من اليهود، و(٤٠) من الإنجليز . أما الجرحى فقد بلغ عددهم (٨١٠) من العرب و(٣٠٠) من اليهود و(٢٦٠) من الإنجليز . وأن مجموع الخسائر فقد قُدِّرَت بثلاثمائة وخمسة وعشرين قتيلاً و(١٣٧٠) جريحاً .

وقد اتفقت المصادر العربية في تقدير هذه الخسائر باستثناء خسائر اليهود حيث قدرتها بثلاثمائة قتيل و(٢٥٢) جريحاً .

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتعاون فيها الحكام العرب مع أعداء الأمة العربية من الإنجليز على إجهاض أول وأعظم ثورة فلسطينية في تاريخ النضال الفلسطيني .

ولما أدرك الفلسطينيون كذب الوعد الذي قطعه الحكام العرب الذين وثقوا بسيدتهم بريطانيا فإنهم لم يجدوا بداً من استئناف ثورتهم ضد حكومة الانتداب قبل أن يمضي عام واحد على إجهاض ثورة عام ١٩٣٦ .

والذي يهمني في هذا الموطن هو أن أتطرق بالتفصيل لتسجيل دور والدي- رحمه الله- في هذه الثورة وفاءً لذكراه، وإبرازاً لجهاده، كي يظل مثال فخر لأبنائه وأحفاده، ومثلاً يُحتذى في الشجاعة والبرسالة والحرص على مقارعة الأعداء حتى يتحرر آخر شبر من أدران الصهيونية كما تحرر مرات كثيرة من أدرانهم من قبل وأدران غيرهم من الدخلاء والمغتصبين عبر التاريخ .

في يوم من أيام شهر حزيران- يونيو- سنة ١٩٣٦ وكان قد مضى على بدء الإضراب العام أكثر من شهرين- وبينما كان أهالي البلدة يقومون بدفن المرحومة حسنة حمد التي كانت قد توفيت وهي في زيارتها لابنة أختها فاطمة محمد زوجة العم سلامة حسين النجل الأكبر للمرحوم الشهيد الشيخ سلامة حسين... أقول بينما كان رجال بلدتنا يقومون بعملية الدفن، إذ بسيارة جيب يهودية على متنها خمسة من حراس المستعمرات تمر من الشارع العام المحاذي للمقبرة وهم يهتفون ويرددون بالعبرية ما ترجمته "فلسطين بلادنا والعرب كلابنا" .

وبالطبع فإن محمد سميرين الذي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب لم يكن يعرف شيئاً من اللغة العبرية، ولكنه أدرك بحسه المرهف أن هؤلاء الأوباش لا بد وأنهم يهتفون ضد العرب. فسأل محمود جمعة رمضان الذي كان يُتقن العبرية أن يترجم له ما سمع من هتافات هؤلاء الملاحين ففعل . عند ذلك أطلق محمد عبارته المشهورة التي كان يرددتها في مثل هذه المواقف قائلاً: "باطل باطل... وأنا أخوكي يا عوفة" .

وأدرك أهالي فالونيا أن مصير هذه الطغمة الفاسدة من اليهود الأشرار قد تحدد منذ ذلك الحين لأنهم كانوا يعلمون أن أبا رجا لا يطلق هذه العبارة إلا عندما يعتزم القيام بأمر جلل .

وقد عرف أبو رجا من ابن عمه محمود جمعة أن هذه السيارة بمن فيها من حراس المستعمرات تمر في كل يوم مرتين: إحداهما في الصباح والأخرى في وقت العصر .

في صبيحة يوم من الأيام القليلة التي مرت على دفن المرحومة حسنة حمد سمع أهالي فالونيا بعد شروق الشمس بنحو ساعة أو تزيد صوت بضع طلقات نارية تنطلق بالقرب من الجهة الجنوبية الشرقية لمستعمرة آرزا. ولم تكن الطلقات سوى طلقات انبعتت من بنديقة محمد سميرين الذي كان بعد أن رصد تحركات السيارة وعرف مواعيد صعودها إلى آرزا وهبوطها منها قد كمن في أحد البيوت اليهودية المهجورة التي أحرقتها أهالي بلدتنا سنة ١٩٢٩؛ وعندما مرت السيارة، وأصبحت في مرمى بندقيته صوّب إلى سائقها رصاصة أصابته في رأسه، وأفرغ بقية رصاصات بندقيته في اليهود الأربعة الذين كانوا معه في سيارة الجيب .

وترنحت السيارة بمن فيها وراحت تكدح حتى استقرت أمام دار حافظ نسييه بجوار العين الفوقية .

وقد صدرت الصحف في صباح اليوم التالي تعلن عن مقتل أربعة من حراس المستعمرات قرب آرزا وإصابة خامس منهم إصابة بليغة استدعت بنز إحدى ساقيه .

كان الشارع الذي نفذ فيه الوالد هذه العملية يتسم بشدة الإنحدار وكثرة المنعطفات الخطرة التي كنا نسميها "لُيات القسطل" وقد ساعدت شدة انحداره على هلاك اليهود الأربعة لأن من تجا منهم من الرصاص فإنه لم ينج من تكدح السيارة التي أدى تكدحها إلى تهشيم عظام ركبائها ولا شك .

انطلق محمد سمرين بعد أن أدى مهمته صوب مرج عين كارم، وظل سائراً حتى وصل كرملاً لامرأة من تلك القرية تدعى "بلحة" وفي ذلك الكرم دفن بندقيته، ثم مضى بعد ذلك إلى كرم مجاور لامرأة كرمية أخرى تدعى "رقية العتمة"، وكان ولداها محمد ومصطفى يعملان في قلب التربة، فشرع يشاركهم في العمل وطلب إليهم وإلى والدتهم أن يقولوا عندما يُسألون أنه يعمل لديهم منذ الصباح الباكر بعد أن أبلغهم باختصار أنه قد قام بعملية ناجحة ضد اليهود .

ما أن حل الضحى حتى حُلقت طائرة بريطانية فوق منطقة العملية على ارتفاع منخفض، ولم تمر ساعة على تحليق الطائرة حتى وصلت ثلة من الجنود الإنجليز إلى حيث يعمل الوالد، ومعهم مطا بن شموئيل بروزة . تعرّف مطا على الوالد، وراح يشتمه أمام الجنود وهو يقول: هذا هو مجرم قالونيا الذي ذبح مع رفاقه سبعة من سكان موصّا عام ١٩٢٩ .

وكظم الوالد غيظه وجنود الشرطة البريطانية يصطحبونه معهم إلى القدس وهو مقيد اليدين .

أما السيدة رقية العتمة فقد انطلقت بعد مغادرة الإنجليز لكرمها ومعهم محمد سمرين مسرعة إلى بيت الرجل في قالونيا لتطمئن الأسرة على ربيّها ولتخبرها أن العروس أي "البندقية" في الحفظ والصون عند السيدة بلحة .

شكرت أم رجا للسيدة العتمة صنيعها ذاك، وطلبت إليها أن تبليغ تحياتها إلى السيدة بلحة. وختمت إطراءها للسنتين بقولها: الله يقدّرنا على رد معروفك يا أم محمد .

أجابت السيدة أم محمد : ولو... هذا واجبنا يا أم رجا، مالذي عملناه غير الواجب .

لم تضع الشقيقة دلة وقتها، فقد انطلقت مسرعة إلى صديق الوالد المختار سعيد سلمان وأبلغته بما حدث .

بعد أن سمع السيد سعيد سلمان من دلة قصة أبيها علق ضاحكاً بقوله: والله يا ابنتي منذ أن سمعت صوت إطلاق الرصاص في الصباح الباكر قلت لأم هاشم - يعني زوجته - والله عملها أخو عوفة .

تبسمت دلة وهي عائدة إلى بيتها بعد أن طمأنها الرجل بأنه سيقوم بما يلزم إن شاء الله، وراحت تدعو لأبيها بالنجاة من عواقب هذه العملية الجريئة .

وانطلق المختار بدوره إلى عيد صباح الذي كان يشرف على فلاحه أرض آل الحسيني في قالونيا وأخبره نبأ العملية .

وفي صبيحة اليوم التالي توجه الرجلان عيد صباح والمختار إلى المجلس الإسلامي الأعلى في القدس وقابلا سماحة المفتي الأكبر، ونقلوا بفخر إليه نبأ قيام ابن بلدهما البار محمد سمرين بتلك العملية الناجحة.

وأصدر المفتي أوامره بالوقوف إلى جانب هذا المناضل الكبير فانتدب المجلس عدداً من المحامين للدفاع عنه .

وقد تمكن هؤلاء المحامون بعد أربعين يوماً أمضاها الوالد في معتقله من أن يسألوه مما أسند إليه كما تسأل الشعرة من العجين .

بعد أسبوع واحد من اعتقال الوالد قامت الشقيقة دلة بزيارة بلحة في منزلها بعين كارم، واختارت السيدة بلحة رجلين من أصدقاء الوالد من بلدنها هما محمد الشخامي وأخوه علي... للبحث عن بندقية الوالد التي خباها في كرمها .

ونتيجة للوصف الدقيق الذي أعطاه الوالد للمكان الذي خبا فيه البندقية فقد تمكن الرجلان من العثور عليها بسهولة، فذهبا بدورهما لزيارة الوالد في معتقله بسجن القسلة وطمأناه أن عروسه قد نزلت في ضيافتهما معززة مكرمة إلى أن يخرج عريسها من معتقله في أقرب فرصة إن شاء الله .

بعد هذه العملية بشهور قليلة تنكر محمد سميرين في زي امرأة مقدسية محجبة ترتدي الملاية الزم، وتوجه إلى حي روميما - وهو أحد الأحياء اليهودية في القدس الغربية- ووصل إلى إحدى المحطات التي كانت تقف فيها إحدى حافلات الركاب اليهود التابعة لشركة باصات إيجد الصهيونية .

صعد الرجل المتنكر في زي امرأة وشهر مسدسه الذي كان يخفيه تحت ملاعته، وأفرغ رصاصاته في من كان فيه من ركاب. ثم هروا مسرعاً لا يلوي على شيء إلى أن وصل إلى قرية المالحة وهناك أهدى الملاية الزم التي كان يرتديها إلى سيدة المنزل الذي كان قد وضع عندها ملابسه التي كان يرتديها قبل قيامه بالعملية. ولما جن الليل عاد أدراجه إلى قريته دون أن يمسه أحد بسوء. وصدرت الصحف في اليوم التالي وهي تقول إن هذا النمط غير المألوف من العمليات قد أدى إلى مصرع المائق وإصابة ثلاثة من ركاب الحافلة بجراح .

وفي شهر أيلول - سبتمبر - ١٩٣٧ قام الوالد برصد إحدى نقاط الحراسة في مستعمرة آرزا من الجهة الغربية المحاذية للقسطنطين، وعرف الوقت المحدد الذي يتم فيه تغيير الحراسة بين حُرَّاس هذه النقطة من المستعمرة .

كمن الوالد على مقربة من موقع الحراسة، ولما جاء أحد الحراس ليحل محل زميله أطلق عليه الوالد النار فأرداه قتيلاً، ولما اقترب زميله منه وهو يتلفت في دعر عمن فعل ذلك عاجله الوالد برصاصة أخرى جعلته يخر صريعاً إلى جانب زميله. وانطلق الوالد عائداً بالسلامة إلى بيته وهو يحمد الله على توفيقه ونجاحه .

بعد ذلك بأيام كنا نتناول طعام العشاء فوق سطح دارنا التحتنة، وكانت عينا الوالد مسمرتين فوق منزل أصفر من منازل مستعمرة آرزا. وأذكر أن وجبتنا في ذلك اليوم كانت تتكون من ثريد العدس ومعه طبق من

الزيتون الأخضر، وبعض رؤوس البصل التي كانت الوالدة تدقها بقبضتها دقاً.

وأذكر فيما أذكر أن الوالدة قالت للوالد بعد أن لاحظت شروده وتحديقته في الحجة التي يقع فيها ذلك المنزل : مالك يا أبا رجا؟ ما الذي يشغل بالك؟

أجابها الوالد بعد أن قطعت عليه استغراقه في التأمل : ها... ماذا نقولين... لا شيء يا امرأة، لا شيء .

قالت الوالدة : أقطع ذراعي إن لم تكن تفكر في مصيبة جديدة من مصائبك... أتظنني جاهلة بك يا محمد ؟

قال الوالد مبتسماً : اسكتي يا امرأة... كفانا الله شر المصائب... لا تتحدثي بمثل ذلك أمام الصغار، وخير لك أن تملئي فمك بلقمة من هذا الثريد .

وسكتت الوالدة التي كانت تعلم جيداً ألا شيء يمكن أن يثني أبا رجا عن أمر انتواه .

في اليوم التالي لم يعد الوالد من عمله في الساعة التي عودنا أن يعود فيها منه. لقد كان يعمل في تلك الأيام مساعد بناء مع رجل من أهالي لفنا من دار "دونه" .

وقبل أذان العشاء بقليل فوجئنا بسماع عدة طلقات نارية صادرة من جهة المنزل الأصفر في المستعمرة المقابلة "آرزا" ولم تمض ساعة حتى فوجئنا بالوالد يعود إلى المنزل وهو يعرج في مشيته .

وسألته الوالدة: هل فعلتها يا محمد .

قال محمد: ماذا تقصدين .

قالت: لا... لا أقصد شيئاً... دعني أعالج لك قدمك .

قال الوالد: خيراً تفعلين .

قالت: أكسر أصاب قدمك أم النواء ؟!

قال محمد: أظنه مجرد التواء ولو كان كسراً ما وصلت إليكم قبل أقل من ساعتين .

قالت: وكيف حدث ذلك .

قال: كان أحد الجنران التي فُقرت من فوقها مرتفعاً أكثر من اللازم .

قالت أم رجا: حمداً لله على سلامتك على أي حال .

ثم قامت الوالدة بعد ذلك بتدليك قدم الوالد، وربطتها بقطعة من القماش. وقد أفعده التواء قدمه هذا عن العمل عدة أيام .

حدثني الوالد فيما بعد عن هذه العملية قال: كان المنزل الأصفر في تلك المستعمرة لرجل يهودي يدعى عيش . وقد طلبت من موسى داوود- وهو واحد من الذين كانوا يحسنون العبرية- أن يعلمني بعض الجمل بنلك اللغة القبيحة. فعلمني جملاً من مثل: مساء الخير وكيف حالك وما شابهها، وطلبت إليه كذلك أن يعيرني من ملابسه بنطالاً وقميصاً وقُبعة، وبعد أن لبي طلبي توجهت بعد غياب الشمس إلى المستعمرة وكأنتي واحد من أبنائها.

ثم يمت شطر المنزل الأصفر بعد أن أصدرت قراراً بإعدام صاحبه .

ولما بلغت باب المنزل طرقت برفق وأدب، فجاءني صوت صاحبه يقول: من الطارق؟ قلت أناي شلومو. ثم فتح اليهودي الباب، وأفرغت رصاص مسدسي في رأسه، وانطلقت هارباً لا أُلوى على شيء، وصياح من في المنزل يملأ الأفاق .

هذه بعض العمليات التي حدثني عنها الوالد، وشهد بوقوعها الكثيرون، بل وسجلها التاريخ لهذا الرجل الشجاع البسيط بحروف من نور.

لم أجد الوالد أسفاً على شيء فات، أو عمل عجز عن تنفيذه أسفه على فشله في اغتيال أحد ضباط الشرطة الإنجليز القساء الذين عانى سكان قرى بيت المقدس كثيراً من جبروتهم. لقد كمن له الوالد عدة مرات في

ضاحية بيت هاكمير الملاصقة لعين كارم، ولكنه لم يتمكن من اغتياله بسبب الحراسة المشددة على الضباط الإنجليز بعد أن نجح الثوار العرب في اغتيال عدد منهم .

كانت المنطقة الواقعة بين القدس وقرية أبو غوش مسرحاً للعمليات التي قام بها الوالد في الفترة الممتدة من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٧، وقد قام- طيب الله نراه- بعمليات أخرى لم تعها الذاكرة . وقد كانت العمليات التي تحدثت عنها هي الأكثر بروزاً وأهمية .

لقد حدثني عن عمليات قام بها ضد مستعمرة "الذلب" غير أن تفاصيل هذه العمليات تقلت من الذاكرة وطواها النسيان .

أُعجب الحاج أمين الحسيني بشجاعة الوالد فطلب إلى الحاج عيد صباح أن يحضره إليه ليتعرف إليه .

وفي مساء يوم من أيام شهر حزيران- يونيو- ١٩٣٧ انطلق الحاج عيد صباح إلى منزل محمد سميرين فرحب به- كعادته مع ضيوفه- أجمل ترحيب .

وبعد تناول القهوة وتبادل أحاديث المجاملات قال: محمد سميرين لضيفه: زيارتك عزيزة يا أبا علي خير إن شاء الله... أهلاً وسهلاً بك. أجابه الحاج عيد- وقد أدرك أن أبا رجا يلح إلى ندرة زيارته لمنزله: خير يا أبا رجا إن شاء الله كل الخير.

قال محمد : والله شوقتنا ياعم الحاج... هات... ماذا لديك ؟

قال الحاج عيد : يا سيدي سماحة المفتي يحب أن يراك .

قال محمد: سماحته يريد أن يراني، وهل هو متفرغ لمقابلتي ومقابلة أمثالي؟

قال الحاج: وهل ترى نفسك قليلاً يا محمد... طالما سمع الحاج أمين عن شجاعتك وعن جهادك، ومن أجل ذلك فهو يحب أن يتعرف إليك .

قال محمد : يسعدني ذلك ويشرفني يا أبا علي .

قال الحاج: موعداً غداً إن شاء الله، وما عليك إلا أن تمر بمنزلي قبل أن تتوجه إلى باص البلد .

وذهب محمد سمرين لمقابلة المفتي . وكان ترحيبه به والإشادة ببطولته أعظم مكافأة تلقاها محمد سمرين في حياته .

لم يُدرْ بخلده يوماً أن يحظى بمقابلة زعيم البلاد، وأن يسمع من هذا الزعيم مثلما سمع من إطرء ومديح .

لاحظ الحاج عيد صباح أن المقابلة طالت أكثر مما ينبغي فاستأذن من المفتي بالانصراف. فقال له الحاج أمين: الله معك يا حاج عيد... تفضل أنت، ودع لنا محمداً فنحن بحاجة إليه.

وخرج الحاج عيد وهو يسأل نفسه: ترى ما الذي يريده سماحة المفتي من هذا الرجل؟!

بعد انصراف الحاج عيد عائداً إلى قالونيا التفت المفتي إلى محمد سمرين، وقال له وهو يشير إلى رجل بجانبه: سوف يحدثك أبو رأفت عما هو مطلوب منك يا محمد. وكان أبو رأفت هذا هو السيد توفيق الحسيني ابن شقيقة الحاج أمين .

وقام أبو رأفت ومعه أبو رجا مفسحين المجال للمفتي كي يتفرغ لمقابلة الوافدين عليه من جميع أنحاء البلاد من العاملين في الحركة الوطنية التي كان مكتب المفتي بمثابة مقر القيادة العليا لها وللعاملين في نطاقها .

قال أبو رأفت لمحمد سمرين بعد أن جلس معه في غرفة جانبية: لقد قرر سماحته أن يضمك إلى حرسه الخاص. ومنذ الغد سوف تلتزم سماحته كظله.

أجاب محمد الذي لم يكذ يصدق ما سمعته أذناه: روحي فداء سماحته، وكم يسعدني أن أكون في خدمته وأن أتشرف بملازمته.

قال أبو رأفت : هذا أملنا فيك يا أبا رجا، ثم أضاف مازحاً: ليست هذه هي كنييتك التي ينادونك بها؟!

أجاب محمد: أجل يا أبا رأفت، هكذا يناديني الناس، هكذا ينادونني . وانطلق محمد سمرين عائداً إلى بلدته وقد وقر في نفسه أن صفحة جديدة قد فُتحت في حياته وحياة أسرته .

عندما دخل محمد سمرين على زوجته بعد عودته من القدس بادرته قائلة: خير يا أبا رجا ما الذي يريده منك الحاج أمين؟

قال محمد مبتسماً: أبشري يا أم رجا... لقد أصبح زوجك منذ اليوم رجلاً مهماً يغبطه الناس على ما ساق الله له من خير وتقدير .

قالت أم رجا متلهفة: خير إن شاء الله... هل أعطاك سماحته مكافأة .

قال محمد: مكافأة لا تُقترُ بثمن... لقد ضممني إلى حرسه الخاص. ومنذ الغد سوف أأزمه كظله .

قالت أم رجا وقد أدركت عظم المسؤولية التي أوكلت إلى زوجها: أنت لها يا أبا رجا... حماك الله وحمي زعيمك من كل مكروه .

قال أبو رجا وقد أسعدته أكثر سعادة زوجته: أمين يا رب، أمين يا رب. وانطلق أفراد العائلة يهنئون عميدهم ويدعون له بالسلامة والتوفيق .

منذ شهر حزيران - مايو - سنة ١٩٣٧ وإلى عام ١٩٥٠ ارتبطت حياة أسرتنا وتحركاتها بحياة المفتي وتحركاته.

إن قرب الوالد من المفتي أكسبه منزلة رفيعة بين أهل بلدته وأهالي القرى المجاورة . وأصبح من الوطنيين المعروفين الذين يشار إليهم بالبنان، ولكنه في الوقت نفسه أفقد ميدان المقاومة المسلحة الفدائية جريئاً كان في الإمكان أن يستفاد من خبرته وجرائته إلى حد كبير .

في تموز - يوليو - ١٩٣٧ أصدرت اللجنة الملكية التي شكلتها الحكومة البريطانية قرارها بتقسيم فلسطين، وقد سارع المفتي إلى رفض

ذلك المشروع مما أحفظ صدر السلطات البريطانية عليه فقررت عزله واعتقاله .

وفي الرابع عشر من تشرين أول - أكتوبر - ١٩٣٧ شارك محمد سمرين في حراسة الحاج أمين الحسيني في مخبئه بالحرم الشريف، بعد أن قرر المفتي أن يتوارى عن الأنظار تمهيداً لخروجه من فلسطين .

وقام محمد سمرين وبعض رفاقه من حرس المفتي بتهريبه إلى لبنان عن طريق البحر، حيث اتخذ من قرية الذوق ميكائيل مقراً له - وهي ضاحية في شمال بيروت إلى الجنوب من مرفأ جونيه المعروف . وفي شهر كانون ثاني - يناير - سنة ١٩٣٨ لحق محمد سمرين بالمفتي في لبنان وظل في معبئه حتى ٣١ - تشرين أول - أكتوبر - سنة ١٩٣٩ وهو اليوم الذي غادر فيه المفتي لبنان على أثر مضايقة السلطات الفرنسية له ولجؤته إلى ألمانيا حيث بقي فيها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

كانت قرية الذوق مقراً شتوياً للمفتي ورجاله، أما مقره الصيفي فقد كان في قرية قرنايل وهي قرية درزية تقع إلى الشمال الشرقي من بيروت . ازدادت الثورة اشتعالاً بعد لجوء المفتي إلى لبنان، وأفتنت الحكومة البريطانية في التتكيل بعرب فلسطين . حيث سنت قانون الطوارئ وعدلت بعض مواد فأصبح الإعدام أو السجن المؤبد جزاء لمن يحمل أي نوع من الأسلحة أو يستعمله، وأصبح كل منزل تتطلق بالقرب منه رصاصة عرضة للنسف والتدمير .

وقد بلغ عدد الذين أعدموا شتقاً من العرب بموجب هذا القانون التعسفي (١٤٦) رجلاً، وعدد الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد ألفي رجل، كما تم تدمير خمسة آلاف منزل وحانوت .

أما عدد الشهداء فقد بلغ ثلاثة آلاف شهيد، وعدد الجرحى سبعة آلاف جريح . وقد غُصَّتْ المعتقلات بأكثر من خمسين ألف معتقل أنشأت لهم الحكومة أربعة عشر معتقلاً .

بعد لجوء المفتي إلى لبنان انقطعت عنا أخبار الوالد فلم نعد نراه... كان واضحاً جداً أن الوالد قد لحق به في لبنان . ولكننا لم نملك الدليل على ذلك، فقد راودتنا أفكار سوداء كثيرة تحسباً من أن يكون قد قتل، أو أن يكون قد لحق بمجموعة من مجموعات الثوار الذين لجأوا إلى الجبال، أو أن يكون قد وقع أسيراً في يد الإنجليز وزجوا به في أحد المعتقلات .

ظلت الوالدة طوال المدة التي انقطعت فيها عنا أخبار الوالد في حالة يرثى لها، وكانت محاولات تصبيرها من الشقيقات والجارات تذهب دائماً أدراج الرياح .

بعد شهر من غياب الوالد وفي ليلة من ليالي شباط الشدید البرودة سنة ١٩٣٨ طُرق باب غرفتنا التحتة التي كانت بمثابة المقر الشتوي للعائلة فسألت الشقيقة دلة: من الطارق؟ فجاءها وجاعنا معها صوت الوالد الحبيب: "افتحوا باباً أنا أبوكم"، وفتحنا الباب وبدأ الوالد يعانقنا واحداً واحداً ويمطرنا بقبلاته ويضمنا بين ذراعيه.

وأمضينا فترة قبل أن ننام وهو يقصّ علينا قصة لجوء زعيمه ولجؤته إلى لبنان، ثم عودته هو مهرباً من هناك . وقد أنهى حديثه قائلاً: بعد أيام سنغادر جميعاً بلدتنا هذه إلى لبنان إلى أن يفرجها الله ونعود إليها مع سماحته سالمين منصورين .

الفصل الرابع

في لبنان

هذه المرة لم يعد الوالد وأسرته إلى لبنان مهربين، فقد تمكن الوالد من استخراج ثلاث جوازات سفر واحد له، والثاني لزوجته وولديه رجا وغالب وابنته الصغرى نعمه التي كانت في الثانية عشرة من عمرها . أما الثالث فقد كان خاصاً بابنته دلة التي كانت قد تجاوزت الحادية والعشرين من عمرها .

لقد تمكن الوالد من استخراج الجوازات الثلاث بسهولة ويسر بفضل ما كان لأنصار المفتي من نفوذ في دائرة الجوازات، وأذكر فيما أذكر أنه - رحمه الله - لم يكلف نفسه عناء تسلم الجوازات بنفسه حيث قام العم سلامة حسين بإحضارها إليه وهو مستريح في بيته .

لقد توثقت العلاقة بين الوالد وبين العم سلامة حسين الذي حل محل والده الشهيد الشيخ حسين سلامة في الوقوف إلى جانب الوالد ومؤازرته في الملمات .

لم يشأ الوالد أن يجعل مسألة انتمائه وانتماء أسرته إلى فلسطين موضع شك فقام بالحصول على شهادة مختومة وموقعة من مختار العائلة المرحوم مصطفى طه تثبت أن محمد عبد الله أحمد سمرين وزوجته فاطمة مفلح العبد اللطيف وابنتاه امدلة ودلة من مواليد قالونيا .

وبناء على هذه الشهادات صدرت جوازات السفر وفيها أن قالونيا هي المكان الذي ولد فيه الوالدان وابنتاهما امدلله ودله .

أما بالنسبة لي ولشقيقي غالب والشقيقة نعمة فلم يكن هناك مشكلة بهذا الخصوص، لأننا كنا حاصلين على شهادات ميلاد تثبت فعلاً أننا من مواليد قالونيا .

عندما بدأنا نستعد للسفر إلى لبنان كنت قد أنهيت الصف الثاني من المرحلة الابتدائية، وأما أخي غالب فلم يكن قد تجاوز السنة الخامسة من عمره .

لم يبق في قالونيا من أفراد عائلتنا سوى الشقيقة امدلة التي كانت قد تزوجت منذ عام ١٩٣٦ من السيد محمد خليل خضر، أحد شباب المشاعلة الذين كانوا يملكون مساحة واسعة من أخصب الأراضي وأحسنها موقعاً في قالونيا .

سبقنا الوالد إلى لبنان ببضعة أيام وأذكر أننا قد استأجرنا سيارة تاكسي يقودها سائق مقدسي يدعى جودت الداوودي أو جواد لا أدري .

وكانت رحلتنا من قالونيا إلى ذوق مكاتيل رحلة ممتعة على الرغم من برودة الطقس في شهر آذار، وهو شهر مبشر بإنهاء الشتاء وقدم الربيع . وكانت سهول فلسطين وسفوح جبالها قد بدأت تكتسي بحلة من العشب الأخضر، وأزهار الشبحة وشقائق النعمان وغيرها من الأزهار البرية . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يولي فيها أفراد العائلة وجوهم شطر الغرب .

لم تكن أسرنا تعرف قبل ذلك من مدن فلسطين وقراها سوى مدينة القدس والقرى المحيطة بها، وكان مقام النبي موسى - عليه السلام - في الشرق، هو أبعد نقطة وصلنا إليها في أحد المواسم التي كانت تقام في شهر - نيسان - إبريل من كل عام .

كانت أيام الموسم تلك تتزامن مع أيام عيد الفصح، وكان صلاح الدين الأيوبي هو الذي سن عادة خروج سكان فلسطين في هذه الأيام

مستعرضين قوتهم وقتوتهم إرهاباً للصليبيين ولغيرهم ممن تحدثهم نفوسهم بالطمع في فلسطين أو التخطيط لاغتصابها .

ولما لم يكن للفلسطينيين في أيام حكومة الانتداب جيش يستعرض قوته، أو حكومة تتباهى بسلطانها فقد تحولت الاحتفالات بموسم النبي موسى إلى إقامة حلقات الدبكة في ساحة المسجد الأقصى، وإلى خروج موكب المفتي الذي كان يزفه الشباب كما يزفون العريس من مقره في المجلس الإسلامي الأعلى إلى باب المتحف الإسلامي الواقع غربي الحرم الشريف . كانت تلك الاحتفالات تستغرق أسبوعاً كاملاً في كل عام . وقد كف الفلسطينيون عن ممارسة ذلك منذ نكبة عام ١٩٤٨ م .

أعود إلى وصف رحلتنا ونحن في طريقنا إلى لبنان، لقد مررنا في طريقنا إليه بعدد كبير من المدن والقرى التي لم نكن قد شاهدناها من قبل . وكان الجمال الطبيعي للأراضي التي مررنا بها يأخذ بالألباب .

أخترقنا مدن اللد والرملة ويافا وحيفا وعكا وأخيراً وصلنا رأس الناقورة وهي نقطة حدودية تفصل بين فلسطين و لبنان . وفي هذه النقطة ختمت جوازات سفرنا وفتشت أمتعتنا ثم واصلنا بعدها سفرنا إلى بيروت .

كان الوالد قد استأجر لنا منزلاً نعيش فيه قبل وصولنا إلى لبنان، ولذلك فإنه بمجرد وصول السيارة التي كانت تقلنا إلى بيت المفتي بادر الوالد بعد أن حمد الله على سلامتنا باصطحابنا إلى منزل "أبو أنطون" الذي أصبح مقراً لنا في قرية النوق .

كان أول شيء فكر فيه الوالد هو إلحاقنا بمدرسة النوق . وقد بادر فوراً بالقيام بذلك حيث سجلني وسجل أخي غالب في مدرسة البنين التي كان يقوم بالتدريس فيها معلم واحد هو المسيو جوزيف . كما ألحق شقيقتي الصغرى نعمة بمدرسة البنات التي كانت تقوم بالتدريس فيها معلمة واحدة هي المدموزيل هيلانة .

كان كل من المسيو جوزيف والمدموزيل هيلانة في ريعان الشباب، وكانا على درجة كبيرة من الوسامة والجمال والجاذبية . وكانت علاقات الود التي تربط بينهما أظهر من أن تخفى على الأشقياء الصغار من التلاميذ والتلميذات .

أمضينا في تلك المدرسة عامين، وقد كنت على مستوى جيد في جميع المواد باستثناء الحساب الذي كنت أكره قوانينه ولا أبدي أي استعداد لتفهمها أو تطبيع علاقاتي معها .

وأذكر أنني لم أكن أفكر في بذل أي جهد لحل أي مسألة من مسائل الأعمال الأربعة وهي الجمع والطرح والضرب والتقسيم . لقد كان لي طريقة فذة ومختصرة لا تكلف جهداً ولا تستنفذ وقتاً في حل المسائل . وكانت هذه الطريقة تتلخص في أنني كنت أسارع في وضع أي رقم يخطر ببالي جواباً لأية مسألة من المسائل .

وكان جواب مسألة الجمع أحياناً يأتي أقل من عدد واحد من الأعداد المطلوب جمعها معاً في تلك المسألة، وربما جاء جواب مسألة الطرح أكبر من مجموع العدد المطروح منه، أما إجاباتي عن مسائل الضرب فقد كانت أشبه ما يكون بما يسمونه الآن بالأرقام الفلكية . أما مسائل التقسيم فقد كانت من المسائل التي لا أفكر مطلقاً في وضع أي إجابة لها اعتقاداً مني أن حل مثل هذه المسائل من الأمور التي ترقى إلى درجة المستحيلات .

كان المسيو جوزيف يشتعل غيظاً بمجرد أن يلقي نظره على دفتر الواجب المنزلي الخاص بالحساب . وكان يعاقبني على طريقتي الفذة في حل المسائل معاقبة شديدة . والذي كان يزيد من غيظه مهارتي في بقية الدروس . وكان لا يفتأ يردد عبارة لا تتغير تعبر عن استغرابه من ذلك فيقول بلهجته اللبنانية الطريفة "ولي رجا، بخسر ألف ليرة بس تقولي كيف يتحل المسائل حتى يطلع معك هيك أجوبة" وبالطبع فقد كان رعي يعقل

لساني عن إجابته، فلا يبقى أمامه مفر غير إيقاع أشد العقوبات بهذا التلميذ الغريب العجيب .

ومن العقوبات التي كان يوقعها بي : الضرب بحافة المسطرة على ظهر الكفين . أو الضرب بالعصا على المؤخرة، أو الوقوف ووجهي إلى الحائط مع رفع اليدين إلى الأعلى، أو الركوع على الأرض وتحت كل ركبة من ركبتي عدد من الحصوات . وكانت كل عقوبة من هذه العقوبات مشفوعة بحرمانني من الخروج من الصف في الأوقات التي يخرج فيها التلاميذ بين الحصص للاستراحة وقضاء الحاجة . وباختصار فقد كانت علاقتي بالمسيو جوزيف أشبه ما تكون بعلاقة المعتقل السياسي برجال المخابرات . ولأن الغرفتين اللتين كانتا تشكلان مدرستي البنين والبنات كانتا متلاصقتين . ولأن الساحة التي كان يخرج إليها التلاميذ والتلميذات كانت واحدة، فقد كانت شقيقتي نعمة تراني وأنا واقع تحت طائلة تنفيذ العقوبة، فتبادر بالذهاب باكية إلى معلمتها هيلانة التي كانت تسارع في الشفيع لي لدى الأستاذ جوزيف الذي لم يكن في استطاعته أن يرد لها طلباً أو يعصي لها أمراً .

كانت أسوأ أيام الأسبوع عندي هي تلك الأيام التي يكون مقررنا علينا فيها شيء من دروس الحساب . وقد ظلت علاقتي بالحساب وقوانينه على هذه الصورة طوال مدة وجودنا في لبنان . ولم أبدأ في تطبيع علاقتي مع قوانينه ونظرياته إلا بعد عودتنا إلى فلسطين .

أما الشقيق غالب فكان له مع هذه المدرسة قصة أخرى . كان عندما التحق بها لم يتجاوز الخامسة من عمره إلا بقليل . وكان في كل يوم يفقد كتاباً من كتبه أو يمزقه . ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد فقد كان يلجأ إلى تمزيق أي كتاب لمن يدفع به سوء حظه إلى الجلوس بجواره من التلاميذ . ولم يكن يمر يوماً أو ثلاثة دون أن يضطر الوالد إلى شراء

كتابين أو أكثر تعويضاً عن الكتب التي كان يمزقها غالب أو يتسبب في ضياعها .

أما بالنسبة لنعمة فقد حظيت بإعجاب معلمتها هيلانة، فقد برهنت منذ التحاقها بالمدرسة على أنها تتمتع بذكاء خارق أهلها لأن تكون في مقدمة التلميذات الفائقات .

وكنت أشعر بالغبط الممزوج بالغيرة منها، لأن المسيو جوزيف كان يستفزني عن طريق المقارنة بين ذكائها وغبائي وبين اجتهداها وخمولي . وكنت أتحين الفرص بعد عودتنا إلى المنزل في كل يوم لاستفزازها والاعتداء عليها بالشتم أو الضرب، أو نصب المقابل لها، أو افتعال المشكلات .

وقد زاد من معاناتي من لبنان أن المرض الجلدي الذي كان قد تسبب في تشويه خدي الأيسر قد عاد إلى الظهور في صورة ندبة ظهرت في خدي الأيمن على غرار الندبة السابقة . وقد أدّى ظهور هذه الندبة إلى اقتناع والديين بأن الندبة الأولى لم تكن ناتجة عن فساد حليب الأم الذي ارضعته عام ١٩٢٩ م .

ومن حسن الحظ أن هذه الندبة لم تترك أثراً كبيراً على خدي الأيمن . ويبدو أن الفضل في ذلك راجع إلى تقدم الطب ووسائل العلاج في السنوات التي فصلت بين ظهور الندبتين .

ومن ذكرياتي السيئة في لبنان تعرضي للغرق في البحر الأبيض المتوسط . وقد حدث ذلك عند مرافقتي بعض أترابي من أبناء الجيران في أحد أيام العطلة الأسبوعية . وقد عرضت الأمر على والدي وطلبت إليها أن تسمح لي بمرافقتهم فأبت متذرة بخوفها علي من البحر . وبدل من أن أمثل لأمرها عمدت الي مخالفتها فذهبت مع مجموعة من أولاد الجيران إلى شاطئ الذوق، ولما كنت لا أحسن السباحة فقد أوشكت على الغرق

وهم يحاولون أن يعلموني إيّاها . وكان الفضل في إنقاذي يرجع إلى أنطون ابن صاحب المنزل الذي كنا نستأجرة، وكان يكبرني بعامين، ولولاه لعدوت طعاماً للأسماك . وقد آليت علي نفسي منذ ذلك الحين ألا أخالف الوالدة وألا أعصي لها أمراً في أي وقت من الأوقات، فقد وقر في ذهني أن إشرافي على الغرق لم يكن إلا إنذاراً من الله لي بسبب مخالفتي لأوامر الوالدة يرحمها الله .

قلت إننا كنا نقضي الصيف في قرية قرنايل . وهي مصيف جميل يقع على قمة جبل شاهق إلى الشمال الشرقي من بيروت . وكانت الجبال المحيطة بهذه القرية مظلمة بأشجار الصنوبر وغيرها من الأشجار الحشرية . وكان جميع سكانها من الدرور .

وقبل أن أسترسل بالحديث عن ذكرياتي في قرنايل أود أن أشير إلى أن المفتي كان قد طلب إلى الوالد أن يختار له أربعة من أبناء قانونيا الذين يتق بهم ليضمهم إلى حرسه الخاص، فاختار له الوالد السادة علي عيد صباح ومحمد مطر ومحمد جمعة وأحمد طليب .

تفتح قلبي على الحب في قرنايل، وأنا لا أزال في بداية العاشرة، أما الفتاة التي تفتح قلبي على حبها فلم تكن سوى جمال ابنة صاحب المنزل الذي استأجرناه في قرنايل .

كانت جمال على درجة كبيرة من الجمال . وكانت كثيراً ما تقضي سهراتها في منزلنا مع الشقيقتين دلة ونعمة . وكانت تحضر معنا في كل ليلة تسهر فيها معهما رواية غرامية تقرأ عليهما بعضاً من فصولها، وأذكر أن قصة ماجدولين كانت واحدة من القصص التي قرأتها عليهما . وكنت أحسر نفسي بين هؤلاء الفتيات الثلاث وأخلد إلى السكون وأنا أستمع إلى صوت جمال العذب وهي تقرأ على شقيقتي أحداث القصة .

وكانت دموع الفتيات تنهمر تجاوباً مع عذابات ماجدولين . أما أنا فقد كان تجاوبي مع ستيفن بطل القصة وحبيب ماجدولين . وكانت جمال

تعجب أشد العجب لهذا الصبي الذي يعير جميع أحاسيسه إلى القصة وقارئتها دون أن تدري شيئاً عما يعمر قلب هذا الصغير من الأحاسيس والمشاعر . وكان الجمال الباهر الذي تتمتع به جمال سبباً كافياً جعل كلاً من محمد جمعة وأحمد طليب يترددان كثيراً على منزلنا . والحقيقة أن مشاهدة جمال كانت أمراً يستحق المكابدة والمعاناة حتى لو لم يكن لرائيتها منها حظ غير الرؤية والمشاهدة .

ومهما يكن من أمر، فقد كانت جمال أول فتاة يخفق قلبي بحبها على الرغم من أنني لم أكن أعرف شيئاً عن الحب . وكل ما عرفته عنه بعد أن بلغت سن المراهقة بعد ذلك بسنوات هو أنه ليس إلا إحساساً غامضاً يربط بخيوط سحرية بين قلبين .

كنت أحس بإكتئاب شديد في اليوم الذي لا تأتي فيه جمال لزيارتنا . وقد كان إحساسي بالسعادة لا يوصف عندما كانت تتخذ مجلسها في منزلنا وتشرع في قراءة شيء من قصص الحب والغرام .

منذ وصول أحمد طليب إلى لبنان طلب إليه الوالد أن يبدأ في تعليمي القرآن الكريم حيث أن تعليمه لم يكن داخلياً في مناهج مدرسة الذوق المسيحية التي كنا فيها .

من الذكريات غير السارة التي تحملها الذاكرة عن قرنايل إصابة شقيقي غالب بحمى شديدة أعجزته عن الحركة مدة لا تقل عن شهرين، وقد بلغ به المرض أنه قد غدا عاجزاً عن الوقوف على قدميه .

وطوال مدة مرضه ظل غالب تحت إشراف طبي مستمر . وأخيراً من الله عليه بالشفاء فنجاً بأعجوبة من شلل الأطفال . ولكن ذلك المرض لم يتركه إلا بعد أن أورثه شيئاً من الضعف في حاسة السمع .

لقي غالب من التذليل ما جعله يفرط في كثير من الأحيان بالعبث بطريقة كانت كافية لإزعاجنا وإزعاج جميع الجيران، وقد تمثل عبثه هذا

في الصباح بكلمات غير مفهومة مدة لا تقل عن نصف ساعة في كل يوم على الأقل دون أن يستطيع أحد إسكاته أو فهم ما يقول . وقد ذكر لنا الوالد أنه كان يسمع صوته وهو في بيت المفتي الذي كان يبعد عن بيتنا مسافة لا تقل عن كيلومترين .

ولو اطلعنا على الغيب لعرفنا أن محاولات غالب الخطابية هذه لم تكن إلا إرهاباً بأن صاحبها سيغدو في المستقبل من الخطباء الفصحاء .

هل كان تصرف غالب هذا أسلوباً من أساليب التعويض عن الصمت الذي فرضه عليه المرض طوال شهرين؟ أم كان ذلك تعبيراً عن طاقة ما، لا قبل له بكتبها؟ تفسيرات قد تبدو معقولة، ولكن الدوافع الحقيقية وراء ذلك تظل سراً من أسرار النفس الإنسانية التي لا يعلمها إلا الله . من طريف ما أذكره عن غالب أننا كنا ذات يوم نتحلق فوق بركة فيها نافورة وبعض أسماك الزينة في ساحة قصر المفتي في الذوق، وكانت ابنتنا جارنا "أبو أنطون" وهما ماري وأليس قد جاءتا لزيارتنا فصحبناهما إلى تلك البركة لرؤيتها . وكان المفتي في نهاية شتاء العام الثاني قد سبقنا مع أسرته إلى قرنايل، وعزمنا نحن على اللحاق به بعد أيام ريثما يقوم الوالد باستئجار بيت جديد لنا هناك . أقول بينما كنا نتحلق حول البركة انقض غلب على الأنسة ماري التي كانت أجمل من شقيقتها ليس مستغلاً إنهماكها في تأمل الأسماك وطوق عنقها بذراعيه وطبع على وجنتيها عدداً من القبلات السريعة بين ضحكات المتحلقين حول البركة واستغرابهم .

وقد فوجئت ماري بما حدث من هذا الطفل الصغير، ولم تجد أمامها سوى أن تشارك الموجودين في الضحك والاستغراب . وقد علقت على ذلك قائلة: وليه عليك يا غالب شو اللي خلاك تسوي هيك يا أزعز ؟!

في أوائل عام ١٩٣٩ حضرت الشقيقة امدلة وزوجها ومعهما طفلاهما حسن وزهية لزيارتنا في لبنان. وقد عرفنا بعد وصولهما بيومين أن زيارتهم تلك لم تكن عادية، ولكنها كانت لإبلاغ الوالد أن بندقيته العزيزة المخبأة في مكانها بأرض الزحليقة قد سُرقت . وأن اللذين سرقاها هما: رجلان لم يكن يخطر ببال الوالد أنهما سيقدمان على ذلك . وقع الخبر على الوالد وقوع الصاعقة، فاستأذن المفتي بالسفر إلى فلسطين لاسترداد بندقيته الحبيبة فأذن له .

مكث الوالد في فلسطين مدة شهر تقريباً تمكن في خلالها بمعاونة بعض رفاقه من الثوار من إلقاء القبض على الفاعلين واستجوابهما. وأمام ما لقيه اللصان من التأديب والتهديد لم يجد مفرّاً من الاعتراف والإدلاء باسم الرجل الذي باعا له البندقية، وكان واحداً من الثوار التابعين للقائد أبو شعبان.

واستعاد الوالد بندقيته بعد أن أرغم اللصين على إعادة ثمنها إلى من اشتراها منهما . وقد أبدى الثوار استعادتهم لقتل اللصين . ولكن الوالد - رحمه الله - لم ينس ما تربطه بالرجلين من أواصر الانتساب إلى بلدة واحدة فعفا عنهما وأمر بإخلاء سبيلهما وإعادتهما سالمين إلى عائلتيهما، بعد أن كان كل من في البلدة يتنبأ لهما بالهلاك .

وعادت امدلة وزوجها وطفلاهما إلى فالونيا بعد أن أدوا مهمتهم التي جاؤوا من أجلها إلى لبنان سالمين .

في عام ١٩٣٩ بدأت نذر الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق، فاضطرت بريطانيا من أجل تهدئة الخواطر في فلسطين إلى إصدار كتابها الأبيض في السابع عشر من أيار - مايو - ١٩٣٩، وكان أهم ما تضمنه هذا



صورة صاحب السيرة
وهو في الثامنة عشرة من عمره

الكتاب هو أن بريطانيا وعدت سكان فلسطين من العرب واليهود بالعمل على قيام دولة فلسطينية يساهم فيها الجميع وترتبط مع بريطانيا بمعاهدة .

وقد رفض كل من العرب واليهود هذا الكتاب، وأرغم اليهود بريطانيا فيما بعد على التنصل من جميع بنوده التي وردت فيه .

وفي صيف سنة ١٩٣٩ اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا وإيطاليا واليابان من جهة، وبين الحلفاء بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى .

ومن العجيب أن بريطانيا قد طالبت عرب فلسطين بمساعدتها والوقوف إلى جوارها . ولكنهم رفضوا ذلك وسخروا من هذا المطلب الوقح وأظهروا شماتتهم بما كان يحدث لبريطانيا من هزائم .

وفي ٣١ تشرين أول - أكتوبر - سنة ١٩٣٩ اضطر المفتي إلى مغادرة لبنان على أثر مضايقات الفرنسيين له بسبب ميوله الواضحة نحو الألمان .

وقد واصل المفتي فراره حتى استقر به المقام في برلين التي بقي فيها حتى وقع أسيراً في أيدي الفرنسيين عام ١٩٤٥ م .

أما حاشية المفتي، ومعظم الذين كانوا في خدمته من رجال الحاشية وغيرهم، فقد عادوا جميعاً إلى فلسطين .

الفصل الخامس

العودة إلى قالونيا

في الأول من تشرين ثاني- نوفمبر- سنة ١٩٣٩ عادت أسرتنا وعلى رأسها الوالد إلى قالونيا، وبعودتنا إليها التحقت بالصف الرابع الابتدائي بمدرسة البلدة التي كنت قد غادرتها قبل عامين .

ومن أهم التطورات التي حدثت بعد عودتي إلى هذه المدرسة هو أن الله سبحانه وتعالى قد خلصني من عقدة كراهيتي لمادة الحساب حيث بدأت في فهم قوانينه وطرق الحل السليمة للأعمال الأربعة، وأذكر أنني قد حفظت جدول الضرب في زمن قياسي .

بعد أن أنهيت الصف الرابع الابتدائي حدث ما لم أتوقعه . فقد قرر الوالد إيفادي إلى قرية لفنا لكي أتم المرحلة الابتدائية في مدرستها التي تشتمل على جميع صفوف هذه المرحلة من التعليم- وكانت إذ ذاك سبع سنوات- وقد سبق أن تحدثت عن ذلك بالتفصيل في الفصل الأول من هذه المذكرات .

أمضيت في هذه المدرسة أربعة أعوام دراسية كاملة أتممت في نهايتها الصف السابع الابتدائي . وكان ترتيبي الثالث بين الناجحين في كل عام . وقد حافظت على هذا الترتيب طوال السنوات الأربع التي قضيتها في هذه المدرسة باستثناء الصف الخامس الذي حصلت فيه على المرتبة الثانية . وقد بدأت في نظم الشعر وأنا في الصف السادس من هذه المرحلة وكنت لا أزال في ربيعي الخامس عشر .

لم أكن تلميذاً مجدداً في دروسه وحسب بل كنت من التلاميذ الذين يحرصون على المشاركة في النشاطات العامة المكملّة للمناهج المدرسية على الرغم من أن المناهج المدرسية في تلك الأيام لم تكن تفرد في الجداول المدرسية حصصاً خاصة لألوان النشاط .

شاركت في فريق التمثيل بالمدرسة، وقد أسند إليّ دور البطولة في مسرحية " البخيل " التي عربّها شعراً الشيخ نجيب حداد عن الشاعر الفرنسي مولير وأذكر فيما أذكر أن إدارة المدرسة قد دعت بالإضافة إلى أولياء أمور التلاميذ عدداً من كبار رجال دائرة المعارف في القدس وعلى رأسها مدير الدائرة الإنجليزي المستر "فرل" . وكان والدي رحمه الله بين الحاضرين . وقد سعد كثيراً بولده الذي استحوذ على إعجاب الجمهور .

وقد اختارني الأستاذ طاهر الفتّاني عضواً في فريق الكورال المتخصص في إلقاء الأناشيد الوطنية في المناسبات التي كانت تحتفل بها المدرسة نظراً لجمال صوتي وتميزه بنبرة خاصة أهلتني لذلك الاختيار .

كنت في هذه المرحلة من سني أمتاز بنحافة الجسم مما أهّلني للمشاركة في مسابقات العدو التي كانت تجري بين أسرع العدائين في مدارس لواء القدس في نهاية كل عام دراسي . وأذكر أنني شاركت وأنا ما زلت في الخامس الابتدائي بثلاث مسابقات هي: مسابقة العدو لمسافة مائتي متر، ومسابقة المواصلات - وهي مسابقة تجري بين عدد من الفرق يتألف كل فريق منهم من أربعة لاعبين يقف واحد منهم على رأس ضلع من أضلاع الملعب المربع ومع أولهم عصا يعدو بها ليسلمها إلى الثاني الذي يعدو بدوره بها ليسلم العصا إلى الثاني الذي يعدو بدوره ليسلم العصا التي معه إلى الثالث الذي يعدو بدوره حتى يسلمها إلى الرابع زميله الأخير الذي يعدو إلى نهاية الضلع الرابع للملعب حيث ينتهي السباق .

أما المسابقة الثالثة التي شاركت فيها فهي مسابقة العدو بالكياس . وهي لعبة يحشر المتسابق فيها نصفه الأسفل في كيس من الخيش تربط فتحته حول وسطه ثم ينطلق نحو النقطة المحددة لنهاية السباق وهو يعدو ورجلاه داخل الكيس . وهذه اللعبة تثير ضحك الجمهور بسبب وقوع المتسابقين وتعرّهم . ومن المؤسف أنني لم أفز في هذه المسابقات التي شاركت فيها بأية جائزة، فقد كان ترتيبني في كل منها الرابع بين المتسابقين .

كانت مناهج المرحلة الابتدائية في فلسطين في تلك الحقبة من تاريخها لا تقل في مستواها عن مناهج المرحلة الثانوية في أيامنا هذه . ولن أكون مغالياً إذا قلت بأن خريج الصف السابع الابتدائي في ذلك الحين كان يفضل الآلاف من خريجي الجامعات في هذه الأيام .

وليس أدلّ على دسامة المناهج في المرحلة الابتدائية في ذلك الوقت، من أن حكومة الانتداب كانت تُعين الذين يُنهون هذه المرحلة في وظائف التدريس بالمرحلة الابتدائية وغيرها من الوظائف الإدارية والكتابية في الدوائر الحكومية المختلفة .

عرفت في هذه المدرسة عدداً من الأساتذة الأفاضل الذين تركوا أحسن الأثر في نفسي وفي مقدمة هؤلاء: الأستاذ عيسى أهرام (من القدس) والأستاذ محمد العباسي (من سلوان) وقد تولى هذان المربيان الفاضلان إدارة المدرسة على التوالي . وقد عرفت كذلك الأساتذة: إبراهيم ندا وتيسير الجاعوني وعبد الرزاق البرغوثي ومحمد ربيع والشيخ جميل الخطيب ويعقوب الحسيني وطاهر الفتّاني وسليم الكالوتي وغيرهم .

بعد أن أنهيت المرحلة الابتدائية التحقت بكلية روضة المعارف الوطنية في القدس، حيث أكملت فيها الصف الأول الثانوي . ومن المدرّسين الذين تتلمذت عليهم في هذه المدرسة الأستاذ محمد سليم الرشدان (من السلط) والأستاذ حيدر الحسيني، والأستاذ جودت الأيوبي والأستاذ كمال

الحسيني وثلاثتهم من القدس. وكان من بينهم مدرس مصري وآخر لبناني وهما من الأساتذة الذين توارت أسماؤهم خلف ستائر النسيان .

باستثناء الأستاذ محمد سليم الرشدان فإن أحداً من هؤلاء الأساتذة لم يترك أثراً طيباً في نفسي يستحق أن يسجل .

بل لقد ترك بعضهم انطباعاً سيئاً في نفسي وفي نفوس معظم الطلاب وبخاصة القرويين منهم. وأخص بالذكر من بين هؤلاء مدرّس الكيمياء الأستاذ كمال الحسيني الذي كانت محاباته للطلاب المقدسيين وبخاصة الحسينيين منهم لا تخفى على أحد. هذا فضلاً عن تعاليه وجهله بأساليب التدريس الصحيحة .

رست في مادة الكيمياء، وكان رسوبي فيها يعني حتمية إعادتي للصف الأول الثانوي. وقد أخذتني العزة بالإثم حيث رفضت أن أقضي عامين في صف واحد لأن حالتنا المالية لم تكن تسمح بذلك .

ولم يجد الوالد بداً أمام رفضي هذا من أن يستسلم لرغبتني هذه، ولكي يعطيني درساً لا أنساه فقد فرض عليّ أن أشاركه جنباً إلى جنب في استصلاح مساحة كبيرة من أرضنا في منطقة الجفير .

من الطلاب الذين زاملوني في كلية الروضة الشاعر يحيى يرزق وسري الحسيني ووهبه نسيبة وإبراهيم السقا وسليم الحسيني ونايف قدري اليوسف من عمان.

وفي عام ١٩٤٢ التحق الوالد بخدمة الحزب العربي. وكان مركزه في حي القطمون في القدس. وكان المناصرون للمجلس الإسلامي الأعلى هم الذين قد أسسوا هذا الحزب عام ١٩٣٥، واختاروا جمال الحسيني رئيساً له.

وكان هذا الحزب أقرب إلى الفئات الكادحة من أبناء الشعب الفلسطيني من سائر الأحزاب ومن أجل ذلك حظي هذا الحزب بتأييد كبير

من الفلاحين الذين يشكلون النسبة الأكبر من الشعب الفلسطيني الذي كان يدرك جيداً أن الحاج أمين الحسيني هو الزعيم الأوحد لهذا الشعب .

وقد كلف هذا الحزب الوالد وصديقه المختار سعيد سلمان بإنشاء ناد رياضي قومي في قريتنا . وقد تم تأسيس النادي في ذلك العام، واختير السيد أحمد عبد الرحمن رئيساً له . وقد أشرت إلى بعض نشاطات هذا النادي في الفصل الأول من هذه المذكرات .

وقد ظل الوالد في خدمة هذا الحزب حتى عام ١٩٤٦ حيث استدعاه المفتي الذي كان قد لجأ إلى مصر في ذلك العام لياشر عمله الذي كان يتولاه في فلسطين ولبنان .

رأى الوالد أن يعزز ما حصلت عليه من تعليم نظامي بتعليمي مهارة جديدة لم يسبق لأحد من أبناء بلدتنا أن فكر في تعلمها، فألحقني في الأول من أكتوبر سنة ١٩٤٥ بالمعهد الوطني في القدس لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة باللغتين العربية والإنجليزية .

وكان في المعهد عدد من التقنيين المراهقين الذين يماثلوني في العمر والمستوى التعليمي .

كان المعهد عبارة عن شقة في الطابق الثاني من إحدى البنايات الواقعة في أول شارع يافا خارج سور القدس بالقرب من باب الخليل.

وكانت مدرستنا لهذا الفن آنسة مسيحية على جانب من الملاحظة والجمال وخفة الظل تدعى رحمة نعواس وهي شقيقة السيد عبد الله نعواس أحد أركان حزب البعث العربي في فلسطين فيما بعد.

وكانت نقات قلبي تتسارع عندما كانت هذه الأنسة تمسك بيدي لتثبت أصابعها فوق مفاتيح الآلة في بداية تعلمي للطباعة .

أمضيت في هذا المعهد ثلاثة أشهر أتقنت في خلالها الضرب على الآلة الكاتبة وحصلت على شهادتين تثبت إحداهما أنني أنهيت دروس

الضرب على الآلة الكاتبة بسرعة أربعين كلمة في الدقيقة في اللغة الإنجليزية، وثبتت الثانية أنني قد أنهيتها بسرعة خمسة وعشرين كلمة في الدقيقة باللغة العربية .

وقد حاولت البحث عن وظيفة طباع في دوائر الحكومة في القدس دون جدوى بعد أن قررت عدم مواصلة الدراسة في كلية الروضة . وعلى الرغم من أنني لم أعمل كطباع طوال حياتي سوى شهرين اثنين كما سأبين في المكان المناسب من هذه المذكرات إلا أنني قد أفدت من هذه المهارة في حياتي التعليمية إلى حد كبير .

لجأ الحاج أمين الحسيني إلى مصر بعد أن تمكن من الهرب من السفينة التي كانت تحمله وهي راسية في ميناء بور سعيد . وكانت السفينة في طريقها إلى إحدى جزر المحيط الهندي التي اختارها الحلفاء منفى للحاج أمين بعد أن وقع أسيراً في أيديهم قبيل سقوط برلين بقليل .

وقد رحبت الحكومة المصرية بالمفتي ومنحته حق اللجوء السياسي . وبدأ المفتي بعد أن استقر به المقام في مصر بتوجيه الثورة الفلسطينية وقيادتها من القاهرة .

ولم ينس المفتي الوالد وثقانيه في خدمته فأرسل إليه يدعوهُ إلى اللحاق به في مصر، والعودة إلى عمله ضمن المجموعة المختصة بحراسته .

ولم يتردد الوالد في الاستجابة لأوامر المفتي، بل إنه رأى في استدعائه من جديد تشريفاً له ودليلاً على وفاء المفتي وثقته فيه .

سافر الوالد إلى مصر وأمضى أكثر من عام في القاهرة دون أن يكون معه أحد من أفراد العائلة .

وقد حدثني رحمه الله أنه قد فكر في الزواج من إحدى بنات مصر، ولكن محاولاته المتكررة لتنفيذ الفكرة لم تتجح مما جعله يتأكد من أن الله

سبحانه وتعالى لا يريد له أن يرزأ أم رجا بضرة . ومن أجل ذلك حصل على إجازة قصيرة وعاد إلى فالونيا، ثم صحب في عودته إلى مصر كلا من الوالدة والشقيقين غالب وفرج الله . وقد حدث ذلك في الحادي والعشرين من تموز - يوليو - سنة ١٩٤٧ م .

أما أنا فقد بقيت في فلسطين لأن إدارة المعارف في القدس كانت قد وافقت على تعييني مدرساً إضافياً في مدرسة إشوع الابتدائية للبنين .

وكان مساعد مفتش لواء القدس الأستاذ حسين علي اليوسف قد خيرني بين مدرسة قرية كوبر في قضاء رام الله، وبين مدرسة إشوع الواقعة على بعد أربعة كيلومترات جنوبي باب الواد، فاخترت الثانية نظراً لسهولة الوصول إليها من جهة بلدنا .

وقد صدر قرار تعييني في تلك المدرسة في مطلع آذار - مارس - سنة ١٩٤٧ براتب قدره ثمانى جنيهات فلسطينية ونصف .

كان الحصول على مثل هذه الوظيفة بالنسبة لي في ذلك الوقت حتماً من الأحلام . وقد سعدت كثيراً بحمل لقب الأستاذ الذي كان يناديني به أهالي قريتنا، وكيف لا أكون سعيداً بذلك وقد أصبحت أحمل اللقب الذي لم يكن يتمتع به في البلدة كلها أحد سوى الأستاذ حسن نسيبه أستاذي وأستاذ الأجيال التي سبقتني .

في الثاني من مارس سنة ١٩٤٧ حزمت ما يلزمي من أمتعة وركبت سيارة إلى باب الواد التي تبعد عن قريتنا حوالي (٢٤) كيلومتراً إلى جهة الغرب . ومن هناك استأجرت سيارة أخرى أوصلتني مع أمتعتي إلى إشوع التي وصلتها بعد صلاة العصر بقليل .

عرف صبية القرية بحاستهم التي لا تخطيء أنني لا بد وأن أكون المعلم الجديد الذي طال انتظارهم له . وقد تأكدوا من صدق حدسهم عندما سألت بعضهم عن منزل مدير المدرسة الأستاذ أمين محمود السلفيتي .

تعاون الصبية في حمل أمتعتي وأوصلوني مشكورين إلى منزل المدير الذي رحب بي أجمل ترحيب، واستضافني ثلاثة أيام أظهر في أثنائها سخاء نادر المثال .

وقد آلمني أن ذلك المدير الفاضل كان هو والسيدة زوجته محرومين من الإنجاب .

فوجئت بوجود مدرس تربطني به زمالة سابقة هو الأستاذ ربحي إسماعيل عطية من دير ياسين، وكان زميلاً لي في مدرسة لفتا، وكان يسبقني بعام دراسي واحد. وقدّر له أن ينهي الصف الثاني الثانوي في الكلية الإبراهيمية في القدس. وكان يستعد لتقديم امتحان المعلمين الأدنى .

عرض الأستاذ ربحي عليّ أن أشاركه السكن في الغرفة التي يستأجرها فوافقت، وكانت الأجرة لتلك الغرفة هي جنيه فلسطيني واحد لا غير كنا ندفعه مناصفة . وكانت تلك الغرفة في قرية عسلين إحدى القرى التي كانت تشارك في ملكية المدرسة . لقد تعاون أهالي قرى إشوع وعسلين وصرعة وعرطوف في بناء هذه المدرسة التي كان يفد إليها أيضاً تلاميذ من قرية دير أبان .

كانت المدرسة مؤلفة من أربع غرف شُيّدت في منتصف الطريق الذي يربط بين هذه القرى، وكانت مدرسة ابتدائية كاملة . ولما لم تكن غرفها الأربع تتسع لجميع الصفوف فقد كان الصفان الثاني والثالث يشغلان غرفتين ملحقتين بجامع إشوع . وفي هاتين الغرفتين زاولت عملي برفقة معلم آخر من الخليل هو الأستاذ راشد القواسمي الذي لم يلبث أن نقل من المدرسة وحل محله معلم من الولجة يدعى الأستاذ إبراهيم سعيد. في بداية أغسطس من عام ١٩٤٧ زاد راتبي نصف جنيه فأصبح تسعة جنيهات وقد أسعدتني هذه الزيادة التي جعلت راتبي يتكون من رقم صحيح .

وفي بداية العام الدراسي ٤٨/٤٧ انتقل الصف الثالث الابتدائي وانتقلت معه إلى غرفة جديدة شُيّدها أهالي القرى الأربع إلى جانب بقية

غرف المدرسة، ولم يبق في وسط بلدة إشوع سوى صف واحد هو الصف الثاني الابتدائي الذي أسندت مهمة تدريسه إلى الأستاذ إبراهيم الولجي .

كان الجدول الذي أسند إليّ في بداية العام الدراسي الثاني يضم خليطاً عجيباً وغير متجانس من المواد. والسبب في ذلك هو أن المدارس في تلك الأيام لم تكن تسمع شيئاً عما يسمى بالتخصص .

لقد كُلفتُ بتدريس الحساب للصف الأول الابتدائي والدين للصف الثالث، والتاريخ والجغرافيا للصفوف الثالث والخامس والسادس والسابع، واللغة العربية والصحة والطبيعة والتربية الرياضية للصف الرابع .

من الأساتذة الذين عرفتهم في هذه المدرسة بالإضافة إلى من ذكرتهم الأستاذ ذيب كنعان وهو من أبناء قرية إشوع، وكان شاباً ذكياً يتسم بالطموح وخفة الظل وقوة الشخصية، وكان يحمل شهادة امتحان المعلمين الأدنى، ويستعد للتقدم لامتحان المعلمين الأعلى الذي كانوا يعادلونه بالمتروك.

ومنهم الأستاذ موسى المغربي من القدس وكان المعلم الوحيد الذي أنهى المرحلة الثانوية بين معلمي مدرسة إشوع. وكان شاباً يتسم بالظرف والكرم والحرص على الأنافة .

ومنهم الأستاذ محمد الشيخ من صور باهر، وكان على الرغم من ظرفه وكرمه كثير التباهي بمغامراته الغرامية التي كنا نستمع إليها وهو يحدثنا عنها بدهشة بالغة لأننا كشبان ريفيين لم نكن ننصّر قيام مثل ما كان يتحدث عنه من العلاقات بين الرجل والمرأة قبل الزواج .

هل كنا ساذجين أكثر مما ينبغي؟ أم أنّ زميلنا المذكور كان مبالغاً في ادعاءاته... الله وحده أعلم بالحقيقة .

قبل أن يغادر الوالد وأسرته قالونيا متجهين إلى القاهرة رأى أنه ليس من المستحسن أن يتركني وحيداً دون أن يكون لي شريكة في الحياة في الوقت الذي تزوجت فيه جميع الشقيقات .

وعندما عرض عليّ الوالدان الأمر وافقت على الزواج دون تردد. ولم يكونا بحاجة إلى البحث عن عروس فقد كان معروفاً لدى جميع أهالي القرية تقريباً أن رجلاً سيتزوج من بهية بنت عمه محمد عثمان حسن سمور. كيف لا وهما مولودان في أسبوع واحد . كما أن بهية عطية من أبيها لرجا منذ أن ذهب الوالد للتهنئة بقدم بهية .

وكان المقرر أيضاً أن يتزوج عثمان ابن العم محمد عثمان حسن سمور من الشقيقة الصغرى نعمة . ولكن الأمور لم تسر وفق ما يشتهي الأباء والأمهات من عائلتنا وعائلة العم محمد عثمان .

لقد تدخل القدر واستصدمت محاولات تنفيذ مخططاتهم بعقبات لم تتمكن العائلتان من التغلب عليها حيث فشل مشروع زواج عثمان من نعمة كما فشل مشروع زواجي من بهية .

وكانت نعمة قد تزوجت من شعبان ابن العم سلامة حسين، أما عثمان فقد تزوج من ابنة عمته فضة صالح عيسى. وبعد زواج نعمة بعامين تزوجت شقيقتي دلة من ابن عم زوج الشقيقة امدلة وهو محمد تيم محمد علي خضر وكان شاباً فقيراً ليس له من الأرض مثل ما لابن عمه محمد خليل .

لم يكن لدى الوالد متسع من الوقت يبحث لي فيه عن عروس أخرى فسافر هو والأسرة إلى مصر بعد أن أرجأ موضوع زواجي إلى أجل غير مسمى .

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٧ أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية

والأخرى يهودية ووضع مدينة القدس والمنطقة المحيطة بها تحت إشراف دولي .

وقد أقرّ المشروع بأغلبية (٢٣) صوتاً ضد (١٣) صوتاً وامتناع عشر دول عن التصويت، وقد ورد في أحد بنود القرار ما نصه: "... تشمل مدينة القدس بلدية القدس مضافاً إليها القرى والبلدان المجاورة، وأبعدها شرقاً أبو ديس وأبعدها جنوباً بيت لحم وأبعدها غرباً عين كارم وتشمل معها المنطقة المبنية من قرية قالونيا" .

كان هذا المشروع مؤذناً ببداية كفاح مرير، فقد اشتعلت الثورة الفلسطينية من جديد للحيلولة دون تنفيذ ذلك القرار الجائر .

وقد أنشأت الهيئة العربية العليا التي يترعها المفتي كنانب من المجاهدين أطلق عليها اسم قوات الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني . وقد بدأت تلك القوات منذ الخامس عشر من كانون أول - ديسمبر - سنة ١٩٤٧ بخوض أعنف المعارك مع القوات البريطانية والعصابات اليهودية. وقد ألقى الفلسطينيون أحسن البلاء في جميع المعارك التي خاضوها على الرغم من قلة عددهم وضعف عدتهم وعنادهم. وقد ظلت الثورة متأججة حتى دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في الخامس عشر من أيار - مايو - سنة ١٩٤٨ م .

بعد اشتداد أوار الثورة أصبح السفر من قالونيا إلى إشوع عبر طريق باب الواد محفوفاً بالمخاطر أو شبه مستحيل . ولكن التنقل ظل ممكناً على الرغم من خطورته حتى أوائل عام ١٩٤٨ م .

وكان أصحاب شركة باصات قالونيا قد كفوا عن تشغيل باصاتهم على طريق قالونيا القدس وبالعكس لأن اختراق ضواحي القدس الغربية اليهودية التي كانت تمر منها الباصات أصبح من قبيل المستحيلات .

واستعاض أصحاب الشركة عن ذلك بتشغيل باصاتهم بين قالونيا ومدينتي اللد والرملة. ونتيجة لتضايف الأخطار فقد اضطررت لتقديم استقالتي من عملي وقد قُبلت الاستقالة على أن تكون نافذة المفعول ابتداءً من أول آذار - مارس - سنة ١٩٤٨م. وفي هذه الأثناء أرسل إلي الوالد برسالة يدعوني فيها إلى أن ألحق بالعائلة في مصر، ومنذ ذلك الحين بدأت محاولاتي للسفر إلى القاهرة .

كنت قد حصلت على جواز سفر فلسطيني من دائرة المهاجرة في القدس يحمل الرقم (٢٣١٠٤٨) وكان هذا هو أول جواز سفر أحصل عليه، وقد ظل معي حتى أخذته مني سفارة المملكة الأردنية الهاشمية في القاهرة عند حصولي على شهادة الجنسية الأردنية ومنحي جوازاً أردنياً في الخامس عشر من آذار - مارس - سنة ١٩٥٥م .

قدمت طلباً إلى القنصلية المصرية في القدس للحصول على تأشيرة دخول إلى المملكة المصرية مرتين، ولكن طلبي رفض في المرتين، ولما سألت القنصل المصري عن سبب رفض القنصلية لطلبي هذا قال: إن شباب فلسطين ينبغي أن يبقوا فيها للدفاع عنها.

كان ذلك الرد منطقياً ومقنعاً إلى حد كبير لو أن الدول العربية التي أرسلت جيوشها إلى فلسطين لم تلجأ فيما بعد إلى حرمان الشعب الفلسطيني من المشاركة في قراع العدو الصهيوني بحجة أن هذه الجيوش هي التي ستحرر فلسطين من براثن الأعداء.

في الثامن والعشرين من شباط - فبراير - سنة ١٩٤٨ استأجرت جماًلاً من قرية عسلين لينقل لي أمتعتي على ظهر جملة ويوصلها إلى منزل شقيقتي نعمة في قالونيا. بدأ الرجل رحلته عبر الطريق الجبلي الذي يربط بين قرى بيت محسير وسريس والعمور وأبو غوش وعين رافا وصوبا

والقسطل. وقد اقترح علي أن أصحبه في تلك الرحلة، غير أنني لم أستجب لذلك وقلت له إنني سأسبقه إلى قالونيا إن شاء الله .

مضى الرجل في طريقه وانطلقت أنا إلى باب الواد منتظراً وصول باص البلد القادم من مدينة الرملة . وصلت إلى محطة البنزين الواقعة في باب الواد والتي كانت مملوكة لرجل من عائلة قطينة المقدسية .

وقد طال انتظاري للباص حتى بلغ سبع ساعات. وفي أثناء هذه الساعات السبع شن المجاهدون الفلسطينيون على القوافل اليهودية التي كانت تمر من باب الواد في طريقها إلى القدس ست هجمات. وكان المجاهدون يتخذون من الغابات الحرجية التي تغطي الجبال التي تكثف طريق باب الواد من الشمال والجنوب مكاناً يطلقون منها النار. وكان هذا الطريق أخطر الطرق التي تمر فيها القوافل اليهودية، وقد خسر اليهود فيه كثيراً من القتلى والسيارات المحملة بالعتاد والمؤن. وكنت ومن معي من منتظري الباص نلجأ في أثناء الاشتباكات إلى كهف يقع خلف محطة البنزين حيث نظل مختبئين فيه إلى أن يتوقف إطلاق النار .

وقد شارك أهالي بلدتنا مع مجموعة من رجال الجهاد المقدس في مهاجمة إحدى القوافل اليهودية عند القسطل في السابع والعشرين من كانون أول - ديسمبر - سنة ١٩٤٧، وكان من نتائج هذا الهجوم قتل عدد كبير من رجال القافلة وتحطيم عدد كبير من سياراتها .

وكان بين القتلى اليهود اثنان من كبار رجال الوكالة اليهودية منهم هانس برايت، وقد أصيبت في تلك المعركة جولداماتيرسون التي تولت رئاسة الوزارة في إسرائيل فيما بعد، وكانت إذ ذاك رئيسة للشعبة السياسية في الوكالة اليهودية .

في الرابعة من بعد الظهر وصل الباص المنتظر، وكانت فرحتنا بوصوله لا توصف إذ لم تكن نعلم ما يخبئه لنا القدر حتى الآن .

توقف الباص عند المحطة وتزود بالوقود، وصعدت إليه مع اثنين آخرين من الركاب فأصبح عدد من فيه بعد صعودنا إليه عشرة ركاب بينهم امرأتان وثلاثة أطفال والباقي من الرجال .

تحرك الباص في طريقه إلى قالونيا ولم يكد يسير بنا أكثر من مائتي متر بعيداً عن المحطة، حتى فوجئنا بمصفحة يهودية تهب الأرض نهبا وهي قادمة من القدس في طريقها إلى تل أبيب .

وكان خلف هذه المصفحة سيارة صالون سوداء فاخرة يبدو من هيئتها أنها كانت تحمل بعض الشخصيات اليهودية المرموقة وأن المصفحة التي تتقدمها كانت مكلفة بحراستها .

وكانت المصفحة والسيارة في الوقت الذي أصبحنا فيه بمواجهة الباص نتعرضان لإطلاق الرصاص من قبل المجاهدين الكامنين بين الأشجار الحرجية على جانبي الطريق .

لذلك رأى من في المصفحة أن من الأجدي توجيه نيرانه إلى هذا الباص العربي الذي ساقه سوء حظه في طريق هذه المصفحة ليكون هدفاً سهلاً لرصاصه . وهكذا أصلتنا المصفحة وأبلا من نيران مدفعها الرشاش .

وما هي إلا ثوان معدودة حتى ابتعدت عنا المصفحة والسيارة السوداء المرافقة لها، أما الباص فلم يلبث أن جنح إلى الجهة اليسرى واستقر في الخندق الواقع على جانب الطريق الأيسر، وكان عمقه لا يقل عن متر ونصف المتر. وتوقف إطلاق النار، وساد هدوء غريب لم يدم إلا لحظات .

وكنا نحن - ركاب الباص - قد استلقينا على بطوننا بين المقاعد وفي الممر الذي يفصل بينها بمجرد رؤيتنا للمصفحة بناء على نصيحة

رجل مسن من الركاب حيث صاح قاتلاً عند رؤيته للمصفحة وهي تأتي من الاتجاه المعاكس: "ناموا على بطونكم يا جماعة لأن المصفحة ستضربنا" .

بعد أن استقر بنا الباص في الخندق خرجنا منه مسرعين بين صيحات النساء وصراخ الأطفال، وشاهدنا عدداً من الشباب الفلسطينيين المسلحين وهم يهرولون نحونا ونحن نصيح قائلين: "نحن عرب، نحن عرب، حذار من إطلاق الرصاص" .

حين وصل بعض الشباب إلينا صاح أحدهم: هل أصيب أحد من الركاب بسوء؟ عند ذلك أحصيت الركاب فوجدت أن واحداً منهم لم يزل في الباص مع السائق .

قلت للرجل نحن عشرة ركاب، وما أرى هنا إلا تسعة ومعنى ذلك أنه مازال في الباص راكب واحد مع السائق وهبطت مع الرجال إلى حيث يستقر الباص فوجدنا أن السائق وهو (موسى حسن سليمان) من قالونيا مصاب في رأسه. أما الراكب العاشر - وكان صبياً من قرية أبو غوش في العاشرة من عمره - فقد كان مهشم الوجه تماماً نظراً لأن معظم الرصاصات التي أطلقتها المصفحة كانت من نصيبه. وما من شك في أن هذا الصبي المسكين لم ينبطح أرضاً كما فعل سائر الركاب، أو أنه حاول ذلك ولكن الرصاص لم يمهله . وقد قيل فيما بعد - والله أعلم - أن هذا الصبي كان ابناً لواحد من سماسرة الأرض المتعاونين مع اليهود .

بعد قليل مرت سيارة جيب بريطانية لم يكن فيها سوى ضابط وجندي، وقفت السيارة وسألنا الضابط عما حدث فشرحت له بالإنجليزية قصة الحادث. وبعد أن ألقى الضابط نظره على المصابين قال: هذا الطفل ميت لا فائدة من نقله إلى المستشفى، والأفضل أن ترسلوا بجثته إلى ذويها، أما السائق الجريح فسنقله معنا إلى مستشفى اللد .

وانطلقت سيارة الجيب بالسائق المعروف بأبي فهمي. وكان شقيقاً لمختار المشاعلة علي حسن الشهير بأبي صبحي .

ومما هو جدير بالذكر أنني كنت أجلس خلف السائق مباشرة ولولا انبطاحي على الأرض لكنت واحداً من ضحايا ذلك الحادث المشؤوم .
اصطحبنا بعض الشباب - وكانوا من أهالي قرية دير أيوب القريبة من باب الواد - إلى منزل مختار القرية حيث قُضينا ليلتنا في ضيافته .
وفي السابعة من صبيحة اليوم التالي بدأنا رحلة العودة إلى بيوتنا كل إلى وجهته . وكان عليّ أن أسلك الطريق الذي سلكه الجمال بالأمس .
قلت في نفسي "لو أنني استمعت إلى نصيحة الجمال لكنت الآن في بندي، ولكن قدر الله وما شاء فعل" .

عندما وصلت إلى قرية صويا، مررت بامرأة تقتلع ثمار الخس من أرضها فألقيت عليها تحية المساء . وقد ردت المرأة التحية بأحسن منها، وسألتني قائلة: بالله عليك يا بني ألسنا واحداً من ركاب باص قالونيا الذي أطلق عليه اليهود النار مساء أمس؟!

قلت للمرأة : أجل والله يا خاله... إنني واحد من ركاب ذلك الباص... ثم سألتني عما حدث فسررت عليها قصة الحادث بإيجاز، فناولتني ثمرة كبيرة من ثمار الخس وهي تقول: كل هذه يا بني فما أرى أن شيئاً من الطعام قد دخل في جوفك منذ الصباح . وكان كلام المرأة حقيقة واقعة .

أخذت من المرأة ثمرة الخس شاكرًا لها صنيعها وتعاطفها، ومضيت في طريقي وأنا أنفض التراب عن أوراق الثمرة وأكلها وصوت المرأة يلاحقني ويوصيني بأن آخذ حذري عندما أجتاز الشارع العام إلى الجهة الشمالية عند قرية القسطل .

عند وصولي إلى قرية القسطل كان عليّ أن أجتاز الشارع الذي يفصل بينها وبين الأراضي التابعة لبلدتنا . اجتزت الشارع بسلام بعد أن نظرت ملياً إلى جهتي الغرب والشرق وتأكدت من خلوه من السيارات .

ولكنني لم أكد أسير بضعة أمتار حتى ظهرت من الغرب مجموعة من السيارات تتقدمها دبابة إنجليزية، وكان واضحاً أن هذه المجموعة ليست إلا مقدمة لقافلة يهودية قادمة من تل أبيب .

وكانت المنطقة التي أسير فيها سهلة مكشوفة ليس فيها ما يمكنني من أن أتوارى خلفه عن الأنظار، فسلمت أمري إلى الله ومضيت في طريقي، وفي يدي حقيبة صغيرة . وكنت أرثي حلة أوروبية زرقاء مقلمة واعتمر الكوفية والعقال... وبعبارة أخرى... كان من الواضح جداً أنني إنسان عربي وأن الفرصة مواتية لهؤلاء الخنازير كي يقضوا علي برصاصة واحدة .

استسلمت لقضاء الله وقدره، ومضيت في طريقي، وما هي إلا لحظات حتى مرت بجاني أول سيارة يهودية بعد الدبابة الإنجليزية التي تسير في مقدمة القافلة دون أن توجه نيرانها إلي . وكنت كلما مرت سيارة دون أن تطلق النار عليّ أقول في نفسي: سوف تفعل ذلك السيارة التي وراءها . واستمر توقعي للموت في هذه اللحظات العصيبة حتى أصبحت آخر سيارة في القافلة بمحاذاتي .

عند ذلك حاول سائق السيارة أن يوجه مسدسه إليّ ولكن جندياً إنجليزياً كان في ناقلة جنود إنجليزية في آخر القافلة صاح باليهودي قائلاً: أتركه ما هو إلا صبي . وانصاع اليهودي للأمر وابتعدت عني القافلة، ونجوت من الموت بأعجوبة .

وصلت إلى قالونيا في الرابعة من مساء ذلك اليوم بعد أن قطعت المسافة بين دير أيوب وبلدنا عبر ذلك الطريق الجبلي الوعر في تسع ساعات، قطعت في خلالها ما لا يقل عن أربعين من الكيلومترات .

وجدت الشقيقات في حالة يرثى لها، فقد كن يتوقعن وصولي في اليوم الذي وصل فيه الجمال، وقد وقر في أعماقهن بعد أن غابت الشمس

دون أن أصل، وبعد أن استمعن إلى نبأ تعرّض الباص لإطلاق النار من إذاعة القدس أن مكروهاً قد أصابني . فلما وصلت إليهن أفرخ رَوْعُهُنَّ، واطمأنت نفوسهن، وعانقنني بحرارة وتوافد الناس لتهنئتي بالنجاة .

لم يمض على وصولي دقائق معدودة حتى هرولت إليّ أم فهمي زوجة السائق المصاب تستحلفني بأن أحدثها عما حدث لزوجها دون تمويه أو تزيف .

لم أخف عن أم فهمي شيئاً، فقد حدثتها بما جرى بالتفصيل وقد أكدت حديثي بأغلظ الأيمان لتطمئن على زوجها، فقد كانت المسكينة في حالة لا تحسد عليها .

في خضمّ هذا الحادث عرفت الأستاذ فايز خالد الحزينة من القدس، وكان يعمل مدرساً في مدرسة أبو غوش. وقد توثقت علاقتي به بعد أن التحق كلانا بالأزهر الشريف. وقد كتب الله الشفاء لسائق الباص وامتد به العمر حتى توفي في أوائل الثمانينيات في مدينة الزرقاء .

أما فايز الحزينة فقد تخرج في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر وعمل في سلك التدريس وظل يرتقي في السلم الوظيفي إلى أن وصل إلى درجة مستشار ثقافي في سفارة المملكة الأردنية الهاشمية في دمشق، ثم لم يلبث أن اختلط عقله بعد أن تقاعد بقليل .

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن ألقي في الكويت بعد حادثة باب الواد بنحو عشرين عاماً بآبن المختار الذي قضينا ليلة في منزله في دير أيوب ويدعى عبد الحميد علي (وكنيته أبو وديع) وقد توثقت العلاقة بيني وبين ابن شقيقه المرحوم محمد صالح علي (أبو صلاح) بعد أن عاشت أسرتانا متجاورتين في عمارة واحدة أكثر من عشرين سنة.

وكان أبو وديع هو الذي يقود الشباب من أبناء قريته الذين كانوا يكمنون في أحراش باب الواد متربصين بالقوافل اليهودية التي تمر منه قادمة من القدس وإليها .

منذ أن عدت إلى القرية بعد نجائي من حادث الباص وحتى اليوم الذي غادرتها فيه إلى مصر، وأنا أشارك رجال البلدة وشبابها في حراسة البلد. وكان أهالي البلدة قد نظموا صفوفهم للدفاع عن بلدتهم وأقاموا نقاط حراسة حولها من جميع الجهات . وكان يقف في كل نقطة رجلان أو ثلاثة. وكان منزلنا الواقع في أقصى الطرف الغربي من القرية نقطة من نقاط الحراسة تلك. وكانت هذه هي النقطة التي أقف فيها عندما كان يأتي دوري في الحراسة، ولما لم يكن لدي سلاح خاص بي فقد كان العم سلامة يتفضل بإعارتي بندقيته .

منذ بداية الأحداث كنت قد توسلت كثيراً إلى الوالد كي يبعث إلي بقطعة سلاح من القاهرة ولكنه لم يفعل. وقد كنت أحس بحرج شديد بين أهالي القرية لعدم وجود سلاح في حوزتي وأنا ابن المجاهد المعروف محمد سمرين .

منذ وصولي إلى البلدة أصبح وجودي في منزلنا المكشوف لليهود محفوفاً بالمخاطر، إذ لم يكن الداخل إليه أو الخارج منه يستطیع الاحتماء من رصاص يهود مستعمرة آرزا الذين كانوا يُصلّون به القرية وأهلها بصورة مستمرة ابتداءً من ١٩٤٨/٣/١٧ .

لقد تجمع أهالي المنازل الغربية والمتطرفة من مختلف الجهات في وسط البلدة وفي المنطقة الشرقية منها حيث أصبحوا ينامون في منازل أقاربهم وأصدقائهم . وقد اتخذت في البداية من منزل الشقيقة نعمة مقراً لي ثم لم ألبث أن انتقلت معها ومع زوجها وأبنائها إلى غرفة من غرف منزل العم جمعة رمضان. وقد تقاسمنا تلك الغرفة مع الشقيقة دلة وأولادها .

أصبح المسافر إلى القدس من قالونيا مضطراً إلى سلوك طريق طويل متعرج بعد أن توقف سير باصات بلدتنا إليها . لقد غدا المسافر مضطراً إلى التوجه إلى عين كارم سيراً على الأقدام، ومنها إلى مشارف

دير ياسين، فبيت صفافاً ماراً بأطراف بعض الأحياء اليهودية مثل جبعات شاوول وبيت هاكيرم وميكور حايم وسواها .

وفي ١٧ آذار - مارس - سنة ١٩٤٨ توجهت عبر هذا الطريق لمراجعة القنصلية المصرية بشأن آخر طلب قدمته إليها بشأن الحصول على تأشيرة دخول إلى المملكة المصرية. وقد فوجئت برفض طلبي للمرة الثانية. وفي باب الخليل وأنا في طريق عودتي إلى قالونيا وكنت يومها أسير برفقة المختار سعيد سلمان قابلت مصادفة السيد عبد الله سمري .
لم أكن أعرف الرجل من قبل، ولكن المختار كان يعرفه معرفة جيدة . حياه المختار وعائقه بحرارة، وقدمني إليه قائلاً: الأستاذ رجا ابن زميلكم محمد سمري .

وعبد الله سمري^(١) هذا - كما يوحي اسمه - ليس واحداً من أقربائي، ولكنه رجل من مجاهدي عين كارم، وكان من العاملين في الهيئة العربية العليا، وكان هو والوالد و خليل منون من عين كارم، وعبد الرحمن شحدة من لقتا، ومحمد رضوان من القدس، يشكلون لجنة عُهدَ إليها بمهمة توصيل السلاح إلى أماكن وجود القيادات الفلسطينية في القدس. وكان عبد الله سمري - رحمه الله - لا يفتأ يقوم برحلات مكوكية خطيرة بين القاهرة والقدس تنفيذاً لهذه المهمة الجليلة.

لم يكذ الرجل يسمع باسمي حتى انفرجت أساريره فقال: "مرحباً أهلاً وسهلاً أستاذ رجا، الحمد لله الذي هباً لي فرصة اللقاء بك بهذه السرعة، رب صدفة خير من ألف ميعاد، كنت عازماً على إرسال أحد

(١) في عدد من قُرى قضاء القدس مثل قالونيا وعين كارم وسلوان والقباب، عائلات تنتسب إلى "سمري". ويرى بعض شيوخ هذه العائلات أن ذلك لا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة، وأنه لا بد من وجود خيط نسب يربط بينها والله أعلم.

رجالي إلى بلدكم ليأتي بك إليّ حتى ترافقني في السفر إلى مصر. أما وقد رأيك الآن فقد كفيّتي مؤونة ذلك... اليوم هو يوم الثلاثاء... وما عليك إلا أن تكون في منزلي بعين كارم قبل ظهر يوم الجمعة ٢٠/٣/٤٨ وحذار من التأخير. لا تحضر معك سوى جواز سفرك، وحقيبة يد خفيفة تضع فيها بيجامتك وعدة حلائك وأشيائك الصغيرة التي لا تستغني عنها " .

لم أكد أصدق أنني، غير أنني لم أملك إلا أن أشكر السيد عبد الله سمري وأسأله مستغرباً: كيف سأسافر إلى مصر وليس لدي تأشيرة دخول؟ أجاب السيد عبد الله بلهجة الواثق من نفسه: "لا عليك، ليس هذا مهماً على الإطلاق... ألسنت تريد السفر وحسب؟ جهز نفسك يا بني لا أتصور نفسي واقفاً بين يدي أبيك دون أن تكون برفقتي هذه المرة... لقد وعدته بإحضارك معي إلى القاهرة منذ شهرين ولكن الظروف لم تسمح بالاتصال بك" .

وودعته أنا والمختار بعد أن وعدته بأن أكون في بيته في الموعد الذي ضربه لي .

في يوم الجمعة العشرين من آذار - مارس - سنة ١٩٤٨ توجهت إلى عين كارم بحراسة العمين محمد مطر وسلامة حسين . وكانت مستعمرة آرزا وموتسا قد أصلتا قريتنا وإبلاً من الرصاص طوال الأيام الثلاثة الماضية .

كان بين أهالي بلدتنا وأهالي هاتين المستعمرتين في البداية اتفاق غير مكتوب حول تجنب المواجهة بيننا وبينهم. ولقد نقل عن ميخائيل شتاينيرج وبروزة وبيغش وغيرهم من كبار يهود موتسا أنهم قالوا لبعض رجال بلدتنا: "نحن من جانبنا لن نوجه إلى قالونيا رصاصاً واحدة، ولننكم بدوركم تعاملوننا بالمثل... وإذا كان في بلدكم بعض الشباب المتحمسين

الذين لا يستطيعون كبح جماح حماسهم فانصحوهم بالتوجه إلى بعض المستعمرات البعيدة ليطلقوا عليها النار".

ولكن اللجنة المشرفة على الدفاع عن البلدة لم تستطع كبح جماح هؤلاء الشباب من جهة، كما لم تستطع منع مجموعات المجاهدين من غير أبناء البلدة الذين تركزوا ليلة ١٧/٣/٤٨ في منطقة البصّ وبدأوا بإطلاق النار على مستعمرة آرزا .

كان ذلك إيذاناً باشتعال الموقف ومدعاة إلى فتح اليهود النار على بلدتنا بشكل متواصل مما جعل الحياة فيها أشبه ما تكون بالجحيم... أصبح من المستحيل على أي إنسان من سكانها أن يتحرك في شوارع البلدة وحاتها دون أن يتعرض للموت، كما أصبح الوصول إلى عين من عيون مائها ضرباً من المستحيل . تجمع أهالي البلدة في البيوت المتلاصقة التي تشكل سواثر طبيعية تقيهم الرصاص، وصاروا يأخذون حاجاتهم الضرورية من الماء من بعض الآبار الموجودة لدى بعض الأهالي كبتّر العم اسماعيل خليل، وبئر عيسى حمدان، وبئر محمد علي سلامة .

لم يستطيع المسلحون من أبناء البلدة ولا أولئك الذين جاءوا من القرى المجاورة لإطلاق النار عليها من منطقة البصّ مجازاة اليهود في كثافة النيران .

كان لسان حال المستعمرتين يقول: إليكم هذا ما دمتم ترغبون فيه ومهما يكن من أمر فقد خرج الأمر عن السيطرة . واستمر الموقف في التصاعد حتى وصل إلى نهايته المأساوية التي سأحدث عنها فيما بعد .

قلت أنني توجهت إلى عين كارم في صبيحة العشرين من آذار - مارس - ١٩٤٨ بحراسة العمين محمد مطر وسلامة حسين. اجتاز ثلاثتنا الشارع العام الذي يمر جنوبي البلدة بسرعة فائقة والرصاص يتطاير

من حولنا، ورحنا نعدو وبسرعة بين أشجار الزيتون المعمرة التي تملأ مرج عين كارم، وبسبب كثافة الأشجار أصبحت الطريق أكثر أمناً، ولكن إطلاق الرصاص علينا لم يتوقف حتى وصلنا عين رواس عند مدخل عين كارم الشمالي.

وصلنا إلى منزل عبد الله سميرين، وبعد تناول طعام الإفطار عاد العمّان إلى قاليونيا وبدأنا نحن رحلتنا إلى القاهرة .

كان الفريق المتوجه إلى مصر مؤلفاً من خمسة رجال هم : عبد الله سميرين قائد المجموعة وأمين سميرين ومحمد الشخامي (من عين كارم) وحسن الريمائي (من بيت ريماء) وأنا .

وكان الرجال الثلاثة متوجهين إلى القاهرة ليتولوا حراسة منزل القائد عبد القادر الحسيني .

وكانت عائلة القائد مؤلفة من حرمه السيدة وجيهة وأولاده موسى وفيصل وغازي وابنته الوحيدة هيفاء . وكان أكبرهم وهو موسى لا يتعدى الثالثة عشرة من عمره في ذلك الحين .

لم يكن معنا من السلاح سوى بندقية ومسدس . ركبنا باص عين كارم إلى باب الخليل، وقد تعرضنا لإطلاق النار في طريقنا القصيرة هذه عدة مرات .

ومن القدس ركبنا سيارة تاكسي في الساعة الواحدة بعد الظهر متجهين إلى غزة عن طريق الخليل وبيت جبرين . وصلنا غزة في الخامسة مساءً حيث تناولنا طعام الغداء في أحد المطاعم بشارع عمر المختار، واستبدلنا السيارة بغيرها وواصلنا سفرنا إلى خان يونس حيث نزلنا ضيوفاً على أحد أصحاب البيارات المحيطة بالمدينة، ويدعى الحاج مصطفى. وقد أكرم الرجل وفادتنا ورحب بنا أجمل ترحيب .

الفصل السادس

في مصر

غادرنا المحطة إلى ميدان باب الحديد. وهناك أشار السيد عبد الله سميرين إلى سيارة تاكسي فتوقفت وطلب إلى سائقها أن ينقل الرجال الثلاثة أمين والشخامي وحسن إلى فندق ذكر له اسمه، فانطلق السائق بحمولته لا يلوي على شيء بينما طلب إلى السيد عبد الله أن أتبعه .

سرنا في ميدان باب الحديد حتى وصلنا محطة كوبري الليمون، وهي محطة فرعية للسكة الحديدية تقوم منها القطارات إلى عدد من ضواحي القاهرة الشمالية .

ابتاع السيد عبد الله تنكراً لي، وصعد معي إلى القطار المتجه إلى حلمية الزيتون، وأجلسني إلى جانب رجل عرف أنه متجه إلى تلك المحطة، ثم طلب إليه بلطف أن ينزلني فيها، وأن يدلني على منزل مفتي فلسطين الذي لم يكن يخفي على أحد من أبناء تلك الضاحية^(١).

في الواحدة والرابع بعد منتصف الليل وصلنا إلى منزل المفتي الواقع في شارع الكمال، وعند البوابة كان يجلس الوالد مع رجل آخر يدعى عبد الله اليماني، وألقيت عليهما السلام ففوجيء الوالد بوصولي، وأسلم بندقيته لرفيقه اليماني ثم طوّقني بذراعيه وانهال علي ضمناً وتقبيلاً، ثم شكر الرجل على اهتمامه بإرشادي إلى غايتي، وصحبني عائداً إلى المنزل الذي

(١) كانت هذه المرة الأخيرة التي رأيت فيها المرحوم عبد الله سميرين، إذ لم يلبث أن استشهد بعد ذلك بنحو شهر، بعد أن أطلقت عليه النار في طريقه من القدس إلى بيت لحم .

في صبيحة اليوم التالي ٤٨/٣/٢٢ تابعنا سفرنا إلى العريش مارين برقع فيلغناها ظهراً ونزلنا ضيوفاً على وجيه من وجهاء تلك المدينة يدعى الحاج حسين قويدر بك، وقد أكرمنا إكراماً يَنُمُّ عن طيب محتد وكرم نفس وأصالة عربية صميمة واستعداد غير محدود لخدمة الفلسطينيين وقضيتهم .

في الرابعة من مساء اليوم التالي ٤٨/٣/٢٢ ركبنا القطار المتجه إلى القنطرة الشرقية، وهناك اتخذت حيالنا بعض الإجراءات الرسمية حيث سُجِّلَتْ أَسْمَاؤُنَا في سجل خاص. ولم نخضع للتفتيش ولم يطلب إلينا إبراز بطاقتنا أو جوازات سفرنا إلا ليسجلوا أَسْمَاعَنَا .

كان واضحاً جداً أن لدى رجال مراكز الحدود المصرية تعليمات خاصة تقضي بعدم التعرض للسيد عبد الله سميرين ومرافقيه وتسهيل مهمته إلى أقصى حد ممكن .

في القنطرة الغربية ركبنا القطار المتجه إلى القاهرة . وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً وقف بنا القطار في محطة باب الحديد .

تسكن فيه أسرتنا ولم يكن يبعد عن منزل المفتي بأكثر من نصف كيلومتر تقريباً .

طرق الوالد الباب فجاء صوت الوالدة متسانلاً: من بالباب؟ أجاب الوالد: أنا محمد... افتحي لقد جئتك برجا. وجاء صوت الوالدة من وراء الباب: لا شك أنك تمزح يا محمد. وفتحت الباب ولم تصدق عينيها اللتين كانتا تحاولان التخلص من سيطرة النوم ولكنها لم تلبث أن تأكدت أن رجا الذي طال انتظارها لوصوله يقف أمامها بشحمه ولحمه، فطوقته بذراعيها وهي تقول ودموع الفرحة تنهمر من عينيها: "أهلاً بحبيبي، أهلاً بنور عيني... أهلاً بك يا رجا يا حبيب أمك... أنا لا أكاد أصدق عيني... أحقاً جئت يا بني؟"

قلت ودموع الفرحة تطفر من عيني: (لقد أثبت يا والدتي، نعم لقد أثبت).

أفاق الصغيران غالب وفرج الله على الجلبة والحوار، وراحا يقفزان من الفرح، وتعلق كل منهما بدوره بعنق الشقيق الأكبر .
لم تتم الأسرة في تلك الليلة من شدة الفرح والتلهف على معرفة أخبار قاليونيا والشقيقات. كان هم الصغير فرج الله ليلتها أن يوضح لأخيه الأكبر أنه أصبح يجيد التحدث باللهجة المصرية. وداعبته بلطف وأثبت على ذكائه ومهارته .

كان البيت الذي تستأجره العائلة مؤلفاً من غرفتين، واحدة منهما للوالدين، والأخرى للأولاد . وكان المطبخ يحتل ركناً من الغرفة المخصصة للأولاد . لم تكن الكهرباء قد دخلت إلى هذا البيت، فقد كان سكانه لا يزالون يستخدمون مصابيح الكيروسين "لامية الكاز" ولم تكن المياه قد مدت إليه، بل كان سكانه يحصلون عليها من مضخة في حوش المنزل يطلق عليها المصريون اسم "الطرمبة" .

كان هذا هو وضع المنزل الذي تسكن فيه على الرغم من أن جميع المنازل المجاورة كانت مزودة بالماء والكهرباء .

وكانت صاحبتا الحلمية والمطرية تحتويان على كثير من المنازل التي لم تدخلها الماء والكهرباء حتى ذلك الحين .

كانت الغرفتان اللتان تستأجرهما أسرتنا جزءاً من منزل كبير يشتمل على ثماني غرف يقيم في اثنتين منهما أصحاب المنزل ويقيم في الأربع الأخرى أربع عائلات أخرى، كل عائلة تشغل غرفة واحدة . وكان جميع سكان المنزل الذين لا يقلون عن عشرين نسمة يستعملون مرحاضاً واحداً أقيم في حوش المنزل .

كانت أم محمود صاحبة المنزل امرأة قوية الشكيمة، متسلطة يرهبها الجيران ويحسبون لها ألف حساب .

أما زوجها أبو محمود أو محمد بدوي، فقد كان رجلاً هادئاً يتمتع ببرودة أعصاب لا يغيظه عليها أحد .

لم يكن يتدخل في أي شأن من شؤون البيت. وكانت أم محمود هي التي تقوم بتأجير غرف المنزل وتسلم إيجاراتها، وكانت هي المسؤولة عن ميزانية الأسرة ومتابعة أبنائها وبناتها. أما أبو محمود الذي كان يعمل ميكانيكياً فقد كان ينطلق كل صباح على دراجته إلى المرآب الذي يعمل فيه، ولا يعود إليه إلا عند المساء . وكانت علاقته مع الجيران محصورة في تبادل التحية معهم وتهنئتهم أو تعزياتهم في المناسبات .

وفي الأوقات التي كان يقضيها في المنزل لم يكن يسمع له صوت. كان يقضي وقته مستلقياً على إحدى الأرائك القديمة التي أكل عليها الدهر وشرب، أو نائماً على سريره النحاسي ذي الأعمدة العالية الصدئة .

كانت أسرة أبو محمود تتكون منه ومن زوجته ومن ولديه محمود وإسماعيل وبناته الأربع زينب وعطيات وسعاد وانشرح وكان ولده محمود قد تزوج وكذلك ابنتاه زينب وعطيات .

أما ولده إسماعيل فقد كان شاباً عابثاً غير عابىء بالدراسة والتعليم، وكانت سعاد في العشرين من عمرها أما شقيقته الصغرى انشرح فلم تكن قد تجاوزت ربيعها الرابع عشر إلا بقليل .

كانت سعاد تلجأ في بعض الأحيان إلى مساعدة أم رجا في بعض أعمالها المنزلية، وكانت أم رجا قد أدخلت في روعها أنها ستزوجه من ولدها رجا الذي يعمل مدرساً في فلسطين والذي لن يلبث أن يحضر إلى القاهرة .

وكانت الوالدة معروفة بين الجيران بأمر غالب لأنهم كانوا يظنون أن أخي غالب هو ابنها الأكبر وقد استمروا بكونها بتلك الكنية حتى بعد وصولي إلى القاهرة .

كان غالب إذ ذاك في السنة السادسة من المرحلة الابتدائية، أما فرج الله فقد التحق بمدرسة أولية تقع أمام المنزل الذي نقطنه مباشرة .

بعد وصولي إلى القاهرة بأسبوع بدأ الوالد يصحبنا في رحلات تهدف إلى إطلاعنا على معالم القاهرة الرئيسية كدار الآثار والمعهد الصحي وحديقة الحيوان وغيرها .

كنت أتابع يومياً أنباء تطورات المعارك في فلسطين. وفي العاشر من نيسان - إبريل - ١٩٤٨ استمعت إلى النبأ الذي كنت أتمنى أن يغيبنى الثرى في ظلماته قبل أن يطرق أذني... فقد أذاعت وكالات الأنباء المختلفة نبأ سقوط قرينتنا الحبيبة قالونيا في قبضة العصابات الصهيونية .

دارت بي الأرض، ولم أصدق أذني، ولكنها الحقيقة المرة... هل كتب عليّ حقاً ألا أرى قالونيا بعد اليوم؟! أهكذا وبكل بساطة يحرم الإنسان من وطنه، ومرايع صباه؟ أيقنع الإنسان من جذوره بهذه البساطة في زمن وصلت فيه البشرية إلى ما لم تصل إليه من قبل في الحضارة والمدنية؟

وجاءتني الحقيقة المرعبة التي تقول: أجل لقد سقطت قالونيا وسقط كثير غيرها من مدن فلسطين وقراها... لقد سقطت قبلها القسطل ومن قبل القسطل سقطت دير ياسين التي ذبح اليهود من أهلها عدة مئات، وكان زميلي المرحوم ربحي إسماعيل عطية الذي عمل معي معلماً في مدرسة إشوع واحداً من الضحايا التي قضى عليها اليهود في دير ياسين.

كيف لا تسقط قالونيا وغيرها وقد سقط على ثراها الأبطال... أجل لقد سقط الأبطال الذين كانوا على استعداد للتضحية في سبيلها، لقد سقط الشهداء عبد القادر الحسيني وحسن سلامة وإبراهيم أبو دية وغيرهم من آلاف الشهداء بعد أن فقدوا الثقة بأمتهم التي وقفت تنفرج على مأساتهم دون مبالاة .

في الخامس عشر من نيسان - إبريل - قدم عبد الله سميرين من فلسطين يحمل نبأ استشهاد زوج الشقيقة دلة في معركة القسطل وكانت الشقيقة دلة قد أنجبت منه أربعة أطفال لا يزيد أكبرهم في عمره عن السادسة. والأدهى من ذلك أنها كانت حاملاً في شهرها الخامس عند استشهاد والد الأطفال .

بدأت مآسي الحرب ترحف إلى عائلتنا، وبدأت أسرتنا تأخذ نصيبها من ويلات الحرب .

جن جنون الوالد بعد أن سمع بسقوط بلدنا، فطلب من المفتي السماح له بإجازة قصيرة ليتمكن من السفر إلى فلسطين والإطلاع على

الأوضاع الصحيحة في منطقة القسطل ورفع تقرير عنها بعد عودته إلى
سماعته لرؤية ماذا يمكن عمله لتحرير قالونيا والقسطل من جديد .

ووفق المفتي على منح الوالد إجازة لمدة شهر سافر في خلالها إلى
فلسطين، وتسلل إلى بلننا، وسار في طرقاتها وتجول في حاراتها. ولم يكن
اليهود قد دمروا سوى القليل من بيوتها. وقد هاله أن قالونيا لم يكن فيها
يهودي واحد. أما القسطل فقد وضع فيها اليهود حامية قوية لأنها هي التي
تتحكم في منطقة غرب القدس، ويقاوها في أيديهم يغني عن وجود أية قوات
في القرى المجاورة لها ومنها قالونيا .

عاد الوالد إلى القاهرة، ورفع للمفتي تقريراً شفوياً يقول فيه إنه
مستعد لاستعادة القسطل وقالونيا. شريطة أن يستجيب المفتي لتنفيذ طلباته
المتعلقة بعدد قطع الأسلحة التي يحتاجها أما الرجال فهو كفيل بتوفيرهم .

وسأله المفتي عما يحتاجه فقال إنه بحاجة إلى خمسة من مدافع
الهاون وعشرة رشاشات من طراز برن ومائتي بندقية وما يمكن توفيره من
القنابل اليدوية والذخيرة التي تمكنه ورجاله من الاحتفاظ بالقسطل وقالونيا .

عند ذلك صارحه المفتي باستحالة إمداده بذلك، وقال إنه ليس في
إمكانه إلا أن يزوده بمنفع هاون واحد وخمس رشاشات وخمسين بندقية
ومائة قنبلة يدوية وذخيرة تكفيه لمدة أسبوع. وكان من الطبيعي أن يرفض
الوالد ذلك وقال للمفتي. إن ما أريده يا صاحب السماحة هو الاحتفاظ
بالقسطل وقالونيا وليس الانتحار أنا ورجالي كما انتحر من قبلنا من
الشهداء.

واعتذر المفتي للوالد قائلاً: هذا ما نستطيعه يا أبا رجا فلا حول ولا
قوة إلا بالله. واستطرد قائلاً: على أي حال لا تحزن فإنه لن يمضي شهر
على الأكثر حتى تحرر الجيوش العربية قالونيا وغيرها من قرى فلسطين .

في مطلع أيار - مايو - ١٩٤٨ عُنِنَتْ طباعاً على الآلة الكاتبة في
الهيئة العربية العليا براتب قدره عشرة جنيهات .

وفي الخامس عشر من هذا الشهر اجتازت الجيوش العربية حدود
فلسطين من ثلاث جهات لترد عنها عادية الصهيونية وتعيد إلى ربوعها أمنها
الذي فقدته، ونظامها الذي انفرط عقده، ثم تسلمها لأهلها خالصة من أدران
اليهود ليقيموا عليها دولتهم التي طالما حلموا بها وكافحوا من أجل إقامتها .
كانت الفرحة الغامرة بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين
والابتهاج بنجدة العرب لإخوانهم الفلسطينيين فوق كل الوصف .

كان ذلك إيذاناً بميلاد جديد لأمتنا في هذا العصر...
مرحى مرحى مرحى، عن قريب نعيد أمتنا أمجادها السالفة وتنبوأ
مكانتها التي تليق بها بين الأمم .

أفاض الشعراء والكتاب في جميع الأقطار العربية في تصوير
عواطفهم تجاه هذا الحدث العظيم، ولكن على الرغم من كل ما أبدع
الشعراء وصوّر الكتاب فإن ما أحس به الإنسان العربي في ذلك الحين يبقى
فوق كل إبداع وفوق كل تصوير .

تداعت إلى ذاكرتي سلسلة من المعارك التي سطر فيها العرب
والمسلمون عبر التاريخ ما سطوروا من الانتصارات .

مرحى مرحى ستضيف أمتنا إلى القادسية واليرموك وعين جالوت
وحطين ونهاوند وغيرها من معارك البطولة معارك جديدة تكتب وقائعها
بحروف من نور .

لقد طربت النفوس، وتمايلت الأعطاف، وأصبح كل عربي يمشي
وهو يحس أن هامته تطاول السماء .

وطبيعة الحال فإن إحساس أبناء فلسطين بذلك كان أقوى وأشد،
لأن الأحداث التي سبقت زحف الجيوش العربية إلى فلسطين قد أدمت
القلوب وخلفت في النفوس مالا يندمل من الجراحات .

إذن، لن تبقى قالونيا طويلاً في أيدي العصابات الصهيونية التي أعلنت قيام دولتها في الليلة التي زحفت فيها الجيوش العربية إلى فلسطين، إن هي إلا أيام - إن شاء الله - ويتطهر ثراها المقدس من أدران اليهود.

مرحى مرحى لأبطال العروبة وجنودها الميامين!

أصبحت متابعة الأخبار والاستماع إلى نشرات الأنباء من دور الإذاعة المختلفة شغلي الشاغل وهمي المقيم. وقد دأبت يوماً على تسجيل نتائج ما تديعه وكالات الأنباء عن سير المعارك في فلسطين .

سار مجرى القتال في خلال الخمسة والعشرين يوماً التي أعقبت دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في صالح هذه الجيوش... وفجأة تدخل مجلس الأمن الدولي استجابة لطلب الحكومة الأمريكية وفرض على طرفي القتال قراره المتعلق بالهدنة الأولى في فلسطين لمدة شهر واحد .

وأسند المجلس مهمة تنفيذ هذا القرار إلى الكونت فولك برنادوت الذي عمل جاهداً على وقف إطلاق النار .

أوفى العرب كالعادة بعهودهم وتمسكوا بوقف إطلاق النار ولم يخرقوا الهدنة مرة واحدة. أما اليهود فقد تمكنوا خلال ذلك الشهر الذي توقف فيه القتال من أن يُعَبِّئُوا قواهم وأن يجلبوا إلى فلسطين كميات كبيرة من الأسلحة، وأعداداً كبيرة من المحاربين وأن يعيدوا إصلاح طرق مواصلاتهم التي مزقتها العرب، وأن يحتلوا مناطق جديدة لم تكن تحت سيطرتهم من قبل.

وفي التاسع من تموز - يوليو - ١٩٤٨ استأنف العرب القتال بعد أن أدرِكُوا أنهم قد وقعوا في خطأ كبير، وأصبحوا ضحية لخدعة دولية كبيرة تسمى الهدنة .

سار القتال في أيامه الأربعة الأولى في مصلحة العرب، ولكنهم لم يلبثوا في اليوم الخامس أن تلقوا ضربة كبيرة تمثلت في احتلال اليهود

لمدينتي اللد والرملة ولعشرين قرية عربية من القرى المحيطة بهاتين المدينتين نتيجة لانسحاب الجيش الأردني وخيانة قائده الإنجليزي الفريق جون جلوب باشا المعروف بأبي حنيك .

وركز الوسيط الدولي الكونت فولك برنادوت جهوده على تجديد الهدنة، وتقديم مشروع جديد لتقسيم فلسطين، غير أن اليهود لم يمهلوه حيث قام ثلاثة من إرهابي عصابة شنيرن باغتيالهم في مدينة القدس في السابع من أيلول - سبتمبر - سنة ١٩٤٨، وقد أصبح أحد الذين شاركوا في اغتياله، وهو إسحق شامير رئيساً لمجلس الوزراء في الكيان الصهيوني فيما بعد .

استمر القتال عشرة أيام، ثم تدخل مجلس الأمن من جديد وفرض الهدنة الثانية في ١٩/٧/١٩٤٨، وتعامل اليهود مع الهدنة الثانية مثلما تعاملوا مع الهدنة الأولى، فقد شنوا هجمات عنيفة على الجيش المصري وأخرجوه من جميع مواقعه في صحراء النقب، ولم يبق في حوزته من أرض فلسطين سوى المنطقة التي عرفت فيما بعد بقطاع غزة .

أصبحت فضيحة تزويد الجيش المصري بالأسلحة الفاسدة على كل لسان، وكان بطل هذه الفضيحة هو الملك فاروق نفسه .

وقد دفعت الهزائم المتتالية التي منيت بها الجيوش العربية حكومات هذه الجيوش إلى قبول الهدنة الدائمة .

وقد عقدت هذه الهدنة بين مصر واليهود في ٢٤/٢/١٩٤٩ ومع لبنان في ٢٥/٣/١٩٤٩ ومع الأردن في ٣/٤/١٩٤٩ ومع سوريا في ٢٠/٧/١٩٤٩ .

وعُيِّنَ لجان للهدنة من قبل هيئة الأمم، ورُسِمَت الخطوط، وأقيمت الحدود التي تفصل بين العرب واليهود في فلسطين، وحصل اليهود على نحو ٧٨% من أراضي فلسطين. وتبخرت آمال الفلسطينيين في تحرير بلادهم، وتحوَّل أكثر من مليون منهم إلى لاجئين يفرشون الغبراء،

ويلتحفون السماء في مخيمات لا تقيهم شيئاً من الحر والقر، وداخلني اليأس من عودتي إلى قانونيا من جديد .

أصيبت الكرامة العربية في الصميم، وتزعزعت ثقة العرب بأنفسهم، وحدثت تلك الهوة السحيقة التي تفصل بين الشعوب العربية وحكامها. ودخل العرب في دوامة لا نهاية لها من الفرقة والانقسام والمحاور والانقلابات والثورات .

وتحولت قضية فلسطين إلى قميص عثمان يرفعه كل طامع في الحكم أو متطلع إلى السلطة. وفي المقابل تحول الكيان اليهودي إلى دولة راسخة الأركان، مهيبة الجانب، يعترف بها العالم، وينظر إليها بالإعجاب والتقدير .

استمر عملي في الهيئة العربية العليا مدة شهرين وستة أيام أصدر المفتي أوامره في نهايتها بطردي من الوظيفة. وإليك قصة هذه الواقعة بالتفصيل .

في العشرين من حزيران - يونيو - ١٩٤٨ استدعاني الأستاذ حيدر الحسيني - سكرتير المفتي وابن أخيه وزوج كريمته سعاد - إلى مكتبه. وكانت تربطني بالأستاذ حيدر علاقة خاصة فقد سبق أن تتلمذت على يديه في كلية الروضة في القدس حيث كان يدرسي مادتي اللغة الإنجليزية والتاريخ .

دلفت إلى مكتبه وفي حساباني أنه سيكلفني بطباعة رسالة هامة بصورة عاجلة، ولكنني فوجئت به يقول في حدة ظاهرة: ما هذا الذي فعلته يا رجلاً؟!

فوجئت بالسؤال الذي لم أكن أتوقعه وبالنبرة الحادة التي ألبسها الأستاذ حيدر لكلماته، وعلى الرغم من ذلك فقد تماكنت نفسي وقلت مستوضحاً: (عفواً أستاذ حيدر لست أفهم ما تعنيه، وما هو الذي تسألني عنه؟) قال حيدر: لا تتظاهر بالغباء لأنك تعرف قطعاً ما فعلت .

قلت مستكراً إجابته: لا أذكر أنني فعلت ما أوأخذ عليه. وإن كان قد حدث شيء من ذلك فأرجو أن تذكروني به. قال: كيف تسوّل لك نفسك أن تتهجم على سياسة سماحة المفتي؟! هل غاب عنك أنك مازلت فتى صغيراً، وأنه يعز على وعي وفهم من هم في مثل سنك أن يحيطوا بأبعاد سياسة سماحته وحكمته؟!!

قلت: أرجو أن توضح أكثر، فما أظن أنني تهجمت على سياسة سماحته، أو تطاولت على حكمته .

قال حيدر وهو يبتسم ابتسامة صفراء ساخرة: أمامي يا سيد رجلاً عريضة موقعة من ثلاثة شهود يقرون بأنك قد فعلت ذلك... فهل تستطيع الإنكار؟

عند ذلك اتضح لي الأمر وعادت بي الذاكرة إلى جلسة كانت قد جمعت بيني وبين ثلاثة من العاملين في الهيئة قبل أن يستدعيني حيدر إلى مكتبه بأسبوع .

في تلك الجلسة التي جمعت بيني وبين كل من محمد العجوري من (عجور) وطه رشيد من (شعفاط) ومحمد رضوان (من القدس)، كنت أقرأ عليهم أنباء الهزائم العربية المتتالية في فلسطين من صحيفة المصري الصادرة في ذلك اليوم، وكان المفتي في ذلك الحين في دمشق. وبعد أن فرغنا من قراءة الأخبار بدأنا بالتعليق عليها كما هي العادة عند الناس .

وأذكر أنني قلت في معرض تعليقي على رحلات المفتي الكثيرة إلى العواصم العربية والتي لا تكاد تنتهي... إن مسيرة الثورة قبل دخول

الجيش العربية إلى فلسطين كانت بحاجة إلى تصحيح، وإن نقطة البداية في ذلك كانت تتمثل في ضرورة دخول سماحة المفتي إلى فلسطين ما دام الإنجليز الذين كان يخشاهم قد قرروا الرحيل عن أراضيها، ولم يعد من المنطقي، ولا من المقبول، أن يستمر المفتي في قيادة الثورة من الخارج وهو بعيد عن أرض المعركة وتطوراتها المتلاحقة .

وأضفت إلى قلبي: إنه كان سيكون لدخول سماحته أعظم الأثر في نفوس أبناء شعبه الذين هبطت معنوياتهم إلى الحضيض، وكان في استطاعة هذا الأثر أن يُحدث تحولاً إيجابياً في مسيرة الثورة الفلسطينية ولا شك .

تذكرت وقائع هذه الجلسة، وذكرت تفصيلاتها إلى الأستاذ حيدر، فقال بعد أن استمع إلى بحمة نظري: على أي حال، لن أفصل أنا في هذه القضية لأن الكلمة النهائية فيها ستكون لسماحته بعد عودته بالسلامة إن شاء الله .

وعاد المفتي من دمشق في ١٩٤٨/٧/٦ ورفع الأستاذ حيدر تلك الشكوى الكيدية التي أراد هؤلاء الثلاثة من حساد الوالد ومبغضيه أن ينتقموا منه في شخصي، فما كان منه إلا أن أمر بتسريحي من عملي .

وقع خبر إقالتي من عملي على الوالد وقوع الصاعقة، ووجه إليّ من اللوم والتأنيب على جرأتي في نقد سياسة المفتي ما لم أعهد منه من قبل .

كانت خيبة أمل الوالد في ولده، واستنكاره لتصرفه الأرعن في حجم حبه للمفتي وإخلاصه له . لقد كانت ذات المفتي في نظر والدي وأبناء جيله مصونة لا تُمسّ .

أما أنا فقد كانت فجيعتي بالمفتي وزعامته أكبر بكثير من فجيعة الوالد في تصرفي تجاهه .

قلت في نفسي: "أهذا هو الزعيم الذي كان من الممكن أن يكون على رأس الدولة الفلسطينية المستقلة لو قدر لها أن تقوم؟! أبلغ ضيق صدر

هذا الزعيم بالرأي الآخر مثل هذا الحد؟! كيف يمكن أن يتسع صدره للمعارضة وآراء زعمائها عندما تقوم الدولة؟! " .

عند ذلك فقط أدركت السر الكامن وراء تصفية الكثيرين من معارضي سياسة المفتي منذ أن نُكِت فلسطين بزعامته .

ظللت عاماً كاملاً وأنا عاطل عن العمل، وقد شغلت نفسي بالتردد شبه المنتظم على فرع دارالكتب بضاحية الزيتون. أمنت الذهاب إلى تلك المكتبة حتى أصبحت وكأنني أحد العاملين فيها، واستمرت زيارتي لها مدة عام ونصف... وفي كثير من الأحيان كان أخي غالب يصحبني إلى المكتبة.

كانت المطالعة لكتلنا أجمل الهوايات التي نستطيع مزاولتها، وقد تعلقنا بها تعلقاً استدعى دهشة أوالدين ودهشة الكثيرين من الأصدقاء الذين عرفناهم في هذه المكتبة .

أضفت إلى مخزوني الثقافي رصيذاً لم أكن أحلم بإضافته في عشرة أعوام، فقد قرأت في هذه المكتبة أهم كتب التراث وأروع ما أبدعته أعلام المعاصرين من رجال النهضة الأدبية والمفكرين الذين ذاع صيتهم في النصف الأول من القرن العشرين .

قرأت في خلال هذه الفترة معظم مؤلفات طه حسين والعقاد وأحمد أمين والرافعي والمنفلوطي ولطفي السيد ومحمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات وجورجي زيدان وعبد الرحمن بدوي ومحمد فريد أبو حديد وعلي الطنطاوي وأسحق موسى الحسيني ومارون عبود وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهما من شعراء المهجر والوطن الأم .

وقد أقبلت على قراءة ما ترجم عن الآداب الأوروبية بالحماس نفسه الذي أقبلت به على قراءة الآداب العربية، وممن قرأت لهم من مفكري

الغرب وأدبائه: فيكتور هوجو والبيركامي وجان بول سارتر وبرناردشو وأرلوند توينبي وإرنست همنجواي وتلستوي وماكسيم جوركي وبوشكين ودايستوفسكي وتشيكوف وبودلير وفريديريك نيتشه وغيرهم كثير .

وقد أقيمت بنهم كبير على قراءة دواوين الفحول من شعراء الأمة العربية في مختلف العصور .

وعلى الرغم من أنني أضفت إلى رصيدي الثقافي الذي اكتسبته خلال هذه الفترة كثيراً من ألوان الثقافة والأدب عبر السنوات التي أمضيته في الجامعة دارساً وباحثاً من أجل الحصول على أرفع الدرجات العلمية إلا أنني سأظل مدينياً في ثقافتي إلى هذه الفترة القصيرة الحافلة بالنشاط من حياتي .

ليس في وسعي أن أصف المتعة التي أحس بها وأنا ألتهم سطور أي كتاب .

يمكن أن أخص إحساسي الذي أشعر به نتيجة لقراءاتي في هذه الجملة القصيرة (إنني إنسان عاش كل العصور، وتغلغل في أدمغة العباقرة الذين أثروا الحياة الإنسانية بإبداعاتهم عبر هذه العصور) .

ما أبأس الذين يعزفون عن المطالعة! وما أشد غيائهم! إنهم لا يدركون الفرق بين أن يعيش الإنسان عصور الإنسانية كلها وبين أن يعيش حياته الفردية الضحلة مهما كان طولها .

في الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٩٤٩ حضر إلى مصر واحد من رجال بلدتنا الطيبين هو السيد محمود حسن إخليل، وقد مكث في ضيافتنا ثمانية أيام زار في خلالها معالم القاهرة السياحية، واصطحبني في بعض جولاته، وقد تفضل قبل سفره فاشترى لي قميصاً على سبيل الهدية .

وقد علمنا من خلال أحاديثه عن أهالي بلدتنا أنهم قد تفرقوا في سبع وثلاثين مدينة وقرية من مدن وقرى الضفتين الشرقية والغربية .

في الحادي والثلاثين من آذار - مارس - سنة ١٩٤٩ بدأ مسلسل الانقلابات العسكرية في سوريا، حيث أطاح الزعيم حسني الزعيم برئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي واعتقله مع سائر وزرائه في انقلاب عسكري ونصب نفسه رئيساً للجمهورية .

وقد استبشر العرب بهذا الانقلاب وظنوه بداية عهد جديد يصلح فيه السوريون ما فسد من أمور حياتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية. وكان زعيم الانقلاب قد اتخذ من الهزائم التي مني بها الجيش السوري في حرب فلسطين ذريعة للانقلاب، وقد ظلت هذه الذريعة واحدة من الذرائع التي برر فيها الانقلابيون في جميع البلاد العربية انقلاباتهم فيما بعد .

بعد هذا الانقلاب بمدة قصيرة قام الزعيم حسني الزعيم بزيارة رسمية للملك فاروق. وقد استقبل استقبالاً رسمياً حافلاً في القاهرة المعز .

لم يمكث حسني الزعيم في رئاسة الجمهورية سوى أربعة أشهر تقريباً، حيث أطاح به الزعيم سامي الحناوي في الرابع من آب - أغسطس - سنة ١٩٤٩ وأعدمه رمياً بالرصاص مع رئيس وزرائه السيد محمد محسن البرازي. وكان الاتهام الموجه إليهما هو القتل في تحقيق الأهداف التي قام من أجلها الجيش بانقلابه الأول .

وفي التاسع من كانون أول - ديسمبر - سنة ١٩٤٩ وقع الانقلاب العسكري الثالث في سوريا بقيادة العقيد أديب الشيشكلي وهو الذي قاد السوريين في حرب فلسطين .

في الأول من تموز - يوليو - سنة ١٩٤٩ قَدِّمْتُ طلباً للتوظيف إلى شركة أفلام عمر للعمل بوظيفة كاتب حسابات. وكانت الشركة قد أعلنت عن حاجتها لذلك في جريدة الأهرام .

وقد وافق صاحب الشركة السيد عمر على تعييني في هذه الوظيفة شريطة أن أدفع ضماناً مالياً مقداره خمسون جنيهاً مصرياً لا غير .

وافق الوالد على دفع الضمان وتسلمت مهام عملي وسط فرحة غامرة لا تكاد توصف. وكيف لا أفرح بعمل سوف يتيح لي التغلغل في أوساط نجوم الفن العاملين في مجال السينما .

وقد داعب مخيلتي كثير من أحلام البقطة التي تساور من هم في مثل سني من الشباب في ذلك الحين .

كنت أمني نفسي وأقول لها وأنا جالس في مكتبي بالشركة: "قد تصبح ممثلاً يا رجا... أو مؤلفاً للروايات السينمائية... لم لا؟! ألسنتك تمتلك الموهبة الأدبية؟ ألسنت شاعراً؟ قد تغدو مؤلفاً شهيراً من مؤلفي الأغاني... مرحى، مرحى سوف تتعرف على كثير من المطربين والمطربات والممثلين والممثلات... قد يكتشفك ويكتشف مواهبك أحد المخرجين... أمن المعقول أن يصابوا جميعاً بالعمى أو التعمي... لا... لا... اطمئن يا رجا... أعتقد أنك ستغدو شيئاً مذكوراً في عالم الفن والمجد والخلود".

ظلت هذه الأحلام تراودني مدة أسبوع تردد في خلاله على مقر الشركة عدد كبير من الفنانين منهم: محسن سرحان وإسماعيل ياسين وزينات صدقي وسعاد مكاي وعبد السلام النابلسي وتحية كاريوكا والمخرج حسن الإمام. وكانت أحاديث هؤلاء مع السيد عمر تدور حول فيلم يجري الإعداد لإخراجه اسمه "مطبخ الحب" وفي نهاية الأسبوع الأول من عملي في الشركة أقام صاحبها حفلاً راقصاً دعا إليه من ذكرت من الفنانين وغيرهم وعدداً من الفنانين الذين سيعملون في ذلك الفيلم، وكنت بحكم طبيعة عملي واحداً من المدعوين .

عَزَفْتُ الموسيقى، وبدأ المدعوون يرقصون على أنغام التانجو، جلست في مقعدي أتأمل الراقصين والراقصات. وقطع عليّ تأملاتي شيء لم أكن أحلم به أو أتصور وقوعه .

تقدمت إليّ "مدام فيفي" زوجة السيد عمر - كانت امرأة جميلة في الثلاثينيات من عمرها - وقالت بلهجتها المصرية العذبة: (تسمح لي بالرقصة دي يا أستاذ رجا) .

أذهلتني المفاجأة فقلت متلعثماً: (بس أنا ميعرفش أرقص يا مدام فيفي) .

أطلقت ضحكة مصطنعة وقالت: (قوم يا راجل... قوم بس قوم... أنا حالك) .

أمسكت بيدها الممدودة إليّ، وانضممنا إلى مجموعة الراقصين... أمسكت بيدي ووضعتهما حيث يجب أن توضعاً، ثم طوقتني بذراعيها وقالت: (أتحرك زي ما بتحرك بالضبط... الحكاية مش صعبة أبداً) .

وبدأت أتحرك وأنا أكاد أدوب من الخجل... كانت هذه هي المرة الأولى التي تلمس فيها كفاي جسد امرأة بهذه الصورة المثيرة .

كانت فيفي امرأة ممثلة الجسم رشيقة القوام، في جسدها من الإثارة ما يخرج الحليم عن طوره، والناسك عن وقاره .

وانتهى الحفل، وعدت إلى منزلي وأنا أظن أن الذي حملني إليه ليس هو الترام ولا القطار ولكنه بساط الريح. لا لم يكن تراماً هذا الذي ركبته من شارع رشدي حيث مقر الشركة إلى كوبري الليمون، ولم يكن قطاراً ذلك الذي أقفني من كوبري الليمون إلى حلمية الزيتون .

لا شك أن بساطاً سحرياً هو الذي حملني عبر ذلك الطريق الطويل .

أقفت من حلمي وأنا أهبط من القطار إلى رصيف محطة الحلمية، ورحلت أذرع الطريق إلى المنزل وفي نفسي من الغبطة والسرور مالا يوصف .

في صبيحة السبت الثامن من تموز - يوليو - سنة ١٩٤٩ ذهبت كعادتي إلى العمل فإذا بي أفاجأ بما لم يكن في حسابي .

كان الباب مغلقاً ومختوماً بالشمع الأحمر وبمحاذاته يقف شرطي فسألته مندهشاً: ماذا حدث؟! قال الشرطي: ولماذا تسأل يا سيدنا الأفندي؟ قلت أنا موظف في الشركة وقد جئت لمزاولة عملي كالمعتاد .

قال بعد أن أطلق ضحكة ساخرة: موظف في الشركة! وهل كنت تعتقد أنها شركة حقيقية يا سيدنا الأفندي؟! هذه شركة وهمية يا بني، ويبدو أنك واحد من الذين وقعوا في قبضة صاحبها النصاب .

قلت وقد أحسست وكأن قلبي يغوص في ركبتني: السيد عمر نصاب... هذا غير معقول .

قال مؤكداً: صاحب هذه الشركة نصاب كبير، وقد غرر بالعشرات من أمثالك، وقد أخذ منهم مبالغ طائلة . قلت: مبالغ طائلة؟... كيف؟

قال: بحجج كثيرة مختلفة... قل لي كم أخذ منك؟ قلت: لم يأخذ شيئاً كل ما في الأمر أنني قد دفعت له خمسين جنيهاً كنأمين مقابل تعييني كاتباً للحسابات في شركته هذه .

قال: لقد عيّن العشرات من أمثالك وحدد لكل واحد منهم موعداً مختلفاً عن الآخرين لاستلام عمله، ربنا يعوض عليك يا سيدنا الأفندي .

تركت الرجل وعدت أدراجي إلى حلمية الزيتون وقد أحسست أن جميع أحلامي الجميلة قد تهاوت كما يتهاوى قصر جميل أبدع في إنشائه أمهر المهندسين .

أقفت على الحقيقة المرة وأنا أسأل نفسي: لماذا تنتهي الأحلام بمثل هذه السرعة؟!

أخبرت الوالد بما حدث فضرب كفاً بكف وهو يقول: ضاعت الجنيهاً الخمسون... العوض على الله... لا حول ولا قوة إلا بالله .

في ١٩٤٩/٧/١٨ تسلمت رسالة من سيد عمر يطمئنني فيها على التأمين ويعدني برده في أقرب فرصة ممكنة، وينصحنني بعدم تقديم أية شكوى ضده .

لم تترك هذه الرسالة أي أثر في نفسي، فقد أكد لي شكلها ومضمونها أن كاتبها نصاب فعلاً وليس أدل على ذلك من أنه لم يشر إلى عنوانه الحقيقي، فقد طلب إلي أن أرسله على العنوان التالي: الفيوم - شباك بريد الفيوم - سيد عمر . تبين لي فيما بعد صدق حدسي حيث اتضح أن الرجل قد أرسل رسائل مماثلة إلى كل من أوقعهم سوء حظهم في برائته. وقد اتضح بعد أن وقع في قبضة الشرطة أنه كان ينتحل شخصيات متعددة، وأنه كان يأخذ من ضحاياه مبالغ تتناسب وحجم الخدمة التي كان يوهم ضحيته أنه سيقدمها إليها .

في ٤٩/٧/٢١: قدمت شكوى إلى نيابة الموسكي، ولم أكتف بذلك بل كتبت مقالاً شرحت فيه قصتي مع سيد عمر وأرسلته إلى المجلة الفكاهية (الراديو والبعكوك) كي تنشره لي في باب (هل لديك شكوى)؟ وقد نشرت المجلة شكواي في عددها الصادر في ٤٩/١٠/٩ .

كانت هذه الشكوى هي أول مقال أنشره في صحيفة سيارة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها اسمي مطبوعاً في مجلة .

لست أعقد أنني كنت سأفرح بعودة الخمسين جنيهاً أكثر من فرحي برؤية اسمي مطبوعاً في المجلة. هذا هو الإحساس الذي خامرني وأنا ألتهم سطور الشكوى التي كتبتها بقلمني .

في ١٩٤٩/١٢/٢٣ نشرت جريدة الأهرام نبأ القبض على المحتال سيد عمر وطلبت إلى من يهمهم أمر القبض عليه من ضحاياه أن يتقدموا بشكاوهم ضده بصورة رسمية إلى نيابة الموسكي. وقد سارعت في اليوم التالي إلى تجديد شكاوي التي قد تقدمت بها قبل خمسة أشهر تقريباً .

استغرق التحقيق في الشكاوى التي رفعها ضحايا سيد عمر أكثر من شهر. وفي الثامن من فبراير سنة ١٩٥٠ عقدت المحكمة أولى جلساتها لمحاكمته، ثم حددت في تلك الجلسة يوم الخامس من فبراير للنظر في الشكاوى التي رفعتها ضده .

وفي هذه الجلسة أصدرت المحكمة على المتهم حكماً بالسجن سنة مع الشغل والنفاذ... أما مبلغ الجنيحات الخمسين فقد ذهب مع الريح نظراً لإفلاس الرجل... وقد علق الوالد على ذلك قائلاً: العوض على الله يا بني... هل تستطيع الريح أن تأخذ شيئاً من البلاط؟!

بعد هذه النهاية لقصتي مع سيد عمر وشركة أفلامه الوهمية، عدت إلى أرض الواقع وتفرغت للقراءة ومشاهدة الأفلام، فقد كان لي ولأخي غالب هواية أخرى إلى جانب هواية القراءة، وهي هواية مشاهدة الأفلام السينمائية .

كانت تذاكر السينما في تلك الأيام رخيصة، وكانت معظم دور العرض تقدم في العرض الواحد فيلمين، وبعضها يقدم ثلاثة أفلام، ولم تكن تقدم фильماً واحداً سوى دور العرض الراقية من أمثال سينما مترو وسينما ستوديو مصر وسينما كوزمو وكايرو بالاس وسواها .

لم يكن عدد المرات التي كنا نذهب فيها إلى دور السينما يقل عن مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. وقد أتاح لنا ذلك دخول معظم دور السينما في مدينة القاهرة .

واستمرت هذه الهواية حتى بعد التحاق بالجامعة .

لقد بلغ عدد الأفلام التي شاهدها أنا وغالب حتى نهاية عام ١٩٥٣ أربعمئة وثمانين фильماً بين عربي وأجنبي .

وبلغ عدد المرات التي دخلنا فيها دور السينما لمشاهدة هذا العدد من الأفلام ثلاثمئة وخمسين مرة .

بعد عودة الوالدين إلى فلسطين خففنا أنا وغالب من عدد المرات التي أصبحنا نتردد فيها على دور السينما، ولعل ذلك راجع إلى تنامي إحساسنا بالمسؤولية . وقد أصبح ترددي عليها أقل بعد عودة غالب إلى القدس، وقد تلاشت هذه الهواية واضمحلت تقريباً بعد التخرج، وليس أدل على ذلك من أننا لم نذهب إلى السينما خلال ثلاثة وعشرين عاماً قضيناها في الكويت سوى ست مرات. هل كان لظهور التلفزيون والفيديو أثر في موت هذه الهواية؟ ربما .

وهل كان هوسي السابق بمشاهدة الأفلام نوعاً من التعويض عن أحلامي المنهارة بعد فشل تجربتي مع السيد عمر وشركته الوهمية؟! جازر .

في ١٩٤٩/٩/٢٢ تسلمنا رسالة من دلة تهدد فيها بالانتحار إذا لم يسافر إليها الوالد أو شقيقها الأكبر، ليقف إلى جانبها وهي ترعى أيتامها الخمسة .

بعد أخذ ورد استقر رأي الأسرة على أن أعود أنا إلى فلسطين لأكون إلى جانب دلة وصغارها. واستعداداً لذلك حصلت في ١٩٤٩/٩/٢٧ على تأشيرة سفر لدخول المملكة الأردنية الهاشمية من المفوضية الأردنية في القاهرة. وبعد ذلك بيومين حصلت على تأشيرة مرور من المفوضية السورية فيها .

في الرابع من أكتوبر زرت برفقة غالب وصديقين آخرين أهرام الجيزة وأبو الهول، إذ ليس من المعقول أن أقضي في مصر أكثر من عام ونصف ثم أغادرها دون أن أفكر بمشاهدة هذه المعالم التاريخية التي يفد

لمشاهدتها السياح من كل مكان. الذي أدهشني بعد ذلك علمي بأن ملايين المصريين يعيشون حياتهم ثم يموتون دون أن يفكروا برؤية هذه المعالم التي تعد من عجائب الدنيا السبع .

في هذه الرحلة إلى أهرام الجيزة تسلقت الهرم الأكبر المعروف بهرم خوفو حتى منتصفه، أما غالب وصديقه الآخران فقد كانا أكثر مني جرأة حيث تسلقوه حتى قمته .

في الثالث عشر من تشرين أول - أكتوبر - سنة ١٩٤٩ زارنا السيد أحمد صالحية الشهير بابن الكاموك. وهو شاب من عين كارم يدرس في قسم البعوث الإسلامية بالأزهر الشريف، وقد جاء برفقته لزيارتنا فايز خالد الحزينة من القدس، وهو الشاب الذي عرفته لأول مرة عندما تعرضنا للموت معاً حين أطلق اليهود علينا النار في باب الواد .

وقد أعلمني أحمد صالحية أن فايزاً قد قرر زيارتي بعد أن علم أن أحمد متوجه إلى منزلنا لهذه الغاية، حيث ذكر أنه قد عرفني في المناسبة التي أشرت إليها وأنه يود أن يوثق هذه المعرفة .

أمضى هذان الشابان معنا نهاراً كاملاً تناولا خلاله معنا طعام الغداء. كان بين والدي ووالد أحمد صداقة قديمة، لأنه كان وأسرته يقضون معظم أيام السنة في المرج حيث كان مسؤولاً عن فلاحه أرض سعيد الحسيني .

تشعب بنا الحديث حتى وصل إلى قراري المتعلق بالعودة إلى فلسطين. عند ذلك أبدى صالحية دهشته من قراري هذا وقال: أي قرار سخيف هذا يا رجاً؟ كيف تعود إلى فلسطين وأنت على هذا الحال؟

قلت مستغرباً مقالته هذه: هل في قرار عودة الإنسان إلى بلاده شيء سخيف؟! وأي حال هذا الذي أنا عليه؟!

قال: أقول لك قولة أخ ناصح أمين. إنك لم تفكر في المستقبل، ولا في كيفية مجابهته في فلسطين .

قلت: أفصح أكثر فما زال كلامك مشوباً بالغموض .

قال: اسمع يا رجل... لقد ذهبت قالونيا وذهبت بذهابها الأرض، وليس لديك حرفة أو شهادة، فكيف ستسبق طريقك في الحياة؟!

قلت: وما هو البديل يا صاحبي ؟

قال: البديل أن تتعلم... هل نسيت أنك في مصر بلد العلم والعلماء؟!

قلت: أتعلم؟.... كلام معقول ورب الكعبة... كيف لم يخطر ذلك ببالي من قبل؟

قال: لم يفت الأوان بعد، فالأزهر الشريف مازال موجوداً ومازال يفتح أبوابه لكل مسلم راغب في العلم .

قلت: الأزهر؟ وهل في استطاعتي أن أصبح طالباً في الأزهر؟

قال : وما الذي يمنعك من ذلك... ادخل الأزهر يا رجل، ثم عد إلى بلادك بعد أن يوفقك الله في الحصول على إجازته لتكون مسلحاً لك في هذه الحياة .

قلت : دلني بربك حتى أفعل ذلك منذ الغد إن شاء الله .

وانطلق أحمد صالحية يحدثني عن الأزهر الشريف، وعن نظام الدراسة فيه، وكيف أنه وفايز في الوقت الحاضر طالبان في السنة الرابعة بالقسم العام للبعوث الإسلامية، وأن في استطاعتهما في بداية العام الدراسي المقبل أن يتقدما لامتحان مسابقة يتيح للنجاح فيه الالتحاق بإحدى كليات الأزهر الثلاث: كلية اللغة العربية وكلية الشريعة وكلية أصول الدين .

قلت: ألا يشترطون شهادة التوجيهية أو ما يعادلها للالتحاق بإحدى الكليات ؟

قال مؤكداً قوله السابق: قلت لك، النجاح في امتحان المسابقة يغني عن هذه الشهادات وما يعادلها. وهذا الأسلوب من أساليب القبول امتياز خاص بطلبة البلاد العربية والإسلامية، وهو لا يسري على المصريين . وقعت في حيرة من أمري... ألتحق بالأزهر مادام هناك فرصة لمواصلة تعليمي ؟ أم أعود إلى القدس لرعاية أختي وأطفالها ؟

وجاء الحل من عند الله، إذ لم ألبث أن تسلمت رسالة من دلة بعد مضي أربعة أيام على زيارة صالحية لبيتنا. وقد أعلمتنا في رسالتها تلك أنها قد اجتازت محنتها النفسية، ولم تعد تفكر في الانتحار، وأنه لا ضرورة لحضور أي منا إلى فلسطين في هذه الظروف . وأعلنت بصراحة أنها تستغفر الله من تلك الفكرة التي راودتها .

سعدنا كثيراً بهذه الرسالة، وناقشت الوالد في موضوع التحاق بالأزهر فلم يمانع في ذلك فقد كان رحمه الله من أنصار التعليم، ولم يكن يضايقه شيء في الدنيا أكثر من إحساسه بالحرمان منه .

قال لي ذات يوم: لا يحزنني شيء يا ولدي أكثر من إحساسي بوطاة الأمية... وإنه لتمر بي بعض المواقف التي تجعلني أدوب خجلاً وحرماً من أميتي .

قلت : مثل ماذا يا ولدي ؟

قال : في كثير من المعاملات الرسمية التي يُطلب إليَّ فيها أن أوقع على بعض الأوراق أضطر إلى الاعتذار معلناً أنني لا أستطيع أن أوقع بالقلم ولكنني أستطيع أن أبصم بالإبهام. وأحياناً يُطلب إليَّ بعض الناس أن أقرأ له ورقة أو عنواناً فاعتذر له بجهلي وأميتي . في مثل هذه المواقف يا ولدي يحس الإنسان الأمي بقيمة التعليم. ومن أجل ذلك أليت على نفسي أن أعلمك وإخوتك ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً .

في الحادي والعشرين من تشرين ثاني- نوفمبر- سنة ١٩٤٩ قدمت طلب الانتساب إلى الأزهر الشريف. وبعد نجاحي في الكشف الطبي حُدثت إدارة الأزهر يوم ٢٨/١١/٤٩ موعداً للتقدم إلى امتحان القبول. وفي الموعد المحدد مثلتُ أمام لجنة مؤلفة من ثلاثة مشايخ من أساتذة قسم البحوث الإسلامية امتحنتني في اللغة العربية وآدابها وفي الفقه الإسلامي والتفسير وتلاوة القرآن الكريم. ثم قررت تلك اللجنة إلحاقني بالسنة الرابعة من المرحلة الأولى بقسم البحوث الذي يتلقى فيه الطلبة علومهم على الطريقة الإسلامية القديمة، حيث تتخلق مجموعة من الطلاب حول شيخ يسند ظهره إلى أحد أعمدة المسجد في أوقات محددة لا تتغير .

وقد حز في نفسي إلحاقني بالسنة الرابعة من المرحلة الأولى، فقد كنت أمل أن ألتحق في أسوأ الأحوال بالسنة الثانية من المرحلة الثانية . عبرت عن امتعاضي من ذلك لأحمد صالحية فطمأنني قائلاً: إنك لن ذو حظ عظيم .

قلت : وأين موطن العظمة في هذا الحظ يا صديقي . قال: إنك ستكون معي ومع عمر صبيحة وفايز الحزينة في هذه السنة يا سيد رجا... لقد ألحقوني بالسنة الأولى من هذه المرحلة في بداية انتسابي إلى الأزهر .

قلت مازحاً: لا بد أن اللجنة معذورة في قرارها هذا . قال: لا أظن ذلك يا صديقي. المسألة برمتها ترجع إلى مزاج أسيدنا المشايخ.

قلت: وهل يحق لنا التقدم للكليات في العام الدراسي القادم . قال: نعم لقد أصبح ذلك من حقنا ورب الكعبة .

في الثالث من كانون أول- ديسمبر- سنة ١٩٤٩ بدأت في حضور حلقات الدرس بالأزهر الشريف وبعد ذلك بيومين أحسست بوخزة مؤلمة في

عيني اليسرى . أمعنت النظر في المرأة فوجدت أن نقطة بيضاء قد ظهرت في مكان لا يَبْعُدُ كثيراً عن إنسان العين .

ولما استمر الوخز في عيني بادرت إلى مراجعة طبيب العيون في الوحدة الصحية بالأزهر الشريف، وقد استمر بعالجني ثمانية أيام دون أن يطرأ على عيني أي تحسن، بل إن حالة عيني قد ازدادت سوءاً مما اضطرني إلى الإمتثال لنصيحة جيراننا في الحلمية، حيث أرشدوني إلى اختصاصي مشهور في علاج أمراض العيون هو الدكتور حلمي الدويري الذي أصبح فيما بعد مديراً لمستشفى الرمد في القاهرة .

وقد قرر ذلك الاختصاصي أنه لا بد من إجراء عملية في عيني. وفي ٢٧/١٢/٤٩ أجريت أول عملية جراحية في عيني اليسرى. وبعد بضعة أيام أزيل الضماد عن عيني ففوجئ الطبيب ببقاء جزء صغير من النقطة البيضاء مما اضطره إلى إجراء عملية جراحية أخرى مكملة للتي سبقتها. وبعد العملية الثانية حقن الدكتور حلمي عيني بحقنتين بين كل منهما والأخرى مدة أسبوع. وبفضل هذا الطبيب النطاسي شفيت عيني والحمد لله.

منذ حضوري من فلسطين وأنا ألح على الوالد من أجل الانتقال من المنزل الذي وجدتهم فيه. كان إيجاره البسيط الذي لا يتجاوز جنيهين هو الميزة الوحيدة التي تجعل الوالد متمسكاً بالبقاء فيه.

وبعد لأي اقتنع الوالد بالانتقال من هذا البيت، فاستأجر شقة في الطابق الأرضي من المنزل رقم (٥٠) بشارع المسيري بضاحية الزيتون . في هذا المنزل توافرت جميع مميزات المنزل الحديث .

كان مكوناً من طابقين شغلت أسرتنا أحدهما، وشغل أصحاب المنزل الطابق الآخر منه .

كان واضحاً جداً أن بيئة هذا المنزل تفضل بيئة المنزل السابق بكثير، على الرغم من أن المسافة التي تفصل بينهما لا تتجاوز نصف كيلومتر تقريباً .

كان صاحب المنزل رجلاً طيباً يدعى مصطفى موسى، وكان موظفاً في إحدى المصالح الحكومية، وهو قريب الشبه بجارنا السابق أبو محمود، لا يَهْشُ ولا يَنْشُ . وكانت أسرته مكونة من زوجته وابنه محمد وابنتيه فوزية ورشيدة .

كانت فوزية مدرسة في إحدى المدارس الابتدائية سمراء مليحة تمتاز بالرشاقة وخفة الظل وعذوبة الحديث .

توثقت العلاقة بين أسرتنا وأسرة السيد مصطفى موسى، وصرنا نقضي معا كثيراً من السهرات إما في شقتنا أو في شقتهم. وبدأت فوزية التي كانت محبة للقراءة تتبادل معي بعض الكتب. وبدأت العلاقة بيني وبينها تأخذ منحى آخر .

لقد سيطرت صورتها على مخيلتي فلم نعد تفارقني في ليل أو نهار... كان واضحاً أنني أحببت الفتاة، ولكني لم أجد الجرأة للإعراب لها عن ذلك .

كنت أعتقد أن حبي لفوزية من طرف واحد، ولكن حدث بعد ذلك ما جعلني أحس بأنها كانت تستريح إلى وجودي مثلما كنت أستريح إلى وجودها .

تقدم شاب أزهرى يدعى الشيخ عزت لخطبة فوزية، وكان قد تخرج لتوه من كلية الشريعة، وكان يمت بصلة قرابة إلى زوج أختها الكبرى زينب المتزوجة من رجل من مدينة شبين القناطر .

كانت فوزية فتاة متحررة على الرغم من تدينها وسمو أخلاقها، وكان الشيخ عزت متزماً كأكثر الأزهريين. ويبدو أنها قد أدركت أنها

تسرع في قبوله عندما تقدم لخطبتها فداخلها شيء من الاضطراب النفسي نتيجة للصراع الكامن في نفسها بين الاستمرار في قبوله أو رفضه .

طلت فوزية تتردد على إحدى العيادات النفسية عدة أشهر بعد عودة الوالدين إلى فلسطين وهي ما تزال تحت العلاج .

وكانت تحس بفرح غامر حين مجيئي. وكان فرحها ذلك لا يخفى على أحد. وكان يعود إليها هذوؤها وإترانها النفسي في كل مرة أقوم فيها بزيارتهم .

هل يعني أنها كانت تبادلني الإحساس الذي كنت أشعر به نحوها، وأنها كانت تكتم ذلك لعلمها أن ظروفها لا تسمح لي بالزواج في ذلك الحين.

لقد لاحظ والدها ما كان يعترئها من تحسن عند زيارتي لهم. وقد فاجأني ذات مرة بقوله: أرجوك يا أستاذ رجا ان تكثر من زياراتك لنا... إن فوزية تستريح لرؤيتك، فأرجو ألا تبخل علينا بذلك لتساعدنا على اجتياز أزمتها هذه. واستجبت لرجاء الرجل وداومت على زيارتهم حتى عوفيت فوزية ورجعت إلى إترانها النفسي .

في ٥٠/٣/٢١ زف إلينا الوالد بشرى لم تكن نتوقعها، فقد قرر الانتقال من سكننا في شارع المسيري إلى الفيلا رقم (١٢) في شارع الكمال بحلمية الزيتون وكان من أهم مميزات هذه الفيلا وقوعها قبالة منزل المفتي. وعلى الرغم من أن انتقالنا إلى هذا السكن الجديد سوف يحرمني رؤية فوزية كل يوم فقد سرني أن أصبح وأفراد عائلتنا من سكان الفيلات .

كانت الفيلا مؤلفة من ثلاث غرف وصالة ومطبخ وحمام، وكانت محاطة بحديقة كبيرة لا تقل مساحتها عن مائتي متر مربع وفي ركنها الغربي حديقة تشتمل على حظيرة لتربية الأرانب والدجاج .

وبقيت الزيارات المتبادلة قائمة بيننا وبين أسرة فوزية التي بدأت أروض نفسي على عدم التعلق بها والاستمرار في التفكير فيها إدراكاً مني أن هذه العلاقة لن تصل إلى نهاية إيجابية سعيدة .

بدأت أشغل نفسي بالذاكرة والاستعداد للامتحانات .

في ٥٠/٩/٨ زارتنا فوزية بمفردها في الفيلا وقد فوجئت بدبلة الخطوبة تبرق في بنصرها اليمنى .

حاولت تجاهل الموضوع ولكن الوالدة لاحظت تغير أسارير وجهي فسألت فوزية قائلة: من ذلك المحفوظ الذي تقدم لخطبتك يا فوزية؟!

أجابتها فوزية: إنه الشيخ عزت قريب زوج أختي زينب .

هنأته الوالدة بالخطبة وتمنت لها السعادة مع من اختارته شريكاً لحياتها .

لا أستطيع وصف الحزن الذي تملكني بعد عودة فوزية إلى بيتها... ولكن لماذا الحزن؟... هل كان يخيل لي أن فوزية ستنتظرنني حتى أخرج من إحدى كليات الأزهر؟

إنني لم أصارحها بشيء مما أكنه لها، وإن كانت كل جارحة من جوارحي وكل نظرة من نظرائي تنطق بحبها... وما أظن أنها كانت من البلاهة بحيث يخفى عليها ذلك .

قلت في نفسي: ما الذي يحدث للعالم لو أن الأمور سارت وفق ما يشتهي المحبون؟ هل تتساقط السماء كسفا؟ أم هل تتسف الجبال؟ وتغيض الأنهار؟ وتجف الأشجار؟ لا أعتقد أن شيئاً من ذلك سيحدث. ثم خطر لي خاطر رأيت فيه إجابة على هذه التساؤلات "تري لو تزوج قيس بن الملوح من ليلي العامرية وجميل من بثينة، وكثير من عزة، وعروة من عفراء، وعباس بن الأحنف من فوز، وابن زيدون من ولادة، وغيرهم من العشاق الذين حرمتهم الدنيا من محبوباتهم... تری لو حدث ذلك أكان للإنسانية أن تسعد وتستمتع بما خلفوا من شعر عذري وصفوا فيه ما كان يعمل في صدورهم من لواعج الهوى، وما كان يشتعل في نفوسهم من عواطف متأججة، وأحاسيس متقدة بسبب الحرمان؟!!

وعلى الرغم من أنني على يقين من أن حبي لفوزية لن يصل إلى ما كنت أرجوه له من نهاية إلا أنني بعد رؤيتي للندبة في بنصرها شربت من كأس الحزن حتى الثمالة .

ومرت الأيام وأصبحت فوزية وحبي لها مجرد ذكرى جميلة داعبت بأحلامها الوردية فترة من الزمن خيالات شاب مراهق عرف قلبه الحب الحقيقي لأول مرة. ولم تلبث فوزية أن تحولت إلى مجرد ملهمة في تلك السلسلة الطويلة من النساء اللواتي ألهمني أعذب القصيد .
لقد ألهمتني فوزية ثلاث قصائد هي على التوالي: "أمل تحطم" و"نكري" و"بلا أمل" .

كانت حكومات الجامعة العربية باستثناء حكومة المملكة الأردنية الهاشمية، قد قررت قبل زحف جيوشها على فلسطين أن تقيم في المناطق التي تحتلها الجيوش العربية إدارة فلسطينية لتكون بمثابة دولة عربية مقابلة لتلك التي أقامها اليهود في المناطق التي سيطروا عليها.

وفي أيلول- سبتمبر- سنة ١٩٤٨ عادت الجامعة العربية إلى بحث القرار السابق، وعادت الحكومة الأردنية إلى معارضته، مما اضطر الجامعة إلى التوقف عن المضي في تنفيذه، واكتفت بإقرار مشروعية تأليف حكومة فلسطينية في الوقت المناسب .

واغتم الفلسطينيون هذه الفرصة وشكلوا حكومتهم الأولى في غزة في الثالث والعشرين من أيلول- سبتمبر- سنة ١٩٤٨ واطلقوا عليها اسم "حكومة عموم فلسطين" ومن أجل إضفاء الشرعية على هذه الحكومة دعت الهيئة العربية العليا إلى انعقاد مجلس وطني مكون من مائة وخمسين عضواً يمثلون كافة أنحاء فلسطين برئاسة الحاج أمين الحسيني . وفي مطلع تشرين أول - أكتوبر سنة ١٩٤٨ اتخذ المجلس قراراً أعلن فيه استقلال فلسطين

بحدودها الجغرافية التي رسمتها معاهدة سايكس- بيكو بعد الحرب العالمية الأولى. وقد نص القرار على أن فلسطين دولة حرة ديمقراطية ذات سيادة. وقام رئيس الحكومة السيد أحمد حلمي باشا بإبلاغ نواب تشكيل حكومته إلى الحكومات العربية، وإلى الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام باشا .

لم تكذ الحكومة الأردنية تعلم بنبأ قيام هذه الحكومة حتى قامت قيامتها ولم تتعد، فقد أوعزت إلى مجموعة من الشخصيات الفلسطينية المعارضة للمفتي بعقد مؤتمر في عمان برئاسة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي أعلن فيه بطلان القرارات التي اتخذت في غزة .

وفي مطلع كانون أول- ديسمبر- سنة ١٩٤٨ عقد مؤتمر في أريحا برئاسة الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل أعلن فيه المؤتمرون مبايعة الملك عبد الله ملكاً على الضفتين الشرقية والغربية، وقام بإبلاغها إلى الحكومات العربية وإلى جامعة الدول العربية .

وفي الثاني والعشرين من نيسان- إبريل- ١٩٥٠ جرت انتخابات نيابية في الضفتين، وفي الرابع والعشرين منه قرر الملك عبد الله رسمياً ضم القسم العربي من فلسطين إلى مملكته. ولم تمض ثلاثة أيام على ذلك حتى أعلنت بريطانيا رسمياً اعترافها بالمملكة الجديدة. أما قطاع غزة فقد بقي تحت إشراف الحكومة المصرية التي احتفظت لسكانه بجنسيتهم الفلسطينية .

أما حكومة عموم فلسطين فقد آل أمرها إلى أن تصبح حكومة يشغل كل جهازها الحكومي شقة في شارع قصر النيل بالقاهرة. وكانت المهمة الوحيدة التي مارستها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة هي إصدار جوازات سفر فلسطينية لمن لا يحمل جواز سفر من الفلسطينيين .

وقد اضطرت بعد أن انتهى مفعول جواز سفرني الذي صدر لي من القدس سنة ١٩٤٧ أن أحصل على جواز سفر من حكومة عموم فلسطين، وقد تم ذلك في ١٩٥٢/١٢/٢٩ كما قمت بإدخال زوجتي سيدة كامل عبد المقصود بعد عقد قراني عليها في الجواز في ١٩٥٤/١٢/١٣ وقد حمل هذا الجواز الرقم ٤١٦٦٧ .

في نهاية شهر أيار - مايو - ١٩٥٠ نجحت في امتحان السنة الرابعة من المرحلة الأولى بقسم البعوث الإسلامية، وأصبح من حقي التقدم إلى امتحان القبول الذي يعقد في بداية العام الدراسي المقبل للالتحاق بإحدى كليات الجامعة الأزهرية .

عادت رسائل الشقيقة دلة إلينا تزخر بالشكوى من صعوبة الحياة ورتابتها مما اضطر الوالد إلى التفكير جدوا بالاستقالة من عمله والعودة إلى فلسطين. وعندما لاحظت الوالدة تردد الوالد وتلكؤه في تقديم استقالته، بدأت ضغوطها عليه، إذ لم يكن يهمها سوى أن تعود إلى فلسطين لتكون بالقرب من بناتها هناك .

كان الوالد محقاً في ترده بتنفيذ قرار الاستقالة، فقد كان راتبه أعلى من راتب خريجي الجامعات في ذلك الحين، كما أنه لم يكن واثقاً من الحصول على عمل بديل مناسب لعمله الذي سيتركه عندما يعود إلى فلسطين .

استمرت ضغوط الوالدة على الوالد في التزايد حتى اضطرت في النهاية للرضوخ إلى رغباتها .

وعندما قرر الوالد العودة، حاولت جاهدة أن تقنعه بعودة جميع أفراد الأسرة معه، ولكنه وقف في وجهها بصلابة حيث قرر أن يعود هو وإياها والصغير فرج الله . أما رجا وغالب فينبغي أن يبقيا في مصر لمواصلة تعليمهما. وإن أنس فلن أنسى كلماته لها وهو يحاول إقناعها

بوجهة نظره . قال رحمه الله: إن غالب لن يترك مصر قبل أن يحصل على التوجيهية وإن رجا لا بد أن يبقى إلى جانبه فإن غالباً مازال صغيراً كما تعلمين .

واستسلمت الوالدة لذلك، ولكنها لم تنس أن تعبر عن مخاوفها تجاه ولديها فقالت: لك ما تريد، عُدْ إلى بلادك وارك ولبك فريستين سهلتين لبنات مصر. عند ذلك تبسم الوالد من قولها وقال: اطمئني يا أم رجا، فإن ما أعلمه هو أن بنات مصر لسن من آكلات لحوم البشر .

سررت بقرار الوالد وعزمت ببني وبين نفسي على ألا أكون مجرد مرافق لغالب، وأنني سوف أستمّر في دراستي حتى أخرج في كلية اللغة العربية التي أصبح التحاقني بها حلمًا يراودني منذ التحاقني بقسم البعوث الإسلامية .

وعاد الوالدان وبرفقتهما الشقيق فرج الله إلى فلسطين في نهاية آب - أغسطس - سنة ١٩٥٠ بعد أن استأجر لهم المفتي طائفة صغيرة خاصة نقلتهم إلى مطار قلندية في القدس .

وبقيت أنا وغالب في القاهرة. وكان علينا قبل كل شيء أن نفكر في إيجاد مسكن جديد يتناسب مع دخلنا المتواضع الذي لايزيد عن خمسة جنيهات، وهو المبلغ الذي كنت أقتاضه من الأزهر، وكان الوالد قبل سفره قد وعدنا بإرسال ما يقدر عليه بين حين وآخر. وذلك بعد أن أعطانا مبلغاً احتياطياً أوصانا بألا نمسه إلا عند الضرورة القصوى .

وهكذا لم نجد أماناً سوى أن نعود إلى منزل أم محمود بشارع النواوي، ولكن على أن نكتفي هذه المرة باستئجار غرفة واحدة من الغرفتين اللتين كنا نشغلهما من قبل مقابل جنيته واحد لا غير .

تقدم شاب من قرية سنجل يدعى عبد الفتاح يوسف الفقهاء لخطبة الشقيقة دلة بعد عودة الوالد إلى فلسطين بقليل، وكان من العاملين في سلك الشرطة. وقد وافق الوالد على تزويجها منه بعد أن آنس منها رغبة في ذلك. أما أبناؤها الخمسة من زوجها السابق، فقد كانوا في رعاية دار الطفل العربي في القدس، وكان يشرف على إدارة هذه الدار التي تُعنى باليتامى من أبناء الشهداء سيدة فاضلة تدعى هند الحسيني. وقد قدر لدلة أن تتربل للمرة الثانية حيث توفي زوجها الثاني سنة ١٩٨٨ بعد أن أنجبت منه ثلاث بنات وولداً واحداً أصبح طبيباً للأسنان .

الفصل السابع

في رحاب الأزهر

في أوائل تشرين أول - أكتوبر - سنة ١٩٥٠ تشكلت لجنة الامتحان الذي سأتقدم إليه من الأساتذتين الفاضلتين الدكتور حسن جاد والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي المدرستين بكلية اللغة العربية، وهما من أكثر الأساتذة شعبية عند الطلاب. وقد تبين لي فيما بعد أنهما في طليعة النائرين على نظام الأزهر القديم والداعين إلى تحديثه وتطويره.

ناقشني الأستاذان في النحو والصرف وعلوم البلاغة وبعض الحقائق المتصلة بمسيرة الأدب العربي في العصرين الجاهلي والإسلامي والعصر الحديث. وطلبوا إليّ أن أسمعهم شيئاً مما أحفظ من الشعر وآيات الذكر الحكيم. وبعد أن استجبت إلى كل ما طلباه أبلغتهما بقدرتي على نظم الشعر/ فطلبوا إليّ أن أسمعهم شيئاً من نظمي ففعلت .

وفي نهاية هذا الامتحان الشفهي الذي استغرق أكثر من ساعة قال الأستاذ الدكتور حسن جاد: "ليس هناك من هو أحق منك بكلية اللغة العربية".

شكرت الأستاذين بحرارة وخرجت من حضرتيهما وأنا أكاد أطير من شدة الفرح. فقد كان قول الدكتور حسن جاد هذا بمثابة البشارة بنجاحي في الامتحان. وفي اليوم التالي علّقت أسماء الناجحين المقبولين في الكلية، وكان اسمي واحداً من هذه الأسماء .

فركت عيني اللتين تسمرتا فوق اسمي الذي يتوسط الناجحين... وقلت في نفسي: هل أصبحت حقاً طالباً جامعياً؟ إلى عهد قريب لم يكن ذلك

بالنسبة لي أكثر من حلم من أحلام اليقظة. أما اليوم فإنه حقيقة واقعة لا شك فيها ولا مرأى .

وانطلقت إلى أحمد صالحة أرف إليه بشرى التحاقى بالكلية. فوجدته حزناً كاسف البال... هنأني بالنجاح، ثم سألته عن سبب حزنه فأخبرني بأنه لم يوفق في الامتحان المماثل الذي تقدم إليه للالتحاق بكلية الشريعة. قلت له محاولاً تعزيته ومواساته: لا عليك... خيرها في غيرها يا أحمد... سوف تتجح في العام القادم إن شاء الله .

وكانت "خيرها في غيرها" هذه تتطلب من أحمد أن يمضي عاماً آخر في القسم العام . ولبت ذلك حدث بالنسبة لأحمد صالحة المسكين. فقد تقدم لمثل هذا الامتحان بعد ذلك مرتين دون أن يكتب الله له النجاح فيه. وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح التحاقه بكلية الشريعة حلماً غير قابل للتحقيق، فاكتمى بالحصول على الشهادة الثانوية من قسم البعث الإسلامية ثم غادر مصر متعاقدا للعمل في سلك التدريس بمنطقة جيزان بالمملكة العربية السعودية .

وقد طابت له الإقامة هناك فتزوج من امرأة سعودية أنجب منها عدداً من البنين والبنات، كما تزوج في إحدى العطل الصيفية التي كان يذهب فيها لزيارة أهله في القدس قبل النكسة من نجمة بنت العم ذيب سمرين، ولكنه لم يلبث أن طلقها بعد أن أنجب منها ولداً واحداً .

كان أحمد صالحة مثلاً للطالب الفاضل في دراسته. لقد التحق بالأزهر قبل جميع الذين التحقوا به من أبناء بلدته عين كارم وأبناء القرى المجاورة، ولكنه ظل يراوح مكانه فلم يستطع تخطي القسم العام للبعوث الإسلامية^(١).

(١) انتقل أحمد صالحة إلى جوار ربه عام ٢٠٠٠م ودفن في المملكة العربية السعودية رحمه الله.

أما الذين التحقوا بعده بالأزهر الشريف فقد تمكنوا جميعاً من التخرج في إحدى كلياته ومنهم: كاتب هذه السطور والدكتور عمر الصوباني والشيخ محمد إبراهيم شقرة والشيخ بدر سمرين والشيخ علي الطيزي وفايز خالد الحزينة وغيرهم ممن ثبووا أرفع المناصب في مجال التربية والتعليم وغيره من المجالات في الأردن والسعودية والكويت وغيرها من الأقطار العربية .

أقامت حفل شاي دعوت إليه عدداً كبيراً من الأصدقاء ابتهاجاً بالتحاقى بكلية اللغة العربية. وإن أنس فإنني لن أنسى ما قاله الأستاذ علي الطيزي الذي كان في ذلك الوقت طالباً في السنة النهائية بكلية الشريعة تعليقاً على إقامتي ذلك الحفل: الالتحاق بالكلية يا رجا أمر مهم ولا شك، ولكن الأهم منه هو التخرج منها .

استقرت هذه العبارة في أعماقي وكان صداها يتردد في سمعي كلما حدثتني نفسي بالتكاسل أو التراخي في الإقبال على الدراسة .

جزى الله علي الطيزي الذي أصبح فيما بعد من رجال القدس الاقتصاديين المعدودين خير الجزاء. فقد كانت عبارته السامية تلك من خير النصائح التي تلقيتها في حياتي .

كانت كليات الأزهر الثلاث إبان إلتحاقى بكلية اللغة مبعثرة متفرقة في أنحاء القاهرة لا يجمعها حرم جامعي واحد، وكانت مباني جامعة الأزهر الحالية الواقعة في حي سيدنا الحسين تحت الإنشاء، ولم يكن قد اكتمل من مبانيها سوى مبنى كلية الشريعة التي بدأ طلابها يداومون فيها ابتداءً من العام الدراسي ١٩٥٠/١٩٥١م .

أما كلية اللغة فقد كانت في حي البرموني إلى الجنوب من قصر عابدين، وأما كلية أصول الدين فقد كانت في شبرا، وهو أكثر أحياء القاهرة ازدحاماً بالسكان .

كان لقب "الشيخ" هو الذي يطلق على عميد الكلية آنذاك. وكان شيخ كلية اللغة عند إلتحاقها بها هو الشيخ عبد الجليل عيسى. ولم يكد العام الدراسي يبدأ حتى ظهرت حركة تنقلات بين علماء الأزهر ومشايخه خرج بموجبها الشيخ عبد الجليل من مشيخة كلية اللغة العربية وحل محله الشيخ سليمان نوار .

كان الشيخ نوار معروفاً بشدته وحزمه وحبه لضبط النظام في المعاهد التي يعهد إليه بإدارتها. ولما كان طلاب كلية اللغة هم الذين يتزعمون طلاب الأزهر في الدعوة إلى المظاهرات والاحتجاجات على ما كان يسود مصر في تلك الفترة من فوضى وتسيب وفساد واضطراب فقد رمتهم إدارة الأزهر بالشيخ سليمان نوار ليقوم ما اعوجج من أمرهم ويجمع ما تفرق من نشرهم .

جن جنون طلاب الكلية فخرجوا في مظاهرة عارمة يهتفون بسقوط الشيخ، وكانت حناجرهم تدوي بعبارات معادية له أذكر منها: "يسقط الشيخ سليمان نوار... لا نريد حاكماً عسكرياً... لا نريد رجلاً استبدادياً". وأعلنت مشيخة الأزهر تعطيل الدراسة بالكلية مدة أسبوع كامل. وقد رفع طلبة الكلية التماساً إلى الملك فاروق يناشدونه فيه إعادة الشيخ عبد الجليل إلى مشيخة الكلية، ولكنه لم يستجب لهذا الالتماس .

استؤنفت الدراسة في مطلع يناير ١٩٥١، وفي السابع منه تطور الأمر إلى ما هو أشد خطورة فقد أعلن جميع أساتذة الكليات الأزهرية والمعاهد الدينية وطلابها إضراباً عن العمل والدراسة إلى أن تستجيب الدولة إلى مطالبهم التي تتلخص في مساواتهم بأساتذة وخريجي الجامعات الأخرى. وكانت الحكومة المصرية آنذاك تميز في المعاملة من حيث الدرجات التي يُعَيَّن فيها الخريجون، والألقاب العلمية والوظيفية والأجور

بين الأزهرين من جهة، وبين أبناء جامعة فؤاد الأول، وجامعة إبراهيم باشا، وجامعة الملك فاروق من جهة أخرى (١) .

استمر إضراب أساتذة الأزهر وطلابه سبعة وثلاثين يوماً، واستأنف الأساتذة أعمالهم في الثاني عشر من فبراير بعد أن تلقوا وعداً بتحقيق مطالبهم. أما الطلاب فإنهم لم يستأنفوا الدراسة إلا في الخامس من مارس ١٩٥١. بعد أن وعدتهم الحكومة بدراسة مطالبهم الخاصة بهم .

وعندما توجهت إلى الكلية في السادس من مارس لم أجد في الكلية غير عدد قليل من الطلاب .

في الثاني والعشرين من مارس سنة ١٩٥١ شاركت في أول أمسية شعرية أقامتها جماعة أصدقاء دار الكتب بالزيتون. وكنت قد شكلت هذه الجماعة مع عدد من الشباب الذين كانوا يترددون مثلي بكثرة على تلك الدار.

ولا زلت أذكر من هؤلاء: الأستاذ أحمد عبد الوهاب الذي أصبح فيما بعد من كبار كتاب السيناريو في السينما المصرية والأستاذ منسي واصف والأستاذ سليمان الحاج والأستاذ صلاح حلوة الذي أصبح وكيلاً لإحدى الوزارات وغيرهم. وقد ألقيت في هذه الأمسية قصيدة بعنوان: " تحية الربيع" .

بدأت الامتحانات الشفهية النهائية في كلية اللغة لهذا العام في ١٩٥١/٥/١٣. أما الامتحانات التحريرية فقد بدأت في ١٩٥١/٥/١٩، وقد توجهت إلى الكلية لتأدية امتحان النحو، ولما وصلت إلى بوابة الكلية وجدها مغلقة. وكانت الساعة آنذاك السابعة وأربعين دقيقة صباحاً. وعندما حاولت الدخول حال البواب ببني وبين ذلك وهو يقول بلهجته النوبية: "رايح فين يا

(١) تغيرت أسماء هذه الجامعات بعد ثورة يوليو فأصبحت على التوالي : جامعة القاهرة، وجامعة عين شمس، وجامعة الإسكندرية .

سيدنا الأفندي... الامتحان بقاله بادي من عشر دقائق..."، وصرخت في وجهه وأنا أدفعه عن طريقي بقوة متسائلاً: "هو الامتحان مش ببدا الساعة ثمانية؟"

أجاب البواب وهو يكظم غيظه: صبح النوم يا سيدنا الأفندي!... الامتحان ببدا الساعة سبعة ونص... صبح النوم يا سعادة البية!... وغاص قلبي في ركبتني وانطلقت مهرولاً إلى قاعة الامتحان، ولكن المراقبين حالا بني وبين الدخول، وأصروا على عدم السماح لي بذلك إلا بأمر من شيخ الكلية.

توجهت إلى شيخ الكلية ملاذي الأخير، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أضطر فيها لمقابلته. وبعد أن حييته رجوته أن يسمح لي بالدخول إلى قاعة الامتحان فسألني مؤنباً: ما الذي أحرك عن الامتحان؟! قلت: لم أتأخر عامداً يا سيدنا الشيخ، فقد كنت أظن أن الثامنة هي موعد الامتحان.

قال مستغرباً: وما الذي جعلك تظن ذلك؟ ألم تقرأ التعليمات المنشورة على لوحة الإعلانات.

قلت: لقد فاتني ذلك اعتقاداً مني بأن الامتحان لن يبدأ قبل الثامنة.

قال في حزم: ارجع إلى بيتك، وليكن في تخلفك عن هذه المادة درس يجعلك تدقق النظر فيما تقرأ بعد الآن حتى لا تتصرف في حياتك بناءً على قناعات مبنية على الحسد والتخمين.

ورجعت إلى بيتي حزيناً كاسف البال وأنا أعرض بنان الندم بسبب تهاوني في قراءة التعليمات المرافقة لجدول الامتحان.

ضاعت مني فرصة تأدية امتحان النحو في الدور الأول، ولكنني تقدمت إلى أداء الامتحان في بقية المواد المقررة. ولما ظهرت النتائج تبين لي أنني قد نجحت في جميع المواد باستثناء مادة النحو التي كتب أمام خانيتها في كشف الدرجات كلمة "متخلف".

وقد أدبت امتحان النحو في الدور الثاني ١٩٥١/٨/٢٥ وعندما ظهرت نتائج هذا الدور فوجئت برسوبي في الامتحان. إذ لم أحصل سوى على ثلاث عشرة درجة بينما كانت الدرجة الصغرى للنجاح عشرين من أربعين.

لم أحزن كثيراً لهذه النتيجة التي كنت أتوقعها منذ أن خرجت من قاعة الامتحان في الدور الثاني، فقد كانت الأسئلة أصعب بكثير من أسئلة الدور الأول، بالإضافة إلى أنني لم أكن قد استعددت استعداداً كافياً للدور الثاني حيث أنني لم أقرأ المقرر سوى مرة واحدة ظناً مني أن استعدادي السابق لامتحان الدور الأول كان كافياً لنجاحي في هذه المادة في الدور الثاني، والأدهى من ذلك أنني كنت قد قضيت ليلة الامتحان في مسامرة سعاد في حوش المنزل.

كانت هذه النتيجة تعني أنني سأقضي عاماً آخر في السنة الأولى من الكلية.

وقد ظلت مسألة "إعادتي للسنة الأولى سرّاً لا يعلم به الوالدان إلا بعد تخرجي من الكلية".

كان عام ١٩٥١ عاماً حافلاً بالأحداث بالنسبة لي. ففي هذا العام كان الدكتور طه حسين قد أصبح وزيراً للتربية والتعليم في حكومة الوفد المصرية التي شكلها مصطفى النحاس باشا بعد فوز حزبه في الانتخابات العامة التي جرت في سنة ١٩٥٠.

وقد حاول الدكتور طه أن يطبق سياسته التعليمية التي تقول بأن حق الإنسان في التعليم كحقه في الماء والهواء. ومن أجل ذلك فقد أنشأ عدداً كبيراً من المدارس في المدن والقرى والنجوع، وأضاف فصولاً كثيرة إلى المدارس القائمة.

وقد تطلب ذلك توظيف عدد كبير من المدرسين في سلك التعليم الابتدائي. ولما كان عدد الخريجين من المعلمين غير قادر على الوفاء



الشاعر رجا سمرين والمرحوم الشهيد صلاح خلف
(ابو اياد) عريف الحفل في ذكرى استشهاد البطل
الشهيد عبدالقادر الحسيني ١٩٥١/٤/٨ في رابطة
الطلبة الفلسطينيين بالقاهرة

بحاجة المدارس فقد لجأت المدارس الخاصة إلى التعاقد المؤقت مع عدد كبير من طلاب الجامعات .

عرفت أن عدداً من زملائي في الكلية قد تعاقد مع بعض المدارس، فوجدت أن الفرصة سانحة لزيادة دخلي من جهة وعدم حضور محاضرات السنة الأولى التي مللت تكرارها من جهة أخرى .

وهكذا تعاقدت مع الدكتور عادل فهمي مطر والأستاذ سليمان عبد الوهاب صاحبي "مدرسة الوادي الابتدائية الخاصة للبنين" للعمل في وظيفة مدرس للغة العربية بنصف جدول مقابل عشرة جنيهات مصرية في الشهر ابتداءً من ١٩٥١/١٠/١ وقد تعاقد مثلي مع تلك المدرسة وبالشروط نفسها صديق عراقي من مدينة الموصل يدعى سالم الدباغ. وهو شقيق الأستاذ غانم الدباغ أحد كتاب القصة القصيرة المعروفين في العراق وكان سالم طالباً في كلية الشريعة .

وبالإضافة إلى ذلك فقد بدأت في تدريس اللغة العربية في القسم الليلي من مدرسة الأستاذ زكي الأخطابي بالحلمية، مقابل خمس جنيهات في الشهر مما رفع دخلي إلى عشرين جنيهاً .

لم يستمر عملي في مدرسة الوادي سوى خمسة أشهر قدمت بعدها استقالتني إلى إدارتها مضطراً، لأن إدارة كلية اللغة اكتشفت أن عدداً كبيراً من طلاب السنتين الأولى والثانية يعملون مدرسين في المدارس الخاصة، وأنهم لا يحضرون إلى الكلية إلا في أيام محددة من الأسبوع. عند ذلك أصدرت تحذيراً لهؤلاء الطلاب بعد أن علقت كشوفاً بأسمائهم تخبرهم فيه بين الانتظام في الدراسة أو التفرغ للتدريس .

وبالنسبة لي فإنني لم أكن أذهب إلى الكلية إلا في يومي الاثنين والخميس .

آثرت المستقبل على الحاضر فتفرغت للدراسة، وقد فعل ذلك بعض زملاء ومنهم: سالم الدباغ وحسنين الشاعر وعطا منصور وحسن عباس وفريد صقر .

في نهاية العام الدراسي ١٩٥١ / ١٩٥٢ خرجت من عنق الزجاجة ونجحت في امتحانات السنة الأولى، ونقلت إلى السنة الثانية، وقد ازداد حماسي للتعليم بعد أن أحسست أنني قد صرت في منتصف المرحلة الجامعية من دراستي .
أما بالنسبة للعمل فقد اكتفيت بالعمل الليلي بمدرسة الأستاذ زكي الخطابي التي بقيت فيها مدة طويلة .

شهد عام ١٩٥١ أول تجربة لي مع العمل السياسي المنظم - إذا جاز التعبير - فقد تعرفت في أثناء سكننا بمنزل أم محمود وبحكم الجيرة على رجل مصري في الثلاثينات من عمره يدعى محمد علي عامر . وكان يملك مطحنة للبن وكنا من زبائنه .
أعجبت به، فتوثقت العلاقة بيني وبينه بعد أن رأيت فيه رجلاً واسع الأفق، على دراية جيدة بالسياسة وخباياها ومفهوماتها، متابعاً للأحداث المحلية والعربية والعالمية، مُعْنَى بهموم الإنسانية ومشكلات العالم الثالث بخاصة .

وكان الرجل يساري التفكير والاتجاه، يتمتع بمقدرة خطابية تمكنه من استمالة الجماهير، وقد ازداد إعجابي به بعد سماعي للخطبة التي ألقاها في المهرجان الانتخابي الذي أقامه مرشح حزب الوفد في منطقة الزيتون، فقد كان لهذه الخطبة أثر كبير في نفوس الحاضرين . ولا زلت أذكر جملة وردت في خطبة واستدرت تصفيق الجمهور بحماس منقطع النظير . وكانت هذه الجملة هي "تركوهم فقد أسقطتهم أعمالهم" وكان يعني بذلك السعديين الذين كان يترعهم آنذاك إبراهيم عبد الهادي باشا .

كان محمد علي عامر يتمتع بمواصفات الشخصية القيادية . ونتيجة لهذه المواصفات فقد وصل إلى رئاسة نقابة عمال النسيج الميكانيكي في القاهرة .

في ١٩٥١/٦/١٨ وجَّه إليَّ محمد علي عامر الذي كان يبادلني إعجاباً بإعجاب دعوة لحضور اجتماع تعقده لجنة تحضيرية لأنصار السلام في المطرية .

لبيت الدعوة واستمعت إلى بعض الكلمات التي تتدد بالحرب، وتدعو إلى السلام العالمي، وبخاصة بعد أن شهد العالم تجربة هيروشيما وناجازاكي الذرية المروعة، وكانت الفكرة التي تدور حولها الكلمات تتلخص في أنه ما من مشكلة من المشكلات العالمية تستحق أن تكون سبباً في نشوب حرب عالمية ثالثة. وبعد أن فرغ المتحدثون من إلقاء كلماتهم أجمعوا على انتخاب السيد محمد أحمد جاد المولى رئيساً للجنة، وانتخابي أنا سكرتيراً عاماً لتلك اللجنة .

في ١٩٥١/٦/٢١ قابلت في الساعة التاسعة والنصف مساءً كلاً من الأستاذ سعد الدين كامل ممثل مصر في اللجنة التحضيرية لمؤتمر السلام العالمي الذي عقد مؤخراً في وارسو، والأستاذ الشاعر كمال عبد الحليم صاحب ديوان إصرار، وأبلغتهما بنبأ تأليف لجنة لأنصار السلام بالمطرية . وكان المقر الرئيسي لجماعة أنصار السلام في مصر في شارع عبد العزيز بالقاهرة .

في ١٩٥١/٦/٢٣ نشرت مجلة الكاتب للحرية والسلام الناطقة بلسان أنصار السلام في مصر نبأ تأليف لجنة لأنصار السلام بالمطرية، وفي ٢٤ منه عقدت لجنة المطرية أول اجتماع لها بعد انتخابي سكرتيراً في اجتماعها السابق .

استعرضنا في ذلك الاجتماع الأحوال العالمية وتحدثنا عن الحرب الباردة بين الشرق والغرب، واحتمالات تحولها إلى حرب ساخنة، وواجب

الشعوب المحبة للسلام حيال ذلك. وتحدثنا عن مناطق التوتر في العالم، ووصل بنا الحديث إلى مشكلة فلسطين، وما خلَّفت من توتر في العلاقات بين الدول العربية والاستعمارية من جهة، وبين العرب واليهودية العالمية من جهة أخرى. عند ذلك وجهت هذا السؤال إلى أعضاء اللجنة: هل يرى أعضاء اللجنة المحترمون في احتمالات نشوب حرب بين العرب واليهود تهديداً للسلام العالمي يبيح لشعوب العالم أن تتصدى له وتستكره وتحول دون حدوثه؟

فاجأني إجماع الحاضرين من أعضاء اللجنة على أن ذلك يعد تهديداً صارخاً للسلام العالمي، وأن مجرد تفكير العرب في القضاء على إسرائيل يعد من الأمور التي لا يمكن أن يقبل بها العالم .

سأعني ذلك إلى أقصى درجة، وصارحتهم بعدم قدرتي على الاستمرار في الانسحاب إلى جماعة تتبنى مثل هذه الأفكار، لأن السلام في نظري ينبغي أن يكون مبنياً على العدل، وليس من العدالة في شيء أن تقوم دولة مواطنوها من شذاذ الأفاق على أرض شعب يقتلع منها من جذوره ليحل محل هؤلاء الشذاذ في التشرذ تحت كل سماء .

وأضفت إلى ذلك قولي: "إن من حق الفلسطينيين ومن وراءهم من إخوانهم العرب أن يعيدوا إلى فلسطين وجهها العربي في أي وقت يرون فيه أنفسهم قادرين على ذلك، وليذهب من لا يرضى بذلك إلى الجحيم .

واعلموا أيها السادة أن الغرب الصليبي لم يزرع هذا الورم السرطاني المسمى بإسرائيل في قلب العالم العربي إلا للإبقاء على التوتر في هذه المنطقة الحيوية من العالم" .

وقد علَّق رئيس اللجنة على رأيي هذا بقوله: "إنه لمن الغرابة بمكان أن يتبنى نصير السلام مثل هذه الأفكار، ويبدو أن الشُّقة بيننا وبينك بعيدة يا أستاذ رجا" .

قلت: أجل والله إنها لأبعد مما تتصورون!

قال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أن هذا الاجتماع بالنسبة لي سيكون الأول والأخير، ومن أجل ذلك فإنني أتقدم باستقالتي من سكرتارية وعضوية الجماعة .

حاول بعض الأعضاء إقناعي بالعدول عن الاستقالة ولكنني أصريت عليها موضحاً لهم أن الغاية من انتسابي لأية جماعة سياسة أو حزب سياسي إنما هو خدمة قضية شعبي وبلادي، ولذلك فإنني في الوقت الذي اكتشف فيه أن مبادئ هذه الجماعة أو ذلك الحزب لا تتوافق وهذه الأهداف فإن بقاء انتسابي إليها يصبح في عداد المستحيلات .

وفي الجلسة ذاتها وقبل أن يَنْفُضَ الاجتماع، قدمت استقالتي إلى الرئيس وفي ١٩٥١/٦/٢٨ أرسلت بنسخة من تلك الاستقالة إلى الأستاذ سعد الدين كامل المحامي ضمن رسالة بريدية مسجلة . وهكذا لم يدم انتسابي لهذه الجماعة أكثر من ثمانية أيام .

في ١٩٥١/٧/١٧ قتل السيد رياض الصلح رئيس الوزارة اللبنانية وهو في طريقه إلى مطار عمان، بعد أن قام بزيارة رسمية للملك عبد الله بن الحسين. وفي العشرين من الشهر نفسه اغتيل الملك عبد الله وهو يهبط بدخول المسجد الأقصى لأداء صلاة الجمعة .

وقد اتضح أن قاتله خياط فلسطيني من سوق الدباغة في القدس يدعى مصطفى عسّو. وقد قتله حرس الملك في الحال .

وفي الأيام التالية لاغتيال الملك اعتقلت السلطات الأردنية نحو أربعمائة فلسطيني من جماعة الجهاد المقدس الموالية للمفتي. وكان في مقدمة المعتقلين الدكتور موسى الحسيني وعبد عكّه وشقيقه زكريا عكة وعبد القادر فرحات الشهير بالسدمير والقس إبراهيم عياد والدكتور داود الحسيني وتوفيق صالح الحسيني .

وفي ١٩٥١/٨/١٩ بدأت محاكمة هؤلاء ومعهم عبد الله التل وموسى الأيوبي اللذان حوكما غيابياً، واستمرت المحاكمة حتى الثامن والعشرين من الشهر نفسه، حيث أصدرت المحكمة الخاصة حكمها بإعدام ستة من المتهمين وبراءة الباقين . وفي ١٩٥١/٩/٤ تم نَفْذُ حكم الإعدام شنقاً في كل من الدكتور موسى الحسيني وعبد القادر فرحات والأخوين عبد عكة وزكريا عكة .

وفي ١٩٥١/١٠/١٦ وافق البرلمان المصري على إلغاء المعاهدة التي ظلت تربط مصر وبريطانيا منذ عام ١٩٣٦ وعلى إلغاء اتفاقيتي عام ١٨٨٩ .

عشنا في منزل أم محمود بعد عودة الأسرة إلى القدس خمسة عشر شهراً كاملة لم نفكر خلالها في الانتقال إلى بيت آخر، فقد كانت الجيرة حسنة، وكنت وغالباً نحظى بتقدير أهالي الحي واحترامهم، وكان سكانه دائمي السؤال عن أخبار الوالدين اللذين ظلوا يذكرونهما بالخير .

وفي ١٩٥١/١١/١٨ - وعلى غير ما هو متوقع - حدث ما دعاني إلى اتخاذ قرار بالانتقال من هذا المنزل. كان منزل أم محمود في ذلك اليوم خالياً لا يوجد فيه من سكانه سوى سعاد وأنا . انتهزت فرصة انفرادي بسعاد فوجهت إليها هذا السؤال: ما الأسباب التي دعتك يا سعاد إلى رفض كل من تقدم لخطبتك حتى الآن؟

أظهرت سعاد استياءها من سؤالي وقالت: هناك واحد من أمريين، إما أنك غيبي أو متغابي .

قلت: ما أنا بالغبي ولا المتغابي، فما هذا الذي تقولين؟

قالت: أتزعم حقاً أنك لا تعرف السبب؟

قلت: أقسم لك أنني لا أعرف ولو عرفت ما سألت .

قالت: ألم تقل لك والدتك بأن كلاً منّا سيكون للآخر؟

قلت: لم تذكر الوالدة لي شيئاً من ذلك لا تلميحاً ولا تصريحاً، وأقسم لك على ذلك، وإن كانت الوالدة قد وعدتك بهذا فلست مسؤولاً عن وعود الوالدة ولا عن مثل هذه الثرثرة التي كثيراً ما تصدر عن الأمهات .

قالت: سامحك الله يا رجا... ألسنت تراني مناسبة لك حتى تجرحني بهذا الكلام .

قلت: ثاله ما قصدت لك جرحاً أو إيلاًماً وإنك لفئة يئمنها الآلاف من الشباب، وكل ما في الأمر أنني لست مؤهلاً للزواج من أية فتاة في الدنيا في الوقت الحاضر .

قالت: سأنتظرك حتى تتخرج .

قلت: ما أحب لك أن تنتظريني يوماً واحداً، ولا أنصحك بالمرهنة على حصان لا تعرفين مدى نصيبه من الريح أو الخسارة .

قالت: ما أظنك بالحصان الخاسر يا رجا .

قلت: لم تستبعدين ذلك؟ أو لم أرسب في هذا العام ؟

قالت: لكل حصان كبوة... وما أظن أن كبوتك هذه ستتكرر .

قلت: هذا صحيح ولكني لا أحب لك أن تشتري سمكاً في الماء .

قالت: قل إنك لا تحبني وكفى، بدلاً من أن تشبه نفسك مرة بالحصان ومرة أخرى بالسلك .

قلت: يعلم الله أنك في منزلة واحدة من الشقيقات حتى أنني أحس بأن لي أربع شقيقات بدلاً من ثلاث .

قالت في لهجة غاضبة: الآن فهمت .

ثم دلفت إلى غرفتها وصفت الباب وراءها صفقة ارتجت لها جذران الغرفة .

بعد عودة غالب من المدرسة حدثته بما كان بيني وبين سعاد، وبأن الواجب يتطلب منا أن نترك هذا المنزل ونحول عنه إلى سواء فلم يوافق غالب على ذلك .

كنت أعلم أن غالباً على ود متبادل مع شقيقة سعاد الصغرى انشراح، وأنه لا يحبذ مفارقتها ولا مفارقة المنزل الذي تقيم فيه، غير أنني صممت على تنفيذ فكرة الانتقال على أن أفاجئه بوضع هذه الفكرة موضع التنفيذ في أقرب فرصة ممكنة .

طفقت أبحث عن غرفة مناسبة في حي الزيتون، واستمر البحث حتى اهتديت إلى غرفة واسعة في شقة كبيرة بالطابق الثالث من المنزل رقم (١٠) بحارة ميخائيل عبد السيد بالزيتون .

كان المنزل ملكاً لامرأة تدعى الحاجة زينب يوسف الشيمي، وكانت الشقة مؤلفة من خمس غرف كبيرة لا تقل مساحة الواحدة منها عن ستة عشر متراً مربعاً، تتوسطها صالة واسعة ولها مطبخ وحمام يستخدمهما جميع سكان الشقة .

وكان سكان الشقة -عند انضمامنا إليهم- خليطاً من الموظفين والطلاب .

لم يكن سكان الشقة ثابتين لا يتغيرون، فقد كانت الظروف تضطر بعضهم إلى الانتقال ليحل محله ساكن جديد .

ومن الذين أقاموا في هذه الشقة: أنا وشقيقي غالب والأخوان الحسيني حمد عيسى وشقيقه سيد، والأخوان علي الدغدي وأحمد الدغدي، وشابان من سيناء هما عبد الله خويطر ومسلم حسان، والأستاذ لطفي الخشاب، والأستاذ عبد المنعم زعزع، والسيد يحي صبري، وإبراهيم عبد الرازق، وفؤاد أبو حسين، وعلي رزق، وسيد عبد الرحمن وصديق له يدعى محمود. علمت من خلال زيارتي المتعددة للقاهرة بعد التخرج أن ثلاثة من هؤلاء قد انتقلوا إلى رحمة الله وهم: الحسيني حمد عيسى والسيد يحي صبري، وعلي رزق الذي كنا نطلق عليه اسم علي راديو لأنه كان يُعطي صوت الراديو إلى أقصى درجة وهو يستمع إليه في غرفته .

وقبل نهاية شهر نوفمبر بيومين انتقلنا إلى الغرفة التي استأجرناها في هذه الشقة، وكانت لها شرفة مشتركة مع الغرفة المجاورة. وباختصار فإن غرفتنا كانت من أفضل الغرف في تلك الشقة .

الفصل الثامن

حب جديد

في الثامن من كانون أول- ديسمبر- ١٩٥١ رأيتُ مصادفةً وأنا في طريقي إلى المنزل عائداً من عملي في مدرسة الوادي التي كنتُ ما أزال أعمل فيها فتاتين في عمر الزهور... كانت الفتاتان تسيران في شارع نصوح باشا في اتجاه شارع سليم الأول. وكانت إحدهما متوسطة الطول شقراء، لها عينا ساحرتان، يتدلى شعرها الأشقر في ضفيريّين ذهبيّتين طويلتين على ظهرها، وفوق جبينها خصلة من شعرها الأشقر متهدلة تضيء على جبينها هالة سحرية تأخذ بالأكباب... على ثغرها ظل ابتسامة يخالها الرائي أنها صفة ملازمة لشفتيها المكتنزتين، لها قوام رشيق يقوم فوق ساقين مدملجتين؛ في مشيتها دلٌ وخيلاء يَنمَّان عن اعتداد بالنفس، وإحساس بما تمتلك صاحبه من جمال وفتنة، وفي نظراتها منابع للإلهام لا يستطيع أن يستنفد وصف ما فيهما جميع الشعراء .

أما الأخرى فكانت قصيرة بينة القصر، ببضاء خفيفة الظل سوداء الشعر مليحة القسمات. وكان سيرها إلى جانب رفيقتها الأخرى مثلاً كافياً لإظهار الفرق بين الملاحمة المقبولة والجمال الصارخ الأخاذ .

تسمرت نظراتي على الفتاة الجميلة وتقابلت عيناها مع عينيها، فسمحت الفتاة لابتهاماتها التي لا تكاد تبين بالنمو قليلاً عند معانقة عيني لعينيها. وسار كلُّ منا في طريقه، وجاء الليل، وحاولت أن أخلد إلى النوم، ولكن صورة تلك الفتاة لم تبارح مخيلتي، ولم تفارقني لحظة واحدة .

ما هذا الذي حدث...؟ كيف تسيطر على تفكيري صورة فتاة عابرة قابلتها مصادفة في الطريق إلى هذا الحد؟!

هل هو الحب الذي يولد من أول نظرة كما يقولون؟!

ولكن ما النهاية التي يمكن أن ينتهي إليها مثل هذا الحب إذا لم يقدر

لصاحبه أن يرى من أحبها مرة أخرى؟!

بقيت حتى منتصف الليل ساهراً أنقلب، وخرجت من غرفتي دون أن أشعر أخي غالب، ورجت أنزعُ الشوارع والطرق... ولم أعد إلى غرفتي إلا بعد أن أخذ مني التعب كل مأخذ.

قلت لنفسى: الولي لي إن لم أرَ هذه الفتاة من جديد! مضى أسبوع وصورة الفتاة لم تفارقني في ليل أو نهار.

وفي عصر اليوم الثامن حدث ما لم يكن في الحسبان.

كنت واقفاً في الشرفة الغربية لشقتنا. وكانت تطل على مجموعة من المنازل الممتدة حتى شارع طومانباي. وكان أول هذه المنازل هو منزل رقم (٨) المجاور للمنزل الذي تقع فيه شقتنا.

نظرتُ إلى شرفة الطابق الثاني من ذلك المنزل المؤلف من طابقين، وهو مشيد في أقصى الجهة الشمالية من قطعة الأرض التي يقوم فوقها. كانت مساحة البناء لا تتجاوز مائة متر تقريباً، أما بقية الأرض فكانت عبارة عن ساحة واسعة لها بوابة عند مدخلها من جهة الحارة.

نظرتُ إلى شرفة الطابق الثاني فماذا رأيت؟! رأيت ما لم أكن أتوقع أن أراه. رأيت الفتاة القصيرة التي كانت تسير مع تلك التي شغلت لبي، وسيطرت على كياني. شعرت بفرحة غامرة لرؤية الفتاة، واعتبرت أن رؤيتي لها في هذا المكان ستكون بمثابة المنقذ لي من وساوسي التي سيطرت عليّ.

قلت في نفسي: لن أعدم وسيلة تجعلني أن أعرف ما أريد عن فتاتي من هذه الفتاة التي يبدو أنها من بنات الجيران. وبينما أنا غارق في تصوراتي وأوهامي إذا بي أفاجأ بما هو أعجب وأغرب. فوجئت بالجميلة

التي سحرتني تدلف من البوابة الرئيسية للمنزل وتتجه نحو صديقتها وهي تتسائل: هل جئت يا كريمة؟

أجابتها صديقتها الواقفة في الشرفة: لقد سيقنك يا سيدة.

وصعدت سيدة إلى حيث صديقتها كريمة، وتوارت الفتاتان داخل الشقة. وعلى الرغم من برودة الطقس في ذلك اليوم فقد بقيت ملازماً للشرفة حتى أتمكن من معرفة مَنْ مِنَ الفتاتين جاءت لزيارة الأخرى.

وقبل غروب الشمس بقليل هبطت الفتاتان متجهتين نحو البوابة... وهناك وقفنا بضع دقائق كما هي عادة النساء اللواتي لا يحلو لهن الحديث إلا ساعة الاستئذان في الانصراف.

صافحت كريمة سيدة مودعة وهي تقول: أراك غداً إن شاء الله. وعادت سيدة إلى الدور الثاني. حمداً لك اللهم... كم أنت كريم يا رب... لم أكن أطمع أن أعرف كل هذا عن حبيبتي بمثل هذه السرعة... هل يعني ذلك أنك تبارك حبي؟ وأنه سيكون لي مع هذه الجميلة قصة وشأن؟! سيدة... هو اسمها... ما أعذب هذا الاسم على الرغم من تداوله بكثرة في أوساط الأسر الشعبية.

لقد تلفظت بهذا الاسم آلاف المرات ولكني لم أشعر بعذوبته كما أشعر بها الآن... إنها سيدة فعلاً... سيدة في جمالها... سيدة في دلالتها... سيدة في سموخها وكبريائها... سيدة في كل شيء.

لست أدري لِمَ يُصِرُّ كُتَّاب السيناريو في جميع الأفلام والمسرحيات على اختيار هذا الاسم لكل من تقوم بدور الخادم من الممثلات؟ ألم يشعروا حقاً بعذوبة هذا الاسم وجمال معناه؟! ما أغبى هؤلاء الكُتَّاب الذين لو قُدِّرَ لهم أن يروا سيدة هذه لما جرؤ أحدهم على ابتذال هذا الاسم أو الإساءة إليه.

قلت في نفسي إن أقرب الطرق لمعرفة ما أريد عن سيدة وأهلها هي الحاجة زينب يوسف الشيمي .

كانت الحاجة زينب امرأة خفيفة الظل، تنبئ قسمايتها عن ملاحاة آفة كانت تتمتع بها أيام الشباب. وكانت هي وابنها الأصغر حسن، وابنتاها سميرة وكريمة تسكنان في الشقة الواقعة تحت شقتنا. وكانت تعامل جميع الطلاب الذين يسكنون في منزلها كما تعامل أبناءها. وفي كثير من الأحيان كانت تصعد إلى شقتنا لتتفقد أحوالنا وتطمئن علينا، وكنا نحن بدورنا نزورها في المناسبات الرسمية والأعياد .

في اليوم التالي هبطت إلى الطابق الثاني لمقابلة الحاجة زينب، وبعد أن فرغنا من أحاديث المجاملة التقليدية سألت الحاجة عن جيرانها هؤلاء الذين لديهم بنت اسمها سيدة .

ضحكت الحاجة ضحكة ذات مغزى وقالت: ولماذا تسأل عنهم يا سي رجا .

قلت: أعذك بأن تكوني أول من يعرف السبب الذي يدعوني إلى السؤال عنهم .

أطلقت الحاجة زينب ضحكة ثانية ثم انطلقت بعدها تحدثني عن سيدة وعائلتها بالتفصيل وأصغيت إلى حديثها بكل جوارحي .

وقد علمت من حديث الحاجة أن سيدة وحيدة أبويها، وأن لها أخاً من أبيها يدعى إسماعيل؟ وأنه مستقل بنفسه ولا يزورهم إلا نادراً وأن سيدة لم تمكث في المدرسة سوى أربعة أعوام، وأنها تتعلم في الوقت الحاضر فن الخياطة والتفصيل، وأن أباه قد أخرجها من المدرسة غيرة عليها، واعتقاداً منه أن كثرة التعليم مفسدة للفتيات، وأن المنزل الذي يقطنونه كان ملكاً للحاجة زينب، وأن والد سيدة قد اشتتره منها، وأنها تملكه مع شقيقاتها خضرة ونبوية وعزيزة، وأن مساحة الأرض التي يقوم عليها المنزل لا تزيد

عن (٢٧٨) م^٢، وأن والد سيدة يدعى كامل عبد المقصود صالح وأنه لا يشارك في ملكية المنزل، وأنه يعمل في بيع وشراء السيارات المستعملة . أمضيت أكثر من أسبوعين وأنا أفكر في نهاية هذا الحب الذي بدأ من طرف واحد هو طرفي أنا، والذي ما زال الطرف الآخر خالي الذهن منه ومن كل ما يشير إليه من قريب أو بعيد .

لقد تمكن حب هذه الفتاة من نفسي تمكناً ورسخ فيها رسوخاً، وأنه قد وصل مرحلة ينبغي أن أصل به إلى مصير واضح لا لبس فيه . ولكي أحقق ذلك عزمْتُ على أن أتقدم لخطبة الفتاة . أفصحت لغالب عن نيّتي هذه فعارض الفكرة واتهمني بالتهور والجنون . ولكني لم أعبا بمعارضته فلم يجد بداً من أن يدعني وشأني .

في الثامنة من مساء اليوم الثاني والعشرين من كانون أول - ديسمبر - سنة ١٩٥١ قابلت السيد/ كامل عبد المقصود والد الفتاة بناءً على موعد كان قد حدده لي قبل يومين .

بعد حديث المجاملة المعتاد قدمت إليه نفسي قائلاً : " اسمي رجا محمد سميرين... طالب بالسنة الأولى بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر... في الثانية والعشرين من عمري... فلسطيني لاجيء... لا أملك في الوقت الحاضر سوى علمي وعزيمة الشباب وإصراري على النجاح حتى أحصل على الشهادة التي سأواجه بها العالم . والذي مجاهد قديم يقيم مع والدتي وأخي الأصغر في القدس، وكانوا إلى عهد قريب في مصر حيث كان والدي يعمل مرافقاً خاصاً لمفتي فلسطين . وقد رجع إلى فلسطين ليرعى شقيقتي وأطفالها الذين استشهد والدهم في إحدى المعارك، وإنني أقيم مع أخي غالب الطالب في التوجيهية هنا بجواركم في منزل الحاجة زينب يوسف الشيمي. وبحكم الجيرة فقد رأيت كريمكم الوحيدة، وإنني سأكون سعيداً لو تكرمت بالموافقة على طلبي الزواج منها بعد تخرجي في الكلية.

وفي استطاعتك أن تسأل عني وعن أسرتي من تشاء من الشخصيات الفلسطينية العاملة مع المفتي".

فرغيت من حديثي هذا ثم ناولته ورقة فيها عنوان المفتي. وقد أعجب الرجل بصراحتي وأكبر في هذه الجراءة التي قلما تتوافر في من هم في مثل سني ووضعني فقال: وهل سألت عنا فوجدت أننا مناسبون لترتيب معنا برباط المصاهرة.

قلت: لقد سألت عنكم فما ذكر لي أحد ممن سألتهم إلا كل خير وإنه ليُشرفني أن أرتبط بكم برباط المصاهرة.

قال: أليس من حقنا أن نسأل عنك مثلما سألت عنا.

قلت: أجل، بل إن هذا واجب يمليه عليكم حبكم لابنتكم وحرصكم على ألا تكون مع إنسان لا يستحقها، ومن أجل ذلك دفعتُ إليك بعنوان المفتي لتسأل من تشاء من رجال حاشيته.

قال: ما أراك إلا واقعاً من نفسك، ومهما يكن من أمر فإن موعدنا هو في مثل هذا الوقت بعد ثلاثة أيام إن شاء الله.

قلت: إن شاء الله.

استأذنت في الانصراف، ووصلت إلى غرفتي لاهثاً منفرج الأسارير، وبدأ غالب ومجموعة الأصدقاء يمطرونني بالأسئلة، فقلت: على رسلكم أيها الشباب، دعوني حتى أسترِد أنفاسي. وبعد لحظات سردتُ عليهم ما تم بالتفصيل، فانطلقوا يهتفون ويبشرونني بموافقة الرجل الحتمية، فأجبتهم بأن هذه التهنئة سابقة لأوانها، وأن من الأفضل تأجيلها حتى نسمع برد الرجل بعد ثلاثة أيام.

وجاء الموعد وطرت إلى مقابلة العم كامل، وكم كان سروري عندما أعلمني الرجل بالموافقة، ولم أعادر منزله إلا بعد أن اتفقت معه على جميع التفاصيل.

سألته عن الشبكة والمهر وكل ما يتصل بأمور الزواج. فقال: ابنتنا ليست سلعة معروضة للبيع يا بني حتى نطالبني بتحديد ما أريده لكل أمر من هذه الأمور.

قلت: معاذ الله أن يتبادر إلى ذهني مثل هذا المفهوم، ولكن العادة جرت أن يتفاهم الناس حول هذه الأمور حتى يكون كل طرف على بيئة من أمره، وقد حدثتكَ عن نفسي وعن وضعي الاجتماعي، ولم يبق سوى أن نتفاهم حول هذه الأمور.

قال: قلت لك يا بني إن سيدة ليست سلعة مطروحة للمساومة... وإن كل ما ذكرت من التفاصيل متروك لتقديرك أنت، وأعلم بأن الله - جل شأنه - لا يكلف نفساً إلا وسعها، فاذكر ما تستطيع أن تقدمه ولا تظلم نفسك، ولن أراجعك في شيء مما تقول.

وذكرت للرجل ما أستطيع تقديمه من مهر وشبكة، وأوضحت له أنني لن أطالبه بتأثيث منزل لابنته كما يقضي العرف عند المصريين، لأنني لا أنوي البقاء في مصر، ولا أعرف إلى أي قطر من الأقطار العربية سأطير مع عروسي بعد التخرج بحثاً عن اللقمة الحلال.

ووافق الرجل على كل ما عرضت عليه، ولم أعادر منزله إلا بعد أن قرأنا الفاتحة، وحددنا موعد تقديم الشبكة. وعندما هممت أن أستأذن في الانصراف استوقفني العم كامل قائلاً: بقيت نقطتان يجب أن نتفق عليهما حتى لا تتعبنى وأتعبك.

قلت وقد داخلني شيء من الرهبة والفرع: خيراً إن شاء الله، قل ما تريد يا عم كامل فكلي أذان صاغية.

قال: النقطة الأولى هي ألا زواج قبل التخرج، وأما الثانية فهي التزامك بعدم دخول منزلنا في الوقت الذي لا أكون موجوداً فيه طوال مدة الخطبة.

قلت وقد أفرخ روعي، وذهب عني فزعي: ليس فيما تشترط أي ضير، بل إن ذلك لمما يزيدني إعجاباً بك وتمسكاً بمصاهرتك، وإن رجولتي لتأبى علي أن أدخل بيتاً في غيبة سيده .

قال العم كامل: بارك الله فيك يا بني وإنه ليبدو لي أنني قد وفقت إلى من أرتضيته زوجاً لابنتي إن شاء الله .
شكرت العم كامل على حسن ظنه بي ثم ودعته وانصرفت .

عدت إلى غرفتي والدنيا لا تكاد تسعني من شدة الفرح . وتمددت على سريري وأنا أقول في نفسي: هل من المعقول أن تسير الأمور بمثل هذه السهولة واليسر...؟! كيف ألهم الله والد الفتاة أن يكون على هذا القدر من الطيبة والتساهل في أمر يتعلق بمستقبل ابنه الوحيدة...؟! لا شك أنها إرادة الله، فهو إذا أراد شيئاً يسره وهياً له ولتحقيقه جميع الأسباب .

ليس هناك في نظري تفسير آخر لما حدث، فالمعلم كامل ليس من الرجال الذين سرعان ما يقبلون بأول متقدم لمصاهرتهم، وابنته الوحيدة سيدة لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها إلا بشهر واحد، وإن ما تتمتع به من جمال جعلها محط الأنظار، حيث تقدم إلى خطبتها قبلي عدد من الرجال رفضهم والدها واحداً بعد الآخر .

صحيح أن الرجل قد أعجب بصراحتي ووضوحي وأنه قد توسم في الخير، وأنه- كما قال لي فيما بعد- قد قدر بأنه "سيكون لي شأن في المستقبل، وأنني سأكون رب أسرة صالحة يرعى زوجته وأولاده ويفتديهم بكل نفيس وغال" ولكن يبقى بعد هذا كله أن مثل هذه الصفات قد تتوافر في كثير من الشباب. والأهم من ذلك كله أن العم كامل كان نموذجاً حياً لابن البلد الأصيل الذي يتسم بالشهامة والنبل والسخاء، وأنه كان يتمتع بهيبة تخشاه أسرته وكل من يتصل بها من الأقرباء، وأنه كان في أسرته كالسيد أحمد عبد الجواد بطل ثلاثية نجيب محفوظ .

في ١٩٥١/١٢/٣٠ أرسلتُ إلى والدي رسالة أخيره فيها بأنني قررتُ خطبة آنسة مصرية أحببتها من أول نظرة، وقد التمسْتُ منه ومن الوالدة أن يوافقا على ذلك وأن يباركا هذا القرار .

ودون أن أنتظر الرد على رسالتي اشتريت الشبكة وهي عبارة عن سوار ذهبي ودبلتين من محلات أمين ونور السرجاني بالموسكي. وكان ثمن الشبكة أربعة عشرة جنيهًا مصرياً لا غير، وهو مبلغ لا يستهان به في تلك الأيام .

وقد تم الاتفاق على أن يتم تقديم الشبكة في حفل عائلي بسيط يوم الثلاثاء الموافق للثامن من كانون ثاني- يناير- ١٩٥٢، وقد أقيم الحفل في منزل العروس في الساعة السابعة مساء .

لم أدعُ أحداً ممن يقطن معي في الشقة سوى أخي غالب والصدّيقين الحسيني حمد عيسى وشقيقه سيد، وممن نعرف لم أدعُ سوى فوزية مصطفى موسى ووالدتها وأختها وأخيها. وقد أقام لنا العم كامل حفل عشاء فاخراً، ولم ينس تعبيراً عن ابتهاجه أن يطلق بضع رصاصات من مسدسه المرخص الذي لم يكن يفارقه .

وبعد يومين أقيمت حفل شاي دعوت إليه أربعين صديقاً من الذين لم تسمح الظروف بدعوتهم في حفل الخطبة .

في ١٩٥٢/١/١٢ آويت إلى فراشي مبكراً بسبب وعكة صحية ألمت بي . كنت راقداً ارتعد من الحمى التي داهمتني منذ بضع ساعات، وكان يتحلق حول سريري كل من الشقيق غالب والصدّيقين الحسيني حمد وشقيقه سيد . وفي الثامنة تماماً طرقت أسامعنا صرخة مدوية مصدرها غرفة فؤاد أبو حسين وهو طالب بمعهد المعلمين الخاص بالزيتون .

كان فؤاد من أسرة غنية من أسر البحيرة، وكان يرافقه خادم صغير في الرابعة عشرة من عمره يدعى أحمد . اقتحم الخادم الصغير علينا الغرفة وهو يصيح: "الحقني يا سيدي رجا، سيدي فؤاد حيموت" . واندفعت ومن كان بصحبتني إلى غرفة فؤاد فوجدناه مستلقياً على السرير وهو يتلوى من الألم . كان إلى جانبه علبة أسبرين فارغة وزجاجة من محلول الميكروكروم خالية كذلك .

سألنا أحمد عما حدث فقال: "إن سيده فؤاداً قد شرب كل ما في هذه العلبة وكل ما في الزجاجة. وأقبلت على فؤاد أسأله لم فعلت ذلك بنفسك يا فؤاد؟!" .

أجاب فؤاد بصوت منقطع وهو يشيح بوجهه عني: "أتركني يا رجا أرجوك... أتركني فأني أريد أن أموت" .

وأشرت إلى غالب باستدعاء الإسعاف والحسيني حمد بإبلاغ خالة فؤاد وزوجها بما حدث، وكانت أسرة خالته تسكن في منزل قريب بالحارة التي نسكنها .

وانطلق غالب والحسيني بتنفيذاً للأمر. وقبل أقل من نصف ساعة وصلت سيارة إسعاف، وكان زوج خالة فؤاد المدعو صابر أفندي قد وصل مع شقيق فؤاد الأستاذ شفيق المعيد بكلية التجارة بجامعة فؤاد الأول، قبل وصول سيارة الإسعاف بدقائق .

صعدت مع فؤاد أبو حسين في سيارة الإسعاف التي انطلقت بنا وهي تطلق صفيرها المتقطع نحو مستشفى الدمرداش. هناك أُجريت لفؤاد عملية غسيل معدة أنقذته من الموت .

ورفضت إدارة المستشفى التصريح لفؤاد بالعودة إلى المنزل قبل أن يتم التحقيق في الحادث من قبل الشرطة في صباح اليوم التالي، وهكذا عدنا إلى الزيتون بعد أن تركنا فؤاداً في المستشفى .

وفي عصر اليوم التالي توجه الحسيني حمد لزيارة فؤاد الذي كان قد نقل إلى بيت خالته بعد خروجه من المستشفى، وعاد الحسيني من زيارته لفؤاد، ثم لم يلبث أن دلف إلى غرفتي ليعودني فقد كنت ما أزال أعاني من الحمى التي انتابقتني بالأمس .

سألت الحسيني عن أخبار فؤاد فتبسم ضاحكاً وهو يقول: هل تعلم السبب الذي دفع فؤاداً إلى محاولة الانتحار.

قلت: ومن أين لي أن أعرف؟... قل ما عندك .

قال: إنه يحب .

قلت: يحب ؟ وهل يدفع الوقوع في الحب إلى الانتحار؟

قال: إنه يحب ولكن بلا أمل .

قلت: ماذا تعني هل رفضته حبيبته .

قال: لا بل إنها لا تعرف شيئاً عن حبه لها، وقد فاز غيره بها على أي حال.

قلت: ما أراه إلا حبيباً مغفلاً، وهل نكر لك اسم من أحب .

قال: عرفت اسمها من شقيقه شفيق... ولكن ما لنا ولتصرف هذا الغبي؟! دعنا منه ولنخض في حديث آخر.

قلت: لن أدع الحديث عنه حتى تذكر لي اسم تلك التي حاول الانتحار من أجلها .

قال: أرجوك أن تعفيني من ذلك .

قلت: تأله لن أعفيك من ذلك أبداً .

قال: ما دمت مصرأ على ذلك فاعلم أن تلك الفتاة ما هي إلا خطيبتك .

نهضت من سريرتي كالملدوغ وقد تحولت رعشة الحمى إلى رعشة غضب وقلت: وهل يعني ذلك أنه كان بينهما علاقة يا رجل .

قال: هوّن عليك يا صديقي، فما كان بينهما شيء من ذلك، وإن خطيبتك لا تعرف من أمره شيئاً، وكل ما في الأمر أنه أحبها عندما رآها

مثلما أحببتها أنت، وقد كنت أنت أسبق إليها منه، فرأى أن يعاقب نفسه بالانتحار جزاءً له على سلبته واكتفائه من حبه بالنظرات والتمنيات .

لم يكن ما سمعته من الحسيني كافياً لإدخال الطمأنينة إلى نفسي، وقد ازدادت شكوكي عندما عادت بي الذاكرة إلى رؤية والدته فؤاد وهي تدلف إلى بيت أصهاري بالأمس، ولم يمض على خروج ولدها من المستشفى سوى بضع ساعات، ظننت في ذلك اليوم أنها قد جاءت مع شقيقتها لتهنئة والدته خطيبتي بخطبتها .

ولكي أتأكد من صحة شكوكي أو بطلانها توجهت في اليوم التالي لمقابلة العم كامل، وفي أثناء تناولنا الشاي سألته عن سبب زيارة أم فؤاد وشقيقتها لهم بعد خروجه من المستشفى بساعات قلئل، فقال مبتسماً: لا تزعج نفسك بهذا الأمر فقد عادت مثلما جاءت .

قلت: لم أفهم قصدك يا عم كامل .

قال: أعني أنها عادت بخفي حنين .

قلت: معنى ذلك أن زيارتها لم تكن بريئة .

قال: سوف أريحك أكثر... لقد جاءت مُحَرَّضَةً لنا على فسخ خطبتك لسيدة، لنتمكن من أن نخطبها لابنها فؤاد .

قلت وقد ساورني الندم على شهادتي تجاه فؤاد: وماذا كان ردكم عليها؟

قال: قلت لها باختصار إن ابنتنا ليست سلعة تباع في المزاد، وإنني لست من الذين يرجعون بوعد قطعوه على أنفسهم تحت أي ظرف أو إغراء. وأنه كان الأولى بها أن تذهب إليك لتشكر على مبادرتك لمساعدة ولدها في محنته، بدلاً من أن تأتي إلينا لتطعنك من الخلف .

قلت: بارك الله فيك يا عم كامل، وماذا كان ردها عليك .

قال: خجلت المرأة خجلاً شديداً فانطلقت وهي تقول: سامحك الله يا فؤاد... ما كنت آمل أن تضعني في مثل هذا الموقف .

عدت أدرجي إلى الشقة وفي نفسي ما فيها من السخط على فؤاد أمين أبو حسين .

كان من المستحيل على فؤاد أن يبقى في الشقة معنا بعد أن حدث ما حدث، حيث أرسل بعد خروجه بيومين من ينقل متاعه إلى غرفة أخرى استأجرها في بيت آخر لا نعرف عنوانه .
بعد انتقاله بأيام فوجئت بحضوره لزيارتي....
قابلته بفتور ظاهر، ولم تستطع ملامح وجهي أن تخفي دهشتي من جراته ووقاحته .

لم يخف عليه ذلك فبادرني قائلاً: أعرف أنك مندهش من جرأة هذا الإنسان الذي حاول أن يخطف منك محبوبتك ووقاحته، وأعرف أنك تتمنى لو كان في استطاعتك أن تلقي بي من هذه الشرفة- وأشار إلى شرفة غرفتنا- ولكن على الرغم من كل ذلك فلا بد من أن أوضح لك سبب مجيئي .
قلت: عجيب أمرك يا فؤاد، أما زال عندك ما نقوله .

قال: أجل... لا زال عندي ما ينبغي أن أقوله... لا يخفى عليك وأنت الشاعر المحب، أن الحب إحساس لا يمكن تجاهله، وأن الحب بلا أمل هو أصعب أنواع الحب على النفس الإنسانية، وقد شاعت الأقدار أن يكون حبي من هذا النوع... وقد أقدمت على ما أقدمت عليه في لحظة يأس، وقد ظننت أن الموت هو الوسيلة الوحيدة التي ستخلصني من أسر هذه التجربة القاسية.
قلت: ثم ماذا .

قال: كنت أتمنى وأنا أقرأ آيات القلق المرتسمة على وجهك ونحن في سيارة الإسعاف لو أن الله يعجل بي ليرحني من هذا الموقف العصيب .

قلت: إذا كان هذا هو إحساسك الصادق فيماذا تفسر العرض الذي عرضته والدتك على أنسبائي .

قال: ما هو إلا تصرف ذاتي يأتس من الوالدة سامحها الله، ولو كنت أعلم أنها ستقدم على ذلك ما بحث لها باسم الفتاة التي حاولت الانتحار من أجلها. وأقسم لك أنني لم أطلب منها أن تفعل ما فعلت . قلت: حسناً... عفا الله عما سلف، ولكن مشيئة الله .

قال: أجل لتكون مشيئة الله، والظاهر أن الله سبحانه وتعالى يبارك حيك، وأن سيدة ستكون من نصيبك إن شاء الله .

قلت: كل شيء مرهون بمشيئة مدبر هذا الكون، وأعلم يا فؤاد أنه ليس لي في الوقت الحاضر في هذه الحياة سوى أمينتين. الأولى: أن أخرج من كليتي، والثانية: أن تنتهي خطبتي لسيدة بالزواج . قال: حقق الله أمانيك... وأقسم لك أنني أقولها من أعماق قلبي.

مضت لحظات صمت أخرج بعدها فؤاد من جيبه مسدساً وضعه على المنضدة التي كنا نتحلق حولها وقال: انظر يا رجا... في هذا المسدس ست رصاصات... ثم تناول المسدس وأفرغ منه رصاصاته واستأنف حديثه قائلاً: أقسم بالله غير حائث أنني سأفرغ هذه الرصاصات كلها في رأسي، إذا سمعت يوماً أنك قد فسخت خطبتك من سيدة، وأرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أنه كان هناك أية علاقة بيني وبين خطيبتك في يوم من الأيام . قلت: لو كان في نفسي شيء من ذلك لما تقدمت لخطبتها. ولو كنت أعلم بحبك لها لأثرتك بها على نفسي .

قال: أعلم والله أنه لا تنقصك الشهامة ولا ينقصك الإيثار، أما وقد فات أوان مثل هذا الحديث فإنني أرجو أن تبرهن على صفاء سريرتك تجاهي بقبول دعوتي لتزورنا في شقتنا بعمارة الأوقاف في شبرا مساء يوم الجمعة القادم. قلت: أفعل إن شاء الله .

استأذن فؤاد في الانصراف بعد أن استحلقتني بقبول دعوته، فأكدت له أنني زائرته لا محالة .

لبيت الدعوة في الموعد المحدد، وتناولت طعام العشاء على مائدتهم، وقد أكرمتني أسرته إلى درجة أشعرتني بالحرج الشديد، وكانت أسرته تقيم في شقة بعمارة الأوقاف بشبرا . وكانت هذه الزيارة هي آخر عهدي بفؤاد .

وكل ما سمعته بعد ذلك من أخباره هو أنه قد تخرج من معهد المعلمين، وأنه قد عمل في سلك التدريس وأنه تزوج بعد زواجي بعام واحد، وأن زوجته قد انتقلت إلى رحمة الله في مطلع الثمانينيات بعد أن أنجبت له فتاتين .

وكانت أخباره هذه تصلنا عن طريق أفراد أسرة خالته التي لم تلبث أن توفيت هي وزوجها صابر أفندي، ولم يبق في شقتهم سوى نجلهم الموسيقار حسين وهو عازف كمان مشهور في فرقة أحمد فؤاد حسن . أما شقيق فؤاد الأكبر شفيق فقد تدرج في سلم التعليم بالجامعة حتى وصل إلى درجة أستاذ بعد حصوله على درجة الدكتوراه . وقد عمل بضع سنوات في كلية التجارة والاقتصاد بجامعة الكويت إبان الفترة التي قضيناها في الكويت . ولكن لم يقدر لي أن ألقاه .

بعد أن وصلني رد الوالد السلبي على رسالتي التي استأذنته فيها بالموافقة على خطبتي أثرت أن أتوقف عن مراسلته ومراسلة الوالدة فترة تجعلهما بحسان بخطئهما في عدم الموافقة .

واستمر انقطاع رسالتي عنهم مائة يوم أو تزيد . بعد هذه المدة وصلتني رسالة من الوالدين يستفسران فيها عن سبب انقطاع رسالتي عنهما، ويقولان إنه إن كانت معارضتهم لخطبتي هي سبب ذلك فإن المعارضة لا ينبغي أن تقف حجر عثرة في سبيل مراسلتهم، وإن كنت لا

أزال مصراً على رأيي فلأتقدم إلى خطبة الفتاة متوكلاً على الله... ولم يُخفِ
الوالد إحساسه بأنني ربما أكون قد فعلتها وتقدمت إلى خطبة الفتاة .

بعد ذلك أجبتهم برسالة اعترفتُ لهم فيها بأنني قد خطبت الفتاة، وقد
أسهبتُ لهم في وصف جمالها ومحاسنها ووصف الاحتفال بالخطبة، وطلبت
منهم في النهاية أن يباركوا خطوبتي وألا يحرموني من رضاهم، ولم أنس
كذلك أن أعطيهم فكرة كاملة عن أسرة خطيبتي .

وفي أول يونيو ١٩٥٢ وصلتني رسالة من الوالد يهنئني فيها
والعائلة بالخطبة، ويطلبون فيها بأن أبعث إليهم بصورة لخطيبتي ليتعرفوا
عليها من خلالها بعد أن سمعوا ما سمعوه من وصفي لجمالها وأثوثها
ففعلت .

وفي رد الوالدين على رسالتي ذكروا لي أنهم قد احتفلوا بدورهم
بخطبتي حيث أقاموا حفلاً راقصاً دعوا إليه الشقيقات والجيران .

وفي ١٩٥٢/١/١٥ وفي أعقاب أصبوحة شعرية أقيمت في الكلية
وشاركت فيها بقصيدة عنوانها "رسالة الشاعر" تعرفت على طالب سوري
يدعى "علي دمر"، وكان قد وفد إلى القاهرة للالتحاق بكلية اللغة العربية،
وكان شاعراً مجيداً، وقد توثقت الصلة بيني وبينه بسبب رباط الشاعرية
الذي جمع بين كل منا والآخر، وبسبب التوافق الكبير في المشارب
والهوايات والأفكار .

وفي أحد الأيام دعاني لتناول الغداء في منزله بسوق السلاح. وفي
الطريق إلى المنزل أعلمني بأنه متزوج من ابنة عم له، وحدثني عن يتمه
المبكر، وطفولته البائسة، وعن طفله أنس الذي لم يكمل العام الأول من
عمره بعد .

وقد قال لي فيما قال بأن علي دمر هو اسم الشهرة الذي يوقع به
أعماله الأدبية، أما اسمه الحقيقي فهو محمد عالي الحمراء دمر، وقد حدثته

بدوري عن حياتي الخاصة وحياة أسرتنا، وما مرت به من ظروف وتقلبات
قبل النكبة وبعدها .

لم تَمُضْ أسابيع قليلة حتى أصبح كل منا بالنسبة إلى صاحبه أشبه
ما يكون بكتاب مقروء .

أحببت علياً حباً صادقاً لم أحس بمثله تجاه أي صديق آخر من قبل،
وقد أحبني مثلما أحببته، ولم يعد أحداً قادراً على مفارقة الآخر، وصار كل
منا يطلق على صاحبه لقب "صديق العمر" .

كنت أرتاد برفقته الأمسيات الشعرية والندوات والمحاضرات التي
تقام في منندبات القاهرة الأدبية وروابطها وجامعاتها وجمعياتها .

والحقيقة أن صلتني بعلي دمر من أهم العوامل التي ساعدت على
تطور شاعريتي ونضوجها، كان كل منا بالنسبة للآخر مرآة صادقة يرى
فيها نفسه على حقيقتها .

ولم يكن علي ليكتفي بمجاملتي حين يستمع إلى ما أنظمه من
قصائد، بل كان ناقداً صريحاً لا يتردد في بيان ما يراه من مواطن الضعف
فيما أسمع، وقد أفادني ذلك إلى حد كبير حيث حفزتني ملاحظاته وانتقاداته
على تجويد شعري وعدم الاكتفاء بأسلوب عفو الخاطر الذي كنت أنتهجه
في النظم، وبمعنى آخر فقد علمني علي كيف أعتني بالصنعة الشعرية.
وعلى الرغم من أنه كان لا يزال في ريعان الشباب إلا أنه قد فاجأني
بإطلاعي على أول مجموعة شعرية صدرت له في حماء بعنوان "رعشات"
وكان قد أصدرها قبل التحاقه بالكلية، وتضم سبعاً وعشرين قصيدة، وقد
كتب لها مقدمة قصيرة الشاعر السوري الكبير المرحوم بدر الدين الحامد .

في بعض الأحيان كان يحلو لي أن أستاذج دراجة أطوفُ بها مدة
ساعة أو أكثر في أنحاء الزيتون والحلمية ومصر الجديدة وغيرها من
الأحياء المجاورة .

وفي يوم من الأيام التي كنت أمارس فيها هوايتي هذه، شاهدتني سعاد بدوي- جارتني القديمة- وأنا أرق كالسهم من أمام بيتها الذي كانت تطل من نافذة إحدى غرفه التي كنا نسكنها من قبل، فنادتني بأعلى صوتها قائلة: عَرِّجْ بدراجتك صوبنا أيها الهارب الجبان... أهلكذا تنتهي المعرفة بين الناس؟

لم يكن في استطاعتي تجاهل ندائها فضغطت على كايح الدراجة ودلفت إلى المنزل وألقيت التحية عليها في استحياء .
رحبت سعاد بي وهي تقول: أهلاً بالهَرَّاب، ما بالك تتطلق بدراجتك كالصاروخ؟! هل تخشى من رؤيتنا إلى هذا الحد؟!
قلت: معاذ الله يا سعاد، وما الذي يدعوني لذلك؟

قالت: هأنذا تعود إلى اللؤم والتغابي من جديد، أحقاً إنك لا تدري ما يدعوك إلى التهرب من رؤيتنا؟

قلت: الحق أنني لا أجد سبباً يدعوني إلى تحاشي رؤيتكم، فإن منزلتكم في قلوبنا مازالت على ما هي عليه من الاحترام والرفعة والتقدير.

قالت: مبروك الخطبة يا روميو.

قلت: أوقد بلغك أنني قد خطبت ؟

قالت: الدنيا صغيرة يا أستاذ رجا، هل تظن أنك بعيد عنا؟ وأن أخبارك لا تصل إلينا؟

قلت: صدقت... لكن قل لي بربك... من أبلغك بذلك ؟

قالت: صديقك صلاح حفني .

قلت: ويح هذا الثرثار الذي يشبه المذيع !

قالت: قل لي يا رجا... هل هي أجمل مني بكثير ؟

قلت متجاهلاً ما تعنيه: ومن تلك التي تقصدين ؟

قالت: خطيبتك يا أستاذ .

قلت: لكل فتاة جمالها الخاص يا سعاد، وإن جمال خطيبتي لا يعني أن غيرها ممن عرفت لسن جميلات .

قالت: وهل زالت جميع العقبات التي تقف في سبيل زواجك ؟!

قلت: عندما يحب الإنسان فإنه يتناسى كل شيء ولا يفكر إلا في الوصول إلى من أحب .

قالت: إذن فهو الحب يا جارنا القديم... على أي حال ألف مبروك... وأرجو أن تنتهي قصة حبك على خير ما تتمنى وتروم .

قلت: شكراً لك يا سعاد فما أنت تثبتين من جديد أنك ما زلت أختاً فاضلة لا تتمنى لأخيها إلا كل خير. قلت ذلك ثم استأذنتها في الانصراف وانطلقت بدراجتي لا ألوي على شيء .

كان صلاح حفني الذي أبلغ سعاداً نبياً خطبتي شاباً مصرياً لا يحمل من المؤهلات غير الشهادة الابتدائية، وكان يعمل كاتباً في مصلحة التلغونات. وكان على درجة من الوعي والثقافة، محباً للقراءة، وكان محدثاً لبقاً يستهوي من يستمع إليه وبخاصة إذا كان من الجنس الآخر، وكنت قد تعرفت إليه عندما كنا نتردد على دار الكتب بالزيتون، وبعد أن توثقت الصلة بيننا وبينه دعوته إلى زيارتنا ونحن في منزل السيدة أم محمود، وبعد ذلك أصبح يأتي لزيارتنا. وقد استمرت زيارته لنا حتى بعد انتقالنا إلى حارة عبد السيد بالزيتون .

وقد تعرف على سعاد وأهلها من خلال زيارته لنا وظل يتردد عليهم للزيارة بعد انتقالنا من منزلهم .

وكان واضحاً للجميع أن علاقة ود واستطاف قد بدأت تربط بين سعاد وصلاح .

لم أكن أدرك أن علاقة سعاد وصلاح قد تحولت إلى حب متبادل إلا بعد أن زارني صلاح ذات يوم وطلب مني أن أصحبه في نزهة قصيرة نذرع فيها بعض الشوارع ليستشيرني في أمر خاص .
انطلقنا من غرفتنا وسرنا في الاتجاه الجنوبي لشارع طومانباي، ثم انعطفنا إلى شارع العزيز بالله وتابعنا سيرنا في شارع سليم الأول في اتجاه حلمية الزيتون .

ولما بلغنا تقاطع شارع سليم مع شارع نصوح باشا اقترح عليّ صلاح أن نستريح قليلاً في محطة الزيتون، فوافقته على ذلك.

عبر الطريق الذي قطعته برفقة صلاح تحدثنا حول مصر التي كانت تموج بالأحداث، ورحنا نتنبأ بما يمكن أن يحدث في تلك الأيام الحافلة بالقلقل والاضطرابات. بعد أن جلسنا في محطة الزيتون قلت لصلاح: ما بالك لم تحدثني حتى الآن فيما أخرجتني من أجله، ولا أعتقد أنك فعلت ذلك من أجل أن نتحدث في السياسة .

تبسم صلاح ضاحكاً ثم قال: صدقت... ولكنني في الحقيقة لا أدري كيف أبدأ.

قلت: عجباً... هل من المعقول أن صلاح حفني المحدث اللبق لا يعرف كيف يبدأ الحديث في شأن يخصه؟! قال وهو يتبسم ابتسامة مفتعلة: ولكن أبرع الخطباء قد يرتج عليهم في بعض الأحيان فلا يعرفون كيف يبدؤون .
قلت: هذا صحيح... ولكي أسهل عليك ذلك دعني أذكرك بأن الخط المستقيم هو أقصر طريق يوصل إلى الهدف. فلماذا لا تدخل في الموضوع الذي تريده مباشرة .

قال: صدقت ورب الكعبة... وما دام الأمر كذلك فإنني أسألك: ما هو رأيك في سعاد .

قلت: هل تعني سعاد بدوي؟

قال: وهل نعرف نحن الاثنين سعاداً أخرى؟!

قلت: من أي زاوية تسألني عنها؟

قال: من جميع الزوايا .

قلت: أما بالنسبة لسعاد وجميع أفراد أسرته من حيث الوضع الاجتماعي فإنك تعرف من أمرهم ما أعرف. وأما إذا كنت تسألني عن رأيي فيها شخصياً فاعلم بأن سعاد فتاة طيبة، لم أرَ منها طوال الأعوام التي جاورتها فيها ما يشين .

قال: سمعت أنه قد كان بينك وبينها علاقة .

قلت وقد تعمدت إزعاجه: أجل لقد كانت بيننا علاقة وقد دامت أربع سنوات.

قال: هل يمكنك أن تحدد لي نوعية هذه العلاقة .

قلت ضاحكاً وأنا أضرب بيدي على فخذه: علاقة الجيرة أيها الرجل... أم أنك لا تعتبر الجيرة علاقة من العلاقات العظيمة .

قال: بلى إنها لكنك... ولكن ألم يكن بينكما علاقة حب؟

قلت: لو كان بيننا شيء من ذلك لما انتقلت من منزلها، ولما أقدمت على خطبة فتاة أخرى بعد شهر من انتقالي إلى المنزل الجديد .

قال: أحقاً ما تقول؟

قلت: لا تجعلني أتهمك في ذكائك يا رجل.

قال: ما أراك إلا صادقاً... ولست أدري كيف فاتني أن أدرك ذلك بنفسي .

قلت: أنا لا ألومك على ذلك فما سؤالك هذا إلا من أجل أن تمحو ما قد علق في نفسك من شكوك وحسناً فعلت .

قال: عظيم، والله إنك لتدرك من أمور النفس الإنسانية مثلما تدرك من أمور اللغة العربية .

قلت: هل تحبها يا صلاح...؟

قال: يعني ...

قلت: هل تنوي الزواج منها ؟

قال: هذا ما أفكر فيه .

قلت: لن تندم إن شاء الله فسعاد كما قلت لك طيبة وبنت حلال .

ودعني صلاح الذي لم يلبث أن تقدم إلى خطبة سعاد . ولم تطل فترة الخطبة بينهما حيث تزوجا بعد الخطبة بأشهر قليلة، ولم يمض على زواجهما عام واحد حتى رزقا بابنهما الأول عادل . وبدأت الخلافات تدب بين الزوجين، فقد كان لصلاح تطلعات تفوق إمكاناته المادية... كان يشرب الخمر.. وقد حاولت سعاد أن تقعه بالعدول عن ذلك ولكنها فشلت في إقناعه... احتفظ صلاح بعلاقاته المتشعبة مع أصدقائه، وكان كلما أصر على ذلك اتسع الخلاف بينه وبين زوجته أكثر وأكثر .

كانت سعاد زوجة مخلصه وفيه، أما صلاح فقد كان له رأي غريب في الوفاء... كان يعتقد أن الوفاء صفة خاصة بالزوجة... أما الزوج فليس ملزماً بهذه الصفة تجاه زوجته .

في كثير من الأحيان كانت سعاد تأتي إلى شقتي لتسكوا لي تصرفات زوجها صلاح. وكنت أحرص على مقابلتها في صالون منزل الحاجة زينب بدلاً من غرفتي منعاً للقليل والقال ودرءاً للشبهات، وعلى الرغم من ذلك فإنني لم أكن أسلم من تعليقات الشباب الذين كانوا يقاسمونني السكن في الشقة . وكانت تعليقاتهم تلك سخيفة ومبطنّة .

كنت أقوم بإصلاح ذات البين بين الزوجين ولا أتركهما حتى يعودا إلى التصافي من جديد، ثم لا تلبث الخلافات أن تذر بقرنها بين الاثنين، وهكذا دواليك .

لقد كانت سعاد تعتبرني أختاً فعلياً لها، كما كان صلاح يعدني من أصدقائه المقربين الذين لهم الحق في التدخل بحياته الشخصية وحياة أسرته الصغيرة التي ظلت تعصف بها الأعاصير .

في عام ١٩٥٨ سافر صلاح وأسرته للعمل في وزارة الشؤون الاجتماعية في الكويت بعد أن توسّطت له المطربة المعروفة مها صبري.

واستمرت الخلافات بين الزوجين، وذهبت محاولات سعاد في إصلاح سلوك زوجها أدراج الرياح. وأصبح استمرار العلاقة بين الزوجين مستحيلاً، وكان الطلاق هو النهاية المأساوية الحتمية لهذه العلاقة.

وعادت سعاد وأبناؤها عادل وعاطف وعلاء وعصام وعزة إلى القاهرة، وبقي صلاح الذي لم يلبث أن تزوج من إحدى مدرسات الموسيقى في الكويت.

ولم يكن صلاح منظماً في إرسال ما يحتاجه أبناؤه من نفقات الأمر الذي اضطر سعاداً إلى أن تعود إلى الكويت لتحصل على حق أبنائها في النفقة عن طريق القضاء.

وصلت سعاد إلى الكويت عام ١٩٦٨ بعد وصولنا إليها بقليل، ولم تجد غيرنا أحداً - على كثرة ما تعرف من العائلات المصرية هناك - للإقامة في ضيافته حتى تحصل على بغيتها.

أقامت سعاد في ضيافتنا قرابة شهر عادت بعده إلى القاهرة بعد أن أعطتني توكيلاً رسمياً بتسليم النفقة وإرسالها إليها كل شهر.

وهكذا كنت أبادر بانتظام في إرسال مخصصات أبنائها في موعدها المحدد دون أي تأخير.

وفي عام ١٩٧٠ انتقل صلاح حفني إلى رحمة الله وقمت بمساعدة المديعة السيدة ناعسة الجندي بتسليم نصيب أبنائه من مكافأة نهاية الخدمة وما جمعه زملاؤه لأسرته من تبرعات وأرسلتها دفعة واحدة باسم سعاد إلى القاهرة.

وقد استثمرت سعاد المبلغ في شراء سيارة أجرة - تكسي - لتكون مصدر رزق معقول للعائلة.

وفي عام ١٩٧١ تزوجت سعاد من ضابط في الجيش برتبة ملازم أول يصغرها في السن، وأنجبت منه بنتاً واحدة تدعى نادية. وكان هذا الضابط على درجة كبيرة من الخلق والورع والتقوى. واستمرت علاقتنا الأخوية بسعاد التي كنا نحرص على زيارتها في بيتها الجديد في كل مرة نقوم فيها بزيارة مصر. وفي عام ٢٠٠٠ انتقلت سعاد إلى جوار ربها بعد صراع مرير مع مرض السكري رحمها الله.

بعد تجربتي الفاشلة مع جماعة أنصار السلام عام ١٩٥١ لم يلبث تيار الإخوان المسلمين أن جرفني وجرف معي أخي غالب مع من جرف من الطلاب الذين كان ينشط دعاء تنظيم الإخوان في استقطابهم وضمهم إلى الجماعة.

كان تيار الإخوان المسلمين في الأوساط الطلابية قوياً عارماً لا يمكن مقاومته، وكان في الموقف النبيل الذي وقفته الجماعة من قضية فلسطين، وفي البلاء الحسن الذي أبلاه مجاهدوها في ساحة القتال، وفي التضحيات التي قدمها العديد من شهداء الجماعة... كان في ذلك كله ما يحفز أي شاب فلسطيني على الانخراط في صفوفها بعد أن برهنت على أن ممارساتها في الساحة مطابقة لما تتادي به من شعارات.

وقد كان في اغتيال المرحوم الشهيد حسن البنا ما يؤكد مخاوف النظام الملكي في مصر من هذه الجماعة التي كانت جميع المؤشرات تشير إلى أنها لن تثبت أن تسحب البساط من تحت أقدام أركان ذلك النظام.

وقد اكتسبت هذه الجماعة مزيداً من احترام وتعاطف الشعب المصري بعد أن لقي ما لقي زعمائها وشبابها من اضطهاد وتعذيب في عهد حكومة إبراهيم عبد الهادي باشا السعدية بعد اغتيال سلفه محمود فهمي النقراشي باشا.

كانت هذه الأسباب ترشح تلك الجماعة لتكون الجماعة السياسية الأولى التي ينبغي أن يتعاون معها بل وينضوي تحت لوائها كل شاب فلسطيني يحلم بتحرير بلاده من اليهود.

وانطلاقاً من هذه القناعة انخرطت وأخي غالب في صفوف جماعة الإخوان المسلمين، وأصبحنا عضوين في إحدى خلاياها بعد عودة الأسرة إلى القدس بقليل.

استمر انتمائي لهذه الجماعة مدة تقرب من عامين، ثم حدث بعد ذلك ما جعلني أنسلخ عنها إلى غير رجعة. وتفصيل ذلك فيما يلي :

في الثامن عشر من تموز - يوليو - سنة ١٩٥٢ أعلن الإخوان المسلمون عن إقامة ندوة في شعبة الجماعة بالزيتون، وكان عنوان تلك الندوة هو "في سبيل نهضة إسلامية بأي شيء نبدأ" وقد تحدث ثلاثة من قيادي الجماعة بمنطقة الزيتون في هذا الموضوع وأفاضوا فيه.

وبعد أن فرغ المتحدثون الرئيسون في الندوة من كلماتهم التي أبدى كل متحدث منهم فيها وجهة نظره فُتِحَ باب المناقشة لجمهور الحاضرين.

استأذنت بالتعليق على ما سمعت، فأذن لي بالحديث، وأمسكت بمكبر الصوت وقلت بالحرف الواحد: "إنني أرى أنه لا سبيل إلى قيام أية نهضة في الوقت الحاضر، سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية إلا بقيام انقلاب عسكري يدمر هذه الأوضاع القائمة، ويقلبها رأساً على عقب، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وإن طريق تربية الفرد المسلم، الذي يحكم استراتيجية جماعة الإخوان المسلمين، والذي يرون أنه سيوصلهم إلى إيجاد مجتمع يقيم نهضة إسلامية، أو دولة إسلامية لطريق طويل... فإلى متى ننتظر أيها الإخوان!"

أخذت تعليقي هذا ضجة كبيرة في جمهور المستمعين الذين كانت تَغصُّ به القاعة، وتعالَت أصوات التأييد والاستحسان لرأيي مما حدا بعريف الحفل إلى أن يتناول مكبر الصوت من يدي ليعلن قائلاً: "إن رأي الأخ رجا

هذا رأي شخصي، وهو لا يعبر بالضرورة عن رأي جماعة الإخوان المسلمين".

أغاضني ذلك كثيراً، وأوصلني إلى قمة الانفعال، فاخترتُ المكبر من يده وقلت في حدة ظاهرة: "أما وقد برئتم مني فأني أبرأ منكم كما تبرؤن". ثم انسحبت من الندوة غاضباً وغادرتُ القاعة لا ألوي على شيء.

بعد خمسة أيام فقط من انعقاد هذه الندوة قام الجيش المصري بانقلابه المعروف بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة اللواء محمد نجيب. وفي السادس والعشرين من يوليو أرغم الملك فاروق على التنازل عن العرش ومغادرة البلاد.

بعد قيام تلك الثورة البيضاء كان كل عضو من جماعة الإخوان يقابلني مصادفة في الشارع أو بعد أداء صلاة الجمعة في جامع الجش بالزيتون يقبل علي مهنئاً وهو يشدُّ على يدي قائلاً: "حقَّ الله نبوءتك يا أخ رجا" وكنت أعلق على ذلك قائلاً: "عجيب أمركم أيها الإخوان... في الندوة تبرأتم مني بسبب جرأتي في قول الحق واليوم تهنئونني لأن الله حقق ما تمنيته ولا أقول ما تنبأت به فما أنا من المتنبئين".

وعندما قابلت المسؤول عن شعبة الزيتون بعد قيام الثورة بأيام برر تصرف عريف الندوة بقوله: "لقد كنت متهوراً يا أخ رجا إلى أقصى حدود التهور... وكان ينبغي أن تدرك أن جمهور الندوة لا يخلو من رجال المباحث ورجال البوليس السياسي... وأحمد الله الذي نجاك من الاعتقال". قلت: "لا أنكر أنني قد تهورت ولكني رأيت في تلك اللحظة أنه لا بد من قول ما يمليه علي ضميري وإسلامي".

حاولت الجماعة بعد ذلك إعدادتي إلى صفوفها ولكني أصررت على تجميد نشاطي فيها ومقاطعة أي نشاط تقوم به. ونتيجة لذلك أصدرت الجماعة أمراً لشبابها في منطقة الزيتون بمقاطعتي. وكنت أظن أن القطيعة

بيني وبين هذه الجماعة ستقف عند هذا الحد، ولكن تبين لي فيما بعد خطأ هذا الظن. فقد لاحقني الجماعة بعدائها غير المبرر بعد تخرجي في الكلية وعودتي إلى الأردن مما سبب لي كثيراً من المتاعب والمشكلات التي جعلتني واحداً من المشبوهين لدى جهاز المخابرات الأردني. وسأحدث عن ذلك في المكان المناسب من هذه المذكرات بالتفصيل.

بعد انتقالني إلى السنة الثانية في الكلية في صيف ١٩٥٢ بدأت وأخي في البحث عن عمل خلال العطلة الصيفية، وكان غالب بدوره قد انتقل إلى آخر صف في المرحلة الثانوية.

وقد استطاع غالب أن يحصل على عمل في أحد معسكرات الجيش البريطاني في فايد، وقد لحقت به مع إسماعيل بدوي شقيق سعاد بعد تسلمه عمله بأسبوعين. وقد أقمت وإسماعيل خمسة أيام في فندق الوادي بالحي الإفرنجي بالإسماعيلية. وفي ١٦/٨/١٩٥٢ حصلت على عمل في معسكر للجيش البريطاني قريب من المعسكر الذي كان يعمل فيه غالب براتب قدره أحد عشر جنيهًا لا غير.

لم نبق في هذا العمل سوى شهرين عدنا بعدها إلى الدراسة التي ابتدأت في ١٦/١٠/٥٢ في جميع المدارس والجامعات.

بعد عودتي من منطقة القناة بيومين فوجئت بظهور نقطة بيضاء في أسفل السواد بعيني اليمنى شبيهة بتلك التي كانت قد ظهرت في أختها اليسرى قبل ثلاث أعوام.

هرعت إلى الدكتور حلمي الدويري فطمأنني بأنه لا ضرورة لإجراء عملية جراحية في عيني، فقد ظهر عقار يؤدي استعماله إلى الشفاء دون الحاجة إلى الجراحة. بدأت استخدم ذلك العقار، وما هي إلا أيام معدودة حتى من الله علي بالشفاء.

وبعد شفاء عيني بقليل، تعاقدت من جديد للعمل في دار العلوم الليلية التي يملكها الأستاذ زكي الأخطاوي مقابل خمس جنيهات في الشهر. وقد استمر عملي فيها حتى نهاية عام ١٩٥٣ . وفي اليوم الأول من يناير عام ١٩٥٣ دُعيتُ لحفل زفاف الشيخ عزت عبد الغني دراز على الأنسة فوزية مصطفى موسى حبيبتي السابقة .

في يونيو ١٩٥٢ أُمْتُ بنا أزمة مالية حادة جعلتنا نحس بأن تخصيص جنيهين أجرة للسكن أمر لا مبرر له . وقد زارنا في تلك الأثناء أحمد صالحية الذي أشار علينا بالانتقال إلى مساكن طلاب الأزهر المجانية، فرأينا في ذلك حلاً لأزمئتنا الخائفة على الرغم من أنه حل مؤلم بالنسبة لي لأنه سيحرمني من جوار خطيبتي ورؤيتها يومياً . استأجرنا عربة كارو ونقلنا أمتعتنا إلى مساكن الطلاب المجانية في حي الأزهر .

أقمنا في غرفة أحمد صالحية التي كان يشاركه السكن فيها كل من فايز الحزينة وسالم الدباغ ثلاثة أيام، لم نلبث أن انتقلنا بعدها إلى غرفة أخرى يقطنها حسن لبد من المجلد - وهو أحد زملائي في الكلية - وقد رحب حسن بنا أجمل ترحيب، ولكن إقامتنا عنده لم تطل أكثر من اثني عشر يوماً عدنا بعدها إلى الزيتون بعد أن أدركنا استحالة تأقلمنا مع الجو الذي كان يسود سكن الطلاب المجاني المشترك .

وفي منزل السيدة كفاية في حارة محمد حنفي بالزيتون استأجرت غرفة صغيرة . ولم يكن يفصل بيني وبين منزل خطيبتي أكثر من ثلاثمائة متر . وبعد ستة أشهر انتقلنا من هذا المنزل إلى غرفة أخرى على سطح أول منزل في الحارة نفسها مما قرب المسافة بيني وبين منزل خطيبتي أكثر . وكانت صاحبة المنزل امرأة قوية الشكيمة تدعى أم حُسَّة .

كانت الغرفة واحدة من غرفتين متلاصقتين فوق سطح الطابق الأرضي من ذلك المنزل . وكان أمامها حمام مستقل، وسطح متسع يمكنني من رؤية منزل أصهاري بوضوح تام .

وكانت الأسرة التي تملك المنزل تتألف من أم حسنة وزوجها وولدها جمعة وبناتها الأربع: فاطمة وحسنة وسيدة وصباح. وقد اقترحت على صديقي علي دمر أن يترك سكنه غير الملائم في سوق السلاح وأن ينتقل إلى جوارنا في الزيتون، فوافق على ذلك واستأجر الغرفة الأخرى الملاصقة لغرفتنا .

وكان علي الذي كانت حالته المالية أشبه ما تكون بحالتنا قد خشي أن يفتح عليه انتقاله من سوق السلاح باباً جديداً لنفقات إضافية تتعلق بالمواصلات، ولكنني هونت عليه الأمر وبينتُ له أن التكلفة التي يدفعها الطالب مقابل الاشتراك في الدرجة الثالثة بالقطار من محطة المرج إلى كوبري الليمون لا تزيد عن ثلاثة وخمسين قرشاً كل ثلاثة أشهر . وأن أجرة الترام من باب الحديد حتى ميدان الأزهر لا تزيد عن ستة عشر مليماً لا غير، وأنه يمكن توفير أجرة الترام إذا قطعنا المسافة مشياً على الأقدام . لما علم علي دمر بذلك وافق على الانتقال إلى الزيتون. وقد سرُّ كثيراً بعد أن استقر هو وأسرته الصغيرة في غرفتهم وقال معلقاً على ذلك: لكننا خرجنا من قبر مظلم إلى وجه الأرض المفعم بالضياء .

ومنذ أول إبريل ١٩٥٣ بدأت وعلي دمر الاستعداد لامتحانات السنة الثانية .

وفي ١٨/٦/١٩٥٣ أعلن مجلس قيادة الثورة في مصر إلغاء النظام الملكي وإحلال النظام الجمهوري محله. وقد انتخب المجلس اللواء محمد نجيب رئيساً مؤقتاً للجمهورية . وفي الثالث من يوليو فرغنا من تقديم امتحانات السنة الثانية .

وفي الخامس عشر منه ظهرت نتيجة امتحان شهادة التوجيهية في مصر، وكان أخي غالب من الناجحين المبرزين في القسم الأدبي. وفي الأول من أغسطس من العام نفسه ظهرت نتائج الامتحانات في كلية اللغة العربية، وقد نجحت فيها كما نجح الصديق علي دمر وانتقلت وإياه إلى السنة الثالثة والحمد لله .

كانت أم حسنة امرأة على جانب كبير من الشراسة وسوء الخلق وسلطة اللسان . ولم يكن يمضي يوم دون أن تشتبك فيه مع إحدى الجارات . وكان زوجها كأمثاله من أزواج هذه النوعية من النساء، لا حول له ولا طول .

وكان ولده جمعة شاباً ضائعاً لم يحصن نفسه بعلم أو حرفة، ولم يكن له هم سوى إزعاج أهل الحي بصوت دراجته النارية التي يذرع بها شوارع المنطقة جيئةً وذهاباً .

أما بناته فقد كانت فاطمة وهي أكبرهن امرأة مطلقة انضمت إلى أسرتها بعد طلاقها ومعها طفلة في العام الأول من عمرها هي ثمرة زواجها القصير الفاشل .

وأما حسنة فكانت طالبة في معهد الممرضات لا يردعها عن التحرش بأي شاب خلُق أو دين . وكانت عندما تراني جالساً أمام غرفتي على السطح وأنا أقرأ استعداداً للامتحانات تتسلل في خفة على أطراف أصابع قدميها الحافيتين، ثم تطوقني بذراعيها فجأة وتقبلني غير عابئة بالأعين التي تراقبنا من نوافذ وسطوح البيوت المجاورة . وعندما كانت تفعل ذلك كنتُ أنهض فزعاً كالملدوغ لهول المفاجأة وأدخل بسرعة إلى غرفتي وأنا أدعو الله ألا يكون أحد قد رآها وهي تفعل فعلتها الشائنة تلك. وكانت تفعل مثل ذلك مع علي دمر وغالب .

وأما سيدة وصباح فكانتا صغيرتين نسبياً . الأولى في الرابعة عشرة والثانية في العاشرة، وكانت تباشير نظراتهما وحركاتهما تشير إلى أنهما لن تكونا أحسن حالاً من شقيقتيهما حسنة في المستقبل .

سألت الخبيثة حسنة ذات يوم: لماذا تفعلين ذلك معي؟ فأجابتنني بكل خبث: أفعل ذلك لسببين: الأول: لأنك تتظاهر بالطهارة والاتزان. والثاني: كي ترانا خطيبتك ونحن على هذا الحال فيدخل في روعها ما يدخل من الريبة والشك فلا تجد أمامها سوى أن تلقي بدبلة الخطوبة في وجهك .

قلت غاضباً: يا بنت الكلب إنك لشيطان رجيم في ثياب فتاة .

قالت وهي تبسم ابتسامة عاهرة: وهل زعمت لك يوماً بأنني ملاك؟!

في الحقيقة إن والدته خطيبتي لم تخف استيائها من إقدامي على السكن في بيت أم حسنة، لأن سوء سمعة المرأة وعائلتها لم تكن بخافية على أهل الحي. ولم يهدأ روع حماتي إلا بعد أن وعدتها بالانتقال من هذا البيت في أقرب فرصة ممكنة .

زارني الصديق الحسيني حمد عيسى ذات يوم وبشرني بأن غرفة في شقتنا القديمة بمنزل الحاجة زينب يوسف الشيمي قد خلت، فأسرعت إلى الحاجة زينب وأعربت لها عن رغبتني في العودة إلى الشقة فرحبت بي قائلة: بيتك ومطرحك يا أستاذ رجا .

شكرتها كثيراً وسارعت بنقل أمتعتنا إلى مقرنا القديم الجديد . ولم يهدأ لي بال حتى استأجرنا غرفة لعلي دمر في شقة تقع في الطابق الأرضي بالمنزل المقابل لمنزل الحاجة زينب يملكه رجل مسيحي يدعى إبراهيم سعد.

بعد ثلاثين عاماً من مغادرتنا لبيت أم حسنة سألت عن أخبار هذه العائلة فعلمت أنها انتهت إلى شر حال . مات الرجل قبل زوجته، ولحقت به أم حسنة بعد أن أقعدها الشلل مدة طويلة، ومات ولدهما جمعة منتحراً بإشعال النار في نفسه . وانتهى الأمر بحسنة إلى احتراف البغاء، ولما

أدركها الكبر ولم يعد فيها مطعم للفاسقين أخذت تسأل الناس إلحافاً لتحصل على ما تتبّلج به . أما أختها الصغرى صباح فقد أصبحت راقصة محترفة في أحد النوادي الليلية بشارع الهرم . ولم ينج من هذا المصير المؤلم غير فاطمة وسيدة اللتين تزوجتا بعيداً عن منطقة الزيتون ولم يعد أحد من أهل الحي يعرف عنهما أي شيء .

في ١٩٥٣/٨/٢٩ زارنا الصديق محمود أحمد أسعد - من دير ياسين- وبرفقته شاب إنجليزي قدمه لي على أنه مستشرق شاب يدعى "إيان كيل" وأنه قد جاء في بعثة إلى القاهرة ليتعلم اللهجة المصرية العامية من منبعها الأصلي، كما قدمني محمود إلى ذلك الشاب على أنني شاعر عربي من فلسطين. وقد أظهر ذلك المستشرق اهتماماً خاصاً بالاستماع إلى نماذج من شعري فأسمعته بعض القصائد في موضوعات مختلفة، وكنت أترجم له بقدر ما أستطيع ما يغمض عليه من معاني بعض الأبيات .

سعد إيان كيل بذلك كثيراً وأبدى رغبته في زيارة الريف المصري، فوعدته بتحقيق رغبته .

كان الصديق الحسيني حمد عيسى حاضراً هذا اللقاء وكان فتى ريفياً من قرية عرب جهينة ولكنه مقيم مع أسرته في قرية عرب الصوالحة. وتقع القربتان بالقرب من شبين القناطر إلى الشمال من القاهرة .

لم يتردد الحسيني وهو الفتى الأكعي الكريم عن أن يدعونا مع إيان كيل لقضاء بضعة أيام في ضيافة أهله في عرب الصوالحة . وكان قد سبق أن دعاني وأخي غالباً إلى زيارتهم عدة مرات حيث قضينا في ضيافته وضيافة أهله أسعد الأوقات .

كان والده رجلاً مضيافاً كريماً وكانت والدته سيدة فاضلة تعُدُّنا إخوة لولديها الحسيني وسيد . وكان ابنهما الأكبر الأستاذ محمد ناظراً لمدرسة عرب الصوالحة الابتدائية .

توجهنا إلى عرب الصوالحة في ١٩٥٣/٩/٤ وبرفقنا إيان كيل ومحمود أحمد أسعد وقضينا في ضيافة الحاج حمد عيسى ثلاثة أيام لقينا فيها من ألوان الكرم العربي الأصيل ما لا ينسى . ولم يكن ذلك غريباً منهم فقد عودنا على ذلك في كل مرة كنا نزورهم فيها . وكان الجديد في هذه الزيارة هو أننا سجلنا بعض وقائعها في صور تذكارية خلّتها... ولا زلت أحتفظ بهذه الصور في واحد من ألبومات الصور الثلاثين التي لدي .

في ١٩٥٣/٩/١٤ بدأ الشقيق غالب يستعد للعودة إلى فلسطين، فقد كانت معاناتنا من ضيق ذات اليد لا تخفى على كلينا. وكان من الصعوبة بمكان أن يلتحق غالب بالجامعة وأنا مازلت في السنة الثالثة بالكلية . وكنا قد ناقشنا الموضوع معاً ووضعنا في حسابنا شدة حاجة الوالدين في فلسطين إلى وجود أحدهما ليعمل على انتشال الأسرة من معاناتها المالية التي نكابدها منذ عودة الأسرة إلى القدس. كان من الصعب إقناع غالب بالعودة، ولكنه كان المرشح الأقوى لذلك بعد أن أصبح لديه مؤهل يمكنه من الحصول على وظيفة . أما أنا فقد كانت عودتي قبل أن أفرغ من دراستي بالكلية ضرباً من الجنون .

وقد وعدت غالباً، بأننا سنعينه إلى القاهرة ليكمل تعليمه الجامعي بعد تخرجي إن شاء الله وحلولي محله في الإنفاق على العائلة .

قلت إنه لم يكن من السهل إقناع غالب بالعودة إلى فلسطين، ولكن المشاحنات التي كانت تحدث بيني وبينه يومياً، وما أصابني من اضطراب عصبي كان يخرجني في بعض الأحيان عن طوري، وما عانينا من ضائقة مالية بعد أن توقف الوالد عن إمدادنا بأي مبلغ بسبب تعطله عن العمل...

كل ذلك أرغم غالباً على القبول بتنفيذ هذه الخطة التي اتفقنا عليها وهو لها
كاره ورافض .

ولكي نضع هذه الخطة موضع التنفيذ استخرجنا لغالب بطاقة مرور
من وزارة الداخلية المصرية تمكنه من العودة إلى فلسطين، إذ لم يكن لديه
جواز يثبت شخصيته، لأنه كان قد دخل مصر عام ١٩٤٦ وهو طفل ملحق
بجواز والدته . والحصول على الجنسية الأردنية يتطلب وقتاً طويلاً، وبدون
الحصول عليها لا يستطيع غالب أن يحصل على جواز سفر أردني .

في ١٩٥٣/٩/٢٩ تسلم غالب بطاقة المرور وفي اليوم التالي
حصل على تأشيرة دخول من السفارة الأردنية، وفي اليوم نفسه وصلت
تذكرة الطائرة التي بعث بها الوالد إلى غالب ليعود بها على أقرب طائرة
متجهة إلى القدس .

وفي ١٩٥٣/١٠/١٥ سافر غالب بيمين الله ورعايته إلى فلسطين
بعد أن أمضى في مصر ستة أعوام وشهرين وأربعة عشر يوماً متواصلة.
وقد شعرت بعد سفره بفراغ كبير إذ لم يكن قد تعود أي منا على أن يعيش
دون أخيه .

في ١٩٥٣/١٠/٢٥ تسلمت أول رسالة من غالب بعد عودته إلى
القدس يبينني فيها بوصوله سالماً ويصف مظاهر الغبطة والابتهاج التي
غمرت الأسرة بعودته .

وقد أجبتُه برسالة مهنئاً بسلامة العودة وداعياً له بالتوفيق والفلاح
في حياته العملية التي تنتظره .

بدأت الدراسة في كلية اللغة في ١٩٥٣/١٠/٣١م حيث أصبحت في
هذا العام طالباً في السنة الثالثة بالكلية .

لم أكن أفارق علي دمر، ولم يكن علي يفارقتي . وقد زاد التصاقني
به بعد سفر الشقيق غالب . كنا نتوجه إلى الكلية ونعود منها سوياً، وكنا

نقوم بالذاكرة في غرفتي سوية وكنا نرتاد الندوات والمحاضرات
والأمسيات الشعرية سوية أيضاً .

كانت الساعات التي كنا نقضيها معا من أسعد الساعات في
حياتنا... ولم تكن هذه الساعات خاوية ضائعة، بل كانت مفعمة بالمناقشات
الأدبية والعلمية والمطارحات الشعرية وإجازة بعض الأبيات التي يرتجلها
كل منا عفو الخاطر في مختلف الموضوعات التي تولدها الأحداث العابرة
والملاحظات السريعة .

لست أدري كيف كان يمكن أن تمر الأيام لو لم يسق الله كلاً منا في
طريق الآخر، غير أن الذي أدريه هو أن الصلة التي تربطني بعلي قد
ساعدت كلياً إلى حد كبير في السير على طريق حياتنا بنجاح .

كنا نتذكر ما لقينا في حياتنا من شطف العيش، وما حرماننا من
ألوان النعيم التي يستمتع بها الآلاف من أترابنا فيشد ذلك عزمنا، ويحفزنا
إلى بذل المزيد من الجد والاجتهاد، ويدفعنا إلى الإقبال بنهم على منابع العلم
والمعرفة لنحقق لأنفسنا ولمن ستكون مسؤولين عنهم حياة أفضل .

قَبِيل سفر غالب بقليل سافر صديق من الذين كان لهم منزلة خاصة
في نفسي، وهو الصديق العراقي سالم الدباغ بعد أن تخرج في كلية الشريعة
وحصل على شهادتها العالية . وقد حمل سالم معه عدداً من قصائدي
لينشرها في صحف الموصل مسقط رأسه . وقد ير سالم بوعده فنشر ما
أخذه من قصائد في جريدة "فتى العرب" وأرسل إلي بنسخ من تلك الجريدة .

ومن القصائد التي نشرها قصيدة "سوف نعود" وقصيدة "الحرب في
أيامنا" وقصيدة "رسالة الشاعر" وقصيدة "خيام اللاجئين" وقد نُشِرتْ هذه
القصيدة أيضاً في مجلة "البعثة الكويتية" الشهرية في ٥٤/٢/٧ وفي
٥٤/١/١١ نُشِرتْ لي أول قصيدة في صحيفة أردنية هي صحيفة "الجهاد"
التي كانت تصدر في القدس أما القصيدة التي نشرتها فهي قصيدة "قصة
حمراء" .

من خلال وجودنا في الكلية وارتدادنا للروابط الأدبية والمننديات الشعرية عرفتُ وعلي عددًا كبيراً من الأدباء والشعراء الذين كانت تموج بهم الساحة الأدبية آنذاك، وتوثقت الصلة بيننا وبينهم وبدأنا نشارك في الأمسيات الشعرية التي يشاركون فيها .

وكان في مقدمة الذين عرفناهم الشيخ أحمد الشرباصي الرائد الديني لجمعية الشباب المسلمين في القاهرة . وكان هذا الرجل محباً لكلية اللغة العربية التي تخرج فيها ومحباً لشبابها لدرجة تقرب من التعصب . وكان لا يأتي ذكر كلية اللغة العربية على لسانه في خطبه وأحاديثه وتعليقاته إلا أتبع ذكرها بقوله: "حرسها الله معقلاً للغة العربية وآدابها" وقد أصبح الشيخ الشرباصي أستاذاً في الكلية التي عشقها بعد حصوله على درجة الدكتوراه فيما بعد .

وإلى الأستاذ الشرباصي يرجع فضل تقديمي وتقديم علي دمر وغيرنا من شعراء طلاب كلية اللغة إلى جمهور جمعية الشباب المسلمين الذي كان يمتاز بتفوقه العددي على جماهير سائر الجمعيات والروابط والمننديات .

ولم تكن جمعية الشباب المسلمين هي المنبر الوحيد الذي كنت أعتليه أنا وصديقي علي لنلقي من فوقه قصائدنا، بل كان هنالك عدد من المنابر الأخرى مثل :

١. نادي الحزب الوطني الاتحادي للسودان .
٢. رابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة .
٣. الرابطة الإسلامية بالقاهرة .
٤. مدرج عباس محمود العقاد في كلية اللغة العربية .
٥. مكتبة التحرير بمصر الجديدة .
٦. رابطة الأدب والحديث في القاهرة .
٧. مركز النشاط الاجتماعي للشباب بمصر الجديدة .

وقد بدأ شعري يعرف طريقه إلى النشر عبر الصحف والمجلات التي لم تكن تتردد في نشره . كنت أشعر بسعادة غامرة عندما أرى قصيدة لي منشورة في إحدى الصحف أو المجلات، فقد كان ذلك في نظري يشكل اعترافاً بشاعريتي ودليلاً على صلاحية شعري للنشر . وقد حفزني ذلك إلى مزيد من الإجابة والتزود بما يلزم الشاعر من ثقافة أدبية ونقدية وبما ينبغي له من الاطلاع على التيارات الأدبية والشعرية الحديثة .

وفي هذه الفترة من الخمسينيات كانت أهم القضايا المطروحة للنقاش في الساحة الأدبية قضيتين هما قضية الصراع بين العامة والفصحى، وقضية الصراع بين شعر التفعيلة والشعر العمودي . ولا بد لي من أن أشير إلى بعض الصحف والمجلات التي عنيت بنشر شعري عدا ما ذكرت منها آنفاً :

١. جريدة منبر الشرق .
٢. مجلة كلية اللغة العربية .
٣. مجلة العالم العربي .
٤. جريدة الاتحاد الكويتية .

وقد أتاحت لنا المننديات الأدبية معرفة عدد كبير من الأدباء والشعراء المصريين والعرب، منهم: كامل السوافيري وصلاح عبد الصبور، ونجيب سرور، وكمال نشأت، ومحمد فوزي العنتيل، ومحمد أبو ربيع، ومصطفى السحررتي وكيلاني سند والصيرفي وأبو السعود الجهنوي وعبد الله أبو عيد من مصر . ومحمد الفيتوري ومحي الدين فارس وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن من السودان، ومحمد علي الحوماني من لبنان، وإبراهيم هاشم الفلالي وعبد الله عبد الجبار من السعودية .

وكانت القاهرة في ذلك الحين موطناً لأحرار العالم العربي تُعجُّ باللاجئين السياسيين . وقد عرفت عدداً منهم عن كثب ومن هؤلاء: الشيخ البشير الإبراهيمي، وعلال الفاسي وعبد الله التل وسواهم .

في ١٩٥٤/٢/٢٥ قَدَّمَ الرئيس اللواء محمد نجيب استقالته إلى مجلس قيادة الثورة من جميع مناصبه التي يشغلها وقَبِلَ المجلس هذه الاستقالة .

وقد قابلت جماهير الشعب المصري هذه الاستقالة بالوجوم وعدم الرضا، ولم يكن أحد ليجرؤ على التعليق عما حدث علانية . وفي اليوم التالي تضافرت الأحزاب السورية على خلع الدكتور أديب الشيشكلي من منصب رئاسة الجمهورية، فغادر البلاد غير مأسوف عليه .

وقد تولى الرئاسة بعده هاشم الأناسي بصفة مؤقتة ريثما تجري انتخابات نيابية حرة تأتي ببرلمان حر ورئيس ديمقراطي جديد . وفي ١٩٥٤/٢/٢٧ حدث انقسام في صفوف مجلس قيادة الثورة المصري نجم عنه إعادة اللواء محمد نجيب إلى جميع مناصبه. وقد انطلقت جماهير الشعب المصري في مسيرات ابتهاج معبرة عن فرحتها بعودته .

كان اللواء نجيب قد اكتسب شعبية كبيرة منذ أن تصدر واجهة الثورة في أيامها الأولى، على الرغم من أنه كان معروفاً للجميع أن جمال عبد الناصر هو المهندس المخطط للثورة، والقائد الفعلي لها، وفيلسوفها المنظر .

في ١٩٥٤/٣/١٩ قمتُ برحلة نيلية مع طلاب السنة الثالثة بالكلية إلى القناطر الخيرية. وقد استمتعنا بتلك الرحلة، وخلصناها بصورة تذكارية جامعة ضمت جميع الزملاء الذين شاركوا في الرحلة .

منذ ١٩٥٤/٣/٢٧ توقفتنا عن الدوام كما هي العادة استعداداً للامتحانات التي ستبدأ في ١٩٥٤/٦/٧ وتنتهي في السادس والعشرين من الشهر نفسه .

وقد بدأتُ استعدادي للامتحانات في جو مفعم بالاستقرار النفسي بعد أن تحسنت حالتي المادية بفضل ما كان يمدني به غالب من دعم مالي .

بعد الفراغ من الامتحانات دعاني الصديق لطفي الخشاب إلى قضاء بضعة أيام في الفيوم. وكان لطفي هذا طالباً في معهد المعلمين ومن سكان شقنقا العتيقة . وكان قد احتل غرفة فؤاد أمين أبو حسين بعد أن غادرها إلى غير رجعة على أثر محاولته الانتحارية الفاشلة .

لبيت الدعوة وتوجهت برفقته إلى الفيوم في ١٩٥٤/٢/٢ ومكثت في ضيافته ثلاثة أيام عدت في نهايتها إلى القاهرة .

وقد زرنا في أثناء وجودنا في الفيوم "بحر يوسف" وعين السيلين، وبحيرة قارون ونادي الفيوم ومنزهاها الجميل الرائع .

كانت المفاجأة الكبرى في رحلتي هذه هي مقابلة محمد مصطفى موسى شقيق فوزية . فقد قابلته أنا ولطفي الخشاب مصادفة في الطريق فوقفنا معبرين عن دهشتنا لهذه المصادفة التي لم تكن متوقعة .

قال لي محمد: ما الذي أتى بك إلى الفيوم؟

قلت: أنا في ضيافة صديقي الأستاذ لطفي الخشاب . وأنت ما الذي جاء بك؟

قال: أما أنا فقد جئت لزيارة شقيقتي فوزية .

ثم أردف قائلاً: ألم تعلم بأن فوزية تقيم هنا مع زوجها منذ أن عيّن إماماً في

أحد مساجد الفيوم .

قلت: لا علم لي بذلك .

قال: هيا بنا إلى منزلها... لا شك أنها ستسر برويتك .

قلت: وهل نجد الأستاذ عزت هناك الآن؟

قال: لا أعتقد ذلك .

قلت: لا ينبغي أن نزور فوزية في غياب زوجها. ومن الأفضل أن تحيطه علماً بعزمنا على زيارتنا بعد صلاة العصر .

قال: كما تشاء .

ثم ذكر محمد عنوان المنزل للأستاذ لطفي الذي أعرب له عن معرفته الجيدة بموقعه .

بعد صلاة العصر توجهنا إلى منزل الشيخ عزت فاستقبلنا الرجل أحسن استقبال، ورحب بنا فوزية من وراء حجاب، وسألتني عن أخبار غالب والوالدين .

قلت في نفسي: سبحان الله... سبحان مغير الأحوال، سبحان من جعل فوزية تخاطبني من وراء حجاب .

بعد تناول القهوة، وتبادل حديث الذكريات، ودعنا الشيخ عزت وصهره ثم عدنا أدرجنا إلى منزل لطفي الخشاب . وكانت هذه الزيارة هي آخر مناسبة أسمع فيها شيئاً عن أخبار فوزية .

بعد ذلك بعشرين عاماً أو أكثر علمت أن أسرة فوزية قد باعت منزلها في شارع المسيري، واشترت بدلاً له في شارع نصوح بالزيتون وعلى مسافة لا تبعد بأكثر من مائة متر عن منزل خطيبي .

وقد علمت ب وفاة والديها وبزواج شقيقتها رشيدة، وبإصابة شقيقها الأوحد محمد بالشلل ثم شفائه منه بعد أن ترك آثاره السيئة على صحته، فقد أهدوب ظهره، وأصبح يسير وكأنه شيخ في التسعين بعد أن كان مثلاً في الوسامة ورشاقة القوام .

فسبحان الذي لا يتغير ولا يعتريه عيب أو نقصان .

في ١٩/٧/١٩٥٤ دعاني صديق ريفي آخر لزيارة بلدته وهو محمد سليمان حجاب من "أبو زعل" وقد أمضيت في ضيافته يوماً وليلة ثم ودعته عائداً إلى الزيتون .

وفي ٢٧/٧/١٩٥٤ أصرُّ الصديق الحسيني حمد على أن يصحبني إلى عرب الصوالحة فذهبت معه وبقيت في ضيافته أربعة أيام .

في الرابع والعشرين من تموز - يوليو - ١٩٥٤ ظهرت نتائج الامتحانات في الكلية، وقد نجحت والحمد لله، كما نجح الصديق علي دمر . لا أستطيع أن أصف سعادتي بالنجاح هذه المرة... فقد كان نجاحي في هذا العام يعني أنني قد انتقلت إلى السنة الأخيرة من دراستي . وقد كان ذلك إلى عهد قريب حلماً بعيد المنال . ولكنه الآن بفضل الله يتحقق ويصبح أمراً واقعاً لا شك فيه .

في ٢٧/٧/١٩٥٤ أبرم اتفاق بين مصر وبريطانيا بشأن الجلاء عن منطقة قناة السويس . وقد نص هذا الاتفاق على أن يتم جلاء القوات البريطانية في خلال عشرين شهراً من تاريخ إبرام الاتفاق . كما نص على حق القوات البريطانية في العودة إلى المنطقة في أي وقت تتعرض فيه إحدى الدول العربية أو تركيا لإعتداء خارجي . وأن يسري مفعول هذا الاتفاق مدة سبع سنوات؛ وأن يبقى في القواعد العسكرية التي سيجلو عنها الإنجليز عدد مناسب من الفنيين العسكريين .

تعرضت الاتفاقية إلى انتقادات كثيرة على الرغم من أنه لم يكن في الإمكان إبرام اتفاقية بشروط أفضل، فقد ظل الإنجليز يماطلون في الجلاء اثنين وسبعين عاماً لم يستجيبوا في خلالها إلى مطالب المصريين بالجلاء .

لقد لجأ المصريون في سبيل الجلاء إلى مختلف الوسائل والتي كان آخرها هو تلك العمليات الفدائية الباسلة التي شنها الفدائيون المصريون على معسكرات الجيش البريطاني في القناة .

أقضت تلك العمليات مضاجع الإنجليز، وكان لها الفضل الأكبر في إرغامهم على القبول بالجلء . وقد ساعد على ذلك قيام الثورة، وسقوط الرموز الرجعية التي وضعت أيديها في أيدي الإنجليز ضد الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب المكافح الذي لم يحكمه أحد من أبنائه الحقيقيين إلا بعد قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو .

في أعقاب نجاحي انطلقت إلى منزل خطيبي لأزف إليها وإلى والديها بشرى نجاحي وانتقالي إلى السنة النهائية من الكلية . سرّوا كثيراً بالنبا وهنّوني بحرارة وصدق . وقد اغتنمت الفرصة واقترحت على العم كامل أن نقوم بعقد القران فتمنّع وحاول إقناعي بتأجيل ذلك إلى ما بعد التخرج النهائي .

ألححت عليه في ذلك وناقشته طويلاً فيه وعاهدته على ألا أطالب بالزفاف قبل التخرج، فوافق على ذلك مبدئياً، ولكننا لم نتفق على تحديد موعد لعقد القران .

في ٥٤/٨/١٥ بحثت معه هذا الأمر مرة أخرى ففوجئت بتراجعه عما اتفقنا عليه وإصراره على تأجيل ذلك إلى ما بعد تخرجي من الكلية . ذكرت له أنه بتراجعه قد وضعني في موقف حرج لأنني أبلغت الأسرة في القدس بموافقته على عقد القران . وعلى الرغم من ذلك فقد أصر العم كامل على موقفه .

غادرت منزله في تلك الليلة دون التوصل إلى اتفاق وفي نفسي ما فيها من الغيظ .

بادرت في اليوم التالي بإرسال رسالة إلى غالب أنبئته فيها بتراجع العم كامل عن اتفاقه معي . ولم يلبث أن وصلني رده في ٥٤/٨/٢٢ متضمناً إعرابه عن مخاوفه ومخاوف الوالدين من نوايا العم كامل، وطلب إلي مواصلة الضغط عليه حتى يرضخ لتحديد موعد لعقد القران .

بعد تسلمي رسالة غالب بثلاثة أيام ذهبت لمقابلة العم كامل وأبلغته بإصرار الوالد على موقفه من حيث ضرورة عقد القران وعدم تأجيل ذلك .

وبعد نقاش طويل توصلت مع العم كامل إلى اتفاق وسط ينص على إتمام عقد القران بعد شهرين من تاريخ هذه المقابلة، وقد حددنا اليوم الحادي عشر من تشرين ثاني - نوفمبر - ١٩٥٤ موعداً لذلك .

في الحادي والثلاثين من تشرين أول - أكتوبر - ١٩٥٤ تسلمت رسالة من غالب يزف إلي فيها بشرى لم تكن في الحسبان .

وقد كان مضمون هذه البشري ينص على أن غالباً قادم إلى القاهرة في بعثة دراسية على نفقة وكالة الغوث الدولية للاجئين - UNRWA - أسعدني ذلك كثيراً لعدة أسباب :

- **أولها:** أن غالباً سيحضر حفل عقد قراني، وأنه سيكون الشاهد الأول على وثيقة الزواج .

- **ثانيها:** لا وحدة ولا إحساس بالوحشة بعد اليوم فما هو غالب يعود من جديد إلى سد الفراغ الذي خلفه برحيله .

- **ثالثها:** سيتلقى غالب تعليمه على نفقة الوكالة وفي ذلك ما فيه من توفير للنفقات التي يتطلبها وجوده في مصر .

في ١٩٥٤/١١/٢ حضر غالب من فلسطين إلى مصر وواصلت معه مسيرة حياتنا التي بدأناها منذ سنوات وكأنه لم يفارق مصر ليلة واحدة .

وفي مساء اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من عام ١٩٥٤، وفي حفل بهيج تمتع حضره لقيف من أهل العروس وأقربائها وجيرانها، ونخبة من أصدقائي الفلسطينيين والمصريين والسوريين واللبنانيين، تم عقد قراني على الأنسة سيدة كامل عبد المقصود صالح الهتمي .

وقد أجرى مراسم عقد القران الشيخ سالم طلبه مأذون قسم الزيتون،
وشهد على العقد كل من الشقيق غالب محمد سمرين والسيد عبد الغفار
عزام زوج خالة العروس .

وقد أقيم الحفل في منزل السيد عبد الغفار في حارة عسكر وهي
حارة موازية لحارة عبد السيد من الجهة الجنوبية ولا يفصل بينهما سوى
شارع نصوح الموازي للحارثين .

وقد أحيا الحفل فرقة فنية من شارع محمد علي مؤلفة من مطرب
وراقصة ومونولوجست وعدد من العازفين الموسيقيين . وقد استمر حتى
الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل . وقد ألقى الصديق الشاعر
علي دمر قصيدة بهذه المناسبة نالت استحسان الحاضرين . وقد وسم صديقي
قصيدته تلك بعنوان " قصة عجيبة " وقدم إليها بقوله: (صديق العمر الشاعر
الفلسطيني رجا سمرين بمناسبة عقد قرانه الميمون في ١١/١١/١٩٥٤
بضاحية الزيتون إحدى الضواحي الشمالية لمدينة القاهرة) .

وهذه هي القصيدة :

قصة عجيبة

يا أيها الحفنون شكراً
أقدم الشكر عن رجاء
لأنه الآن في انشغال
يحفر يثراً له عميقاً
أرجوكم واليوم أن تصيخوا
لم تسمعوا مثلها قديماً
كان أخونا " العرس " يوماً
يلوح في منظر كئيب
تحببي حلوة مرطبة
" عرسنا " شاعر العروبة
بحادث ظن لن يصيبه
يلقي به عاجلاً كروبة
كي تسمعوا قصة عجيبة
في عالم القصة الغربية
يسير في قفزة العروبة
ونفسه دائماً كئيب

يسبح دوماً ببحر رأس
وكان في الشغل " بلطجياً " .
يحوم من قهوة لاخرى
وليس في أفقه بصيص
كان أبوه يقول ويسلي
وكان في غالب عزاء
وفجأة فجأة أتته
تجعله في مدى قريب
موظفاً شاعراً فظلياً
لكن هذا ما كان يكفي
إذ شبَّ في قلبه حريق
من أين جاء الحريق قلبي
كان أخونا يسير يوماً
وبينما كان في خطاه
إذا بشقاء ذات حُسن
كانها الومر في نداءه
تاهت وسارت بكبرياء
كان أخونا يسير دروبه
وصار في لحظة جرحاً
وطاش لم يدرك أعراه
وسار للبيت في شقاء
وهكذا قد غدا محباً
وظل يسعى لكي يلاقي
شيطاناً ليست القرية
وكان في وحدة مربية
فراغه مشبه جوية
لفكرة سهلة قريبة
من ولد " صانع " مصيبة
لا يرتجي من رجاء مربية
دراسة فخمة مربية
يأخذ من دهره نصيبه
يصول في " بدلة قشبية " .
لكي يداوي رجاء دونه
في لحظة مرة مرهبة ؟
وكيف يطفئ رجاء لهيبه
في منية حلوة طروبة
يسبح في فكرة رجبة
ترميه بالنظرة المذيبة
خجولة حلوة أديبة
كالعلم في الغفوة الحبيبة
فلم يعد مبصراً دروبه
تري أساء، تري شحوبه
يلبس في دهشة جنوبه
يخفي لدى بيته نجبة
صباحه مشبه غروب
تلك التي أشعلت لهيبه

حتى دمرى أنها فتاة من بيتة جارة قربية
ثم تولى إلى أبيها وبعدها أتت الخطوبة
واليوم أمست له عروساً ولم تعد عنده خطيبة
فهنأه على مئناه بقلة فخمة مهيبة

بلغت الفترة التي فصلت بين تقديم الشبكة وعقد القران سنتين
وعشرة أشهر وثلاثة أيام حرصت في خلالها على أن أفي للعم كامل بما
قطعته على نفسي من عهود تتعلق بزيارتي لمنزله في أثناء غيابه عنه،
وعدم الخروج للنزومة مع خطيبتي قبل عقد القران .

أما بعد عقد القران فقد بدأت في اصطحاب خطيبتي التي أصبحت
بموجب عقد القران زوجة شرعية لي في نزاهات قصيرة في الحدائق
العامة. كما صحبتها ست مرات إلى دور السينما شاهدنا في خلالها الأفلام
الآتية: جنون الحب وموعد مع السعادة وكوفاديس ويوم سعيد وفتوات
الحسينية والآتسة ماما ولحن الوفاء .

وقد ذهبت برفقتها مرة إلى حديقة الحيوان بالجيزة، ومرة إلى
حديقة الأسماك، وقد خلدنا هذه الرحلات بصور تذكارية جميلة مازلنا نحفظ
بها في ألبوماتنا الخاصة .

وحرصت في خلال دراستي على شهود ما تسمح به الظروف من
محاضرات وندوات لكبار الأدباء الأعلام . وممن استمعت إليهم في بعض
محاضراتهم :

١. الدكتور طه حسين في محاضرة بعنوان "الثقافة والشباب" . في جمعية
الشباب المسلمين، وقد كان ذلك في ١٨/٣/١٩٥٤، وفي محاضرة ثانية

عن عمر بن الخطاب في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في ٢٥/٢/٥٥،
وفي محاضرة ثالثة عن "نشأة الدول الإسلامية" بقاعة جمعية الشباب
المسلمين في ٢٦/٣/٥٥ .

٢. الدكتور عبد الرحمن أيوب في محاضرة بعنوان "الثقافة العالمية" في
رابطة الطلبة الأردنيين بالقاهرة في ٣/٣/١٩٥٥ .

٣. الدكتور عبد العزيز القوصي في محاضرة عن مشكلة الفراغ في قاعة
جمعية الاقتصاد الوطني في ١٩/١/١٩٥٥ .

في ٢/٤/١٩٥٥ انتقطعنا عن الذهاب إلى الكلية استعداداً لامتحانات
السنة النهائية .

وفي ٢٣/٤/١٩٥٥ تسلمت شهادة الجنسية الأردنية من السفارة
الأردنية بالقاهرة وأقسمت بيمين الولاء للملك أمام القنصل الأردني هاني
هاشم فأصبحت منذ ذلك اليوم أردنية بموجب المادة الخامسة من قانون
الجنسية الأردني .

وفي ١/٥/١٩٥٥ صحبت سيدة إلى السفارة الأردنية لاستخراج
جواز سفر أردني مشترك . وبعد أن أنهينا معاملتنا انطلقت وإياها لزيارة
حديقة الأسماك .

وفي ١٨/٦/١٩٥٥ تسلمت رقم جلوسي في امتحان الشهادة العالية
وهو (٨٧) وفي العشرين منه بدأت الامتحانات التي استمرت حتى
٣/٧/١٩٥٥، أما الامتحان الشفهي وهو ما يعرف عند الأزهرين بالتعيين
فقد حُذِّد له يوم ١١/٧/١٩٥٥، وبعد أن فرغت من امتحان التعيين توجهت
إلى السفارة الأردنية، وتسلمت جواز سفري الأردني الأول الذي حمل الرقم
١١٧٠٠٣، وفي الرابع والعشرين من تموز - يوليو - ١٩٥٥ ظهرت نتائج
امتحان الشهادة العالية . وقد بشرني الصديق علي نمر بظهورها وبجاحتنا
فيها في الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم المبارك .

كنت واثقاً من النجاح فقد بذلت من الجهد والاجتهاد ما اعتقدت أنه سيوصلني إلى هذه النتيجة المرضية والحمد لله . وقد عبّرتُ عن فرحتي بالنجاح في قصيدة "أمي" التي صورت فيها فضل الأم التي غرست في نفسي من المبادئ والمثل ما أهّلّني للنجاح .

بعد اليوم تبدأ مرحلة جديدة من حياتي أدعو الله أن يوفّقني فيها .

في اليوم التالي من ظهور النتيجة بدأت في استخراج المستندات التي تثبت نجاحي وتصديقها من إدارة الكلية ووزارة الخارجية المصرية والسفارة الأردنية بالقاهرة . وإلى جانب ذلك بدأت مشاوراتي مع العم كامل بخصوص ترتيبات سفري مع زوجتي إلى الأردن .

وافق الرجل على ذلك وأخبرني بأنه سيبدأ في استخراج جواز سفر مصري لابنته . وعندما أخبرته بأنه لا حاجة بنا لذلك تسامع مستغرباً عن السبب، فأعلمته بأنني أضفتها إلى جوازي الأردني .

وقع الخبر عليه وقوع الصاعقة وأرغى وأزبد، فلم يكن مني إلا أن قابلت ثورته بالهدوء، وبتهوين الأمر عليه، وقلت له إنني لا أمانع في حصول سيدة على جواز مصري .

في ٥٥/٩/٧ توجهت مع سيدة ووالداها إلى دائرة الجوازات والجنسية بمجمع التحرير، وقدمنا طلباً باسم سيدة للحصول على جواز سفر مصري، فلما علم المسؤولون في الإدارة بأنها قد تزوجت من أردني رفضوا طلبها، وقالوا إنه لا سبيل لحصولها على جواز مصري إلا في حالة واحدة من اثنتين وهما: طلاقها من زوجها أو وفاته، وقد أعلمنا مدير الدائرة أن قانون الجنسية المصري ينص على أن المصرية تفقد جنسيتها بمجرد زواجها من أجنبي .

سخط العم كامل من جراء تسرعي في إضافة سيدة إلى جوازي دون علمه، ولكنه لم يجد في نهاية الأمر بداً من التسليم بالأمر الواقع . وقد

طبيت خاطره وطمأنته بأنني سأكون عند حسن ظنه بي، وأنني لن أتوانى عن زيارتهم في كل عطلة صيفية إن شاء الله .

وتوفيراً للنفقات وحرصاً على اصطحابي لكل ما لدي من كتب ومراجع فقد قررنا السفر إلى الأردن عن طريق البر والبحر .

وتمهيداً لذلك فقد بادرت في ٥٥/٩/٨ بحجز مكانين على ظهر الباخرة التركية سمسون التي ستقلنا من الإسكندرية إلى بيروت في ٥٥/٩/١٢ م .

وقد أقام العم كامل وزوجته حفل زفاف لنا في ليلة السفر شريطة عدم الدخول بابنتهم في مصر . وقد امتزجت الدموع بالضحكات في حفل الزفاف السوري الذي أقيم لي ولسيدة . فكانت تتجاذب العروس وأقاربها حالتان نفسيتان متناقضتان: حالة الفرح بزواج ابنتهم وهذه الحالة تدعوهم إلى الغناء والرقص والابتهاج، وحالة الحزن لفراقها وهذه الحالة تجعلهم يبكون أسى ولوعة . كانت ليلة فريدة لا مثيل لها بين ليالي الأفراح .

انتهى حفل زفافنا عند منتصف الليل . وحين ذلك عدت إلى غرفتي في بيت الحاجة وبقيت سيدة في منزل أهلها .

كانت حالة نادرة من حالات الزفاف التي لا يقضيها العروسان في فراش واحد... أليس كذلك ؟

الفصل التاسع

في الأردن

في صبيحة اليوم الثاني عشر من أيلول - سبتمبر - ١٩٥٥ ركبنا سيارة تاكسي من الزيتون إلى محطة باب الحديد، بكيت وبكى كل من كان في وداعنا من أقارب سيدة والجيران والأصدقاء .

أحسست بحزن ينهش قلبي لفراق مصر، البلد الذي أحببته ومنحني العلم والحب وشيئاً من الشهرة وفرتها لي شاعريتي .

جنتها يافعاً مغموراً ذا مستقبل غامض غير واضح المعالم، وها آنذا أغادرها شاباً جامعياً مؤهلاً مسلحاً بالعلم والمعرفة، وترافقه عروسه التي أحب، وآماله العريضة التي تملأ جوانحه .

لقد منحنتي مصر الثقة بالنفس، والعلم الغزير، والثقافة الواسعة، والشهادة العالية، والعروس الحسنة، وهل بعد هذه العطايا والهبات شيء أفضل يمكن أن يُمنح ؟

أمضيت في مصر سبعة أعوام ونصف متواصلة، تقلبت فيها بين العسر واليسر وبين الشدة والرخاء . وقد مرت بي أوقات كثيرة كنت أشعر فيها باليأس والقنوط والإحباط الشديد، غير أن إيماني بالله وتطلعي إلى الحياة الدافئة بين أحضان من أحببت كانا يرداني دائماً إلى رحاب الأمل الباسم وشواطئ التفاؤل الجميل .

لقد أصبح ما كنت أتمناه قاب قوسين أو أدنى من التحقيق . وما ذلك إلا بفضل من الله وتوفيقه، فله الحمد على كل حال .

في طريقنا إلى باب الحديد شعرنا بهزة أرضية خفيفة جعلت السيارة التي تقلنا تضطرب اضطراباً خفيفاً غير مزعج .

وفي الثامنة صباحاً ركبنا القطار في طريقنا إلى الإسكندرية. وقد رافقنا إليها كل من العم كامل وأخوه حلمي وصديقنا المخلص الحسيني حمد. في الواحدة بعد الظهر أتممنا الإجراءات الجمركية وإجراءات المغادرة في الميناء، ثم صعدتُ وسيدة إلى متن السفينة بعد أن ودعنا العم كامل ومرافقيه .

أخذنا أمكنتنا على متن الباخرة التركية "سمسون" التي أُلغيت بنا في الساعة السادسة مساءً في طريقها إلى ميناء بيروت بلبنان البلد الذي قضيت فيه من طفولتي عامين .

بعد ربع ساعة من الإقلاع شعرت سيدة بدوار البحر، فأرقدتها في سريرها بعنبر النساء، وصعدت إلى سطح الباخرة، وبقيت هناك حتى الثامنة والنصف آويت بعدها إلى سريري بعنبر الرجال .

أشرقت شمس اليوم الثالث عشر من سبتمبر، فتسللتُ خيوطها الذهبية عبر الكوة الصغيرة التي تعلو سريري فاستيقظت من نومي المنقطع وتوجهت إلى سيدة فأيقظتها وصعدت بصحبتها إلى السطح فإذا الجو ساحر يأخذ بالآلبياب... سماء زرقاء صافية لا يكدر صفوها قطعة غمام واحدة، ومياه في زرقة السماء أو أشد لا يخالط زرقتها غير زبد الأمواج المتكسر على جدران السفينة... وفي كل اتجاه بواخر تمخر عباب البحر على مرمى من النظر بعضها قريب وبعضها بعيد .

انفعلت بهذا الجو الساحر، وتواردت على مخيلتي خواطر جمة متباعدة تمخضت عن قصيدة رومانسية ناجيت فيها البحر وصوّرتُ فيها ما أثار في نفسي من أحاسيس وخواطر .

قضينا سحابة النهار فوق سطح الباخرة مأخوذين بروعة هذه اللوحة التي أبدعتها ريشة الخالق العظيم فتبارك الله أحسن الخالقين .

استقرت حالة سيدة ولم تعد تشعر بدوار البحر في هذا اليوم. وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر بدأت شواطئ لبنان تتراعى لنا من بعيد، وفي الرابعة والنصف دخلت باخرتنا ميناء بيروت . هبطنا من الباخرة وتعرفنا على أمتعتنا، ثم توجهنا إلى قاعة الجمارك. وبعد الانتهاء من الإجراءات الرسمية انطلقت بنا سيارة التاكسي إلى فندق يسمى فندق الهلال . استأجرنا غرفة في هذا الفندق... لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يظلني فيها وزوجتي سقف واحد .

أفقتنا في السادسة من صباح ١٤/٩/١٩٥٥ وفي تمام الساعة غادرنا الفندق في سيارة تاكسي متوجهين إلى دمشق فبلغناها ظهراً، وتوفيراً للنفقات استبدلنا سيارتنا بأخرى متوجهة إلى عمان .

في الرمثا وهي أول مدينة أردنية يصل إليها القادم من دمشق أنفقت آخر ما كان في حوزتنا من نقود... لم أعبأ بذلك كثيراً، فقد كنت على يقين من أنني سأجد الأهل في انتظارنا بالقرب من محطة السكة الحديدية في عمان حسب وعدهم لي في آخر رسالة تلقيتها منهم في القاهرة . طلبت من سائق السيارة أن ينزلنا بالقرب من المحطة ففعل ثم انطلق بسيارته نحو عمان لا يلوي على شيء .

فوجئت بعدم وجود أحد في انتظارنا، ووقعت في حيص بيص. غير أنني لم أعم أن توصلت إلى الحل... فقد لاحظت قبل أن نصل إلى المكان الذي غادرنا فيه السيارة التي كانت تنقلنا من دمشق وقبل أن تصل إلى المكان بما لا يزيد عن نصف كيلومتر أن صديقاً لي هو محمد شقرة

الطالب بكلية الشريعة في الأزهر كان يتمشى مع بعض أصدقائه في الشارع في اتجاه ماركا الشمالية .

طلبت من سيدة أن تنتظرنني عند الأمتعة وأخبرتها باختصار أنني وجدت الحل لمشكلتنا . وانطلقت أعدو في الطريق وراء محمد شقرة الذي كان ما يزال في السنة الثالثة من الكلية، والذي ساقه الله لنا لينقذنا من هذه الورطة التي لم تكن تخطر لنا ببال .

لم أكد أقطع نصف المسافة حتى رأيت محمد شقرة عائداً مع صخبه في اتجاهنا. وناديته بصوت مرتفع فلم يصدق أذنيه وعينه فصاح قائلاً: مَنْ؟ رجاء؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

أخبرته بالقصة فقال مبتسماً: هُوَنَ عليك، فليس هنالك مشكلة. ثم استأذن أصحابه وغاب قليلاً ثم لم يلبث أن عاد ومعه سيارة تاكسي وقال: سنذهب الآن إلى بيتنا، وسيتقى وعروسك في ضيافتنا إلى أن نرسل في طلب الأهل، ولو كنت أعرف عنوانهم لصحبكم إليهم مباشرة فأنا أعرف شدة شوقكم إليهم، وشدة شوقهم إليكم .

شكرته على شهامته، ووصلنا إلى منزلهم سيراً على الأقدام. فقد رفضت سيدة بشدة أن تركب السيارة ونصعد فيها في جبل الهاشمي الشمالي حيث يقع منزل صديقنا محمد شقرة . كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها جبلاً عالية كجبال لبنان، وجبال دمشق وعمان .

أكرمنا آل شقرة وأحسنوا استقبالنا، وبعثوا برسول إلى دار العم محمد مطر في جبل عمان ينبئه بوصولنا. وقد عرفت أن العم محمد مطر سوف ينيء الأهل بقدومنا، وأنه سيصحبهم معه عندما يحضر لأخذنا. حضر الوالد والعم محمد مطر في الثامنة مساءً، وتناولنا معاً طعام العشاء، فقد سارعت السيدة الفاضلة، أم محمد شقرة بإعداد صينية مقلوقة تليق بمقام ضيوفها المفاجئين .

توجهنا بعد ذلك إلى دار العم محمد مطر الواقعة قرب الدوار الثاني بجبل عمان . وهناك كانت فرحة اللقاء .

في اليوم التالي لوصولنا وهو اليوم الخامس عشر من سبتمبر ١٩٥٥ أصر الأهل على إقامة حفل راقص بمناسبة عودتي إلى عمان . وقد حضر الحفل عدد كبير من أقاربنا وأهالي بلدتنا الموجودين في عمان .

تحول الحفل الراقص إلى حفل زفاف حيث أصر الأهل على ضرورة جلوسي إلى جانب العروس . كان السرور غامراً ، وكانت البهجة تكلل رؤوس الجميع ، والبشر ينشر جناحيه فوق المحتفين .

في صبيحة ١٩٥٥/٩/١٦ سافرت برفقة الوالد إلى مدينة القدس لتقديم طلب عمل إلى مقر وكالة الغوث الدولية .

هبطنا من الحافلة في باب العامود فهالني ما رأيت ، وجه القدس الجميل قد تشوه... القدس القديمة كئيبة حزينة ، تقبع خلف أسوارها العملاقة كالأرملة المنبوذة التي تخلى عنها أهلها وأقارب زوجها . الغادون والرائحون من أبناء القدس وزوارها أهداف سهلة لرمصاص اليهود الأنجاس المتربصين بهم في المصراة ونوتردام وأرض السمار وما جاورها من الأحياء التي يفصل بينها وبين الشيخ جراح سور جديد هزيل... أين البقعة؟ أين القطمون؟ وأين أحياء القدس العربية الجديدة الأخرى؟ لقد سقطت جميعها في أيدي الخنازير بعد أن سقطت القسطل وقالونيا ودير ياسين وعين كارم وغيرها من قرى القدس الغربية التي كانت تشكل خط الدفاع الأخير عن القدس .

ما شهدته في القدس من تشويه ، وما رأيته على وجوه الناس من كآبه أوحى إليّ بقصيدة "عودة" التي عبرت فيها عن أحاسيسي الحزينة التي أحسست بها في أثناء هذه الزيارة .

عدنا إلى عمان في مساء اليوم نفسه بعد أن قدمت طلباً للعمل إلى إدارة الوكالة في الشيخ جراح . وفي صبيحة يوم ١٩٥٥/٩/١٧ قدمت طلباً للعمل إلى وزارة التربية والتعليم عن طريق ديوان الموظفين .

أقمنا في منزل العم محمد مطر أربعة أيام لم ينقطع في خلالها سيل المهنيين من أهالي البلدة والأقارب .

انتقلنا بعد ذلك إلى منطقة رأس العين ، حيث استأجرنا غرفتين متجاورتين من منزل العمادي بالجبل الأخضر .

في ١٩٥٥/٩/٢٨ أصدرت وزارة المعارف الأردنية قراراً بتعييني مدرساً في مدرسة السلط الثانوية للبنين . وفي ١٩٥٥/٩/٢٩ أصدرت وكالة الغوث الدولية قراراً آخر بتعييني مدرساً في مدرسة عقبة جبر الثانوية للبنين في منطقة أريحا .

سبحان المعطي الوهاب... أكثر من جهة تتسابق إلى تعيني . عندما أقارن ذلك بما يعانيه الخريجون في أيامنا هذه أدرك كم تغير الزمان وكم تغير أهل ذلك الزمان .

وقعت في حيرة من أمري ، ولم أدرك ماذا أختار . فقد كان لكل خيار ميزاتته التي لا تنكر وسلبياته التي لا تخفى . وأخيراً وبعد مشاورات مع الأهل والأقارب رجحت كفة وزارة المعارف ، فاخترت الانتظام في سلك التدريس الحكومي عملاً بالمثل القائل "إن فائك الميري تمرغ في ترابه" .

وفي صباح ١٩٥٥/٩/٢٩ توجهت إلى مدينة السلط وقابلت مدير مدرستها الثانوية الأستاذ حكمت الساكت ، وقدمت له نفسي فرحب بي أجمل ترحيب .

تُعدُّ مدرسة السلط الثانوية من أعرق المدارس الثانوية في الأردن
إن لم تكن أعرقها جميعاً... فيها تخرج معظم رجالات الأردن القِياديين، وقد
ظلت محتفظة بهذه المكانة المميزة حتى منتصف هذا القرن، ولم يفقدها هذه
الميزة إلا اتحاد الضفتين . والأردنيون يعدُّون هذه المدرسة مصنعاً لتفريخ
الوزراء والحكام وكبار رجال الدولة .

في بداية تشرين أول - أكتوبر - ١٩٥٥ باشرتُ عملي في هذه
المدرسة.

بعد عودتي من السلط في هذا اليوم دعاني ابن العم أحمد محمد
مطر وزوجتي ومعنا ابن العم محمد أمين عبد الله وزوجته لمشاهدة أحد
الأفلام في سينما بسمان .

عندما ناولت تذاكر الدخول إلى عامل السينما الواقف بالباب سألتني
قائلاً: أأنت الأستاذ رجا سمرين؟

قلت: نعم أنا هو .

قال: هل تذكرني؟

قلت: وأنا أشعر بالحرَج: باليتني أستطيع .

قال: أنا علي يونس زميلك في مدرسة لفتا .

قلت: يا الله... أنت علي يونس؟ لله در تلك الأيام .

قال: أجل... ما كان أجملها من أيام... سوف نلتقي إن شاء الله لنذكركها فلا
أريد أن أعطلك وصحبك عن مشاهدة الفيلم فقد اقترب موعد العرض .

قلت وأنا أودعه: إن شاء الله .

ولم يشأ الله سبحانه أن أقابل هذا الشاب بعد ذلك، ولا أدري ماذا
صنعت به الأيام. ولكن الذي أدريه أن علي يونس هذا كان فتى ثرياً مدللاً
يتيه على أبناء صفه الذين كنت واحداً منهم بحسن هندامه وأناقته. ولم يكن
من المبرزين المجدين، بل كان من الذين يخوضون وسط المعمة كما يقول
أحد الشعراء في معرض تصنيفه لطبقات الشعراء . لقد فقد علي ما كان

يميزه عن أقرانه، وها هو ذا ينتهي به الأمر إلى أن يصبح عاملاً يتفحص
تذاكر رواد إحدى دور السينما في عمان .

أمضيت ثمانية عشر يوماً وأنا أنتقل بين السلط وعمان . وقد
وجدت في ذلك مشقة كبيرة، فقررت استئجار منزل لنا في مدينة السلط
لأكون على مقربة من مقر عملي. وسرعان ما عثرت على شقة مكونة من
غرفتين في حارة الجدعة أقرب أحياء المدينة إلى المدرسة. وقد انتقلنا إليها
في ١٩/١٠/١٩٥٥.

في ١٥/١١/١٩٥٥، وفي الحصّة الخامسة بعد الظهر كنت أشرح
لطلاب الصف الثالث الثانوي درساً عن الأدب العربي في الأندلس. وقد
ورد في أثناء حديثي عبارة هذا نصها: " في الوقت الذي بلغت فيه الحضارة
العربية في الأندلس أوج عظمتها فإن أوروبا كانت ما تزال تتخبط في
دياجير الجهل والظلام " .

لم يكن يخطر ببالي أن هذه العبارة سوف تفتح عليّ باباً من أبواب
جهنم لم يوصد إلا بعد ربع قرن؛ إذ لم أكد أكملها حتى انبرى طالب من
طلاب الصف يُدعى - عبيد الله خريسات - وكان من المنتمين إلى حزب
التحرير الإسلامي - مستأزناً في الحديث، فأذنت له بذلك فقال: لماذا قلت يا
أستاذ الحضارة العربية ولم تقل الحضارة الإسلامية؟

قلت: لأن الحضارة يا بني تنسب عادة إلى الجنس، ولا تنسب إلى
الدين، ولهذا نقول: الحضارة اليونانية، والحضارة الرومانية، والحضارة
الفارسية والحضارة الفرعونية والحضارة الآشورية، والحضارة الفينيقية،
ولا نقول الحضارة الوثنية أو الحضارة المسيحية وهكذا...

قال: ليس للعرب حضارة قبل الإسلام .

قلت: بل لهم حضارة يا بني وقد نطقت بذلك آيات الذكر الحكيم، وارجع إلى
الآيات التي تتحدث عن سبأ وعرش بلقيس، وإلى تلك التي تتحدث عن إرم

ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، لتعرف إن كان للعرب حضارة قبل الإسلام أم لم يكن .

قال: كلامك غير مقنع يا أستاذ، فلولا الإسلام ما كان للعرب حضارة وما كان لهم شأن يُذكر .

قلت: أنا لا أنكر يا بني أن الإسلام قد دفع بالحضارة العربية إلى الأمام دفعة كبيرة، وأنه قد صهر تلك الحضارة وغيّرَها من الحضارات في بوتقة واحدة، ولكن عليك أن تعلم أن حضارات الأمم الأخرى ما كانت لتتصهر مع الحضارة العربية لولا أن الإسلام قام بتعريبها .

عندما وصل النقاش إلى هذا الحد تدخل طالب آخر من طلاب جماعة الإخوان المسلمين يدعى فاروق سعد الدين العقاد فقال: لست أدري لماذا تصر على نفي الصبغة الإسلامية عن حضارة المسلمين .

قلت: لست أصر على ذلك، وليس هناك يا بني أي تعارض بين العروبة والإسلام، واعلم - هداك الله - أن العرب هم لُحمة الإسلام وسداه .
ثار فاروق ثورة عارمة وقال في حدة ظاهرة: إنك لنقول ذلك مما لاء لبعض الاتجاهات في الصف .

قلت: تأدب يا ولد... فلست ممن يخشاك أو يخشى غيرك حتى أمائله أو أحسب له أي حساب، واعلم أن حذائي هذا- وأشرت بإصبعي إلى قديمي- يفهم من أمور الإسلام ما لا يفهمه أولئك الذين يحشون دماغك وأدمغة أمثالك من الأغرار بهذه المفهومات المترتبة والمغلوطه عن الإسلام.

سكت الطالب على مضض، وأغلقت باب المناقشة، وما هي إلا دقائق حتى قرع الجرس مؤذناً بانتهاء الدرس، دون أن أدرك ما سيكون لهذه المناقشة من ذيول .

في اليوم التالي استدعاني مدير المدرسة الأستاذ حكمت الساكت وأبلغني بأن طلاب الصف الثالث الثانوي/أ قد قدموا شكوى من ثلاث نسخ وقع عليها نحو ثلاثمائة مواطن من أهالي السلط يطالبون فيها وزارة المعارف ومتصرف اللواء ومدير المدرسة بالتحقيق معي لأنني تهجمت على الإسلام وغضضتُ من شأنه أمام الطلاب .

وفي ١٨/١١/١٩٥٥- وكان يوم جمعة- هاجمني خطباء المساجد في مدينة السلط في خطبة الجمعة واتهموني بالإلحاد والشيوعية وبتسميم أفكار الناشئة . وقد أنحوا باللأئمة على الأزهر الذي أصبح جامعة لا تخرج غير المتحرفين والزنادقة من أمثال خالد محمد خالد ورجا سمرين .

ويل لهذا النوع من أئمة المساجد الذين يزعمون أنهم يحملون لواء الدعوة إلى الإسلام. كيف أخذ هؤلاء ما قاله الطلاب قضية مسلمة؟ وهل نسوا أن الإسلام يطالبهم بأن يتنبؤوا من صحة ما ينقله الفاسقون من أنباء، حتى لا يصيبوا أحداً بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين .

وفي ١٩/١١/١٩٥٥ استدعاني الأستاذ جميل عبد الهادي مفتش لواء البلقاء، وأطلعني على التهمة الموجهة إليّ، وأعلمني بأنه قد كُلف من قبل الوزير بتشكيل لجنة للتحقيق في هذه المشكلة، وأنه قد شكل لجنة مؤلفة من الأستاذين عوض الرويلي وشوكت نفاحه- مساعديه- ومن مدير المدرسة ومساعدته منصور الداود وعبد الرؤوف اللبدي أقدم مدرّس للغة العربية في المدرسة .

وقد عقدت اللجنة جلستها في المدرسة بعد صلاة المغرب، واستمعت إلى أقوالي وأقوال جميع طلاب الصف الثلاثين. وقد أظهرت نتيجة التحقيق أن ثلاثة عشر طالباً قد أدلوا بشهادات تدّيني وأن بقية الطلاب- وهم الأغلبية- قد التزموا بذكر الوقائع الحقيقية للمناقشة .

وأخيراً توصلت اللجنة إلى قرار يقضي بعدم إدانتني واقترحت على الوزارة أن تكتفي بتوجيه لفت نظر إليّ، تدعوني فيه إلى عدم الخروج عن موضوع الدرس في أية حصة مقبلة بعد ذلك، وهكذا كان .

وفي الليلة التي عقدت فيها اللجنة جلستها للتحقيق ظل الوالد ينتظرني خارج المدرسة ومسدسه على جانبه متحفظاً للرد على أي اعتداء قد أتعرض إليه. وقد سعد كثيراً بنتيجة التحقيق، ونصحني بعدم التهور ومسايرة الأوضاع وضبط اللسان، وذكرني بما جره عليّ لساني عندما تعرضت لنقد المفتي في مصر .

عند ذلك قلت له مازحاً: ما جرّ عليّ لساني عندما انتقدت المفتي إلا كل خير... فلولا غضب المفتي عليّ ما تخرجت من الجامعة، ولا أصبحت على ما أنا عليه الآن والحمد لله .

قال الوالد معلقاً على مقالتي: أعرف يا ولدي أن لسانك سيجر عليك المتاعب ما حييت، فوقاك الله شره، وجنبك عقابيل ما تقول .
قلت: آمين... ثم واصلنا سيرنا عائدين إلى المنزل لنبشر الوالدة وزوجتي بنتيجة التحقيق .

لم أكن أتوقع أن أعاني من الدخول في الدوامة التي يعاني من الدخول فيها معظم الأزواج . وأعني بذلك دوامة الخلاف الأزلي بين الكنة والحماة .

مرت الأسابيع الأولى من زواجنا مروراً عادياً، ولكن سرعان ما بدأت الخلافات بين أمي وزوجتي تذر بقرنها كل يوم .

كنت أرجع من المدرسة فأجد أن كلا منهما قد أشاحت بوجهها عن الأخرى... وكانت الأسباب التي تدعو إلى ذلك - كما هي العادة - تافهة... قد تتأخر سيدة في غسل بعض الأطباق فتفسر الوالدة ذلك تفسيراً سيئاً، وقد

تتظر الوالدة إلى سيدة نظرة لا تعجبها، فتقرأ في تلك النظرة معاني لا تخطر للوالدة على بال .

وبدأت كل منهما تتحين الفرصة للانفراد بي كي تشكو لي ما تنقمة على الأخرى . وبدأ هذا الوضع يستفحل يوماً بعد يوم حتى ضقت ذرعاً به، وعزمت على معالجته معالجة جذرية تريح الطرفين . ففاتحت الوالد في الأمر وحدثته بما يجري، فأشار عليّ بضرورة استقلالنا في معيشتنا عنه وعن الوالدة، وهكذا كان حيث لم يعتم الوالد أن رجع مع الوالدة إلى القدس، وبقيت وحدي مع زوجتي في مدينة السلط . ومنذ ذلك الحين لم يحدث بين الوالدة وسيدة أي خلاف...

والظاهر أن الحياة الزوجية وبخاصة السنة الأولى في حياة أي زوجين لا بد وأن تتعرض لبعض الهزات. وهنا تظهر ضرورة التحلي بالصبر، ومعالجة تلك الهزات بالحكمة والتعقل حتى لا تنهار البيوت ويتفرق الأحباء .

أشار عليّ الأستاذ بشير عبد الرحيم الكلوب - مدرس التربية الرياضية في المدرسة - أن أشاركه السكن في منزله .

كان الأستاذ بشير شاباً وسيماً ذكياً لطيف المعشر، لم يمض على زواجه من إحدى قريباته أكثر من عام ونصف وقد رزقه الله بطفل أسماه "خالد" .

وافقت على الاقتراح، وانتقلت مع زوجتي إلى منزل بشير، وشغلنا منه غرفة واحدة من الغرف الثلاث التي كان يتألف منها الطابق الأرضي. وكان هذا المنزل أقرب إلى المدرسة من منزلنا السابق . وقد سعدت سيدة بهذا الانتقال وانسجمت انسجماً تاماً مع جاريتها أم خالد بسبب تقاربهما في السن والمشارب .

وكان والد بشير ووالدته وأخواه تيسير ومنير وشقيقته خولة يشغلون الطابق الثاني من منزلهم . وكان للأستاذ بشير شقيق ثالث يكبره في السن هو محمد، وكان متزوجاً من السيدة ناهيل شقيقة سميرة زوجة الأستاذ بشير . ولم يكونا من سكان السلط، بل كانا من سكان عمان .

أقمنا في بيت بشير قرابة عام لم نجد فيه ولا بعده من هم أطيب معشراً وأحسن جواراً وأفضل معاملةً منه ومن أسرته ووالديه .

في نهاية شهر كانون ثاني - يناير - من سنة ١٩٥٦ زفت إليّ سيدة بشرى حملها الأول .

سعدت بذلك كثيراً وقلت في نفسي "يَخْ، يَخْ أيها الفلعوص رجا" هأنذا توشك أن تصبح في عداد الآباء .

لا أستطيع وصف سعادة الوالدين عندما سمعا بنبا حمل سيدة... لم يكونا محرومين من الأحفاد، فقد كان كل ما لديهما منهم من جهة البنات. وشتان ما بين الأحفاد من البنين وبين أمثالهم من البنات . الأحفاد من البنين امتداد للعائلة... أما أولئك فليسوا كذلك .

ومن هنا كانت سعادة الوالد الذي عانى كثيراً من قلة العزوة وندرة الأنصار بعد مصرع أخيه حمدان .

في ١٩٥٥/١٢/١٥ كلف الملك حسين السيد هزاع المجالي بتأليف الوزارة . وكان واضحاً أن الهدف من تكليفه هو الزج بالأردن في حلف بغداد، فقد كان الرجل من أنصار ذلك . وقد سبق تكليفه بتأليف الوزارة وصول وفد بريطاني إلى عمان برئاسة الجنرال تمبلر لإجراء مباحثات مع الحكومة الأردنية حول هذا الموضوع .

وقد أدى وصول هذا الوفد إلى استقالة وزارة سعيد المفتي، وبعد يومين من تشكيل الوزارة الجديدة انفجرت المظاهرات في طول البلاد وعرضها، وكان المتظاهرون يهتفون بسقوط هزاع ووزارته.

واستجاب هزاع لرغبة الشعب، وقدم استقالته وزارته في ١٩٥٥/١٢/٢٠ أي في اليوم السادس من تأليفها .

وكلف الملك بعده إبراهيم هاشم بتشكيل الوزارة فشكلها في ١٩٥٥/١٢/٢١، ولكنها لم تمكث في الحكم أكثر من سبعة عشر يوماً وحسب .

واستأنف الشعب مظاهرات الاحتجاج على السياسة العامة للدولة ونادى في المظاهرات بحل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة .

وفي إطار السخط العام الذي عمّ البلاد بضفتيها قام طلاب الثانوية في السلط في ١٩٥٦/١/٧ بمظاهرة صاخبة ردوا فيها الهتافات المناوئة لحلف بغداد .

وفي اليوم التالي عادوا إلى التظاهر، وانضم إليهم في هذا اليوم عدد كبير من الأهالي، وهاوتوا بسقوط سمير الرفاعي الذي كلفه الملك بتشكيل الوزارة في أعقاب استقالة إبراهيم هاشم ووزارته. وقد طالب المتظاهرون بانضمام الأردن إلى الحلف المصري السوري السعودي بدلاً من حلف بغداد .

وقد اشتبك المتظاهرون مع جنود البادية الذين لم يتورعوا عن إطلاق الرصاص على المتظاهرين الذين رشقوا مقر قيادة البادية في السلط بالحجارة .

وقد استشهد في هذه المظاهرة الطالب صبحي فاضل الفاعوري، وكان (رحمه الله) أطول طالب في المدرسة وكان من أحسن الطلاب خلقاً ومن أحبهم إلى المدرسين. وقد قتل معه رجل آخر من الأهالي كما أصيب أربعة من الطلاب وخمسة من الأهالي بجراح .

وفي عمان أحرق المتظاهرون عدداً من الدوائر الرسمية ومنها وزارة الزراعة ودائرة البيطرة وإحدى سيارات الإطفاء، وقد حاولوا إحراق فندق فيلادلفيا ولكنهم فشلوا في ذلك .

وقد قام جنود البادية بقمع هذه المظاهرات بواسطة القنابل المسيلة للدموع وبإطلاق الذخيرة الحية على المتظاهرين .

وفي ١٩٥٦/١/٩ أعلن نظام منع التجول في عمان وفُرضت حالة الطوارئ في جميع أنحاء المملكة، وأغلقت المدارس الحكومية .

وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت المظاهرات في السلط وفي غيرها من مدن الضفتين يومي التاسع والعاشر من الشهر نفسه .

في ١٩٥٦/١/١٧ أصدرت الوزارة قراراً بإعادة فتح المدارس بعد أن ظلت الدراسة متوقفة عشرة أيام .

وفي ١٩٥٦/١/٢٣ عاود الطلاب الحنين إلى التظاهر والاحتجاج على السياسة العامة للدولة، فاعتصم طلاب مدرستا في فصولهم وأضربوا عن تلقى الدروس، ووضعوا المقاعد خلف الأبواب ليحولوا بين المدرسين وبين الدخول. وقد اتصل مدير المدرسة بمدير التربية والتعليم في لواء البلقاء، فأوصل هذا بدوره الخبر إلى وزير التربية والتعليم الذي أصدر قراراً بتعطيل الدراسة في مدرسة السلط الثانوية حتى الثامن والعشرين من هذا الشهر وهو موعد الامتحانات الفصلية .

في الأول من مارس- آذار- ١٩٥٦ فاجأ الملك حسين الشعب الأردني خاصة والأمة العربية عامة، بل والعالم أجمع بإصدار قراره التاريخي الذي يقضي بإنهاء خدمات رئيس هيئة أركان الجيش الأردني الفريق جون جلوب، وترقية الزعيم راضي عناب إلى رتبة أمير لواء وتعيينه في المنصب الذي خلا بإقالة الفريق جون جلوب من منصبه .

وقد تضمن القرار كذلك إنهاء خدمات القائمقام باترك كوجهل مدير الاستخبارات العسكرية، وإعفاء الزعيم هاتون مدير العمليات العسكرية من وظيفتيهما .

وقد أمر جلوب بمغادرة عمان في صبيحة اليوم التالي، فغادرها غير مأسوف عليه بعد أن جنم على صدر الأردن وتحكم في سياسته أكثر من ربع قرن كان في خلاله رمزاً بغيضاً من رموز الاستعمار البريطاني الذي ابتليت به أمتنا العربية .

امتص هذا العمل الذي قام به الملك نعمة الشعب، فما أن نقلت موجات الأثير نبأ طرد الطاغية جلوب حتى خرجت الجموع إلى الشوارع في جميع مدن المملكة معبرة عن فرحتها العارمة بالتخلص من هذا الطاغية الذي لعب أقذر الأدوار في حرب فلسطين .

وقد بلغ من فرح الجماهير في عمان أن حملت الملك وهو في سيارته تعبيراً عن غبطتها وابتهاجها بتلك الخطوة الجريئة التي خطاها جلالته .

وقد صدر قرار إعفاء جلوب من منصبه في عهد وزارة سمير الرفاعي الرابعة التي ما فتئت أن استقالت في ١٩٥٦/٣/٢٠، ثم تعاقبت على الأردن فيما تبقى من هذا العام ثلاث وزارات رأسها على التوالي كل من سعيد المفتي وإبراهيم هاشم وسليمان النابلسي .

في ١٩٥٦/٣/١٥ دعا الملك حسين إلى حملة تبرعات شعبية لتسليح الحرس الوطني. وقد أقبل الشعب بحماس منقطع النظير على المشاركة في هذه الحملة إدراكاً منه لأهمية السلاح في حياة أبنائه الذين يمتلكون أطول حدود مع العدو اليهودي الغاشم الذي كان دائماً يشن الغارات والاعتداءات على القرى الحدودية التي أنيط أمر حراستها برجال الحرس الوطني بأسلحتهم البدائية البسيطة .

أسهمت في الدعوة إلى هذه الحملة بقصيدتين أذيعتا من دار الإذاعة الأردنية في القدس. وقد تلقيت من دار الإذاعة شيكاً بمبلغ خمسة دنانير مقابل هاتين القصيدتين. وكان هذا المبلغ هو أول مبلغ مالي أكسبه من اشتغالي بالشعر والأدب .

في ١٩٥٦/٢/٣ بدأت العطلة الشتوية في مدارس المملكة، وقد قضينا ثلاث أيام بلياليهن من هذه العطلة في زيارة الوالدين في القدس .

استؤنفت الدراسة في الثالث عشر من هذا الشهر، وفي الخامس من نيسان - إبريل - قمنا بزيارة أخرى للوالدين في منزلهما الجديد الذي حصلنا عليه في مشروع إسكاني أقامته وكالة الغوث لأهالي قريتي القسطل ودير أبان شرقي العيزرية . وعلى الرغم من أن الوالد لا يمت بصلة إلى إحدى هاتين القريتين فقد تمكن من الحصول على مسكن في هذا المشروع . وكان مؤلفاً من غرفتين مبنيتين بالحجر الأبيض تحيط بهما أرض فضاء لا تقل مساحتها عن نصف دونم .

يُعدّ الموقع الذي بني فيه المشروع من أجمل المواقع في منطقة القدس الشرقية، فهو يطل على قرية أبو ديس وعلى الهضاب والوديان التي تحيط بها من الشرق والجنوب، وإن شئت أن نتحدث عن صفاء الجو ونقاوة الهواء في تلك المنطقة فحدث عنهما ولا حرج .

كان الوالدان سعيدين بالحصول على هذا المنزل، فقد أتاح لهما الاستقرار والتخلص من قيود الاستئجار، كما أتاح لهما الفرصة لاستقبال الأبناء والأحفاد في راحة وبشاشة واستبشار .

منذ أول نيسان - إبريل - ١٩٥٦ بدأت الهمسات تتعالى حول إضراب وشيك للمعلمين في جميع أنحاء المملكة احتجاجاً على حل نقاباتهم . وكان معلوم لواء نابلس في طليعة الذين بدأوا الإضراب في ٥٦/٤/٧ إلى أجل غير مسمى .

وفي اليوم التالي تنادى معلوم مدارس السلط إلى عقد اجتماع للنظر في المشاركة فيه .

كنت واحداً من المتحمسين للإضراب بل والمحرّضين عليه، وقد بدأ عدد المضربين في التصاعد يوماً بعد يوم .

وفي ٥٦/٤/١٠ قمت والأستاذ محمد فارس عبد المجيد، والأستاذ عدنان أبو عودة - وهما من نابلس ومن زملائي في ثانوية السلط - قمنا بتمثيل مدرسة السلط الثانوية في الاجتماع الذي عقده ممثلون عن مدارس لواء البلقاء في أحد مُسَنَرَّهَات الرصيفة . وقد قرر المجتمعون الاستمرار في الإضراب حتى تستجيب الحكومة إلى مطالب المعلمين .

وفي ٥٦/٤/٣١ أصدر سمير الرفاعي - رئيس الوزراء - إنذار شديد اللهجة للمعلمين يهدد فيه كل من لا يعود إلى عمله بالفصل النهائي من وظيفته. وقد أثار هذا الإنذار نقمة المعلمين واشمزازهم فقرّر ممثلوهم مواصلة الإضراب .

وبعد أربعة أيام من صدور الإنذار بدأ الضعف يدب في صفوف المعلمين، وبدأت أعداد منهم تستجيب إلى الإنذار. وفي هذا النطاق عاد خمسة من معلمي مدرستنا الثلاثين إلى المدرسة وهم الأساتذة: عبد الرووف اللبدي، ومحمد رسول زيد الكيلاني، وعبد الفتاح خريسات، وعبد الحافظ أبو عميره، ومحمود أبو ذياب .

استمر الإضراب حتى الحادي والعشرين من نيسان - إبريل - ١٩٥٦ وهو اليوم الذي عاد فيه جميع المدرسين إلى أعمالهم استجابة لنداء ممثليهم الذين أنهوا الإضراب دون أن يحصلوا على أي مطلب من مطالبهم .

كان عدم تضامن المعلمين، وتفرق صفوفهم، في طليعة الأسباب التي أدت إلى إجهاض الإضراب وفشله . وقد نجحت الدعاية المضادة التي شنتها الحكومة على المعلمين في استقطاب الأهالي، مما أفقد المعلمين

تعاطف الرأي العام معهم فراح الناس يتهمونهم بالأنانية، والحرص على المصالح القنوية الضيقة في هذه المرحلة العصبية التي يمر بها الوطن .
وفي ١٩٥٦/٤/٢٢ استؤنفت الدراسة في جميع مدارس المملكة بصفتيها . وفي نهاية حزيران - يونيو - ١٩٥٦ انتهى العام الدراسي الأول في حياتي التعليمية .

عزمت على السفر مع زوجتي إلى القاهرة لتضع مولودها الأول في رعاية والدتها التي لن تجد أفضل منها في رعايتها لها في مثل هذه المناسبة .

وقف الوالدان من هذا القرار موقف الرفض المعارض، فقد كانا يتوقان إلى أن تقع أنظارهما على أول أحفادهما من ولدهما الأكبر قبل أي إنسان في العالم، ولكني أصررت على السفر متذرعاً بأن زوجتي لن تلقى الرعاية التي تتطلبها من أي إنسان أكثر من والدتها التي لم تنجب غيرها .

قررنا أن نسافر بحراً اختصاراً للنفقات، إذ لم يكن راتبى ليزيد عن ثمانية وعشرين ديناراً ونصف الدينار، ولكي أفي بنفقات السفر اضطررت إلى أن آخذ قرضاً مقداره راتب شهرين من وزارة التربية والتعليم تسرده مني على مدار عام كامل .

بدأنا أول رحلة لنا إلى القاهرة بعد تخرجي في ١٩٥٦/٧/٤ حيث توجهنا براً إلى دمشق ومنها إلى بيروت التي بلغناها في العاشرة والنصف مساءً، حيث قضينا ليلتنا في فندق النداء بالقرب من ميناء بيروت .

في اليوم التالي حجزت مكانين على ظهر الباخرة اليونانية "أغا ممنون" المتجهة إلى بور سعيد . وقد أفلعت بنا الباخرة في الخامسة من مساء يوم ١٩٥٦/٧/٧ .

تعرفنا على ظهر هذه الباخرة على زوجين عراقيين يعملان في التدريس هما الأستاذ عبد الرزاق عبد الوهاب وزوجته الأستاذة نجية. وكانا متوجهين إلى القاهرة للسياحة وعلاج الزوجة التي لا تنجب من العقم، وقد أعطيناهما عنواننا في الزيتون ليقوما بزيارتنا عندما تسمح لهما الظروف بذلك .

كان هذا التعارف بيننا بداية لصداقة وطيدة بين الأسرتين استمرت نحو عشرين عاماً إذ لم تنقطع عنا أخبارهما إلا في عام ١٩٨٥. كانت صداقتنا لعبد الرزاق ونجية برهاناً يؤكد أن الأرواح جنود مجندة ما تآلف منها اتلف وما تنافرت منها اختلف .

في السابعة والنصف من صباح يوم ١٩٥٦/٧/٨ رست الباخرة في ميناء بور سعيد بعد أن قطعت المسافة التي تفصل بينه وبين ميناء بيروت في اثنتي عشرة ساعة وحسب . وقد عانت سيدة هذه المرة أيضاً من دوار البحر الأمر الذي جعلني أقرر ألا أعود إلى السفر معها عن طريق البحر بعد ذلك .

ركبنا القطار من محطة السكة الحديدية في بور سعيد في الواحدة والرابع من بعد الظهر ووصلنا القاهرة في الخامسة والرابع مساءً. وفي باب الحديد ودعنا عبد الرزاق وزوجته واتجهنا في إحدى سيارات الأجرة إلى الزيتون . وفي السادسة من مساء ذلك اليوم كانت فرحة اللقاء .

في اليوم التالي حضر الأستاذ عبد الرزاق وزوجته لزيارتنا فقمنا بواجب الضيافة نحوهما على أكمل وجه .

وفي ١٩٥٦/٧/١٤ قمنا برد الزيارة في مقرهما بفندق (مارينا بالاس) في شارع الجمهورية - إبراهيم باشا - سابقاً . سررنا كثيراً عندما وجدنا أن الشقيق غالب ما زال في القاهرة، فقد كنا نعلم قبل مغادرتنا الأردن أنه يستعد للعودة بعد أن أنهى دراسته وتخرج في معهد المعلمين الخاص بالزيتون .

وفي ليلة الرابع من آب- أغسطس- ١٩٥٦ بدأت سيدة تشعر بالآلام
الوضع... وفي الصباح بادرت بنقلها إلى مستشفى الجمعية اليونانية
بالعباسية حيث حجزت لها غرفة خاصة كي تضع فيها مولودها الأول تحت
إشراف الأطباء .

كانت تلك المستشفى من المستشفيات الخاصة التي تتمتع بسمعة
حسنة في كفاية أطبائها وارتفاع مستوى الخدمة فيها واستمرت سيدة تعاني
من آلام الوضع أكثر من ستين ساعة .

وفي الساعة الثالثة والدقيقة السابعة من فجر اليوم السادس من آب-
أغسطس- سنة ١٩٥٦ وضعت سيدة أول أبنائها، وكان مولوداً ذكراً
والحمد لله . وقد أطلق عليه اسم " نزار" . وقد وضعت أم نزار طفلها على
يد الطبيب اليوناني "آرثيسيادس" .

كانت عملية الولادة عسيرة جداً، وكان فرحي بسلامة سيدة أكثر
من فرحي بالمولود . وقد حمدت الله على ذلك .

كانت ليلة الوضع ليلة لم يغمض لي فيها جفن، فقد أمضيت
الساعات التي كانت فيها سيدة في غرفة الولادة وأنا أذرع ردهات المستشفى
جينةً وذهاباً في عصبية ظاهرة وقلق بالغ عميق . وقد سدّدت أذني عن
توسلات حماتي التي كانت تهيب بي بين كل لحظة وأخرى أن أستريح أو
أن أعود إلى البيت .

لم يهدأ لنا- أنا وحماتي- بال إلا بعد أن سمعنا صرخة نزار تعلن
انتهاء آلام والدته .

غادرت المستشفى مع حماتي بعد أن هنأنا سيدة بالسلامة في
الخامسة صباحاً متوجهين من العباسية إلى محطة الدمرداش سيراً على
الأقدام بعد أن تعذر علينا إيجاد سيارة تحملنا إلى الزيتون .

أويت إلى فراشي بعد شروق الشمس واستغرقت في النوم حتى
العاشرة والنصف صباحاً حيث أسرع برفقة حماتي إلى المستشفى
للإطمئنان على سيدة ووليدها .

وقد استدعت الحالة الصحية لسيدة أن تبقى في المستشفى مع طفلها
مدة ثمانية أيام غادرتها بعدها عائدة إلى المنزل مع صغيرها في حفظ الله
ورعايته .

في ١٧/٨/١٩٥٦ دعاني الأستاذ الناقد الأديب كامل السوافيري
لتناول طعام الغداء في أحد مطاعم القاهرة الفاخرة بشارع عبد الخالق
ثروت. وكان الأستاذ كامل لا يزال عزباً على الرغم من أنه كان على وشك
أن يتم العقد الرابع من عمره .

بعد تناول طعام الغداء توجهنا معا إلى كازينو أوبرا حيث يلتقي
الروائي الكبير الأستاذ نجيب محفوظ كل يوم جمعة بأصدقائه ومريديه. وقد
تعرفت في هذا اللقاء على كل من الدكتور يوسف إدريس والشاعر علي
أحمد باكثير والشاعر صلاح الدين عبد الصبور والدكتور عبد القادر القط
والشاعر محمد فوزي العنتيل والأديب توفيق حنا .
وكنّت قبل هذا اللقاء قد قمت بزيارة من سبق أن عرفتهم من
الأصدقاء الكتاب والشعراء من قبل .

وفي مساء هذا اليوم انطلقت مع الأستاذ السوافيري والعنتيل وحنا
وأحمد الفاسي لزيارة الأديب السعودي الأستاذ سعيد العامودي رئيس تحرير
مجلة الحج الحجازية، ثم زرنا بعده الأديب الحجازي الأستاذ عبد الله عبد
الجبار أحد اللاجئين السياسيين السعوديين في القاهرة .

وفي ١٨/٨/١٩٥٦ زارني الصديق الوفي الشاعر السوري علي
دمر ليهنئني بقدوم نزار. وقد أمضينا معاً طوال اليوم ونحن نستعيد ذكريات
أيامنا الجميلة السابقة .

وكان علي دمر بعد تخرجه قد تعاقد للعمل في سلك التدريس بالمملكة العربية السعودية في الوقت الذي توجهت فيه مع عروسي إلى الأردن.

وفي نهاية أيلول- سبتمبر ١٩٥٦ عدنا إلى الأردن وبدأ العام الدراسي الثاني في مطلع أكتوبر من تلك السنة. وبدأ المهنتون يتوافدون على منزلنا في السلط لتهنئتنا بسلامة العودة وبولادة نزار. ولم يحضر والدان لرؤية نزار إلا بعد أن أتم شهره السادس بسبب موقفهما المعارض لسفرنا إلى القاهرة .

في هذه الأثناء بدأت البلاد تستعد للانتخابات النيابية الجديدة. وفي ٢١/١٠/١٩٥٦ جرت انتخابات نيابية اعترفت جميع الاتجاهات السياسية في البلاد بنزاهتها .

وقد أفرزت هذه الانتخابات برلماناً مثلت فيه جميع الأحزاب والكتلات. وقد مارستُ حقي الانتخابي للمرة الأولى في حياتي، وكنت مشرفاً على لجنة من لجان فرز الأصوات في السلط . أما صوتي فقد منحتُه لمرشح الحزب الوطني الاشتراكي الأستاذ عبد الحليم النمر، وهو الحزب الذي كان يتزعمه سليمان النابلسي .

وقد أسفرت هذه الانتخابات عن فوز الحزب الوطني الاشتراكي بأحد عشر مقعداً وفوز الجبهة الوطنية بثلاثة مقاعد وحزب البعث العربي الاشتراكي بخمسة مقاعد وفوز الإخوان المسلمين والتحريريين بخمسة مقاعد، وفوز الحزب الشيوعي بمقعدين، أما بقية المقاعد فكانت من نصيب الشخصيات الراديكالية المستقلة والمحافضة .

وعلى الرغم من فشل سليمان النابلسي شخصياً في هذه الانتخابات فقد كلفه الملك بتشكيل الوزارة الجديدة .

وفي اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦ وهو اليوم الذي بدأ فيه العدوان الثلاثي على مصر صدر المرسوم الملكي بتشكيل الوزارة التي ألفها النابلسي .

امتاز عام ١٩٥٦ بكثرة الاعتداءات الإسرائيلية على كل من الأردن وسوريا ومصر، وكانت القوات المسلحة في هذه الأقطار الثلاثة ترد على تلك الاعتداءات، لكن الخسائر التي كان يُمتنى بها العرب كانت تفوق بكثير تلك التي تقع في صفوف الأعداء الذين اعتادوا على أن يأخذوا دائماً بزمام المبادرة في اعتداءاتهم .

وقد استمروا في ذلك لما حققته لهم هذه السياسة من نجاحات وفوائد منذ أن أنشأوا كيانهم السرطاني في فلسطين .

بدأ العدوان الثلاثي على مصر بهجوم القوات الإسرائيلية على سيناء التي تمكنت من اكتساحها والوصول إلى الشاطئ الشرقي لقناة السويس .

أما القوات البريطانية والفرنسية التي تذرعت بالتدخل من أجل الفصل بين المصريين والإسرائيليين فقد تمكنت من احتلال بور سعيد وبور فؤاد والشريط الممتد من بور سعيد حتى مدينة الإسماعيلية . ولم يكن خافياً على أحد أن تأميم الرئيس جمال عبد الناصر لشركة قناة السويس كان هو السبب الحقيقي المباشر لذلك العدوان .

لم تتمكن دول العدوان الثلاثي من تحقيق أهدافها في إسقاط عبد الناصر، واستعادة السيطرة على القناة، والبدء في تحقيق حلم إسرائيل الكبرى بوصولها إلى القرب من شواطئ النيل .

وقد فشل العدوان لأن هيئة الأمم المتحدة أرغمت الدول الثلاث على سحب جيوشها من قطاع غزة وسيناء ومنطقة القناة، وقد ساعد الضغط الأمريكي وعدم التقاء المصالح الأمريكية مع المصالح الإنجليزية والفرنسية

بالإضافة إلى الإنذار الروسي على نجاح قرار الهيئة وتنفيذه وفشل ذلك العدوان .

وقد تعزز مركز الرئيس عبد الناصر بعد فشل العدوان الثلاثي، وارتفعت أسهمه في الأقطار العربية، وازدادت جذوة القومية العربية توهجاً واشتعالاً .

في ١٤/٣/١٩٥٧ اتفقت كل من بريطانيا والأردن على إنهاء العمل بالمعاهدة التي كانت تحكم العلاقة بين الدولتين منذ عام ١٩٤٨، وقد صادق البرلمان الأردني على ذلك بالإجماع . وتم جلاء القوات البريطانية عن الأردن في عام ١٩٥٧ .

بعد ذلك بدأت الإشاعات تتحدث عن خلافات بدأت تظهر بين الملك حسين ورئيس وزرائه سليمان النابلسي . ولم تلبث الرسالة المفتوحة التي وجهها الملك إلى النابلسي أن أكدت تلك الشائعات . فقد حث الملك رئيس وزرائه على ضرورة التزام الوزارة بسياسة مكافحة الشيوعية، والتمسك بالعقيدة الإسلامية . وكان الملك محقاً في ذلك . فقد استغل الشيوعيون مناخ الحرية الذي وفرتة حكومة النابلسي فازدادوا نشاطاً وجرأة . وقد تجاهل النابلسي توجيهات الملك وتوصياته فتضاعفت الخلافات بين الطرفين .

وقد حدث أن قامت بعض الكنائس بمناورة فُسِّرَتْ على أنها محاولة للقيام بانقلاب عسكري في البلاد الأمر الذي أغضب الملك وحمله على مطالبة النابلسي بتقديم استقالته فتقدم بها الرجل في ١٠/٤/١٩٥٧ .

وفي ١٥/٤/١٩٥٧ تشكلت وزارة جديدة برئاسة الدكتور حسين فخري الخالدي .

وقد فر عدد من كبار الضباط إلى دمشق، ومن هؤلاء اللواء علي أبو نوار، واللواء علي الحياوي فعين الملك اللواء حابس المجالي رئيساً

للأركان خلفاً للواء أبو نوار، وقد فرّ إلى دمشق أيضاً عدد من الوزراء السابقين منهم شفيق ارشيدات وعبد الله الريماوي .

وفي ٢٢/٤/١٩٥٧ عقد رجال الأحزاب مؤتمراً وطنياً في نابلس حضره ثلاثة وعشرون نائباً، وقد دعا ذلك المؤتمر إلى إضراب عام ومظاهرات عارمة في الرابع والعشرين من هذا الشهر، إذا لم تستجب الحكومة إلى مطالب المؤتمر التي نقلها إليها حكمت المصري، والتي تتلخص في ضرورة إلغاء الهيئة التي تشكلت للتحقيق في تحركات بعض الوحدات العسكرية، وإطلاق سراح الضباط المعتقلين، والسماح للهاربين منهم بالعودة إلى الأردن .

وفي ٢٤/٤/١٩٥٧ اندلعت مظاهرات عارمة في جميع أنحاء المملكة مما اضطر الخالدي إلى الاستقالة وتكليف الملك إبراهيم هاشم بتشكيل الوزارة الجديدة .

شكل إبراهيم هاشم وزارته وكان أول عمل قامت به هو {إعلان الأحكام العرفية} وكان أول قرار أصدره الحاكم العسكري العام - وهو رئيس الوزراء نفسه - هو حل جميع لجان التوجيه الوطني التي تألّفت في عهد النابلسي إبان العدوان الثلاثي على مصر كما أصدر أمراً بحل جميع الأحزاب وفرض نظام منع التجول .

وقد اعتقل عدد كبير من المشتبه بانتمائهم للحزب الشيوعي، وحزب البعث العربي الاشتراكي . أما مجلس النواب فقد قدم عدد من أعضائه استقالتهم ومن هؤلاء: وليد الشكعة ونعيم عبد الهادي وحكمت المصري وعبد الحليم النمر وصالح المعشر وعبد القادر طاش . وجميعهم من رجال الحزب الوطني الاشتراكي .

وفي ٣/١٢/١٩٥٧ أسقط مجلس النواب صفة العضوية عن النائبتين فائق وراد ويعقوب زيادين الممثلين للحزب الشيوعي الأردني في المجلس،

كما أسقطها عن النواب البعثيين عبد الله الريماوي ويوسف البندك وكمال ناصر وسعيد العزة وشفيق ارشيدات .

وقد أجريت بعد ذلك بقليل انتخابات فرعية فاز فيها عدد مماثل من الشخصيات الموالية للنظام . وكان عبد القادر يغمور وأحمد الداعور- وهما تحريريان- آخر نائبين أسقطت عضويتيها من مجلس النواب .

ساد الهدوء أنحاء البلاد نتيجة للشدة والحزم اللذين تسلح بهما الحكام العسكريون في كافة مناطق المملكة . وكانت الأحكام العرفية تجيز للحاكم العسكري العام ومساعديه أن يأمرؤا باعتقال أي شخص وتفتيشه وتوقيفه وحجزه للمدة التي يرونها مناسبة وتتيح لهم اقتحام المنازل والمؤسسات وتفتيشها في أية ساعة من ساعات الليل والنهار .

وقد استمرت هذه الأحكام سارية المفعول حتى نهاية نوفمبر سنة ١٩٥٨م .

وقد عانت أسرتي كثيراً من هذه الأحكام، فقد اقتحم رجال الشرطة منزلي عدة مرات أجروا خلالها عمليات تفتيش دقيقة للعثور على ما يمكن أن يدينني أو يؤكد شكوك المباحث والمخابرات نحوي . ولكنهم كانوا يخرجون في كل مرة بخفي حنين .

كانوا يقلبون أثاث البيت رأساً على عقب، ويُقلبون صفحات الكتب في مكتبي صفحة صفحة بل إنهم لم يكونوا يتورعون حتى عن النظر في المراحض وتحت أصص الورد في حوش المنزل .

وفي كل مرة كانوا يداهمون فيها المنزل كانت شفة زوجتي السفلى تصاب بتورم مفاجيء نتيجة لفزعها وخوفها علي . والغريب في الأمر أن ذلك التورم كان لا يلبث أن يفارق شفتها في اليوم التالي . وقد تكرر ذلك عدة مرات .

في ١٩٥٧/٣/٢ وأنا بين طلابي في أحد الفصول بالمدرسة طُرق الباب ففتحته وإذا بالفراش يقول: يا أستاذ رجا الأستاذ حكمت يريدك في مكتبه الذي ينتظر في فيه اثنان من رجال الشرطة المسلحين . قلت للفراش: حسنا سأحضر حالاً... أذهب وأبلغ المدير بذلك .

كان الجو بارداً وكنت أرئدي معطفاً سميكاً يرد عني عادية برد السلط، وقبل أن أتوجه إلى مكتب المدير طرقت باب الصف الذي كان فيه الأستاذ أحمد سلامة الكلوب وأخبرته بسرعة أن اثنان من رجال الشرطة في انتظار في مكتب المدير، وتوجهت إلى مكتب الأستاذ حكمت الساكت . دلفت إلى المكتب، وألقيت التحية، فبادرني المدير بقوله: هذان الشرطيان يريدان أن يصحباك يا أستاذ رجا إلى المنزل .

قلت: أهلاً بهما وسهلاً .

ثم التفت إلى الشرطيين وقلت: هيا بنا، تفضلاً .

نهض الرجلان وسار أحدهم إلى يميني والآخر إلى يساري وانطلقنا إلى المنزل... وكنت آنذاك أسكن في شقة بالطابق الأول بمنزل السيد جميل حنر أحد رجال السلط المسيحيين .

قلت في نفسي: أمل أن تكون أم نزار قد تنبهت إلى وجود رجال الشرطة حتى تستوعب الصدمة قبل أن يدلفوا إلى البيت لتفتيشه.

عندما وصلت البيت مخفوراً مع الشرطيين رأيت ضابطاً برتبة ملازم ورقياً وشرطياً في انتظارنا عند البوابة الرئيسية للمنزل .

أطلت أم نزار من الشرفة ورأتني قادماً مع الرجلين فداخلني شيء من الطمأنينة .

وقبل الدخول بادرني الملازم بقوله: هل تسمح لنا يا أستاذ بتفتيش المنزل؟

قلت: وإن لم أسمح لكم فهل ستمثلون لرغبتني وتعودون أدرأجكم؟!

قال: بالطبع لا، ولكنني أستاذك تأديباً، وأنت تعلم أن من حقنا مداومة أي منزل وتفتيشه دون تصريح من المدعي العام، فنحن في ظل الأحكام العرفية كما لا يخفى عليك .

قلت: إذن فإن من الأفضل أن تقوم بما أنت مكلف به دون مجاملات كاذبة .

قال: حسناً، يبدو أنك تعشق الصراحة يا أستاذ رجا .

قلت: ليس أفضل من الصراحة والصدق في هذه الحياة .

دلف الملازم ومرافقه إلى المنزل... وكان المركس هو أول مكان توجه إليه الرقيب .

بدأ الرجال مهمتهم، قلبوا أثاث المنزل رأساً على عقب، وقلبوا صفحات الكتب التي تحتوي عليها مكتبتي صفحة صفحة . وأخذ الملازم يتصفح ديوان شعري المخطوط ويهز برأسه قائلاً: والله شعر رائع يا أستاذ... أنت شاعر وطني عنيف... لسانك بقطر سما على الخونة... قلت لا خير فيه إن لم يفعل .

لم ينسوا أن يحملقوا في فوهة المرحاض، ولم يفتهم أن ينظروا أسفل أصص الورد خارج الشقة . وبعد أن فرغوا من مهمتهم طلب إليّ الملازم أن أصحبهم إلى دار المحافظة للتوقيع على محضر التفتيش الذي يثبت أنهم لم يتسببوا في إتلاف شيء من أثاث المنزل .

رافقتهم إلى حيث أرادوا وقد تزامن خروجنا من المنزل مع خروج طلاب الثانوية في فرصة الغداء . كان الطلبة ينظرون إلى أستاذهم المحاط بخمسة من رجال الشرطة يقودهم ضابط باستهجان، وسألني عدد منهم: خيراً يا أستاذ رجا ماذا هنالك؟!

وكنت أرد على تساؤلاتهم بقولي: خيراً إن شاء الله ليس هناك ما يدعو إلى القلق .

علق الملازم قائلاً: أنت محظوظ بمحبة طلابك يا أستاذ رجا .

قلت: إن حب الطلاب هو أثمن ما يسعى إليه الأستاذ .

وصلنا إلى دار المحافظة، وحرر المحضر المطلوب، ثم قمت بتوقيعه. وبعد ذلك قال ضابط برتبة نقيب: أرجو أن تعذرنا يا أستاذ رجا فإننا لا نقوم إلا بما يمليه علينا الواجب .

قلت: هذا صحيح لكل إنسان منا واجب يقوم به .

قال: عد راشداً إلى طلابك وأرجو ألا نكون قد أثقلنا عليك .

قلت: أبداً... لا لوم عليكم ولا تثريب... استودعكم الله .

كان الضابط الذي كان على رأس القوة التي فتشت منزلي فلسطينياً من بيت ريماء يدعى جميل الريماوي . وهو من أبناء عمومة عبد الله الريماوي . وكان بين طلابي في المدرسة طالب يدعى منور الريماوي . كان الملازم جميل فتىً وسيماً معجباً بنفسه، حريصاً على أن يلفت إليه أنظار النساء.... وقد أدى حرصه على ذلك إلى نقله من مادبا إلى

السلط بعد أن تعرض للضرب من بعض شبان مادبا الذين ضبطوه متلبساً بمعاكسة إحدى الجميلات .

بعد واقعة التفتيش بأيام قليلة حضر إليّ في غرفة المدرسين الطالب منور الريماوي وقال: جئت لأعترف لك يا أستاذ رجا عما سببه لك جميل من إزعاج .

قلت متظاهراً بعدم الفهم: ومن هو جميل الذي تتحدث عنه يا منور؟ قال: الملازم جميل الريماوي .

قلت: كان الرجل يقوم بواجبه وذلك أمر طبيعي .

قال: لا تحاول تهوين الأمر علينا يا أستاذ... إن أهل بيت ريما كلهم يكرهونه ويخجلون من تصرفاته الرعناء .

قلت: وكيف عرفت أنه كان على رأس القوة التي فتشت منزلي؟

قال: التفتيته في البلد في عطلة نهاية الأسبوع، وحدثني عن واقعة التفتيش .

قلت: وماذا كان تعليقك بعد أن فرغ من مهمته؟

قال: اعترف بأنهم لم يتمكنوا من العثور على ما يدينك، ولكنه أكد في الوقت نفسه قناعته وقناعة المباحث بخطورتك .

قلت: وبماذا رددت عليه ؟

قال: قلت له لو أنصف الزمن لما أتاح الفرصة لواحد مثله أن يتسبب في إزعاج الأستاذ رجا وإقلاق راحته .

قلت: بارك الله فيك يا منور، يكفيني ذلك منك ومن أمثالك من الطلاب البررة .

وتمضي الأيام ويتورط الملازم جميل في مشكلة أخلاقية تؤدي إلى طرده من سلك الشرطة، ويسافر إلى القاهرة، ويستغل قرابته لعبد الله الريماوي، ويحصل على حق اللجوء السياسي مدعياً أنه من الضباط الأحرار، ويقوم في الجمهورية العربية المتحدة رداً من الزمن .

وهكذا تزيّف الوقائع، وتشوه الحقائق، ويدّعي البطولة والوطنية الخونة والمتسلقون والطفيليون .

في الثاني عشر من ربيع الأول عام ١٣٧٧هـ الموافق للسادس من أكتوبر سنة ١٩٥٧ ميلادية رُزِقنا بولدننا الثاني محمد .

لم يكن هناك أفضل من هذا الاسم لنطلقه على ولدنا الذي جاء إلى هذه الدنيا في يوم المولد النبوي الشريف .

وقد ولد كشقيقه نزار في مستشفى الجمعية اليونانية بالقاهرة، وبعد شهر من ولادته عادت به أمه إلى الأردن . وكانت قد سافرت وحدها إلى القاهرة بسبب منعي من السفر إلى الخارج في ذلك العام . وقد استقبلتهم بفرح غامر وحمدت الله على وصولهم سالمين .

سرُّ الوالد بمقدم محمد ومما ضاعف سروره حملة لاسمه، وهكذا لم يلبث أن أطلقنا عليه اسم محمد سمرين الثاني .

في مطلع فبراير عام ١٩٥٨ أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا وتشكلت من القطرين دولة اندماجية واحدة أطلق عليها اسم (الجمهورية العربية المتحدة) . وعقب ذلك بأسبوعين تم التوقيع على ميثاق الاتحاد العربي الذي ينص على قيام اتحاد بين مملكتي العراق والأردن .

وبقدر ما قوبلت به الوحدة بين مصر وسوريا من الفرح والحماس من قبل الجماهير العربية، قوبل الاتحاد بين العراق والأردن بالاستهجان والفتور. كان الأردنيون والعراقيون يتمنون أن ينضم بلداهما إلى الجمهورية العربية المتحدة لتتشكل من ذلك دولة عربية اتحادية قوية يمكنها أن تكون نواة حقيقية لوحدة عربية شاملة يتمناها العرب أجمعون .

ونتيجة لهذه التطورات انسحبت القوات السعودية من الأردن، وكانت قد دخلت إليه إبان العدوان الثلاثي . وكانت القوات السورية التي دخلت الأردن في الوقت نفسه قد انسحبت منه في ١٩٥٨/٥/٢٣ بناء على طلب من الحكومة الأردنية .

وفي ٥٨/٥/١٤ دخلت وحدات من الجيش العراقي إلى الأردن وفي مطلع تموز - يوليو - ١٩٥٨ تشكلت وزارة الحكومة الاتحادية . وفي ١٩٥٨/٧/١٤ اندلعت في العراق نيران ثورة عارمة قام بها الجيش العراقي بزعماء الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف . وقد أدت هذه الثورة الدموية إلى مصرع الملك فيصل الثاني وخاله الأمير عبد الإله ولي العهد ورئيس الوزراء نوري باشا السعيد وغيرهم من أركان النظام الملكي في بغداد .

وقد أسرف الثوريون العراقيون في سفك الدماء التي ظلوا يريقونها إلى أن جرفهم تيارها المتدفق .

وقد ذهب عدد من المسؤولين الأردنيين الذين توافق وجودهم مع نشوب الثورة في بغداد ضحايا لهذه الثورة المجنونة العمياء . وهؤلاء الضحايا هم: إبراهيم هاشم وسليمان طوقان وعذنان الحسيني والرئيس سليم صوالحة .

وقد قطعت الأردن علاقاتها الدبلوماسية مع الجمهورية العربية المتحدة بسبب اعترافها بحكومة الثورة في العراق .

وقد تعرض الأردن لحملات عنيفة من محطات صوت العرب والقاهرة ودمشق؛ وقد أصبح الاستماع إلى إحدى هذه المحطات - وبخاصة - صوت العرب جريمة يعاقب عليها المستمع بالاعتقال .

وقد استدعى الأردن قوات بريطانية لحمايته من الأخطار التي استشرها من قبل العراق من جهة، والجمهورية العربية المتحدة من جهة

أخرى، فهيّطت قوات المظليين البريطانيين في مطار عمان، كما نزلت فرقة من المشاة في ميناء العقبة . غير أن هذه القوات لم تثبت أن انسحبت من الأردن في ١٩٥٨/١١/٢ .

وفي لبنان نزلت قوات أمريكية في ميناء بيروت بناءً على رغبة من رئيسه كميل شمعون .

على الصعيد الأسري في هذا العام، عانى ولدنا محمد من بعض أمراض الطفولة . وتزوج الشقيق غالب من مريم ابنة العم محمد مطر، وقد زُفّت إليه في ليلة نشوب الثورة في العراق مما ألقى ظلالاً قاتمة وكئيبة على الاحتفال .

وفي هذا العام حصل الشقيق فرج الله على شهادة "الصب مترك" ولم يُقدّر له أن يلتحق بأية جامعة فاستقدمه شقيقه غالب إلى الكويت حيث عمل في مخزن للأدوية يملكه رجل فلسطيني حاصل على الجنسية الكويتية يُدعى نبيل القدومي .

وقد لمع فرج الله في عمله، وكان يحصل على مرتب ضخم يفوق بكثير ما يحصل عليه نظراؤه الذين يعملون في الدوائر الحكومية... ولم يلبث فرج الله أن تزوج من ابنة عمه رابعة الشقيقة الصغرى لزوجة الشقيق غالب .

في مطلع إبريل سنة ١٩٥٩ سافرت أم نزار وولداها نزار ومحمد إلى القاهرة لتضع مولودها الثالث كالعادة . لم تكن ظروفنا تسمح لي بمرافقتهم، فقد كان لا يزال هناك أكثر من شهرين حتى نهاية العام الدراسي.

وفي ١٩٥٩/٤/٢٣ وصلتني برفقة من العم كامل بشرني فيها بقيام أم نزار بالسلامة، وبوضعها طفلة أطلق عليها اسم "جميلة" وكانت جميلة قد

ولدت قبل وصول البرقية بيوم واحد. وقد وضعها أمها في المستشفى الذي سبق أن وضعت فيه شقيقها نزار ومحمد . وقد أطلق العم كامل على حفيدته اسم جميلة تيمناً بالمجاهدة الجزائرية "جميلة بوحريد" التي كان صبيها قد ذاع في تلك الأيام، وأصبحت مثلاً يُحتذى في الجهاد والصبر على التعذيب، والوقوف ببسالة منقطعة النظير في وجه المستعمر الغاشم اللئيم .

وكنْتُ قد نُقلتُ من ثانوية السلط إلى ثانوية رغدان بعمان في أول مارس عام ١٩٥٩ .

كان انتقالي من السلط أمنية أُتُبلَغ إلى تحقيقها بفارغ الصبر. وقد ذهبت الطلبات التي كنت أقدم بها إلى الوزارة من أجل ذلك أدراج الرياح. ولكن إرادة الله قد تدخلت وجعلت الوزارة تصدر قراراً بنقلي من السلط مرغمة كارهة . فقد حدث ما أرغمها على ذلك وما جعل مجرد التفكير بإبقائي في السلط من قبل أي مسؤول في الوزارة حماقة لا يستطيع أن يتحمل مسؤوليتها .

نقلت من ثانوية السلط بعد أن بلغ ياسي من مفارقتها ومفارقة طلابها حداً جعلني أؤمن بأن وجودي فيها أصبح لعنة لا خلاص منها ولا مناص، أو أنه قدر لا سبيل إلى تغييره أو تجاوزه . أما السبب الذي فتح باب انتقالي من السلط ومدرستها على مصراعيه فيتلخص فيما يلي :

في أواخر شباط - فبراير - ١٩٥٩، أصدر متصرف لواء البلقاء السيد وحيد العوران أوامره إلى إدارات مدارس المراحل المختلفة في مدينة السلط كي يصطحب معلمو المدارس تلاميذهم ويتوجهوا إلى "مفرق العارضة" وهو نقطة تقاطع يلتقي عندها طريق عمان/ القدس بطريق عمان/ نابلس، ليقفوا هناك على جانبي الطريق ليحيوا الموكب الملكي حين مروره

من تلك النقطة متوجهاً إلى منطقة الغور حيث كان موعد افتتاح قناة الغور الشرقية .

وتنفيذاً لهذا الأمر نقلنا طلاب الثانوية في عدد من الحافلات التي أرسلتها لنا المتصرفية . وقد كلفت مع زميل آخر بالإشراف على الحافلة التي حملت طلاب الصف الثالث الثانوي/ أ .

وما أن بدأت الحافلات في التحرك حتى بدأ طلاب الحافلة التي كنت فيها يتغنون بالأغاني التي تشيد بالوحدة بين مصر وسوريا، ويهتفون بحياة الرئيس جمال عبد الناصر ويسقطون خصومه من العملاء المأجورين . وكانت أغنية المطربة اللبنانية صباح "من الموسكي لسوق الحميدية- أنا عارفة السكة لوحدة" من الأغاني التي تغنى بها الطلاب .

لم يكن من المعقول في ظل الأحكام العرفية التي جندت فيها المباحث والمخابرات العديد من الموظفين والطلاب وغيرهم من الفئات أن نسمح للطلاب بالتماهي في ذلك، في الوقت الذي كلفنا فيه باستقبال ملك البلاد .

حاولت وزميلي إسكات الطلاب، ولكنهم لم يمتثلوا، ولما تكررت محاولتنا لمنعهم مبيينين لهم خطورة ما يفعلون تصدى طالب بعثي يدعى حسن أبو زنيمه وقال في حدة ظاهرة: "إنكم لا تحاولون منعنا حباً للملك حسين بل كرهاً لجمال عبد الناصر، فنحن نعلم أنكم شيوعيون قذرون تكروهون عبد الناصر وتتمنون له كل شر" ثم أتبع ذلك بسيل من الشتائم .

خرجت عن طوري بعد أن سمعته يتلفظ بهذه الألفاظ النابية، وحاولت الوصول إليه لأؤدبه، ولكن زميلي والطلاب الآخرين حالوا بيني وبين ذلك .

وصلنا مفرق العارضة وبدأ الطلاب يترجلون من الحافلة، والتفت يميناً ويسرة باحثاً عن ذلك الطالب المأفون ولكني لم أعثر له على أثر .

لقد أدرك فداحة ما أقدم عليه فولى هارباً إلى السلط مشياً على الأقدام ولم يعقب .

توجهت إلى الأستاذ منصور^(١) الداود مساعد المدير والذي كان قد سبقنا في الوصول إلى ذلك المكان وأنبأته بما حدث، فقال: "إن شئت أن تبرئ ذمتك من المسؤولية فاكتب تقريراً بما حدث، فإننا لا نضمن ألا يصل نبأ ما جرى إلى المباحث أو المخابرات عن طريق عملائهم من الطلاب" . قلت: حسناً سأفعل إن شاء الله .

بعد عودتنا إلى المدرسة كتبت تقريراً مفصلاً بما حدث وسلمته إلى المدير حكمت الساكت الذي رفع صورة منه إلى المتصرف وصورة أخرى إلى الوزارة .

وفي اليوم التالي حضر عدد من رجال الشرطة للقبض على الطالب الذي تزعم الشغب، كما حضرت لجنة من الوزارة برئاسة الشيخ إبراهيم القطان للتحقيق فيما حدث .

تغيب الطالب حسن أبو زينة في ذلك اليوم عن المدرسة؛ ودخلت لجنة التحقيق إلى الصف ودخلت معهم . وقد اختار الشيخ القطان ثلاثة من الطلاب اختياراً عشوائياً وسأل كلأ منهم على حده إن كان قد شارك في الغناء أو الهتاف فاعترفوا ثلاثتهم بذلك .

ظن الطلاب الثلاثة أن الشيخ سيسأل جميع زملائهم في الصف، كما ظنوا أن اعتراف الجميع المتوقع سيكون كافياً في إسقاط العقوبة عنهم،

(١) استشهد الأستاذ منصور رحمه الله في إحدى الغارات التي شنتها الطائرات الإسرائيلية على مدينة السلط سنة ١٩٦٧م.

غير أن الشيخ كان أدكى منهم وأرحم بهم من أنفسهم، فلم يسأل غير الطلاب الثلاثة الذين اعترفوا بالمشاركة .

اقتاد رجال الشرطة الطلاب الثلاثة إلى دار المتصرفية حيث خضعوا للاستجواب والضرب . وقد استمر اعتقالهم شهراً كاملاً، ثم أطلق سراحهم بعد ذلك .

سمع الطالب حسن أبو زينة الذي كان قد انقطع عن الدراسة طوال المدة التي قضاها زملاؤه الثلاثة في الاعتقال بالإفراج عنهم قبادر إلى تسليم نفسه ظناً منه أن السلطات ستعامله المعاملة نفسها .

ولكن فأل هذا الطالب المأفون قد خاب، فقد قُدم إلى المحاكمة باعتباره المتهم الذي تولى كبر هذه المشكلة . وقد حكمت عليه المحكمة بالسجن ستة أشهر مع الشغل والنفاد .

بعد ذلك أصبح وجودي في السلط ومدرستها أمراً غير محمود العواقب، فقد كان من الممكن بل ومن المؤكد أن أتعرض للاعتداء من قبل هؤلاء الطلاب أو بعض أقربانهم . وحتى لا يحدث شيء من ذلك فقد سارعت الوزارة إلى نقلني من السلط إلى عمان .

في ١٩٥٩/٣/١ بدأت الدوام في مدرسة رغدان الثانوية، وقد استمر عملي فيها شهراً واحداً نُقلتُ بعده إلى ثانوية الحسين حيث أكملت فيها بقية العام الدراسي .

وفي بداية العام الدراسي الجديد ٦٠/٥٩ نُقلتُ مرة أخرى إلى ثانوية رغدان حيث أمضيتُ فيها ثلاث أعوام مرت جميعها في هدوء وسلام لم يعكر صفوها مشادة بيني وبين أحد من طلاب المدرسة الذين لا يمكن مقارنتهم بطلاب ثانوية السلط .

عملت في ثانوية السلط ثلاثة أعوام دراسية كاملة ونصف العام، وقد عمل معي فيها في خلال هذه الفترة القصيرة التي قضيتها فيها عدد من الأساتذة الذين أصبح لهم شأن كبير فيما بعد، ومن هؤلاء :

١. الأستاذ حكمت الساكت الذي أصبح وزيراً للزراعة مرة ووزيراً للتربية والتعليم مرة ثانية .

٢. الأستاذ محمد رسول زيد الكيلاني، وكان مدرساً للدين الإسلامي في المدرسة وبعد حصوله على إجازته في الحقوق من جامعة دمشق انتقل للعمل في الجيش، وقد مثل دور المدعي العسكري في قضية اغتيال هزاع المجالي ونجح في تقديم المتهمين الأربعة باغتياله إلى حبل المشنقة . ثم تولى بعد ذلك منصب مدير المباحث والمخابرات، ثم أصبح بعد ذلك وزيراً للداخلية، ثم مستشاراً للأمن القومي للملك وعضواً في مجلس الأعيان كما سبق أن عمل سفيراً للأردن في المملكة العربية السعودية .

٣. الأستاذ عدنان أبو عودة، وكان مدرساً للغة الإنجليزية في المدرسة، وقد أصبح فيما بعد وزيراً للإعلام ووزيراً للبلاط وممثلاً للأردن في الأمم المتحدة ومستشاراً للملك .

٤. الدكتور إسحق الفرحان، وكان مدرساً للكيمياء وقد أصبح بعد حصوله على الدكتوراه رئيساً للجامعة الأردنية، فوزيراً للتربية والتعليم وعضواً في مجلس الأعيان فأميناً عاماً لحزب جبهة العمل الإسلامي ورئيساً لجامعة الزرقاء الأهلية .

أطل عام ١٩٦٠ والأوضاع ما زالت متوترة في الأردن، وقد حاولت تحت ضغط الظروف العصيبة الناجمة عن ضائقة المرتب الذي لم يكن يتناسب مع النمو المطرد في عدد أفراد الأسرة وارتفاع تكاليف المعيشة... أقول حاولت أن أقدم استقالتي من وزارة التربية تمهيداً للعمل في أي جهة أخرى أو بلد عربي آخر .

كانت البعثات التي تأتي للتعاقد مع المدرسين تتوالى على البلاد، وكم تمنيت أن تُتاح لي الفرصة للتعاقد مع إحداها، ولكن وزير التربية

والتعليم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الذي كان يكرهني جداً أجهض كل محاولة من محاولاتي التي قمت بها لتحسين وضعي .

لقد رفض الشنقيطي استقالتي ثلاث مرات حيث أُتيحت لي فرص التعاقد مع المغرب العربي مرة ومع البعثة الليبية مرة ثانية، ومع الكلية القبطية في القدس مرة ثالثة، وكانت البطريركية القبطية ترغب في تعييني مديراً لتلك الكلية .

وقد تقدمت في هذا العام لامتحان مسابقة في دار الإذاعة الأردنية، وقد نجحت في الامتحان، ولكن فرحتي بالنجاح وبقرّب خلاصي من سلك التربية والتعليم (على رغم حبي له) لم تتم، فقد بادر واحد من الذين كانوا يتعاملون مع الإذاعة بإبلاغ الأستاذ صلاح أبو زيد مدير الإذاعة في ذلك الوقت أن رجا هذا الذي تنوي أن تطالب وزارة التربية والتعليم بالموافقة على نقله إلى دار الإذاعة شيعي كبير .

اضطر صلاح أبو زيد بعد سماعه لهذه الوشاية إلى العدول عن مطالبة وزارة التربية بالموافقة على نقلي إلى دار الإذاعة .

وقد ظل اسم الواشي هذا مجهولاً لدي حتى اعترف لي هو نفسه بذلك. بعد أن أصبح واحداً من أصدقائي المقربين . وقد برر فعلته بتبريرات غير مقنعة .

صدمت عندما اعترف لي صديقي بذلك ولكنني هونت عليه الأمر بقولي: إن الخيرة فيما يختاره الله دائماً وإنني ما كنت لأعمر في الإذاعة حتى لو نقلت إليها بسبب عدم التوافق بين اتجاهاتها واتجاهاتي في السياسة. أما هذا الصديق فلم يكن مع الأسف الشديد سوى الأستاذ خ. س، وكان من المدرسين العاملين معي في ثانوية السلط .

في الثاني من حزيران - يونيو - ١٩٦٠ رزقنا بولدنا الثالث زياد. وقد اخترت له هذا الاسم بعد أن رأيت في نومي شيخاً جليلاً يرتدي ثياباً بيضاء وهو يبشرني بأن غلاماً سيولد لي وأن عليّ أن أدعوه "زياداً" وقد تكررت هذه الرؤيا مرتين مما أقتنعتني بأنها رؤيا حق .

ولد زياد في مستشفى الهلال الأحمر بعمان على يد الطبيب أنور البلبيسي . وكان زياد هو أول من يولد لنا من الأبناء والبنات في عمان .

وفي أثناء وجودي بعمان توثقت علاقتي بعدد من الشعراء والأدباء والنقاد في الأردن . ومن هؤلاء عبد الرحيم عمر والدكتور هاشم ياغي وعمر الخطيب وسليمان المشيني وروكس بن زائد العزيزي وعيسى الناعوري ومحمود سيف الدين الإيراني وأيوب طه وأمين شنار ومصطفى زيد الكيلاني والصحفية هدى صلاح وعرفات حجازي وغيرهم .

ومن الشخصيات المحببة التي توثقت صلتني بها في مدرسة رغدان الأساتذة: الشيخ محمد شقرة وصهره الشيخ أحمد السالك الشنقيطي وعبد الفتاح اللبدي ومصطفى الحسن مدير ثانوية رغدان .

ومن عرفتهم وأحببتهم في ثانوية الحسين الأساتذة محمد سليم وعدنان عماشة ومحمد علي سليمان . ومن كلية الحسين الشيخ محمد سردانه وعبد الجبار الفقيه .

وفي بداية العام الدراسي ٦١/٦٠ ألحقت ولديّ نزاراً ومحمداً بروضة في جبل الحسين تملكها سيدة فلسطينية تدعى أم خالد .

في ليلة الثالث عشر من شباط - فبراير - ١٩٦١، أذاعت وكالات الأنباء نبأ مصرع الزعيم الكونغولي باتريس لومومبا، وكان هذا الزعيم قد قاد شعبه في نضاله من أجل التحرر من برائن الاستعمار البلجيكي، وتمكن

بعد كفاح مرير من أن يصل بشعبه إلى ما كان يصبو إليه من الحرية والاستقلال .

إلا أن المستعمر البلجيكي لم تعوزه الحيلة للانتقام من هذا الزعيم الباسل، وإعادة نفوذه إلى البلاد؛ فعمل بكل الوسائل إلى إيقاع الفرقة بين زعماء الكونغو وجعلهم يتصارعون على السلطة وكراسي الحكم . وقد أزرروا عميلهم الأول " تشومبي" حتى تمكن هو وأنصاره من القضاء على "لومومبا" وإحراق جثته .

هزني هذا النبأ، وآلمتني هذه النهاية المأساوية للومومبا فلم أخلد إلى النوم إلا بعد أن نفست عن أحزاني بقصيدة رثيت بها هذا الزعيم الخالد . ولم تلبث هذه القصيدة أن نشرت في مجلة " القلم الجديد" التي كانت تصدر عن دار المعلمين بعمان وبإشراف الأستاذ اسحق الفرحان المدرس بالدار .

إلى هنا والأمر عادي جداً وطبيعي... زعيم مكافح يُقْتَل، وشاعر يُحْزَنه مصرع ذلك الزعيم فيرثيه، ومجلة تنشر قصيدة ذلك الشاعر ليقرأها الناس. ولكن غير العادي وغير الطبيعي هو أن يطلع وزير التربية والتعليم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي على تلك القصيدة، فتثور ثائرتة، وتقوم قيامته، ويعتبر ذلك تدخلاً من صاحب القصيدة في السياسة - وهو في عرف سماحته لا ينبغي له أن يتحدث في السياسة أو يقترب من ساحتها المحرمة من قريب أو بعيد - ومن أجل ذلك فقد بادر الوزير بالاتصال بمدير المدرسة وطلب إليه أن يصله هاتفياً بهذا المعلم الجريء الذي تجاوز مسؤولياته التربوية وراح يتدخل فيما لا ينبغي له أن يتدخل فيه .

استدعاني الأستاذ مصطفى الحسن مدير ثانوية رغدان من الصف الذي كنت فيه وقال لي وهو يبتسم: سماحة الوزير يريد أن يتحدث إليك .

فوجئت بذلك وقلت في نفسي: والله ما دعاني هذا الرجل لخير، فأنا أعرف عواطفه نحوي، ولكن ما الذي يدعوهُ إلى محادثتي بالهاتف... إن ذلك لأمر عَجَاب .

ما كنت أنطق بكلمة "هالو" حتى جاءني رد الوزير متسائلاً بحدّة: من؟ الأستاذ رجا سمرين؟

قلت: نعم يا سماحة الوزير، أنا رجا سمرين .

قال: ما لومومبا هذه يا سيد رجا؟

قلت بعد أن كتمت ضحكة كادت تنفثت مني: لست أفهم ما تعنيه يا صاحب السماحة .

قال: بل تفهم جيداً يا أستاذ . ما هذا الكلام الذي نشرته عن لومومبا في مجلة القلم الجديد؟

قلت وقد اتضح لي الأمر بجلاء لا لبس فيه: هذه قصيدة يا سماحة الوزير .

قال: ليس هذا شعراً يا رجل... إنه كلام في السياسة لا يجوز أن يصدر عن معلم يراعي مسؤولياته التربوية .

قلت: ما هي إلا قصيدة رثائية تعبر عن وجهة نظري الخاصة عن الموضوع الذي تدور حوله .

قال: وهل لومومبا إلا شيوعي حقير؟

قلت: هذا رأيكم يا صاحب السماحة ولا يسعني إلا أن أحترمه .

قال: حسناً سأعرف كيف أجعلك تحجم أنت وأمثالك عن التدخل في السياسة.

ولم ينتظر الوزير ردي على هذا التهديد، إذ بادر بإنهاء المكالمة

وإقفال الخط في وجهي بعصبية ظاهرة نمّ عنها صوت السماحة وهو يضعها على جهاز الهاتف بقوة .

ضحكت والأستاذ المدير حتى كدنا أن نستلقي على ظهرينا، ففعل

هذه هي المرة الأولى في تاريخ الأردن التي يتحدث فيها الوزير مباشرة إلى

معلم في مثل هذا الموضوع !

لم تمض بضعة أيام على هذه المكالمة بيني وبين الوزير حتى أصدرت الوزارة بلاغاً عممته على جميع مدارس المراحل في الضفتين وإن لم تخني الذاكرة فإن نص ذلك البلاغ كان على النحو التالي:

"إلى جميع المعلمين في مدارس المملكة الأردنية الهاشمية... اطلعت على قصيدة بعنوان "لومومبا" للمعلم السيد/ رجا سمرين وذلك في العدد رقم (....) بتاريخ (.....) من مجلة القلم الجديد . وهي قصيدة سياسية لا يجوز أن ينظمها معلم، حيث أنه لا شأن للمعلمين بالسياسة، كما أنه لا شأن للطلاب بها لذا أرجو أن تراعوا مسؤولياتكم التربوية وأن تمتنعوا عن كتابة أو نشر ما له علاقة بالسياسة، وسوف أعتبر المسؤول عن النشر شريكاً في المسؤولية مع من ينشر أي شيء له علاقة مباشرة بالسياسة" .

وزير التربية والتعليم

محمد الأمين الشنقيطي

ووقع جميع معلمي المملكة على هذا البلاغ، وسمع بالشاعر رجا سمرين من لم يكن قد سمع به من قبل .

وكان البلاغ بمثابة إعلان مجاني للدعاية للشاعر وقصيدته تكلفت الوزراء بسداد فاتورته .

وقد ظهر أثر الإعلان في نهاية العام الدراسي عندما أقبل عدد كبير من معلمي اللغة العربية الذين شاركوا في تصحيح امتحان الثانوية العامة الذي كنت مشاركاً فيه يسألون عني للتعرف إليّ .

وقد طالب كثيرون منهم بالإطلاع على القصيدة التي أثارت حفيظة الوزير، مما اضطرني إلى طبعها وسحب صور كثيرة عنها وتوزيعها على المدرسين كما توزع المنشورات السرية .

وكان الإقبال على شراء ديواني الأول "الضائعون" والذي صدر

عام ١٩٦٠ ونفذ نسخه من حسنات هذا الإعلان المجاني .

لقد أحسن إليّ الوزير من حيث أراد الإساءة، مما ذكرني بكثير من الأمثال والآيات القرآنية الكريمة والأقوال المشهورة منها: "رب ضارة نافعة". ومنها: "وتقدرون فتضحك الأقدار". ومنها "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين".

في نيسان- إبريل- من هذا العام وصلتني رسالتان لم أكن أتوقع وصول أي منهما في يوم من الأيام .

كانت الرسالة الأولى من الأستاذ أمين محمود السلفيتي مدير مدرسة إشوع الذي عملت معه عام ١٩٤٧ . وقد عبر عن سعادته في تلك الرسالة بسماع صوتي عبر إذاعة عمان من خلال مقابلة أجراها معي الأستاذ عبد الرحيم عمر، وقد فهم منها أنني أنهيت تعليمي الجامعي في الأزهر، وأني أعمل مدرساً في ثانوية رعدان . وقد أرفق الأستاذ محمود مع رسالته تلك شهادة ميلادي الرسمية التي كانت في ملفي بدائرة المعارف الفلسطينية في القدس .

سعدت بهذه الرسالة كثيراً ورددت عليها ردّاً رقيقاً مناسباً شكرت فيه للأستاذ أمين أريحته ومبادرته وشهامته .

أما الرسالة الثانية فكانت من الأستاذ ديب كنعان أحد المدرسين الذين عملت برفقتهم في مدرسة إشوع كذلك . وقد صور في تلك الرسالة سروره بمعرفة أخباري وبما وصلت إليه من نجاحات . وقد أجبته على رسالته برسالة مماثلة . ومما يؤسف له أنه لا الأستاذ أمين ولا الأستاذ ديب قد تفضلا بالرد على رسالتي بعد ذلك .

في ٣١/١٠/١٩٦١ رزقنا بابنتنا الثانية " ليلي " وقد وضعها أمها في مستشفى الهلال الأحمر بعمان على يد الطبيب أنور البليبيسي .

وقد نشرت مجلة "صوت المرأة" نبأ ولادة ليلي للأستاذ رجا سميرين، وكانت أول مولود من أبنائنا ينشر نبأ ولادته . وقد أصبح عدد الأبناء والبنات بقدم ليلي في أسرنا خمسة .

كانت مجلة "صوت المرأة" التي نشرت نبأ ولادة ليلي مجلة نسائية تملكها السيدة هدى صلاح وهي صحفية من نابلس متزوجة من الأستاذ أحمد حمو سكرتير مدرسة رعدان الثانوية . وكنت أحرر زاوية ثابتة في تلك المجلة بعنوان "نساء من التاريخ" . وفي هذا العام قدمت إلى وزارة الداخلية طلباً للحصول على تصريح بإصدار صحيفة أسبوعية بعنوان "الجماهير" وقد رفضت الوزارة طلبي هذا دون إيذاء الأسباب .

لم أكن قادراً في الواقع على إصدار صحيفة أسبوعية ولا حتى شهرية على حسابي الخاص . ولكن كل ما أردته من تقديم هذا الطلب هو اختبار مصداقية الحكومة التي تزعم أن جميع المواطنين سواء أمام القانون . وإن أنس قانوني لا أنسى قول مدير دائرة المطبوعات والنشر عندما استفسرت عن الأسباب التي منعت الدائرة من منحي رخصة لإصدار صحيفة حيث قال: يا أخي إحنا مش خالصين من لسانك من دون ما تكون صاحب جريدة، فكيف لو صرت رئيس تحرير؟!

كانت ليلي في الشهر السادس من عمرها عندما وقع على رأسها ثلث قالب من الطوب الإسمنتي وهي تجلس في حجر عمته نعمة أمام منزلنا في جبل الحسين . وقد وقعت تلك القطعة من الطوب نتيجة لعبث بعض الصبية من أولاد الجيران فوق سطح المنزل .

أذهلتنا المفاجأة ولم يكن الوقت مناسباً للبحث عن تسبب في وقوع تلك القطعة التي أحدثت فجوة في رأس ليلي دون أن تنزف منه قطرة دم واحدة .

سارعت وأنا مرتد "البيجاما" بحمل ليلى وتوجهت بها فوراً إلى الدكتور فؤاد حسن جبر - من عين كارم - وقد أخبرته بما حدث فحولني إلى مستشفى الهلال الأحمر بالأشرفية، في المستشفى قاموا بتصوير مكان الإصابة بالأشعة وكانت النتيجة مطمئنة، غير أن الطبيب نصح بإجراء عملية للطمئنان أكثر على المخ فرفضت ذلك وعدت بليلي إلى المنزل بعد أن وقعت على أنني أفعل ذلك على مسؤوليتي .

ومرت الأيام واختفت الفجوة من رأس الطفلة وعادت جمعتها إلى صورتها الطبيعية دون أن يحدث ذلك أي تأثير عليها .

في شهر تموز - يوليو - من هذا العام جاء الفرج الذي كنت أتمناه منذ مدة طويلة . وقد تمثل ذلك في استقالة الوزارة التي كان الشنقيطي أحد وزرائها. وحل محله في الوزارة الجديدة الشيخ إبراهيم القطان .

كانت تربطني بالشيخ القطان معرفة قديمة يرجع عهدها إلى عام ١٩٥٣ عندما كنت لا أزال طالباً في السنة الثالثة في كلية اللغة العربية . وقد تعرفت إليه في سهرة أدبية ضمنتنا في منزل الصديق كامل السوافيري في مصر الجديدة .

وقد وقف الشيخ القطان في صفي في جميع المآزق التي أوقعني بها طلاب ثانوية السلط طوال الفترة التي أمضيتها فيها .

كان الشيخ القطان يحس بنوع من المسؤولية تجاهي لأنه كان قد شجعني على المجيء إلى الأردن بعد التخرج بينما كنت أميل إلى العمل في إحدى البلاد العربية لأن ذلك كان أجدى من الناحية المادية .

دخلتني الغبطة لتولي الشيخ وزارة التربية والتعليم، وعزمت على أن أنتهز فرصة وجوده فيها لأفك ارتباطي بالوزارة . وهكذا كان .

جاءت لجنة سعودية للتعاقد مع مدرسين من الأردن في مختلف التخصصات .

قابلت مندوب اللجنة في حي الشيخ جراح في القدس، فوافق مبدئياً على التعاقد معي وعلق تنفيذ موافقته على موافقة وزارة التربية على استقالي .

توجهت في اليوم التالي لمقابلة الوزير . وعندما أذن لي بالمشول بين يديه . وبعد أن حبيته وهنأته بالوزارة بادرني مبتسماً وهو يقول: أعرف أنك لم تأت لمجرد تهنئتي بالوزارة .

قلت بعد أن بادلته الابتسام: وهل تنقص الألمعية سماحة مولانا الشيخ حتى لا يعرف الحقيقة .

قال: اجلس أيها البكاش .

جلست على أحد المقعدين أمام مكتبه الفاخر، ثم استأنف حديثه متسائلاً: ها.... ماذا تريد ؟

قلت: وهل هناك غيرها يا مولانا ؟

قال: تعني الاستقالة ؟

قلت: أنت تدري بقصتي معها .

قال: أعلم أنها قد رفضت ثلاث مرات وأنني سأرفضها للمرة الرابعة .

قلت: أرجوك ألا تفعل ذلك .

قال: أعلم أنك قد ظلمت، غير أنني عازم على رفع بعض هذا الظلم عنك .

قلت: وكيف يكون ذلك يا سيدي ؟

قال: سأعطيك في هذا العام درجة، وسأعينك مديراً في أية مدرسة ثانوية تختارها في البلاد .

قلت: بارك الله فيكم. ولكن ذلك كله لن يغريني بالبقاء... واعلموا أن أفضل معروف يمكن أن تسدوه إليّ هو قبول استقالي، فأنا لا آمن عودة الشيخ الشنقيطي إلى الوزارة مرة أخرى .

ضحك الشيخ إبراهيم ضحكة عريضة وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله ... هل أنت مصر على الاستقالة ؟

قلت : نعم يا مولانا...

ثم أخرجت من جيبى كتاب الاستقالة الذي كنت قد أعددتَه إعداداً جيداً ووضعتَه أمامه .

ألقي الشيخ نظرة عليه وأمسك بقلمه وخط عليه عبارة لم أدر ما هي ثم دفع به إليّ وقال: هيا عليك بإتمام الإجراءات الروتينية .

ونظرت في الكتاب فإذا بالعبارة التي طالما تمنيت قراءتها نُوشِئُها ومعها توقيع سماحة الشيخ الوزير .

شكرت الرجل بحرارة فتمنّى لي التوفيق، ثم خرجت من مكتبه والدنيا لا تكاد تتسع لي من شدة الفرح .

في ١٩٦٢/٨/٢٧ حصلت من الوزارة على كتاب ينص على عدم ممانعتها من تعاقدني مع معارف المملكة العربية السعودية . وفي ١٩٦٢/٩/٦ حصلت على كتاب الاستقالة الذي أصبح نافذ المفعول ابتداءً من ١٩٦٢/٩/٥ .

وتم التعاقد مع البعثة السعودية وبدأنا نستعد للسفر .

الفصل العاشر

في المملكة العربية السعودية

لم يكن مسموحاً للمتعاقد من أجل العمل في المملكة العربية السعودية بأن يصحب معه أسرته في السنة الأولى من تعاقدِه. ومن أجل ذلك قررت أن تبقى زوجتي وأبنائُها الخمسة في رعاية الوالدين في القدس إلى أن أبعث إليهم بنفقات سفرهم إلى القاهرة ليقضوا هذا العام الدراسي في منزل والديّ أم نزار بالزيتون .

وصلت إلى الرياض في الرابع عشر من أيلول- سبتمبر- سنة ١٩٦٢ وبعد وصولي بيومين تسلمت مبلغ ١٤٧٠ ريالاً قيمة بدل السكن المقرر لي في هذا العام. وقد بادرت فوراً بإرسال ما يلزم إلى أم نزار فسافرت مع أطفالها إلى مصر في ١٩٦٢/١٠/٦ .

أقيمت قرابة شهرين مع السيد/ طه بطّاح، وهو شاب من عين كارم له صلة نسب بصديقي الدكتور فؤاد حسن جبر. وبعد ذلك انضمت إلى أربعة من الأساتذة الفلسطينيين أصلاً الأردنيين جنسية وسكنت معهم في عمارة الأميرة قماشة بالبطحاء .

أما هؤلاء الأساتذة فهم: الأستاذ رضا البسطامي من نابلس، والأستاذ رشدي الأشهب من الخليل، والأستاذ فريد صلاح، والأستاذ حسني البياري من طولكرم، وكان أغلبهم يعملون في المعهد الديني بالرياض .

رافقتني إلى الرياض للعمل في التدريس الشيخ محمد شقرة، وكان قد تخرج في كلية الشريعة في الأزهر، وزاملني ثلاثة أعوام في ثانوية رغدان... وكان الشيخ شقرة قد أصهر إلى آل الشنقيطي حيث تزوج من

كريمة الشيخ السالك الشنقيطي . وكان شقيقها الشيخ أحمد زميلاً لنا في ثانوية رغدان .

بعد وصولنا ببضعة أيام أصدر الأستاذ عبد الله النعيم مدير منطقة نجد التعليمية قراراً بتعييني في مدرسة تقع في قرية الدوامي على بعد نحو ثلاثمائة كيلومتر إلى الجنوب من مدينة الرياض، وبتعيين الشيخ محمد شقرة في مدرسة قرية (شقرة) . وتقع في الاتجاه ذاته وعلى مسافة مماثلة لمسافة الدوامي من الرياض .

رفضت والأستاذ شقرة التوجه إلى القرينتين المذكورتين لتسلم مهام عملنا في مدرستيهما خوفاً من شطف العيش، وخشونة الحياة اللذين سمعنا عنهما ممن خبر الحياة في هاتين القرينتين من المدرسين، وهددنا بالعودة إلى الأردن إن لم نُعين في أماكن مناسبة. وذهبت برفقة الأستاذ محمد شقرة إلى رجل من آل الشنقيطي كان يعمل مديراً للمكتبة العامة في الرياض، وكان له دالة على الأستاذ عبد الله النعيم، وطلبنا إليه أن يتوسط لنا عنده ليلغي تعييننا في هاتين القرينتين .

سألنا الرجل عن الأماكن التي نحب أن نعين فيها فاختار الشيخ شقرة المدينة المنورة، واخترت أنا البقاء داخل الرياض . وقد خشيت إن أنا اخترت المدينة التي كنت أتمنى أن أعيش فيها، إذ ليس هنالك ما هو أفضل من مجاورة الرسول صلوات الله وسلامه عليه... أقول خشيت إن أنا اخترت ذلك أن تقذف بي إدارة المعارف فيها إلى إحدى القرى النائية من القرى المحيطة بها، لأنه ليس هنالك ما يضمن تعييني في داخل المدينة .

بعد يومين عدنا إلى الرجل فبشرنا بنجاح وساطته وطلب إلينا مراجعة الأستاذ عبد الله النعيم. وعندما راجعناه حول الأستاذ شقرة إلى وزارة المعارف ومعه كتاب يشعر الوزارة بموافقته على نقل المذكور إلى منطقة المدينة المنورة . أما أنا فقد سلمني كتاب التعيين المتعلق بي وطلب إلي أن أتوجه إلى المدرسة المتوسطة الثالثة بالرياض .

سافر الشيخ محمد شقرة إلى المدينة وعينته إدارة التعليم فيها في قرية نائية تدعى أمّج وقد قضى فيها مدة قصيرة لم يلبث بعدها أن عاد إلى الأردن . وهكذا حدث للشيخ شقرة ما كنت أخشى حدوثه لي .

أمضيت في المدرسة المتوسطة الثالثة ثلاثة أعوام دراسية مرت في سهولة ويسر دون أن يُعكّر صفو حياتي فيها مُعكّر . وكنت في العام الدراسي الثاني قد صحبت زوجتي إلى الرياض ومعنا ولدنا زياد وابنتانا جميلة وفاطمة .

وكانت فاطمة هذه قد ولدت في القاهرة في ١٩٦٣/١/٢٨ ولم أرها إلا بعد ستة أشهر من ولادتها حين ذهبت إلى القاهرة لقضاء العطلة الصيفية مع الزوجة والأبناء . وقد بقي كل من نزار ومحمد وليلى في حضانة جديهم في القاهرة . وكان نزار قد التحق بالصف الأول الابتدائي في مدرسة سيدي عبد السلام الابتدائية بالزيتون، كما التحق محمد بروضة من رياض الأطفال في شارع نصوح .

في الفترة التي قضيتها في السعودية نسيت التاريخ بالتقويم الميلادي بعد أن تعودنا على التعامل بالتاريخ الهجري . ومن أجل ذلك فإن التاريخ للأحداث الهامة في هذه الفترة ستكون وفقاً لهذا التقويم .

في نهاية العام الدراسي الأول ١٩٦٢/١٩٦٣ عازمت على تأدية فريضة الحج . وتنفيذاً لذلك اتفقت مع عدد من المعلمين في الرياض على تأدية الفريضة معاً في هذا العام .

كانت مجموعة الحجاج التي انضمت إليها مؤلفة من سبعة عشر حاجاً هم خليط من المصريين والسوريين والأردنيين .

أما المصريون فهم السادة: أبو المعاطي عرفة، وكان من العاملين في وزارة المعارف، وهو رجل صالح قام بتأدية فريضة الحج عدة مرات، وكان في أوائل العقد السابع من عمره . والأستاذ عبد الحي عرفة نجل

الأستاذ أبو المعاطي الأنف الذكر، وكان زميلاً لي في المدرسة المتوسطة الثالثة، ومن خريجي كلية دار العلوم في القاهرة. وكان شاباً مهذباً خلوقاً ذا خط حسن، وكانت ترافقه زوجته وهي زميلة له في المهنة والتخرج. وكانت المرأة سمراء تميل إلى البدانة والقصر، غير أنها كانت خفيفة الظل، سريعة البديهة، تجري النكتة على لسانها كما يجري الماء في الجدول الرقراق. والأستاذ سعد الدين بكري وهو مدرس سوري في معهد المعلمين، وكان شاباً هادئاً ودوداً، وقد اصطحب معه زوجته الدمشقية التي حباها الله جمالاً أخذاً يأسر القلوب، ويشد إليها الأبصار. والأستاذ حافظ وزوجته ونجله، وهم الأسرة المتكاملة الوحيدة في المجموعة، وكانت زوجة صالح عجوزاً شمطاء لم تسلم امرأة في مجموعتنا من لسانها السليط. وأمين زهيري، وجبر شريف، وحسن عبد الشافي، وكان هؤلاء الثلاثة بالإضافة إليّ عزابا ليس معهم نساء. وكان الأخير منهم فتى متعجباً يبدو عليه أنه من أبناء الذوات الذين لم يعتادوا شيئاً من الخشونة وشطف العيش. ومن أجل ذلك حظي من جميع أفراد المجموعة بالاستهجان. ومحمود عبد العزيز، ورجل ثالث لم أعد أذكر اسمه وعقيلاتهم وهم مصريون. وقد كنت الأردني الوحيد بينهم.

استأجرنا حافلة صغيرة تتسع لسبعة عشر راكباً مقابل ثلاثة آلاف ريال قُسمت على الجميع بالتساوي، وقد اتفقنا مع السائق على أن يعيدنا إلى الرياض وأن يكون مسؤولاً عن تنقلاتنا بين الأماكن التي تُؤدى فيها مناسك الحج.

غادرنا الرياض في الساعة الثانية عشرة مساءً بالتوقيت العربي وذلك من يوم الخميس الثاني من ذي الحجة عام ١٣٨٢هـ متجهين إلى المدينة المنورة.

وصلنا إلى قرية "مرات" في الساعة ليلاً، وأقمنا فيها حتى الثامنة والنصف، ثم واصلنا سفرنا إلى الدوادمي، ومنها إلى عفيف التي تقع في

منتصف الطريق بين الرياض والمدينة المنورة. وقد وصلنا إليها في الرابعة من صباح يوم الجمعة الثالث من ذي الحجة ١٣٨٢هـ. نزلنا هناك في إحدى الاستراحات حيث نلنا قسطاً من الراحة وتناولنا طعام الغداء.

تابعنا سفرنا إلى المدينة في العاشرة عصراً وتوقفنا في عدد من المحطات الصغيرة للراحة وتناول الشاي، إلى أن وصلنا "صيда" وهي ضاحية من ضواحي المدينة في الحادية عشرة صباحاً حيث صلينا الفجر.

وفي الثالثة والنصف من يوم السبت، الرابع من ذي الحجة ١٣٨٢هـ دخلنا مدينة الرسول ﷺ. نزلنا في فندق "طيبة" وهو إلى الغرب من المسجد النبوي لا يفصل بينهما إلا شارع تجاري ضيق.

في أثناء إقامتنا بالمدينة قمنا بزيارة الروضة النبوية الشريفة وكنا نصلي في مسجده عليه الصلاة والسلام جميع الصلوات.

وقد قمنا بزيارة ضريح حمزة سيد الشهداء ﷺ عند جبل أحد، كما زرنا مسجد الفتح، ومسجد أبي بكر وعمر وعثمان، ومسجد علي المقام عند الخندق، ومسجد أولى القبليتين، وأخيراً مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس في الإسلام.

في يوم الاثنين الخامس من ذي الحجة عام ١٣٨٢هـ أعلن إمام المسجد النبوي بعد أداء فريضة العصر أن يوم عرفة في هذا الموسم من مواسم الحج سيكون يوم الجمعة.

وقد ابتهج الحجاج بذلك كثيراً وأقبل بعضهم على بعض مهئين بذلك النبأ، وهم يلهجون بالحمد والشكر لله عز وجل. وقد زرنا في هذا اليوم مقابر البقيع، حيث دفن أزواج الرسول وبناته وابنه إبراهيم وعمه العباس وابن عمه عقيل بن أبي طالب وعبد الله ابن جعفر وجعفر الصادق ومحمد الباقر وسواهم من آل البيت المطهرين.

في الساعة الثانية عشرة والنصف من صبيحة يوم الثلاثاء السادس من ذي الحجة ١٣٨٢هـ غادرنا المدينة المنورة في طريقنا إلى مكة . بعد مسيرة ساعة أو أكثر انفجر إطار السيارة، ومكثنا في الطريق حتى ثم تركيب إطار بديل، ثم واصلنا سيرنا حتى وصلنا قرية "مستورة" في السادسة ظهراً، حيث تناولنا وجبة الغداء المؤلفة من السمك المشوي الذي تشتهر به تلك القرية .

تابعنا سيرنا إلى جدة التي يفصلها عن المدينة ٢٥ كيلومتراً، فوصلنا إليها في الثانية عشرة مساءً حيث نزلنا في فندق الحرمين مقابل أحد عشر ريالاً في الليلة للسرير الواحد . وقد تناولنا وجبات الطعام ونحن في جدة في كازينو الشاطيء .

في التاسعة من عصر يوم الأربعاء السابع من ذي الحجة ١٣٨٢ هـ غادرنا جدة في طريقنا إلى مكة المكرمة. وقد قطعنا المسافة التي تفصل بينها وبين جدة ومقدارها خمسة وسبعون كيلومتراً في ساعتين وربع الساعة، حيث بلغنا مكة في الحادية عشرة والربع مساءً .

وكنا قد لبسنا ثياب الإحرام بعد أن أحرمنا بالحج من مسجد التنعيم خارج مكة. ودخلنا مكة ملبين ومكبرين بقودنا الحاج عبد العاطي عرفة ذو الخبرة الواسعة في أداء المناسك والذي آلى على نفسه - جزاه الله كل خير - أن يكون مُطوّفاً الصادق النصوح .

أوقفنا السيارة وفيها الأمتعة خارج أسوار المسجد الحرام ثم دلفنا إلى المسجد فاكتحلت عيوننا لأول مرة بمشاهدة البيت العتيق الذي طالما هفت إليه قلوبنا العامرة بالإيمان. حمدت الله الذي مد في أجلي حتى أتاح لي أن أحيأ هذه اللحظة الخالدة من لحظات حياتي .

أدينا طواف القدوم وأعقبناه بالسعي بين الصفا والمروة، وصلينا المغرب والعشاء في الحرم. وكان الزحام شديداً جداً على الرغم من قلة الحجاج المصريين واليمنيين بسبب حرب اليمن .

وفي الساعة الخامسة مساءً غادرنا مكة إلى منى حيث نصبنا خيامنا بالقرب من السبيل المصري .

وفي يوم الخميس الثامن من ذي الحجة عام ١٣٨٢هـ قضينا الليلة في منى، وفي الثانية عشرة والنصف من صبيحة الوقوف بعرفة التاسع من ذي الحجة غادرنا منى متجهين إلى جبل عرفات. وقد أقمنا فيه إلى ما بعد غروب الشمس وفيه صلينا صلاتي الظهر والعصر جمعاً وقصرأ، ثم نفرنا من عرفات بعد صلاة المغرب متجهين إلى المزدلفة حيث قمنا بجمع ٤٩ من الجمرات تمهيداً لرمي الجمار .

غادرنا مزدلفة في الساعة السابعة أي بعد منتصف الليل متجهين إلى خيامنا بمنى بالقرب من السبيل المصري .

وفي صبيحة اليوم الأول من أيام عيد الأضحى المبارك، العاشر من ذي الحجة ركبنا حتى أول مكة حيث ترحلنا منها لشدة الزحام، واتجهنا إلى العقبة الكبرى حيث رمينا سبع جمرات، ثم عدنا إلى السيارة متجهين إلى مكة في الواحدة صباحاً فبلغناها بعد أربع ساعات قطعنا في خلالها مسافة لا تزيد عن خمسة كيلومترات بسبب الزحام .

ذهبنا إلى بيت أحد المطوفين، واغتسلنا وحلقنا وقصرنا - قبل الاغتسال - ثم تحللنا من الإحرام ولبسنا المخيط، وبعد الظهر دخلنا البيت الحرام، وطفنا طواف الإفاضة، وصلينا ركعتين في كل من حجر إسماعيل ومقام إبراهيم عليهما السلام .

وقد تناولنا طعام الغداء في مكة وكانت الوجبة مكونة من اللحم والكبد والأرز. وفي المساء عدنا إلى منى حيث قضينا فيها ليلتنا .

وفي اليوم الأول من أيام التشريق الحادي عشر من ذي الحجة، قمنا برمي الجمرات الثلاث عصرأ ثم عدنا إلى منى، وبتنا فيها ليلتنا تلك. وفي اليوم الثاني من أيام التشريق الثاني عشر من ذي الحجة نفرنا من منى

بعد الظهر، ورمينا الجمرات الثلاث بادئين بالصغرى، وذهبنا إلى مكة فبلغناها بعد الغروب، ثم توجهنا إلى مسجد التنعيم حيث أحرمتنا بالعمرة .
عدنا بالسيارة إلى بيت الله الحرام ملبين مكبرين، ثم طفنا سبعة وصلينا ركعتين في كل من مقام إبراهيم وحجر إسماعيل، ثم سعينا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وبعد ذلك قَصَرْنَا وَتَحَلَّلْنَا من الإحرام ثم عدنا إلى السيارة. وقد نمت فيها نوماً عميقاً بسبب الإرهاق حتى تكامل عدد الحجاج الزملاء وتحركنا صوب الرياض عملاً بقوله تعالى "ومن يجعل في يومين فلا إثم عليه" .

بدأنا رحلة العودة إلى الرياض في التاسعة صباحاً . وقبل شروق الشمس من يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة وصلنا عين ماء محاطة بالوحدات الجميلة فتوقفنا عندها وتوضأنا وصلينا الفجر، ثم تابعنا سفرنا حتى بلدة قطان حيث بلغناها في الرابعة والنصف . وهناك أمطرت السماء بغزارة، وسرعان ما تحولت الصحراء إلى برك ومستنقعات وأنهار، وما أن سكن المطر، وأمسكت السماء، حتى واصلنا سفرنا إلى أن وصلنا قرية "عفيف" في الخامسة مساءً. وقد بنتا في إحدى استراحاتها حتى الصباح .

وفي يوم الأربعاء الرابع عشر من ذي الحجة وفي الساعة الثانية عشرة والنصف صباحاً واصلنا مسيرتنا فبلغنا قرية الدوامي ظهراً. وهناك تناولنا طعام الغداء، وجمعنا بين صلاتي الظهر والعصر .
وأخيراً لم يبقَ إلا المرحلة الأسهل من مراحل السفر وهي المسافة التي تفصل بين قرية الدوامي والرياض حيث الطريق معبدة والمسافة لا تزيد عن ثلاثمائة كيلومتر .

وصلنا الرياض في الرابعة مساءً فودَّع بعضنا بعضاً ونحن نحمد الله الذي يسر لنا سبل أداء الفريضة وأعادنا إلى مأمنا سالمين .

ومن أهم الإنجازات الأدبية التي حققها في العام الأول من وجودي في الرياض ترجمة قصة أمريكية طويلة للكاتب الأمريكي كون سيلرز عنوانها Top Madam أي "امرأة في القمة" وقد استغرقت ترجمتي لها ثلاثة أشهر كاملة .

تدور أحداث القصة في "جمهورية بنما" إحدى جمهوريات أمريكا الوسطى التي نكبت بوجود قوات احتلال أمريكية. والقصة تصور الفساد الذي يعمل المستعمرون جاهدين على نشره في كل بلد يوقعه سوء حظه بين برائتهم. وتتخلص القصة في أن امرأة ملونة على قدر كبير من الجمال استطاعت أن تصل إلى قمة المجتمع بعد أن كانت بغياً تعيش في حضيض أسفل درجاته . وقد أصبحت بفضل ذكاها ونفوذها قادرة على التحكم بكثير من رجال السياسة في البلاد. وفي القصة إدانة صارخة لسياسة التمييز العنصري، وهي باختصار قصة واقعية هادفة تحسر اللثام عن وجه أمريكا القبيح .

استضافني المرحوم الشاعر أيوب طه الذي كان يعمل مديعاً في إذاعة الرياض ثلاث مرات في برامج نقدية بمشاركة ناقد عراقي يدعى الأستاذ عبد السلام ناجي .

لم أفكر في نشر أية قصيدة أو مقال في صحف المملكة العربية السعودية بل آثرت أن أتفرغ لعملي من جهة، وللاستعداد للدراسات العليا من جهة أخرى، وبخاصة بعد أن نمتي إلى علمي أن إدارة جامعة الأزهر عازمة على فتح قسم الدراسات العليا في كليتها الثلاث بعد أن طالت مدة إغلاقه .

في العام الدراسي الثاني ١٩٦٣/١٩٦٤ صحيت أم نزار جميلة وزباداً وفاطمة إلى الرياض، واستأجرت شقة مؤلفة من غرفتين في عمارة بالقرب من سوق الخضار المجاور لقصر الحكم ومسجد الرياض الكبير في وسط المدينة. وكنا نشهد إقامة الحدود الإسلامية كالجلد والرجم بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع في ساحة قصر الحكم .

وقد جاورنا في السكن مدرس من غزة يدعى محمد عمر جمعة، وكنيته أبو مازن، وهو من قرية جباليا وقد سبقنا إلى الكويت بعدة أعوام، وفيها انتقل إلى جوار ربه بعد أن دهمته سيارة بسرعة أودت بحياته. وممن جاورناهم مدرس من الخليل يدعى محمد الدويك، ومدرس مصري يدعى أبو أشرف، وكانت زوجته امرأة مشاكسة سبته الجوار لا هم لها سوى العمل على الإيقاع بين الجيران . وقد حمدنا الله عندما توافرت لنا الظروف التي أراحتنا من جوارها.

وفي موسم الحج من عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م قام الوالدان بتأدية فريضة الحج والحمد لله .

وفي بداية العطلة الصيفية من العام الدراسي الثاني عدت مع أم نزار وزباد وجميلة وفاطمة إلى القاهرة لنقضي العطلة هناك. وكنت قد أرسلت إلى أم نزار في العام المنصرم مبلغاً من المال كي تنشيء لنا شقة فوق تلك التي أقامها أهلها في قطعة الأرض التي كانت من نصيب والدتها . وكان العم كامل قد شيد غرفتين مع مرافقهما في أرض زوجته، والتي لا تزيد مساحتها عن سبعين متراً مربعاً هي نصيبها من القطعة التي كانت تملكها مع شقيقاتها الثلاث. وقد قمن بقسمتها بعد أن هدم المنزل القديم. وقد شيدنا بدورنا شقة مماثلة لما شيده العم كامل في الطابق الأرضي، وهكذا أصبح في البيت متسع لنا ولهم. وما عتمت السيدة حماتي أن باعت منزلها كله مع قطعة الأرض بيعاً صورياً إلى ابنتها الوحيدة سيدة،

وقامت بتسجيل عقد البيع في الشهر العقاري. وهكذا أصبح البيت كله ملكاً لأم نزار .

في بداية العام الدراسي الثالث ٦٤/٦٥ عدت وحدي إلى الرياض، فقد آثرت أن تبقى أم نزار مع أولادها وبخاصة بعد أن أصبح نزار في الصف الثاني الابتدائي، وبعد أن أصبح محمد في الصف الأول، وبعد أن ألحقنا كلا من زياد وجميلة بروضة الأطفال في شارع نصوح .

وقبل مغادرتي القاهرة عائداً إلى الرياض قمت بالانتساب إلى قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية، وكان هذا القسم قد فتح أبوابه بعد أن كان مغلقاً لمدة طويلة .

وقد قمنا كذلك بتأثيث الشقة التي بنيناها. ولم يكن قد أقيم فوق القطع الثلاث الأخرى من الأرض سوى غرفة واحدة أقامتها عزيزة - الخالة الصغرى لأم نزار - فوق القسم الخاص بها من قطعة الأرض، ولم تضاف إليها من المرافق سوى حمام صغير واحد .

وفي هذا العام قامت إذاعة صوت فلسطين من القاهرة بتلحين خمس أغاني من تأليفي وهي قصيدة "فلسطين" وقد لحنها "محمد حمودة" وغناها المطرب الفلسطيني "محمد وهيب"، وقصيدة "فرحة الشعب" من ألحان "أحمد عبد القادر" وغناء "مهدي سردانة"، هذا بالإضافة إلى ثلاثة أغاني باللهجة العامية الفلسطينية وهي: "يا أهل النخوة" من ألحان "أحمد عبد القادر" وغناء المطربة الفلسطينية "شوق صالح"، وأغنية "عندي بشرى" من ألحان وغناء "تيسير سعد الدين"، ونشيد بالقصحي بعنوان "أمة العرب سلاماً" من ألحان وغناء "خميس صبحي" .

بعد عودتي إلى الرياض، شاركت ثلاثة من الزملاء العاملين معي في المدرسة السكن في إحدى الشقق الواقعة في عمارة الأمير فهد بالبطحاء.

وكانت وزارة المعارف قد شيدت هذه العمارة المؤلفة من مائتين وعشر من الشقق على حساب ميزانيتها في الوقت الذي كانت فيه حقيبة وزارة المعارف مسندة إلى الأمير فهد .

وقد حليت العمارة في عيني الأمير فسلجها باسمه، وأصبح يؤجرها لحسابه الخاص. وكانت كل شقة من شققها مؤلفة من غرفتين وصالة وما يلزمها من المرافق .

أما الأساتذة الذين شاركهم السكنى في هذه العمارة فهم عصام البقاعي - وهو سوري من دمشق - وخليل سلامة - من بيت نبالا - وعبد القادر إبراهيم - من نزلة عيسى .

كان إيجار الشقة لا يزيد عن ألفي ريال في السنة نتعاون جميعاً في سدادها. وقد دعاني علي دمر إلى زيارته في الهفوف فلبيت الدعوة وقضيت في ضيافته أسبوعاً كاملاً . وفي نهاية العام الدراسي الثالث ٦٥/٦٤ كلفتني الوزارة بالمشاركة في الإشراف على امتحانات الثانوية العامة في الرياض. وكان ذلك في حد ذاته شرفاً يتمناه كل مدرس متقاعد في الرياض، غير أنني تلقيت هذا التكليف باستياء شديد لتعارض مواعيده مع مواعيد امتحانات الدراسات العليا في كلية اللغة العربية . وكان امتثالي لأوامر الوزارة يعني ضياع ذلك الجهد الذي بذلته استعداداً للامتحانات من جهة، وضياع تلك الفرصة التي انتظرتها زهاء عشر سنوات كي أبدأ في تحقيق حلمي بالحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه .

قدّمتُ اعتذاراً عن عدم المشاركة إلى وكيل الوزارة فرفض قبوله، ولجأت إلى جميع المسؤولين في الوزارة شارحاً لهم الأسباب التي تدعوني إلى ذلك فلم أجد واحداً منهم مستعداً لتقدير ظروفي ونفهمها.

وأخيراً وجدت أن الحل الوحيد هو ذلك الحل الذي لا تُقضى بدونه الحوائج في البلاد العربية، وأعني به " الوساطة". بدأت أبحث عن رجل

يصلح لهذا الأمر فقادني الشاعر الفلسطيني المرحوم أيوب طه إلى الأديب السعودي الكبير الشيخ عبد الله خميس .

قدمني أيوب إلى الشيخ، وقصّ عليه قصتي فرحّب بنا، ولم يعتم أن تناول سماعة الهاتف وأجرى اتصالاً بحمزة العابد - مدير التعليم الثانوي في الوزارة وأول الذين رفضوا الاستجابة لطلبي من قبل .

شرح الشيخ عبد الله خميس القصة للرجل . وما هي إلا ثوان معدودة حتى أنهى المكالمة، والتفت إلي قائلاً: مبارك يا أستاذ رجا توكل على الله واذهب لمقابلة حمزة وقل له: "أنا الذي حدثك الشيخ عبد الله خميس بشأنه".

وانطلقت إلى الشيخ حمزة لا أُلوي على شيء، فما كان منه إلا أن وافق على طلبي مشروطاً إحضار بديل يتعهد بالقيام بعملتي في امتحانات الثانوية العامة .

ولم تمض ساعة حتى أحضرتُ له البديل الذي كنت قد اتفقت معه من قبل، وحصلت على الإعفاء من العمل في امتحانات الثانوية العامة، وانتهت المشكلة التي أقصتُ مضجعي وحرمتني النوم عدة ليال .

بعد حل تلك المعضلة سافرت إلى القاهرة وتقدّمت للامتحانات التي نجحت فيها بتفوق والحمد لله . ولم يمض على ظهور النتيجة بضعة أيام حتى بادرت بتسجيل موضوع رسالة الماجستير وهو "الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر" واتفقت مع الأستاذ حسن جاد ليكون مشرفاً على بحثي هذا . وقد وافق - جزاه الله خيراً - على ذلك دون تكلّف أو إبطاء .

صحبت معي إلى الرياض نحو ثلاثمائة مرجع ومصدر من المراجع والمصادر المتعلقة ببحثي، وقد ظلت هذه الكتب أكثر من أسبوعين في حوزة الرقابة وأخيراً أعادوها إليّ بعد أن صادروا أكثر من عشرة دواوين شعرية لعدد من الشعراء اليساريين .

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر ١٩٦٥ وصلتني رسالة من جامعة الأزهر تبليغي بموافقة إدارة الجامعة على تسجيل موضوع "الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر" للحصول على درجة الماجستير تحت إشراف الدكتور حسن جاد . وقد أسعدني ذلك فأقبلت على البحث والدراسة بجد ونشاط . إلا أن الزمن الذي عودني على المشاكسة وتنغيص لحظات السعادة العابرة لم يلبث أن قلب لي ظهر المجن .

ففي الثاني من نوفمبر سنة ١٩٦٥- أي بعد وصول تلك الرسالة المبهجة بعشرة أيام- استدعاني الأستاذ صالح الحديثي ناظر المدرسة التي عملت فيها ثلاثة أعوام دراسية كاملة ونظر إلي نظرة مفعمة بالحرج والألم وقال مشيراً إلى رجل من رجال الشرطة كان يجلس في غرفته: يا أستاذ رجاء.. مع الأخ كتاب من الأمن العام يريد أن يسلمه إليك .

قلت : من الأمن العام ؟ ... خيراً إن شاء الله .

ولم أكد أتم عبارتي حتى ناولني الشرطي الكتاب الذي بادرت بفتحه وراحت عينايتان تلتهمان سطوره بسرعة ولهفة .

وتساءل الناظر في لهفة: ها... لعله خير .

قلت: لا شك أن الخير دائماً فيما يختاره الله .

قل: طمئني... ماذا هناك ؟

قلت: الأمن العام في المملكة يأمرني بمغادرة البلاد في مدة أقصاها ثلاثة أيام من تاريخ تسلمي لهذا الكتاب .

قال: وهل فعلت ما يوجب ذلك ؟

قلت: ليس في الكتاب ما يشير إلى الأسباب، أما أنا فليست أعلم أنه قد بدر مني ما يستدعي هذا الإجراء، ولست أدري أن كنتم تأخذون علي ما يدعو لهذا الإجراء .

قال: ما رأينا منك إلا كل خير .

عجبت لذلك كثيراً، وحاولت جاهداً أن أهتدي إلى سبب واحد يبرر هذا الإجراء الظالم دون جدوى. وقد تبين لي بعد ذلك أن المملكة كانت قد بدأت بترحيل من تستشعر فيهم الخطر على أمنها. وفي اليوم الذي تسلمت فيه هذا الكتاب علمت أنني لم أكن الوحيد الذي تقرر إبعاده، فقد صدرت قرارات بمثل ذلك أبعد بموجبها الأستاذ محمد داود، والشاعر أيوب طه المذيع في إذاعة الرياض، والأستاذ محمد عبد الحكيم من السودان، وكان مدرساً في المدرسة ذاتها .

فمت ببيع ما لدي من قطع الأثاث وحزمت أمتعتي وكتبي. وقد اضطرت إدارة التعليم في نجد إلى فتح أبوابها بعد صلاة العشاء كي تسلمني ما لي في ذمتها من حقوق مالية. وهكذا لم تكد شمس يوم الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٥ تشرق حتى كنت في طريقي إلى مطار الرياض عائداً إلى القاهرة .

كانت المدة التي قضيتها في الرياض- على الرغم من قصرها- حيث أنها لم تزد عن ثلاثة أعوام وشهرين مفعمة بالخير والبركة .

عندما تعاقبت مع البعثة السعودية لم يكن راتبي ليزيد عن ٧٣٥ ريالاً في الشهر، ولكني لم أكد أقضي في الرياض بضعة أشهر حتى صدر قرار بتحسين رواتب المتعاقدين من المدرسين العرب فقفز راتبي إلى ١١٠٠ ريال سعودي في الشهر. وفي الوقت نفسه كنت أنقاضى مبلغ ٣٥٠ ريالاً مقابل عملي في القسم الليلي بالمدرسة شهرياً . كما عملت فترة من الوقت في شركة تستورد الآلات الزراعية كبديل للمترجم والطباع السيد

غالب أبو عبيد- من عين كارم- وكان عمله الأصلي مترجماً في وزارة الدفاع . وقد رجاني أن أقوم مقامه في عمله في أثناء غيابه في إجازة.

وكنيت أنقاضى عشرة ريالات مقابل كل رسالة أترجمها وأرد على المصدر

الواردة منه .

الواردة منه .



**صاحب السيرة في الثامنة والثلاثين من عمره
بعد حصوله على الماجستير عام ١٩٦٧**

وباختصار فقد تمكنت من توفير ثلاثة آلاف جنيه استرليني خلال هذه المدة القصيرة التي قضيتها في الرياض. بالإضافة إلى أنني تمكنت من سداد ديوني في الأردن والتي لم تكن لنقل عن أربعمئة دينار، كما أنني قد تمكنت من بناء تلك الشقة التي أشرت إليها في منزل أصهاري والتي بلغت تكاليفها أربعمئة جنيه مصري . وكان الجنيه المصري في ذلك الحين معادلاً لسبعة ريالات سعودية .

كانت أم نزار تقف في شرفة المنزل عندما وقفت أمامه سيارة الأجرة التي حملتني من مطار القاهرة بعد عودتي من الرياض. وقد فوجئت بي وأنا أترجل من السيارة ومعني حقائبي وصناديق كتبي، فعرفت بغريزتها ما حدث، ولم يكن أمامها سوى أن تهنئني بالسلامة قائلة: الحمد لله على سلامتك يا أبا نزار... خيراً إن شاء الله؟ هل أبعدوك؟! قلت: أجل لقد أبعدوني ثم لم ألبث أن قصصت عليها القصة بكاملها. ولم يكن في الإمكان إيجاد أي عمل في مثل هذا الوقت من السنة، مما اضطرني إلى التفرغ التام من أجل الإنتهاء من رسالة الماجستير.

وقد تمكنت من إعدادها في مدة قياسية لم تزد عن تسعة أشهر وبعد أن فرغ الأستاذ المشرف الدكتور حسن جاد من قراءتها وإيداء ملاحظته عليها دفعت بها إلى سكرتير قسم التسجيل بالكلية السيد محمد الجريسي ليقوم بطباعتها على الآلة الكاتبة .

استغرق العمل في طباعتها أكثر من ثلاثة أشهر قمت بعدها بتسليم خمس نسخ منها إلى إدارة الكلية تمهيداً لتشكيل لجنة المناقشة وتحديد موعد لمناقشة الرسالة .

وقد أصدرت إدارة الكلية قراراً بتشكيل لجنة المناقشة من ثلاثة من الأساتذة برئاسة الدكتور حسن جاد المشرف على الرسالة وعضوية كل من الدكتور إبراهيم أبو الخشب والدكتور عبد الحميد يونس الذي كان يشغل في

ذلك الحين منصب رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة .
وقد حُددَ يوم التاسع من يناير سنة ١٩٦٧ موعداً للمناقشة .

وقد جرت المناقشة في مدرج عباس محمود العقاد بالكلية،
وحضرها عدد كبير من طلاب الكلية وطلاب البعوث الإسلامية وعدد من
الأصدقاء .

وقد أصدرت اللجنة قراراً بمنحي درجة الماجستير بتقدير جيد جداً.
وقد ساعني ذلك التقدير إلى حد كبير لأنني شعرت بالظلم والإجحاف، فقد
سبق للجنة ذاتها أن منحت في الأسبوع نفسه طالبين أحدهما مصري والآخر
سوداني تلك الدرجة بتقدير ممتاز على الرغم من أن كثيرين من الذين
شهدوا المناقشات الثلاث قد أقرّوا بأفضلية رسالتي وموقفي من المناقشة .

بعد المناقشة اختليت بالدكتور حسن جاد وعبرت له عن إحساسي
بالظلم الذي حاق بي من قرار اللجنة، فلم يجد أمامه بداً من الإقرار بأنني
غُيّبتُ بلا شك .

وقد برّر الدكتور جاد ذلك بالمعارضة الشديدة التي أبدّاها الدكتور
أبو الخشب في منحي درجة الامتياز وإصراره على ذلك، ولما كان قرار
اللجنة لا بد وأن يصدر بالإجماع فقد اضطر هو والدكتور يونس إلى النزول
عند رأيه بعد أن ينسأ من إقناعه بأحقّيتي في الامتياز .

عند ذلك فقط أدركت سر تحذيرات عدد من أصدقائي طلاب
الدراسات العليا من الدكتور إبراهيم أبو الخشب الذي وصفوه بأنه حاقّد على
كل ما يمت إلى الأردن بصلة .

ولما استوضحته عن السبب قالوا : إن الجامعة الأردنية قامت
بترجيئه من الأردن قبل أن يتم مدة إعارته للجامعة الأردنية نظراً لتعصبه
الشديد لعبد الناصر .

قلت في نفسي: ما شاء الله وما ذنبي أنا في ذلك.

ومهما يكن من أمر فقد قال لي الدكتور حسن جاد بأنه لن يفكر بعد اليوم في اختيار الدكتور أبو الخشب للمشاركة في مناقشة أية رسالة من الرسائل التي يشرف عليها حتى ولو لم يكن في الجامعة أستاذ غيره.

بعد المناقشة بأيام أعلنت دولة الكويت عن رغبتها في التعاقد مع مدرسين في مختلف التخصصات للعام الدراسي ٦٨/٦٧ فأسرت بتقديم طلب إلى وزارة التربية في الكويت، وكتبت إلى أخي غالب الذي كان يعمل فيها منذ عام ١٩٥٧ أن يتابع طلبي هذا حتى أضمن التعاقد مع البعثة الكويتية عند زيارتها إلى القاهرة .

اكفهرت الآفاق السياسية في العالم العربي من جديد فقد أعلن عبد الناصر عن إغلاق مضائق تيران بالبحر الأحمر في وجه السفن الإسرائيلية. وسرعان ما بدأ يحشد قواته في سيناء .

ولم يكن الموقف على الجبهتين السورية والأردنية بأفضل منه على الجبهة المصرية. فقد كانت الاعتداءات الإسرائيلية على طول الجبهتين لا تتوقف .

كان حماس الجماهير العربية في مصر قد بلغ أشده وهو يرى دبابات جيشه ومدافعه تتدفق على سيناء. وكان السؤال الذي يجري على كل لسان هو متى يعلن جمال عبد الناصر ساعة الصفر... ؟

وكم هو الوقت الذي سوف تستغرقه طلائع قواته حتى تصل إلى تل أبيب .

استمرت درجة الحماس لدى الجماهير العربية في التصاعد حتى وصلت أوجها يوم الرابع من حزيران - يونيو - سنة ١٩٦٧، غير أن هذه الجماهير قد أفاقت بعد شروق اليوم الخامس من الشهر نفسه على صوت أحمد سعيد وهو يهدير من صوت العرب معلناً عن إسقاط المئات من الطائرات الإسرائيلية التي أغارت على قواعد القوات الجوية المصرية في مختلف أنحاء مصر. أحسست آنذاك أن إسرائيل قد أخذت بزمام المبادرة .

ولم تكد شمس ذلك اليوم تتوسط كبد السماء حتى أسفرت الحقيقة عن وجهها الذي لا يمكن أن تخفيه الترهات ولا الأكاذيب، فقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الطائرات التي كانت تسقط إنما هي عربية، وليست يهودية، وأن القوات الإسرائيلية كانت قد تغلغت في أعماق سيناء وهضبة الجولان وقطاع غزة والضفة الغربية من الأردن .

ولم تمض سنة أيام حتى تم لإسرائيل احتلال سيناء كلها بالإضافة إلى الضفة الغربية حتى النهر وقطاع غزة وهضبة الجولان حتى مدينة القنيطرة .

أضاف العرب إلى قاموس هزائمهم كلمة جديدة هي: (النكسة)، ولم تكن في الواقع كافية للتعبير عما حاق العرب من هزيمة منكرة ساحقة أربت في نتائجها على كل ما أصاب العرب في تاريخهم الحديث من نكبات . وقد أدى ذلك إلى تعميق مشاعر الحزن في النفس العربية أكثر وأكثر .

وكانت الآثار النفسية التي ترتبت على هذه النكبات المتوالية متشعبة متضاربة، فمن يأس قاتل، إلى أمل خجول، إلى إحساس بالخزي والضياع، إلى شعور عارم بالرغبة في الانتقام، إلى إحساس بالذنب نتيجة التقصير في حمل الواجب والقيام بالمسؤولية، إلى غير ذلك من المشاعر والأحاسيس .

كدت أتعرض للإصابة بشظية من إحدى القنابل المضادة للطائرات وأنا أتكئ على مرفقي مع محمد عثمان حسن سمور. على عتبة النافذة الغربية في غرفة النوم من الطابق الأرضي في الوقت الذي كان يطلق فيه ما تبقى من المدافع المصرية المضادة للطائرات قذائفه على الطائرات الإسرائيلية المغيرة .

كنت ومحمداً ننظر إلى السماء علنا نشاهد الطائرات المغيرة أو بعضها، وبينما نحن نصعد أبصارنا عبر السماء إذ مرّت شظية من أمام وجهي بمسافة لا تزيد عن عشرة سنتيمترات ثم استقرت عند السور الخارجي للمنزل .

وكان محمد عثمان- وهو من أبناء عمومتنا- قد أنهى دراسته في علم التاريخ بكلية آداب جامعة عين شمس، وكان من المفروض أن يعود إلى القدس في اليوم الذي نشبت فيه الحرب، غير أنه اضطر للبقاء في ضيافتنا بعد أن سلم مفاتيح الشقة التي كان يستأجرها في مصر الجديدة إلى مالكها .

قلت في نفسي: "عمر الشقي بقي" يا أبا نزار... هذه هي المرة الخامسة التي تتعرض فيها لرصاص اليهود وقذائفهم .

في ١٦/٦/١٩٦٧ تم التعاقد بيني وبين وزارة التربية في الكويت بالدرجة الخامسة وراتب قدره ١٦٨ ديناراً كويتياً لا غير. وقد نفذ الرصيد الذي ادخرته من عملي في السعودية قبل سفرنا إلى الكويت بشهرين حيث اضطررت إلى الاستعانة بالأخ غالب الذي اقترضنا منه ما يلزم لنفقات الأسرة .

وقبل أن نشد الرحال إلى الكويت، اتفقت مع الدكتور حسن جاد على أن يكون مشرفاً على رسالتي التي سأقدم بها إلى الكلية لنيل درجة الدكتوراه. وقد وافق على ذلك. أما الموضوع الذي اخترته لأطروحة

الدكتوراه فقد كان "شعر المرأة العربية المعاصرة- من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦٧م". وقد قمت بتسجيله لدى مجلس جامعة الأزهر في ١٩٦٧/٩/٥ .

الفصل الحادي عشر

في الكويت

في الخامس عشر من أيلول - سبتمبر - ١٩٦٧ حطت بنا الطائرة في مطار الكويت حيث كان أخي غالب في استقبالنا. وقد نزلنا في ضيافته قرابة شهر. ثم لم نلبث أن استأجرنا شقة في شارع البحرين بالسالمية بالقرب من مدرسة عبد الله خلف الابتدائية للبنين مقابل ثلاثين ديناراً في الشهر.

عينتني الوزارة في مدرسة المتنبى المتوسطة للبنين. وفي ١٩٦٧/٩/٢٤ واصلتني رسالة من مجلس جامعة الأزهر تشعرنى بموافقته على تسجيل الموضوع الذي قدمته للحصول على درجة الدكتوراه. وهكذا بدأت في جمع المصادر والمراجع اللازمة لبحثي.

بعد مرور أسبوعين على عملي في مدرسة المتنبى، استدعاني الأستاذ إبراهيم عابدين مراقب التعليم الثانوي، وعرض عليّ الذهاب إلى إمارة الشارقة لأكون مشرفاً على التعليم هناك. وكانت الكويت تساعد تلك الإمارة وغيرها من إمارات الساحل المتصالح الفقيرة في مجالي التعليم والصحة، حيث لم يكن البنترول قد ظهر بعد في تلك الإمارات، كما أنها لم تكن قد حصلت على استقلالها من الاستعمار البريطاني الذي كان يجثم على صدرها.

رفضت العرض على الرغم من نصيحة الأستاذ عابدين الذي قال بأنه خصني بهذا الاختيار نظراً لحصولي على الماجستير. وكان للأستاذ عابدين هذا فضل كبير في تسهيل مهمة تعاقدي مع وزارة التربية والتعليم في الكويت نظراً للصدقة التي تربطه بغالب.

وقد سألت الأستاذ عابدين عن الامتيازات التي سألتها في حالة موافقتي على ذلك فقال بأنني لن أنال شيئاً أكثر مما ينص عليه العقد المبرم بيني وبين الوزارة. فلما علمت بذلك أبلغته بأنني أؤثر البقاء في الكويت. والأستاذ إبراهيم عابدين هذا مرب مصرى عريق، على درجة كبيرة من النزاهة والخلق والفضل. يَبْدُ في غزارة علمه وأدبه المئات من حملة الدكتوراه. وكان راويةً للشعر لا يستعصي عليه شيء من شوارد اللغة وأوابدها.

ولما دارت الأيام، وبدأ الكويتيون في تكوين الوظائف الإدارية في الوزارة، انتهى الأمر بالأستاذ عابدين إلى أن يصبح مدرساً في معهد التربية للمعلمين، وقد سعدت بصحبته في ذلك المعهد زهاء ثلاث سنوات انتقل بعدها إلى جوار ربه.

وقد حزنت عليه حزناً شديداً، وبكىته في قصيدة ألقيتها في الحفل الذي أقامته إدارة المعهد لتأبينه في السابع من يونيو سنة ١٩٨٣ م. ومن أيادي الأستاذ عابدين التي لا تنسى عليّ دوره في نقلي من مدرسة المتنبى إلى مدرسة الصديق التي يعمل فيها أخي غالب. فقد طلبت إليه أن يتوسط في ذلك لدى المسؤولين في الوزارة، ليسهل عليّ مهمة الانتقال من مقر عملي وإليه، لأنني لم أكن حتى ذلك الحين قد تعلمت قيادة السيارات، كما أنني لم أكن أملك سيارة.

وهكذا وبعد انتقالني إلى مدرسة الصديق، صرت أذهب مع الأخ غالب إلى المدرسة وأعود معه منها في سيارته، وكان يشاركنا في ذلك ولداي نزار ومحمد اللذان ألحقتهما بالمدرسة ذاتها.

قدم مدرس اللغة العربية الأول في مدرسة الصديق استقالته وسافر إلى بريطانيا؟ لإكمال دراسته العليا، فكلفني ناظر المدرسة المرحوم الأستاذ جميل عطية القيام بأعمال المدرس الأول.

وقد قمت بأعباء هذا المنصب عامين كاملين، وهي المدة التي أمضيها في مدرسة الصديق .

وقد عرفت في هذه المدرسة لقيفاً من المدرسين الأفاضل، منهم الأساتذة: تيسير الحاج حسين، ومحمود إبراهيم، وخالد الدجاني، ونجيب البرعي، وعادل كنيفاتي، ومحمد عامر وسواهم .

وفي نهاية العام الدراسي ٦٨/٦٩ بدأت أتدرب على قيادة السيارات، وقد رسبت في امتحان القيادة مرتين، ولم أحصل على إجازة القيادة إلا في الامتحان الثالث، وقد ساعد على نجاحي توصية لدى أحد أعضاء لجنة الامتحان من قبل ابن بلدنا المرحوم فهد يوسف العبد حمدان . قضينا صيف هذا العام في الأردن، فلم أجد الأردن كما عهدته حيث لاحظت أن شوكة المقاومة الفلسطينية قد قويت، أما سلطة الحكومة فقد تراجعت إلى حد كبير .

وأما الحساسيات الإقليمية وظهور النعمة التي تميز بين الأردني والفلسطيني فلم تكن خافية على أحد .

كان إحساسي يقول لي: إن هذه الحالة لن تدوم، وإن الملك حسين لن يقبل باستمرار هذا الوضع، وإن سكوتة الحالي ليس إلا سكوتاً مؤقتاً... وإنه سكوت الحكيم الذي يدبر ويخطط، وسكوت السياسي المحنك الذي لن يسمح لتجار دكاكين المقاومة بأن يسحبوا البساط من تحت قدميه .

في الحادي والعشرين من آب عام ١٩٦٩ وقبل أن يغادر عمان إلى الكويت بساعات ارتكب اليهود جريمة إحراق المسجد الأقصى التي ألصقوها بمهوس استرالي يدعى "مايكل دينيس روهان" وقد تمكن أهالي القدس من إخماد الحريق الذي كاد أن يأتي على الحرم، وقد أتت النيران على المنبر التاريخي النادر الذي أمر بصنعه القائد نور الدين محمود زنكي في حلب، ثم حملة صلاح الدين الأيوبي إلى القدس بعد أن حررها من الصليبيين تنفيذاً لتوصية سلفه نور الدين ووضعه في المسجد الأقصى .

بعد عودتنا إلى الكويت وفي ١/٩/١٩٦٩ نُقلت من مدرسة الصديق إلى ثانوية كيفان . ولما كانت تلك المدرسة بعيدة جداً عن منطقتنا السكنية في السالمية فقد التمسنا من الوزارة أن تنقلني إلى إحدى المدارس الثانوية القريبة من مسكني .

وقد استجابت الوزارة لذلك فنقلتنا إلى ثانوية الرميثة التي لم تكن تبعد عن منزلنا أكثر من ثلاث كيلومترات .

بدأت العمل في ثانوية الرميثة في ٣/١٠/١٩٦٩، وكنا قبل ذلك بعام تقريباً قد انتقلنا إلى شقة كبيرة مؤلفة من غرفتين وصالون وصالمة ومطبخ وحمامين، وتقع في شارع جانبي متفرع من شارع البحرين، ولم يكن يفصل بيننا وبين العمارتين اللتين يُقيمُ فيهما كل من الأخ غالب والأخ فرج الله إلا أمتار قليلة .

وقد انتقل معنا إلى العمارة نفسها عائلتان كانتا تسكنان معنا في منزلنا هما عائلة السيد محمد أبو أصبع من سلمة وكنيته "أبو هشام"، وعائلة السيد محمد صالح علي من دير أيوب وكنيته "أبو صلاح" . وقد حرصنا على أن ننقل إلى العمارة الجديدة التي لم تكن قد سُكنت من قبل لأسباب جوهرية هامة منها: سوء معاملة صاحب العمارة السابقة، ومنها سعة الشقق وقلة الإيجار؛ فقد كان عدد الغرف في شقق هذه العمارة يزيد غرفة واحدة عن شقق العمارة التي كنا نسكنها من قبل، كما أن مساحة غرفها أوسع، إضافة إلى أن إيجارها لم يكن يزيد عن ثمانية وعشرين من الدنانير. ولم يلبث صاحب المنزل أن خفض لنا هذا الإيجار بمقدار دينارين بعد أن سرُ من جيرتنا .

كانت العمارة الجديدة التي انتقلنا إليها ملكاً لرجل بدوي بسيط متواضع لم تُبَطِّرْ النعمة، إذ طالما حدثنا عن أيام الفقر والمعاناة التي كابدها قبل أن يفتح الله على الكويت شآبيب رحمة ورزقه .

وكان يُدعى حَوْلِي مرزوق بو حَقْطَة، وكان متزوجاً من امرأة مصرية فاضلة من كوم النجار بمديرية الغربية تصغرُهُ بما لا يقل عن ربع قرن. وكان قد تزوجها قبل أن يطلق زوجته الكويتية أم حصّة " التي لم يمنحها الله أية مسحة من الجمال . وقد أسكن أبو مرزوق مطلقته أم حصّة وبناتها إحدى الشقق في الطابق الأرضي من عمارته، بينما خص عروسه الجديدة بجناح خاص منعزل من الطابق الأرضي له بوابة خاصة وسور خاص . وفي خلال المدة التي أمضيناها في منزل أبي مرزوق هذا، أنجبت له زوجته المصرية فاطمة ثمانية من البنين والبنات .

انضم إلى العمارة بعض العائلات الجديدة منها عائلة السيد تحسين قَمْحِيَّة من نابلس، وعائلة السيد منير شلبي من قضاء طولكرم، وقد تأقلمت هاتان العائلتان مع الجو الذي كان يسود العلاقة بين العائلات الثلاث الأخرى، فأصبح سكان هذه العمارة نموذجاً يُحتذى في حسن الجيرة وطيب المعشر والتآلف والنكاثف وغير ذلك من الصفات الحسنة التي يتمنى كل جار أن يجدها في جيرانه .

حتى صاحب المنزل وأسرته لم يجدوا أمامهم إلا أن ينسجموا مع هذا الجو المفعم بالحب والتعاون وحسن الجوار .

استمر وجودنا في تلك العمارة تسعة عشر عاماً كاملة . ولما كان دوام الحال من المحال في هذه الدنيا المتقلبة سريعة الزوال، فقد حدث ما اضطرنا إلى الانتقال من تلك العمارة مرغمين لا مختارين . فقد عرض أبو مرزوق عمارته للثمنين، وقد ثمنتها الحكومة بربع مليون دينار تقريباً مع أن تكاليف إنشائها كما ذكر لي أبو مرزوق نفسه لم تكن لتزيد عن مائة ألف دينار .

وأسلوب تئمين العقارات هذا هو أحد الأساليب التي تتخذها الحكومة الكويتية لإغناء رعاياها من ذوي الدخل المحدود، وتحسين أوضاعهم .

تفرق الجيران الأحبة ولم يعد في الإمكان أن تجمعهم عمارة واحدة بعد أن اضطرت كل أسرة أن تبحث لها عن شقة يتناسب إيجارها مع دخلها بعد أن دخلت الإيجارات في دوامة الارتفاع الذي ساعدت الحكومة على حدوثه بسنها قانوناً جديداً يعطي الحق لصاحب العقار بزيادة إيجار ما يؤجره وفقاً للنسبة التي يترضى عليها مع السكان مرة كل خمس سنوات .

بعد صدور هذا القانون أصبح من حق أبي مرزوق أن يطالبنا بزيادة الإيجار، وقد فعل، ولكنه على أي حال ظل أرأف بنا من كثير من أصحاب العقارات الذين راحوا يطالبون سكان عقاراتهم بزيادة الإيجارات زيادات غير معقولة .

زاد أبو مرزوق الأجرة على سكان عمارته مرتين ارتفع الإيجار بموجب الزيادة الأولى منها تسعة دنانير، حيث أصبح خمسة وثلاثين ديناراً، وارتفع في المرة الثانية خمسة عشر ديناراً فأصبح خمسين . وفي هذا الوقت كانت الشقق المماثلة لشقق عمارة أبي مرزوق تؤجر الواحدة منها بما لا يقل عن مائتي دينار . وهكذا يتضح أن أبا مرزوق كان رحيماً بسكان عمارته مبقياً على ما يربط بينه وبينهم من أواصر الود والوفاء .

كان الأستاذ عبد الله اللقمان ناظراً لثانوية الرميثية التي نُقلت إليها، وهو شاب كويتي تخرج من كلية دار العلوم بالقاهرة . وقد أدار ثانوية الرميثية بحزم، ونجح في ضبط الأمور فيها على الرغم من الرعونة التي اشتهر بها طلاب هذه المدرسة .

وقد ظل اللقمان يرتقي في المناصب التربوية حتى وصل إلى درجة وكيل وزارة مساعد لشؤون التعليم الخاص .

وقد عرفت في ثانوية الرميثية عدداً كبيراً من الأساتذة الأفاضل منهم الأستاذ عبد الفتاح عزام مدرس اللغة العربية الأول . والأساتذة: عبد

النافع السباعي وعبد الإله رجوب وحماده محمد سليمان ومصطفى بغدادي ومصطفى الشافعي ومحمد زهران وصبحي حسن ومحمد إبراهيم طلبة ولبيب خليل ومحمد السيد عمر وإسماعيل محمد إسماعيل ومحمد فارس إبراهيم وسواهم .

في أوائل عام ١٩٧٠ اشتريت سيارة أوبل من طراز ١٩٦٤ بمائة وثمانين ديناراً لا غير . وقد خدمتني هذه السيارة سبع سنوات. وبشراء هذه السيارة انتهت معاناتنا من مشكلة المواصلات .
لم أكن أحلم في يوم من الأيام أن أقود سيارة فضلاً عن أن أقتنيها فسبحان مغير الأحوال .

في مطلع أيلول- سبتمبر- ١٩٧٠ انفجرت الأوضاع في الأردن وحدث ما توقعته، فقد أعلن الملك حسين الحرب على المنظمات الفلسطينية المسلحة التي تجاوزت كل حد في تحديثها لسلطات الدولة الأردنية .
عشنا على أعصابنا خوفاً على الوالدين والشقيق فرج الله الذي كان قد عاد إلى الأردن، وعمل في مخزن أدوية بملكة السيد نزار جردانه، وكان فرج الله قد انخرط بتأثير من صهره وابن عمه السيد حمدي مطر في صفوف الجبهة الشعبية .

وكان قد جعل من بيتنا الذي اشتراه الوالد في الوحدات بعد أن باع بيتنا في مشروع العيزرية إثر النكسة بأخس الأثمان... أقول كان فرج الله قد جعل منه قاعدة من قواعد الجبهة .

لم نكن نملك لمن هم في الأردن من الأقارب سوى الدعوات حتى ينجيهم الله من هذه الفتنة العمياء التي ما كان ينبغي لها أن تحدث لو أن قادة المقاومة كانوا يملكون ولو نصيباً يسيراً من نفاذ البصيرة والكياسة والحكمة والتعقل .

كانت المفاجأة الكبرى لي عند اندلاع الحرب بين المقاومة الفلسطينية والجيش الأردني هي بزوغ نجم الأستاذ عدنان أبو عودة زميلي في ثانوية السلط الذي عين وزيراً للإعلام في الوزارة العسكرية التي شكلها الملك حسين للقضاء على رجال المقاومة الفلسطينية، وإقصائها عن الساحة الأردنية .

في صبيحة اليوم الثامن والعشرين من أيلول- سبتمبر- سنة ١٩٧٠ وبينما كنت أقوم بحلق لحيتي إذ طرق سمعي صوت المذيع في إذاعة الكويت ينعي إلى الأمة العربية والإسلامية وإلى شعوب العالم الثالث الزعيم العربي الكبير جمال عبد الناصر .

لم أصدق أذني وقلت في نفسي: هل حقاً مات عبد الناصر؟ إن معظم ملوك ورؤساء الدول العربية الذين حضروا مؤتمر القمة العربية برئاسته ما زالوا في القاهرة .

لقد كان بالأمس في وداع الشيخ صباح السالم الصباح أمير دولة الكويت وهو يغادر مصر من مطار القاهرة .

لقد مات جمال عبد الناصر فجأة؟ لم يكن يبدو عليه أنه سيرحل بهذه السرعة التي لا يتوقعها عربي... كيف مات يا جمال عبد الناصر؟ إنك لم تكمل رسالتك بعد... لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ترى هل ستبقى مصر بعدك عربية يا جمال؟!

لم أشهد في حياتي جمهوراً كذلك الذي تجمع عند السفارة المصرية في الكويت... عشرات الآلاف من الرجال ينتحبون كما تنتحب النساء... سيارات الإسعاف رائحة غادية وهي تنقل من يصابون بالإغماء... لم يتوجه أحد في الكويت إلى عمله في ذلك اليوم... كان الحداد عاماً وكانت الصدمة

النفسية لكل عربي يقيم فيها أشد من أن توصف . لقد بكيت عبد الناصر أكثر من أي عزيز فقدته في حياتي .

رحمة الله عليك يا جمال يا أبا الأحرار، يا من كانت فلسطين همك الدائم وحزنك المقيم... إن كان هنالك شيء قد قتلك فلا شك أنه الحزن يا جمال. من سيجمل الرسالة بعدك؟ ومن للأرض العربية المنتهك عرضها سواك؟!

كانت أم نزار ما تزال في الخامسة والثلاثين من عمرها، وكانت أصغر البنات قد أصبحت في السابعة من عمرها بينما أصبح نزار في الرابعة عشر وعلى أبواب المرحلة الثانوية .

وفي الثامن والعشرين من آب- أغسطس- سنة ١٩٧٠ رزقنا بمولود ذكر شاعت أم نزار أن تطلق عليه اسم كامل تيمنا بوالدها. وقد أقررتها على ذلك لرشاقة الكلمة وجمال معناها ولأن شخصية العم كامل تصلح لأن يُتِمَّنَ باسم صاحبها في التسميات .

وضعت أم نزار مولودها في مستشفى الصباح للولادة. وبولادة كامل أصبح عدد أولادنا الذكور أربعة . أما البنات فثلاث .

كان كامل أول مولود لا تكلفنا ولادته أي مبلغ من المال باستثناء ما منحناه للمرضات من المكافأة لأن الرعاية الصحية في الكويت كانت مجانية لجميع المواطنين والوافدين .

أبرقنا إلى الوالدين في الأردن، وإلى العم كامل وزوجته في القاهرة، نبشرهم فيها بقدوم كامل فردوا علينا برسائل مفعمة بالغبطة والحبور والحمد لله والنشاء على نعمائه .

كان كامل هو الابن الوحيد الذي نقلته مع أمه بسيارتي الخاصة من المستشفى حتى المنزل . أما إخوته الآخرون فقد خرج كل منهم من المستشفى مع والدته؟ إلى البيت في سيارة أجرة .

كان قدوم كامل إلى هذه الحياة بمثابة فأل حسن، إذ لم ألبث أن رُقِّيتُ بعد قدومه بخمسة وثلاثين يوماً إلى وظيفة مدرس أول في مدرسة الشعب المتوسطة للبنين .

كان ناظر هذه المدرسة هو الأستاذ جمال سعد الدين وهو رجل فلسطيني من صفد، وكان وكيلها هو الأستاذ فوزي الأسدي. وقد عرفت في هذه المدرسة عدداً من الأساتذة الأفاضل منهم الأساتذة: فتحي الدجني وعز الدين الجردلي ومحمد نجم ومحمد صالح وشفيق البلعاوي وغيرهم .

بقيت في هذه المدرسة عاماً دراسياً واحداً رُقِّيتُ في نهايته إلى وظيفة مُوجِّهٍ في اللغة العربية في المرحلة الابتدائية .

وقد تسلمت مهام عملي في الوزارة في ١١/٩/١٩٧١ وكان الموجه الأول في توجيه اللغة العربية هو الأستاذ محمد نجم وهو مرب فلسطيني قديم من الرعيل الأول من خريجي كلية دار العلوم .

وكان واحداً من أربعة مدرسين فلسطينيين ندبهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر سنة ١٩٣٦ للعمل في مجال التعليم في الكويت .

وقد استحق الأستاذ نجم هو ومن بقي على قيد الحياة من زملائه الحصول على الجنسية الكويتية تقديراً لما قدموه من خدمات جليلة لأهل الكويت .

كان توجيه اللغة العربية حصناً منيعاً لا يستطيع اقتحامه غير المصريين... وكانت الدفعة من الموجهين الذين رقيت معهم إلى وظيفة موجه فني هي الدفعة الأولى التي تضم بين أسمائها ثلاثة من الفلسطينيين هم: الدكتور كامل الدقس والأستاذ سمير اللبدي وكاتب هذه السطور، واثنين من السوريين هما الأستاذ الشاعر محمد علي أنيس البني والأستاذ طاهر معلّ ربيع .

ثم توالى بعد ذلك ترقية مدرسين أوائل كثيرين من الفلسطينيين وغيرهم إلى رتبة موجه بعد أن فتحنا نحن لهم الباب على مصراعيه .

قبل أن أنقل إلى قسم توجيه اللغة العربية بعام واحد كان هذا القسم مسؤولاً عن التوجيه في مادة التربية الإسلامية، وفي هذا العام أصبح للتربية الإسلامية توجيه مستقل يرأسه الأستاذ الفاضل محمد عبد الحليم الشيخ .

كان توجيه اللغة العربية بمراحله الثلاث يضم عدداً من الأساتذة المختارين منهم الأساتذة محمد محمود كريمة وعبد العليم عيسى و طاهر الشبراوي ومحمد حسن الجبالي ومحمد إبراهيم الخالدي ومحمد ندا ومحمد عادل سقف الحيط ومحمود سلطان ومحمد كمال الدين عطية ورشاد أحمد أبو عوف ودرويش حمودة أبو زور وعبد الرحيم الجوهري شتا وسهير عبد المجيد نوار وغايات محمود عامر وغيرهم .

منذ أن وطئت قدمي أرض الكويت لم يُلْهني عملي الرسمي عن البحث والدراسة في موضوعي الذي سجلته لنيل الدكتوراه . وفي عطلة نصف العام الدراسي ٧٠/٦٩ قمت بزيارة بغداد، وأمضيت فيها أسبوعين

اتصلت في خلالها بالشاعرات العراقيات نازك الملائكة ورباب الكاظمي وعاتكة الخزرجي وسلامة حجاوي وآمال الزهاوي وغيرهن .

وفي الثاني والعشرين من فبراير- شباط- ١٩٧١ فُجِعْنَا بوفاة حماتي المرحومة والدة أم نزار السيدة فاطمة مأمون محمد بسيوني . وكان لوفاتها رنة أسي وحزن عميقين في نفوسنا فقد كانت- رحمها الله- مثلاً للمرأة الصالحة الطيبة التي لا يمكن أن يرى زوجها منها ما يسوؤه . وكانت بالنسبة لي أمّاً رؤوفاً لا يقل حبها لي عن حب والدتي التي ولدتي وأرسلتني .

لم يُقَدَّرْ للمرحومة أم سيدة أن ترى ولدنا الأصغر كامل الذي عبّرت لنا عن سعادتها بحمله لاسم جده في رسالة بعثت بها إلينا بعد أن بشرناها بولادته بقليل .

كانت أسعد أيامها هي تلك التي نقضيها معها في القاهرة في العطلات الصيفية، وكانت سعادتها تتنامى كلما تنامي عدد أحفادها من حولها. وكان دعاؤها الذي لا تفكاً تردده لابنتها كلما وضعت واحداً من أبنائها: "يغلبك بالمال وتغلبيه بالعيال يا سيدة يا بنتي" .

وقد توفيت رحمها الله عن عمر يناهز الخامسة والستين وهي في صالة الانتظار بمستشفى الدمرداش حيث كانت تنتظر دورها في الدخول على طبيبها الذي كان يعالجها من مرض ارتفاع ضغط الدم .

وقد وقّف العم كامل موقفاً صلباً من محاولات الأطباء الذين أصروا على تشريح جثمانها الطاهر لمعرفة سبب الوفاة . وكانت سيدة قد هُرِغَتْ إلى القاهرة لتقبل العزاء في والدتها بعد يوم واحد من وفاتها ثم عادت إلى الكويت وهي تحمل على كاهلها أحزان الدنيا كلها .

جُنّ جنون العم كامل عندما سمع بذلك ثم أرغى وأزبد وحلف على أنه سيرتكب جريمة تهتز لها أركان المستشفى إذا مس أحد الجراحين جثمان زوجته. ولم يجد الأطباء أمام هياج العم كامل وإصراره على عدم الموافقة

على تشريح الجثمان إلا أن يرضخوا لرغبته، فسَلِّمُوا جِثْمَانَهَا الطاهر دون أن يمسه أحد منهم .

وفي الخامس من إبريل سنة ١٩٧١ أقمنا لها حفل تأبين في منزلنا بالكويت وذلك بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاتها .

وقد أرسلنا بطاقة زيارة إلى العم كامل تخوله المجيء إلى الكويت، فحضر إلينا وقضى معنا قرابة شهر. وفي العطلة الصيفية سافرنا كلنا إلى القاهرة لتكون إلى جانب العم كامل في محنته أطول وقت ممكن، وقد أصيب العم كامل باكتئاب بعد رحيل زوجته، وبدأت صحته بالتدهور، وفي ١٩٧٢/٥/٢٠ لبي نداء ربه رحمه الله وأُسكنه فسيح جناته. وسافرت أم نزار إلى القاهرة لتقبل العزاء في والدها وتضاعف حزنها بعد أن أصبحت يتيمة الأبوين . إن من أعظم الصفات التي ضاعفت من حبي لزوجتي حبها العظيم لوالديها وبرّها بهما، ذلك البر الذي لا يستطيع أن يصفه قلم .

منذ أن وطئت قدمي أرض الكويت وأنا منكب على البحث والدراسة من أجل إنجاز أطروحة الدكتوراه، إذ لم يلهني عملي الرسمي عن ذلك. وبعد أربعة أعوام من الدراسة والإعداد والبحث والترحال والتنقل بين مكاتب القاهرة والكويت وبغداد وعمان ودمشق وبيروت ومراسلة أدباء وشاعرات المغرب وتونس تمكنت من إتمام البحث والحمد لله .

وقد فرغت في خلال العطلة الصيفية من العام الدراسي ٧٠/٧١ من طباعة الرسالة على الآلة الكاتبة، وقد تولى أمر طباعتها السيد محمد الجريسي سكرتير قسم التسجيل في الكلية، والذي سبق أن قام بطباعة رسالة الماجستير . وقبل أن أغادر القاهرة عائداً إلى الكويت، سلّمت سبع نسخ إلى إدارة الكلية، كما وافقت رئاسة الجامعة على قرار الكلية بتشكيل لجنة المناقشة من الأساتذة الدكتور حسن جاد حسن رئيساً وعضوية كل من

الدكتور عبد الحميد يونس- وكيل وزارة الثقافة- والدكتور سليمان ربيع الأستاذ بالكلية، ورئيس قسم اللغة العربية فيها .

وفي الثاني عشر من فبراير- شباط- ١٩٧٢ نوقشت الرسالة بحضور عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأصدقاء والصدقات، وقد أصدرت اللجنة قرارها بمنحي درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. وهكذا تحقّق الحلم الذي طالما راود مخيلتي .

لقد شهد العم كامل مناقشة الرسالة فأسعده ذلك كثيراً، وكانت كلماته التي سمعتها منه بعد ذلك- على الرغم من أن صمته كان أكثر من كلامه- أفضل كلمات أشاعت في نفسي الغبطة والحبور .

قال بلهجته البسيطة المعبرة: "من أول ما شفتك يا أستاذ رجا قلت إن الراحل ده حبيقاله مستقبل كبير" .

بعد أربعة أشهر تلقيت- بناء على طلبي- شهادة مصدقة من إدارة الكلية تفيد بأنني قد حصلت على درجة الدكتوراه . وقد قمت بتقديم صورة مصدقة عنها إلى وزارة التربية كي تتعامل معي بعد ذلك مثلما تتعامل مع حملة هذا المؤهل الأكبر .

بعد انتقال جمال عبد الناصر إلى جوار ربه تولى أنور السادات منصب رئاسة الجمهورية، إذ لم يكن قد بقي حول جمال عبد الناصر من رجال الثورة سوى هذا الرجل الذي لم يقل "لا" يوماً لعبد الناصر . وكأني به قد خطط لهذا اليوم، وكان عبد الناصر قد اختاره قبل وفاته بمدة نائباً للرئيس .

ترى هل يملأ السادات المكان الذي خلا بوفاة جمال عبد الناصر؟ وهل في استطاعته أن يتم ما بدأه جمال بعد النكسة؟ هل يستطيع السادات أن يزيل آثار العدوان الذي قامت به إسرائيل سنة ١٩٦٧ ؟ أسئلة كثيرة كانت تتردد على الألسن في الشارع العربي في جميع الأقطار .

لقد فوجيء العالم أجمع بأن همّ السادات الأول كان هو إزالة آثار جمال عبد الناصر بدلاً من إزالة آثار العدوان . ولو استطاع أن يحو اسمه من سجل التاريخ لما أحجم عن ذلك، ولكن أنى له أن يفعل واسم جمال عبد الناصر وإنجازاته محفورة في عقول وقلوب الملايين .

ومنذ أن تولى السادات منصبه وهو يتحدث عن عام الحسم، حتى أصبح عام الحسم نكتة سمجة يتداولها جميع الناس . وقد أثارني كلامه الكثير عن عام الحسم ودفعني إلى أن أقول في قصيدتي "إلى أبطال ميونخ الثانية" التي نظمتها عام ١٩٧٢ هذه الأبيات :

فكم حددوا من عام حسم وأرجنوا بأنهم ولن ينحوا خصماً شبراً
وكم بذلوا للقدس وعداً وأقسموا على أن يحلوا عسراً ما يسراً
وقد مر عام الحسم والخصم آمنٌ فلم يضطرب برا ولم يضطرب بحراً
وسيناء ما زالت تُدبرُ عليهمو من الرزق أخلاقاً ومن نقطها تبراً
وما زالت الجولان ترنو حرسنة إلى جلق ترجو لا غلاها كسراً
تقول ألا من فارس مثل خالد يكر على ألا وباش يوم الوغى كرا؟!!

في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ نجحت القوات المصرية في عبور قناة السويس، ورفعت الأعلام المصرية فوق أنقاض خط بارليف الذي كان جنرالات العالم يزعمون أنه غير قابل للإختراق .

وفي الوقت نفسه اندفعت ثلاث فرق سورية من المشاة والمدركات لتكتسح مرتفعات الجولان وتقترب بسرعة لم يتوقعها أحد من حافة المرتفعات المطلّة على سهل الحولة وبحيرة طبرية ومن ورائها منطقة الجليل .

كانت هذه الاندفاع الرائعة للجيشين المصري والسوري خير برهان على أن العرب يستطيعون أن يحاربوا، وأن السلاح السوفيتي سلاح فعال، وأن ما كان يتقصّ العرب شيئاً لا ثالث لهما: أولهما : إرادة القتال، وثانيهما : قيادة حكيمة تستطيع أن تخطط، وتأخذ بزمام المبادرة وتباغت العدو قبل أن يباغتها . وهذا ما تحقّق في هذه المعركة .

في فجر السابع من أكتوبر تمكن الإسرائيليون من تعطيل الاندفاع السورية الأولى عبر الجولان، وفي اليوم الثامن منه أصبح معدل تقدم السوريين بطيئاً عن اليوميين السابقين .

وعند الظهر من هذا اليوم ألقى العقيد معمر القذافي في الجماهير الحاشدة في طرابلس والتي خرجت معبرة عن فرحتها بالعبور خطاباً تساءل فيه عما إذا كانت هذه الحرب حرب تحرير أم حرب تحريك...؟

وفي مساء اليوم الثامن أسر السفير السوفيتي في القاهرة للسادات أن السوريين خسروا أكثر من ٥٠٠ دبابة في ساعتين، وأنهم يطالبون بالضغط على مجلس الأمن لوقف إطلاق النار بسبب خطورة الموقف على جبهتهم .

وفي اليوم التاسع من أكتوبر بعث الرئيس الأسد برسالة سرية إلى الرئيس السادات ينفي ما زعمه السفير السوفيتي في القاهرة من أن السوريين قد طلبوا إليهم التدخل من أجل وقف إطلاق النار، وادّعى أن الوضع على جبهته مطمئن .

وفي التاسع من أكتوبر كانت الدلائل تشير إلى أن الموقف العربي على الجبهتين قد بلغ ذروة نجاحه، فقد استولى المصريون على ١٦ نقطة محصنة من سيناء، وفي الجولان تمّ للسوريين الاستيلاء على مدينة القنيطرة.

وفي هذا اليوم طلبت رئيسة وزراء العدو جولداماثير من نائبها الجنرال آلون مقابلة السفير الأمريكي ليستعجل طلبات السلاح من الولايات

المتحدة الأمريكية، وطلبت إليه أيضاً توجيه تحذير شديد إلى الملك حسين حتى لا يستجيب إلى الضغوط الشعبية التي تطالبه بالتدخل في هذه المعركة.

وفي العاشر من أكتوبر خسرت إسرائيل ١٤٣ طائرة مقاتلة منها ٥٣ على الجبهة السورية، كما خسرت ٢١٥ دبابة سليمة وقد أسر من جنودها ١٥٧ جندياً كما أغرقت لها القوات البحرية العربية ٩ زوارق حربية، وقد استمر اليهود في الضغط على الجبهة السورية لشل فاعليتها والتفرغ للجبهة المصرية.

وفي الحادي عشر من أكتوبر بدأت إشارات الخطر في الظهور على آفاق جبهات القتال، فعلى الرغم من أن القوات المصرية كانت تتقدم على الساحل الشرقي لخليج السويس إلا أنها كانت تتعرض لقصف جوي شديد، وعلى الجبهة السورية اخترق العدو القطاع الشمالي من خط وقف إطلاق النار السابق، وعلى عمق يتراوح ما بين ٣-٥ كيلومترات، كما قام بقصف جوي على مطارات وقواعد عسكرية حول دمشق.

وفي اليومين العاشر والحادي عشر من أكتوبر بدأت الطائرات الإسرائيلية تهاجم أهدافاً مدنية داخل دلتا النيل حيث بلغت الخسائر المصرية أكثر من ٥٠٠ قتيل من المدنيين.

وفي اليوم الثاني عشر من أكتوبر، استمر العدو في تركيز مجهوده على الجبهة السورية لليوم الرابع على التوالي، وقد خسر العدو في هذا اليوم على الجبهة المصرية ٢٢ طائرة مقاتلة و٧ طائرات هيلوكبتر و٢٨ دبابة و٢١٤ جندياً بين قتيل وجريح. أما على الجبهة السورية فقد تمكن اللواء العراقي المدرع من تثبيت العدو وتوجيه ضربة مضادة إليه ومنعه من تطوير هجومه شرقاً في اتجاه دمشق.

وفي اليوم الثالث عشر من أكتوبر، استمرت المعارك على الجبهتين وبدأت الخسائر التي يمتد بها العدو تقل تدريجياً وكان الجسر الجوي الأمريكي مستمراً في نقل الأسلحة للعدو.

وفي اليوم الرابع عشر من أكتوبر أبرزت المعارك أن العدو قد أعاد تنظيم دفاعاته على الجبهة المصرية وكان الجنرال بارليف يقوم بنفسه على إدارة المعركة المحتمة على مشارف المضائق في سيناء.

وكان هنري كيسنجر قد ألقى بكل نفوذ الولايات المتحدة وتأييدها السياسي والعسكري وراء إسرائيل.

وفي الخامس عشر من أكتوبر وصلت القوات الإسرائيلية في اختراقها لخط وقف إطلاق النار إلى عمق عشرين كيلومتراً على الجبهة السورية.

وفي اليوم السادس عشر منه نفذ العدو استطلاعاً جوياً في قطاع الجيش الثالث مكنه من اختراق خط الجبهة هناك، وعلى الجبهة السورية تمكن اليهود من استرداد ما استعاده منهم العراقيون.

وفي هذا اليوم قام رئيس الوزراء السوفيتي ألكسي كوسيجين بزيارة إلى القاهرة. وفي اليوم السابع عشر كانت جهود القوات المصرية منصبة على وقف تدفق المدرعات الإسرائيلية إلى الثغرة التي أحدثها العدو على الشاطئ الغربي من قناة السويس، ولكن جهودهم باءت بالفشل، وبدأ الرئيس السادات يوجه اللوم للاتحاد السوفيتي على تقصيره في إمداد مصر بالسلح، أما خطأ السادات الأكبر فقد كان متمثلاً في تهوينه من خطورة الثغرة التي أحدثها الإسرائيليون وفي عدم الأخذ بآراء مستشاريه.

وقد أغضب موقف السادات هذا رئيس الوزراء السوفيتي، وأوضح له أن استهانته بالثغرة خطأ فادح، وقد أثبت له بالصور التي التقطتها الأقمار الصناعية السوفيتية أن الإسرائيليين قد تمكنوا من إدخال ٧٦٠ قطعة مدرعة ما بين دبابات وعربات مصفحة إلى الغرب من القناة وأن تعزيزها مازال مستمراً.

وبعد الظهر بقليل اتصل الجنرال ديان وزير الدفاع الإسرائيلي الذي كان في زيارة للجبهة المصرية برئاسة الوزراء جولداماثير يطمئنها

إلى أن الأوضاع تحسنت كثيراً في الجبهة الجنوبية وأن الثغرة اتسعت الآن بعد أن أصبح فيها لواءان مدرعان ولواءان من المشاة الميكانيكية .

وفي هذا اليوم توصل وزراء البترول العرب المجتمعون في الكويت إلى قرار يقضي بدخول البترول العربي سلاحاً في المعركة .

فقد تقرر تخفيض الإنتاج الكلي بنسبة ٥ % فوراً وتخفيض ٥ % من الإنتاج كل شهر حتى تتسحب إسرائيل إلى خطوط ما قبل ١٩٦٧ وقررت بعض الدول العربية حظر تصدير نفطها كلية إلى أي دولة يثبت تأييدها لإسرائيل بما فيها أمريكا . وقد قررت السعودية تخفيض انتاجها بنسبة ١٠ % .

وفي اليوم الثامن عشر من أكتوبر اجتمع السادات برئيس الوزراء السوفيتي، وأبلغه باستعداد مصر لقبول قرار وقف إطلاق النار. وفي هذا اليوم كان حائط الصواريخ المصري يتعرض لضغط شديد من الدبابات الإسرائيلية. وهكذا أصبح في أيدي الإسرائيليين أرض مصرية جديدة يسامون عليها عند بدء المفاوضات .

وفي اليوم التاسع عشر من أكتوبر أعلن الرئيس نيكسون أنه سيقدم إلى الكونغرس مشروع قانون يمنح إسرائيل ٢,٢ مليار دولار كمساعدة طارئة .

وفي هذا اليوم قام الرئيس الجزائري هواري بومدين بزيارة سريعة لموسكو وأبلغ بريجنيف استعداد الجزائر لوضع مائة مليون دولار لصالح شراء أسلحة لمصر، ومبلغاً مماثلاً لصالح شراء أسلحة لسوريا .

وفي العشرين من أكتوبر، أبرق الرئيس السادات إلى الرئيس حافظ الأسد يخبره فيها بأنه لا يستطيع أن يحارب أمريكا، وبأنه مستعد لوقف إطلاق النار شريطة أن تضمن أمريكا وروسيا انسحاب إسرائيل كما عرض الاتحاد السوفيتي، وعلى أن يعقب ذلك مؤتمر سلام في الأمم المتحدة للاتفاق على تسوية شاملة. وهكذا تحققت مخاوف العقيد معمر القذافي فقد تحولت

حرب أكتوبر من حرب تحرير إلى حرب تحريك، ترى هل أريد لها أن تكون كذلك منذ البداية !؟

وفي الحادي والعشرين من أكتوبر، أرسل الرئيس الأسد برقية إلى الرئيس السادات يدعو فيها إلى الصمود ومواصلة القتال، لأن مجرد خرق العدو للجبهة لا يعني أن النصر قد أصبح في جانبه، وأن استمرار القتال وتطويره يمكن أن يؤدي إلى تدمير القوات المعادية في الجبهتين . لم يسعد السادات بهذه البرقية، فقد علق عليها في سخرية ظاهرة بقوله: "حافظ يريد أن يعطيني درساً في الصمود" .

وفي اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر، هاتف القذافي السادات مستفسراً عما سمعه من أن مصر موافقة على وقف إطلاق النار فأكد له السادات ذلك .

وعند منتصف الليل من يوم الثالث والعشرين من أكتوبر، بدأ سريان مفعول وقف إطلاق النار. وكما هي العادة التزم المصريون بقرار وقف إطلاق النار بينما واصلت القوات اليهودية عملياتها مستهدفة السيطرة على السويس والاندفاع إلى ميناء الأدبية، وحصار الجيش الثالث، وقطع خطوط إمداداته وتموينه. وكان الرئيس السادات الذي فقد أعصابه يزداد عصبية لحظة بعد أخرى، فأوعز إلى حافظ إسماعيل بالكتابة إلى كيسنجر يطالبه فيها بالتدخل لوضع حد لما تقوم به القوات الإسرائيلية .

وفي اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر واصل اليهود هجماتهم في اتجاه مدينة السويس وممر متلا والجيش الثاني في سيناء محاولين سد الطريق على الجيش الثالث .

وفي هذا اليوم وجه الرئيس السوفيتي ليونيد بريجنيف إنذاراً إلى إسرائيل يقول فيه إن الاتحاد السوفيتي سوف يقرر بنفسه منفرداً اتخاذ الخطوات الضرورية والعاجلة لتأكيد احترام وقف إطلاق النار، فلا يمكن لإسرائيل أن تقلت من مسؤولية انتهاكها له .

وقد أرسل بريجينيف رسالة شديدة اللهجة إلى نيكسون يطالبه فيها بالضغط على إسرائيل وإرغامها على الالتزام الفوري والكامل بقرارات مجلس الأمن .

ووجه بريجينيف في اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر إنذاراً ثانياً إلى نيكسون يقول له فيه "إنني لأقول بصراحة إنه إذا لم يكن في مقدورك التصرف معنا بطريقة مشتركة لمواجهة هذا الموقف فإننا سوف نرى ما يمكن عمله منفردين . وفي كل الأحوال فنحن لا نقبل أن نتصرف إسرائيل بطريقة تعسفية معتمدة على تأييد الولايات المتحدة" .

وبعد منتصف الليل من اليوم الثامن والعشرين من أكتوبر، بدأت مفاوضات فك الاشتباك عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة - السويس، وفي يناير ١٩٧٤ وقّع اتفاق فض الاشتباك الأول. وقد خرج السادات من حربه المحددة هذه مقتنعاً بأنها يجب أن تكون آخر الحروب بين العرب واليهود، وأن الصراع بين الطرفين صراع نفسي بنسبة ٧٠% وأن ٩٩% من أوراق حل أزمة الشرق الأوسط في يد الولايات المتحدة الأمريكية، وأن موقع مصر ليس في العالم العربي وإنما هو في الغرب أو معه على الأقل . وقد خرج بوهم أكبر من هذه الأوهام كلها ملخّصه أن في إمكان مصر أن تشكل علاقة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية تساوي أو توازي- في أسوأ الحالات- علاقة أمريكا بإسرائيل .

في العام الدراسي ٧٣/٧٤ حصل ولدي الأكبر نزار على شهادة الثانوية العامة، وقد صدمنا بالنسبة التي حصل عليها إذ لم تكن تزيد عن ٧٣% إلا بقليل... كان نزار متفوقاً في جميع مراحل الدراسة السابقة ولم نكن نتوقع بأن يحصل في امتحانات الثانوية العامة على أقل من ٨٥% وهكذا بدأنا السعي من أجل إلحاقه بكلية من كليات الهندسة في إحدى الجامعات المصرية وفقاً لرغبته .

سافرت إلى القاهرة وتمكنت من إدراج اسمه في قائمة من قوائم الطلاب التي تتقدم بها منظمة التحرير إلى مكتب التنسيق . وقد وعد المسؤولون في المنظمة بأنه سيلتحق بإحدى كليات الهندسة لا محالة . ولكن عندما ظهرت نتائج القبول فوجئنا بأن المسؤولين عن قوائم الطلاب في المنظمة قد تلاعبوا بها وفق أهوائهم، وكان من نتائج هذا التلاعب إلحاق نزار بكلية التجارة بجامعة الإسكندرية، وهو الذي يحلم بكلية الهندسة .

عدت إلى القاهرة من جديد، وقابلت المسؤولين عن هذه التصرفات الفاضحة التي دأبوا على ارتكابها في حق الطلاب في كل عام لعوامل مختلفة يعرفها جميع الآباء الفلسطينيين .

اشتبكت معهم في مشادات كلامية استخدمت خلالها كثيراً من الألفاظ النابية التي يستحقونها . وأخيراً تمكنت من إدراج اسم نزار في قائمة استثنائية جديدة تتضمن اثنين وثمانين اسماً سيتقدم بها بأسر عرفات إلى الرئيس السادات للموافقة على إلحاق من تتضمنهم في الكليات التي يرغبون فيها .

وقد شاعت إرادة الله أن ينجح عرفات في إقناع الرئيس بالموافقة على قبول هذه القائمة فكان من نصيب نزار أن التحق بكلية الهندسة والتكنولوجيا بجامعة حلوان .

ظهرت النتائج الخاصة بذلك في وقت متأخر، فسافر نزار إلى مصر في فبراير ١٩٧٤، ولم يُسمح له ولزملائه الذين التحقوا بتلك الكلية بالتقدم للامتحانات في ذلك العام، فضاغ عليه عام دراسي كامل حيث لم يبدأ بالدراسة الجدية في الكلية إلا في العام الدراسي الثاني ٧٥/٧٦ م .

في العاشر من رمضان ١٣٩٤هـ الموافق للسادس والعشرين من أيلول سنة ١٩٧٤م انتقل الوالد- رحمه الله- إلى جوار ربه في منزله

بالوحدات في عمان، عن عمر يناهز تسعين عاماً، قضى معظمها مناضلاً في سبيل بلاده، وقضى أكثر من ربع قرن وهو بأمل في العودة إلى قالونيا ويحرق شوقاً إلى تحريرها .

كان ابن العم حمدي مطر هو الذي أبلغنا هاتفياً بوفاة الوالد. وقد بادرت والشقيق غالب فور سماعنا بالنبأ إلى اتخاذ الإجراءات للسفر إلى عمان لتعزية الوالدة والشقيقات والوقوف إلى جانبيه في هذا الظرف العصيب .

كان اليوم الذي أبلغنا فيه بوفاة الوالد يوم خميس، وهو يوم يتعطل فيه العمل في وزارة التربية، وكان علينا أن ننتظر حتى يوم السبت لاستلام جوازَي سفرنا حيث اعتادت الوزارة أن تحتفظ بجوازات سفر جميع العاملين فيها وفي مدارسها من الأجانب .

وقد تطلبت إجراءات السفر والحصول على الإذن بمغادرة الكويت في إجازة عارضة مدة يومين ولم نتمكن من السفر إلى عمان إلا في اليوم الثالث وهو يوم الاثنين .

كان الأهل في عمان قد شيعوا الوالد إلى مقره الأخير عملاً بالسنة المشرفة التي تقضي بالتعجيل في دفن الميت. لم يكن يدور في خلدي أن الوالد سيعاني سكرات الموت دون أن يكون أحد من أبنائه الذكور إلى جانبه. لقد أحزنني كثيراً، وحزاً في نفسي أن ينتقل - رحمه الله - إلى الرفيق الأعلى دون أن ألقى عليه نظرة الوداع، ودون أن أتزود بأخر ما كان يمكن أن يزودني به من نصائحه وإرشاداته الحكيمة .

ولكن هذا ما أراد الله الذي لا راد لمشيئته، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون . وإلى جنة الخلد يا أبتاه لقاء ما قدمت لوطنك وأمتك وأبنائك في حياتك العظيمة النادرة المثل .

في ٧٤/٩/٥ رُقيت إلى وظيفة موجه فني في المرحلة المتوسطة . وفي مطلع إبريل منحتني الوزارة علاوة قدرها ثلاثون ديناراً كويتياً بسبب حصولي على درجة الدكتوراه، ويأثر رجعي يبدأ من تاريخ حصولي عليها.

وفي ١٩٧٦/٩/١٩ رُقيت إلى وظيفة موجه فني في المرحلة الثانوية . وفي هذا العام اشتريت سيارة جديدة وهي سيارة أمريكية أوتوماتيكية من طراز شيفل/شفروليه ١٩٧٦، وقد اضطررنا لذلك بعد أن أصبحت سيارتي الأوبل غير صالحة للاستعمال، وقد بعث تلك السيارة إلى فراش فلسطيني في معهد المعلمين بعشرين ديناراً ليلعب بها أطفاله وهي واقفة أمام المنزل الذي يسكن فيه منعاً لهم من العبث بسيارات الجيران . وقد بقيت تلك السيارة أمام منزله ما يقرب من عام وأولاده يقفزون فوقها ويعبثون في داخلها . وأخيراً قامت إحدى الرافعات التابعة للبلدية بقطرها وإلقائها في مقبرة السيارات التي لم تعد صالحة للاستعمال والتي يطلق عليها الكويتيون "السكراب" .

أما سيارتي الجديدة فقد سافرت بواسطتها مع العائلة إلى الأردن في العطلة الصيفية سنة ١٩٧٧ عن طريق العراق .

في ٣ مارس ١٩٧٧ سافرت إلى تونس للمشاركة في مؤتمر اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذي كنت قد التحقت به عام ١٩٧٤، والذي دأبت على ترشيح نفسي لعضوية الهيئة الإدارية العامة له في جميع الانتخابات التي جرت في ذلك الاتحاد منذ ذلك الحين وحتى عام ١٩٨٩ .

نزلنا في فندق هيلتون، وتناولنا طعام العشاء على مائدة الرئيس المرحوم الحبيب بورقيبة في قرطاج، وأمضينا في تونس أسبوعاً كاملاً لقينا فيه من حفاوة التونسيين وكرمهم ما يشبه الخيال .

كان ذلك الأسبوع أسبوعاً من ليالي ألف ليلة وليلة، كنا نتناول طعام الإفطار في الفندق، أما وجبة الغداء فكانت على مائدة أحد الوزراء، ووجبة العشاء على مائدة وزير آخر .

وقد تعرفت في أثناء هذا الأسبوع على عدد من أدباء وشعراء تونس في طليعتهم : الأستاذ كمال الهريف نقيب الصحفيين الذي توثقت علاقتي به إلى درجة كبيرة .

في ١٩٧٧/٣/٨ وفي حفل العشاء الذي أقيم لنا في فندق هيلتون كنت أجلس على مائدة واحدة مع الشاعر الفلسطيني الأستاذ علي هاشم رشيد والطبيب عبد الرحيم ورجل ثالث لم أعد أذكر اسمه .

جاء رجل- ونحن جالسون- وهمس في أذن الطبيب عبد الرحيم قائلاً في صوت مسموع "أبو عمار" يريك، هبّ الطبيب وكأسه لم تزل فيه بقية، فقلت له: اشرب كأسك حتى الثمالة، ثم اذهب لتلبية نداء أبي عمار... استجاب الطبيب لذلك وشرب كأسه حتى الثمالة وانصرف .

وما هي إلا ثوان حتى انثالت عليّ أبيات قصيدة نظمتها في دقائق معدودة وأنا جالس إلى المائدة برفقة من ذكرت. وجعلت عنواناً لها : "حتى الثمالة" .

وما أن استوت القصيدة على ساقها حتى عمدت إلى المطربة التي كان يصدح صوتها بأغنية من أغاني أم كلثوم، واستأنبتها في إلقاء القصيدة فرحبت بذلك وقدمتني إلى جمهور الساهرين الذي يربو عدده عن ٥٠٠ كاتب وصحفي قائلة: إليكم الدكتور رجا سمرين في قصيدة لم يمض على ولادتها سوى دقائق .

دوت القاعة بالتصفيق وألقيت القصيدة التي استعديت أبياتها عدة مرات، وما أن فرغت من إلقائها حتى تهافت عليّ الصحفيون التونسيون وأخذوا يطالبونني بنماذج من شعري لينشروها في صحفهم. وكنت قد

أعددت لهذا الأمر عدته، فدفعت بعدد من القصائد إلى نقيبهم في اليوم التالي ليوزعها عليهم .

وكنت قد أقيمت في ٧٧/٣/٥ قصيدة بعنوان "يا تونس الخضراء" في إحدى الجلسات التي خصصت لإلقاء الشعر خلال انعقاد المؤتمر . وكما هي العادة في مؤتمرات الاتحادات الشعبية نجح ياسر عرفات في تمرير ما يريده من تعديلات للنظام الأساسي من جهة، وإقرار الأمانة العامة التي يريدها من جهة أخرى ضارباً بالديمقراطية الفلسطينية التي طالما تغزل بها عرض الحائط .

في التاسع من نوفمبر سنة ١٩٧٧ وبمناسبة افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة لمجلس الشعب المصري فاجأ أنور السادات العالم في خطابه الذي ألقاه في الجلسة الافتتاحية حين قال قبل أن ينهي خطابه بقليل: "إنني مستعد للذهاب إلى أقصى الأرض، حتى الكنيست نفسه لكي أحدث إلى الإسرائيليين في عقر دارهم تعبيراً عن رغبتي في السلام" .

أذهلت هذه العبارات أبناء الأمة قاطبة، وقد ظنّها أغلب الناس زلة لسان... إلا أنها في الحقيقة لم تكن إلا فاتحة للفتن والشور التي أصابت الأمة العربية من المحيط إلى الخليج بعد ذلك .

لم تمض إلا أيام قلائل حتى شاهد العالم كله أنور السادات ونفراً من حاشيته يهبطون في مطار غوريون. وما لبثت المفاوضات بين مصر وإسرائيل أن بدأت تحت الرعاية الأمريكية في كامب ديفيد .

وفي سنة ١٩٧٨ أسفرت هذه المفاوضات عن توقيع معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل استعادت مصر بموجبها صحراء سيناء التي لم تشكل في يوم ما للإسرائيليين سوى ممر يضربون منه العمق المصري .

لقد ظهر بوضوح أن الهدف الرئيسي من هذا الصلح المنفرد إنما يتمثل في إخراج مصر من المعركة وعزلها عن بقية الدول العربية التي كانت تشكل معها الطرف العربي الأقوى في الصراع العربي الإسرائيلي. لقد أدرك الإسرائيليون منذ البداية أن مصر بإمكاناتها البشرية والعسكرية والاقتصادية والحضارية هي الدولة العربية الوحيدة القادرة على الحرب حتى النهاية مع إسرائيل، وأن خروجها من الميدان يتيح لها الانفراد والتفرغ لمواجهة بقية الأطراف واحداً بعد الآخر وتحقيق أهدافها في الأراضي العربية الآسيوية .

وقد أدى هذا الصلح المنفرد مع العدو إلى طرد مصر من الجامعة العربية، ونقل مقر الجامعة من القاهرة إلى تونس، وانتخاب الشاذلي القليبي أميناً عاماً للجامعة، كما أدى إلى مقاطعة معظم الدول العربية لمصر وإغلاق سفاراتها فيها .

بالنسبة لي فقد حملت حملة شعواء على ذلك الصلح ونشرت ثلاث مقالات عن آثاره الضارة في جريدة "الرأي العام" الكويتية .

كانت المقالة الأولى بعنوان: "المعاهدة باطلة بجميع المقاييس" وقد نشرت في ١٥/٤/١٩٧٩، أما المقالة الثانية فكانت بعنوان "ما حققته المعاهدة وما يمكن أن تحقّقه" وقد نشرت في ٢/٥/١٩٧٩، وأما المقالة الثالثة فكانت بعنوان "كيف تتصدى للمعاهدة" وقد نشرت في ١٧/٥/١٩٧٩م.

كما أوجت إليّ هذه الجريمة النكراء التي ارتكبتها السادات في حق أمته بقصيدة طويلة بعنوان "قالوا وقتلوا" وقد أثارت هذه القصيدة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن أستاذ الأدب والنقد بكلية الآداب بجامعة الكويت - وهو مصري - فهاجمني بعنف على صفحات جريدة الأنباء فأثار بذلك معركة أدبية بيني وبينه خرج منها خاسراً ومعتزلاً وبخاصة بعد أن علم بأنني أب لشهيد .

صحيح أن سيناء قد عادت إلى المصريين ولكن الأكثر صحة أيضاً أنها عادت إليهم بترتيبات أمنية لم تكن تحلم بها إسرائيل . والأخطر من ذلك أن أمريكا التي شاركت مشاركة فعلية في تلك الترتيبات قد تمكنت من تحقيق حلمها القديم الهادف إلى تحويل النظام الأمني العربي الخالص إلى نظام أمني للشرق الأوسط كله .

في إبريل سنة ١٩٨٠ شاركت في المؤتمر الثالث الذي عقده الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في بيروت .

نزلنا في فندق البوريفاج في الرملة البيضاء . وفي تلك الأيام كانت المقاومة الفلسطينية قد أحكمت قبضتها على لبنان حتى أصبحت الدولة اللبنانية بالنسبة لها أشبه ما تكون "بخيال مآته" لا يخيف سوى العصافير الصغيرة البلهاء .

رثيتُ للبنان، وما آل إليه حاله، وتذكرت ما حدث للمقاومة الفلسطينية في الأردن فوضعت يدي على قلبي، وقلت بيني وبين نفسي: ترى هل سيحدث لنا في لبنان مثلما حدث لنا في عمان؟

كان هم ياسر عرفات الأكبر في هذا المؤتمر هو تعديل النظام الأساسي للاتحاد بحيث يسمح بأن يكون له رئيس بالإضافة إلى أمين عام. وكان واضحاً للجميع أن أبا عمار يريد ذلك لينصب الشاعر الكبير أبا سلمي رئيساً للاتحاد تكريماً له، على الرغم من أن الرجل كان زاهداً في ذلك. طرح الاقتراح المتعلق بهذا الأمر للتصويت ففشل فشلاً ذريعاً. وثارت ثائرة أبي عمار وجمع كتاب فتح والمحسوبين عليها من أنصارها وتساءل كيف يسقط مثل هذا الاقتراح وهم يشكلون الأغلبية الساحقة بين كتاب فلسطين وصحفيها الأماجد . وقد أسمعهام كلاماً جارحاً بسبب تغيب معظمهم عن

جلسة الاقتراع، وأذكر أنه قد صلب جام غضبه على المرحوم الشهيد ماجد أبو شرار الذي كان يقف إلى يمينه ممتنع الوجه عابس الأسارير .

أصدر أبو عمار قراره بعدم مغادرة الفندق حتى إشعار آخر. وبعد مرور ست وثلاثين ساعة على حبسنا في الفندق صدرت الأوامر بعقد جلسة أخرى يُطرح فيها قانون التعديل من جديد . وقد حدث ذلك بسرعة فائقة وفاز القانون الذي يقضي بتعديل النظام الأساسي بالإجماع !!!

من الأمور التي لم يكن يرغب أبو عمار لها أن تتم في هذا المؤتمر هو التركيبة السابقة للأمانة العامة. وأذكر أنه لم يكن يريد للفنان ناجي العلي أن يحصل على عضوية الأمانة الجديدة بسبب سخطه على الكاريكاتير المتعلق برشيده مهران .

وأذكر أيضاً أن المرحوم ناجي العلي قال لي وهو متجة معي في السيارة إلى منطقة الفكهاني لشراء بعض الحلوى وبحضور الشاعرين الفلسطينيين المرحوم أكرم عرفات وشهاب محمد قال: "إذا رسبت في الانتخابات فسأخرس، ولن أخط خطأ واحداً تعليقاً على الانتخابات، وإذا نجحت فإن الكاريكاتير الذي سأشره في اليوم التالي سيكون عن "الديمقراطية الفلسطينية" . ونجح الفنان ناجي العلي ونشر في اليوم التالي في جريدة السفير كاريكاتيراً ساخراً عن الديمقراطية الفلسطينية الكاذبة التي طالما تغزل بها أبو عمار .

وانتهى المؤتمر الثالث كما أراد له أبو عمار أن ينتهي، وعدنا إلى الكويت سالمين .

الفصل الثاني عشر

محاولة فاشلة للتغيير

بعد مرور عشر سنوات على العمل في مجال التوجيه الفني الذي بدأت أحس بالملل من العمل فيه، صرت أتحرق شوقاً للعمل الأكاديمي الذي يجعل الصلة بيني وبين الطلاب صلة مباشرة أحس من خلالها بأنني أسهم إسهاماً فعلياً في بناء النفوس .

وكننت بعد حصولي على الدكتوراه قد قدمت طلباً إلى الجامعة الأردنية في الفترة التي كان يرأسها الدكتور إسحق الفرحان لعلمي أجد الفرصة للانضمام إلى هيئة التدريس في قسم اللغة العربية بكلية الآداب .

وقد سار طلبتي في مساره المفروض حيث ووفق عليه من قبل القسم، ومن قبل عمادة الكلية، ورئاسة الجامعة، ولم يبق إلا المرحلة الأخيرة وهي موافقة بعض الجهات التي وقفت سداً منيعاً بيني وبين العمل في تلك الجامعة، كما حالت تلك الجهات نفسها بيني وبين العمل في عدد من الجامعات الخاصة بعد عودتي من الكويت.

في إبريل من عام ١٩٨١ أعلنت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر عن رغبتها في التعاقد مع عدد من حملة الدكتوراه في مختلف التخصصات. وقد قمت بتقديم طلب أعلنت فيه عن رغبتني في العمل أستاذاً للأدب العربي الحديث، وما هي إلا أيام قليلة حتى وصلتني رسالة من السيدة زبيدة حنون عميدة معهد اللغات والآداب بجامعة عنابة تعلمني فيها بموافقتها على انضمامي لأسرة التدريس بقسم اللغة والأدب العربي بالمعهد ابتداءً من أول سبتمبر سنة ١٩٨١، وقد طلبت إلي أن أوفيتها بملف كامل

يتضمن الشهادات العلمية وشهادات الخبرة، وحسن السيرة والسلوك، والجنسية والميلاد وعقد الزواج، وغير ذلك تمهيداً لإتمام إجراءات توظيفي رسمياً. وقد استجبت لذلك فأرسلت إليها ملفاً كاملاً يتضمن كل ما طلبت من وثائق ومستندات .

بعد ذلك تلقيت رسالة ثانية من السيدة زبيدة مورخة في ٨١/٧/٧ تحيطني علماً بترشيحي لدى الوزارة للعمل بوظيفة محاضر في الأدب العربي، و براتب قدره ثمانية آلاف ديناراً جزائري و ٤٠ ديناراً علاوة اجتماعية لكل فرد من أفراد الأسرة وثلاثة آلاف دينار بدل استقرار يدفع فور وصولي إلى عنابة .

استقر الرأي على خوض هذه التجربة، ولكنني لم أشأ أن أسرع في الخلاص من العمل في الكويت، فقد رأيت أن أحصل على إجازة لمدة ثلاثة أشهر، أسافر في بدايتها لأجرب العمل هناك، فإن راق لي أرسلت باستقالتي من العمل في الكويت من هناك، وإن لم يحدث شيء من ذلك عدت أدراجي إلى الكويت. وحتى لا أعاني من الوحدة فقد قررت أن أصطحب ابنتي الصغرى فاطمة التي كانت قد حصلت على شهادة الثانوية العامة في ذلك العام من الكويت، وكان شقيقها محمد قد التحق منذ عامين بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة حلب، والتحق شقيقه زياد بكلية Loop Collage في مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية لدراسة إدارة الأعمال .

بينما التحقت ليلى التي تكبر فاطمة بعامين بقسم اللغة الإنجليزية بآداب جامعة دمشق بعد أن أمضت عاماً في قسم الجغرافيا بتلك الكلية .

تخرج نزار من كلية الهندسة والتكنولوجيا في حلوان في هذا العام، وبدأ يشق طريقه في مجال العمل الهندسي في شركات الكويت، وكنا قد خطبنا له زميلته المهندسة المصرية آمال إبراهيم عبد الحميد التي تخرجت

معه من الكلية ذاتها في العام نفسه، وكان نزار وآمال قد عاشا قصة حب لم تخف على أحد من الكلية منذ أن تعارفا .

أقلعت بنا الطائرة من مطار الكويت في التاسعة والرابع من صبيحة يوم الأحد التاسع والعشرين من آب- أغسطس- ١٩٨١ متجهة إلى الجزائر، وقد حطت بنا الطائرة في مطار روما في الثانية والنصف من بعد الظهر بتوقيت الكويت، حيث استغرقت الرحلة خمس ساعات. وقد بقينا في المطار حتى الساعة السابعة والرابع بسبب تأخر الطائرة الجزائرية التي يفترض أن تنقلنا إلى الجزائر .

وقد أقلعت بنا الطائرة الجزائرية في السابعة والرابع مساءً، ووصلنا إلى مطار الجزائر في التاسعة مساءً حيث مكثنا في المطار حتى الثانية عشر مساءً لقد فاتتني أن أذكر أنني قد فوجئت بوجود الأستاذين الدكتور صلاح عيد والدكتور حسن محسن المدرسين بمعهد التربية للمعلمين في مطار روما .

وقد أدهشني أنهما متوجهان إلى الجزائر للعمل في جامعة عنابة وهي ذات الجامعة التي كنت متوجهاً للعمل فيها . وكان الأستاذان يصطحبان كافة أسرتهما الأمر الذي ينم عن أنهما كانا قد عقدا العزم على الاستقرار في الجزائر والعمل فيها .

لقد سرتني ذلك كثيراً إذ ليس هناك أفضل من أن يعمل الإنسان في بيئة يكون له فيها أكبر عدد ممكن من الزملاء والأصدقاء .

وقد سرُّ الرجلان كذلك بعد أن علما بأن جامعة واحدة ستجمع بيننا . بدأت معاناتنا منذ أن حطت بنا الطائرة في مطار هواري بومدين .

وقد كانت أول صدمة قابلتني متمثلة في ثورة ضابط الجوازات الجزائري بسبب ملئي لبطاقة الدخول باللغة العربية .

قال الضابط في صوت حاد أنبرة، وبلهجة جزائرية فظة تتم عن الغضب والاستهجان: عَمَرْتَهَا بالعربي؟! وفهمت من ذلك أنه يستهجن إقدامي على

ملء البطاقة باللغة العربية. فقلت متسائلاً باستنكار: وما الخطأ في ذلك يا رجل؟!

قال وقد ازداد حدة وغضباً: احنا ما نعرفوا العربي... عَمَرُها بالفرنساوي . قلت: ليس ذنبي أنك لا تعرف العربية، وأعلم بأنني لا أعرف الفرنسية، وما كنت لأستخدمها حتى لو كنت عالماً بها.... ولا تَنسَ يا سيدي أنني عربي، وأنني قادم إلى الجزائر لأعلم أبناءها اللغة العربية في الجامعة. قال وهو يمزق البطاقة ويتناول غيرها ليعبئها بنفسه بالفرنسية: مش خنلصوا لو عَمَرْنَا لكل واحد بطاقته بأيدينا . قلت في نفسي: أول الرقص حنجلة يا أبا نزار، ما أظن أنك ستستريح في بلد يكره أهله اللغة العربية إلى هذا الحد .

وفرغنا من إجراءات الدخول، ودلفنا إلى قسم مباحث الجوازات وجلست وفاطمة والدكتوران صلاح وحسن وعائلتهما أكثر من ساعتين في انتظار تسليم جوازات سفرنا. ولما استفسرت عن سبب تأخر الجوازات قال لي أحد رجال المباحث: "تدوروا في السجلات ليكون عليك طلب" . وضحكت في أعماقي وقلت لنفسني: ما أرى إلا أننا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وما أرى إلا أن شهاب الدين أضرب من أخيه، إن المكتوب يُعرف من عنوانه... ها هي العقلية العربية المباحثية في المغرب العربي لا تختلف عن مثيلاتها في أخيه المشرق العربي العتيق .

قلت لرجل المباحث: ألا يشفع لنا أننا جامعيون نحمل أرفع الدرجات العلمية، كما نحمل شهادات حسن سيرة وسلوك من دولنا المشرقية التي تصمونها بالرجعية؟! ألا يشفع لنا كل ذلك بتسهيل مهمة خروجنا من المطار... هل يعقل أن يكون أمثالنا من المهريين أو المطلوبين!!! قال في لهجة ازدادت خشونة وفضاظة: والله هذي إجراءاتنا يا أستاذ... تعجبك أو ما تعجبك ميهمناش... المهم أنا نقوم بواجبنا .

بعد هذا الحوار غير المجدي بنصف ساعة أفرجوا عن جوازاتنا ودلفنا إلى صالة الجمارك حيث قابلتني الصدمة الثالثة .

فُتِّتْ حقائبنا وصناديق كتبنا بدقة متناهية، وأصروا على أخذ ١٥٠٠ دينار جزائري ضريبة جمركية على جهاز تسجيل كان في حوزتي. وقد ذهبت محاولات إقناعي لهم بتسجيل رقمه وطرازه على جوازي ضماناً لإخراجه معي عند مغادرة الجزائر في نهاية العام الدراسي أدراج الرياح .

غادرنا المطار في الثانية عشر مساءً، وقد توجه الدكتوران صلاح وحسن وأسرتهما إلى بعض من يعرفون ليقضوا ليلتهم عندهم، وبدأت وابنتي فاطمة بالبحث عن فندق نبيت فيه بعد أن فاتنا إدراك آخر قطار متوجه إلى عنابة. ولما فشلنا في العثور على مكان لنا في أي فندق من فنادق العاصمة، اضطررنا لاستئجار سيارة تاكسي تنقلنا إلى عنابة التي تبعد عن العاصمة بستمائة كيلومتر تقريباً مقابل ١٥٠٠ دينار وسارت بنا السيارة في طريق طويل مُتَعَرِّج تحديق به الغابات وفي صباح يوم الاثنين ١٩٨١/٨/٣٠ وصلنا إلى عنابة. وطلبت إلى السائق أن يتوجه بنا إلى فندق بلازا وهو الفندق الفاخر الوحيد في المدينة. ومما جعلني أنزل في هذا الفندق ما قاله لي الأستاذان صلاح وحسن من أن وزارة التعليم العالي تنزل الأساتذة الجدد الذين تتعاقد معهم في هذا الفندق إلى أن يتم منحهم السكن المناسب .

في الفندق تكررت قصة تعبئة البطاقة التي حدثت لي في المطار مع موظف الاستقبال، ولم يكن هناك من فرق بين القصتين سوى لباقة موظف الاستقبال في الفندق ودمائه .

نقدت السائق مبلغ ١١٥٠ د.ج. ووعدته بتسليم بقية المبلغ وقدره ٣٥٠ د.ج. عصر اليوم التالي .

وقد تفهم السائق الموقف فذهب إلى حيث يستريح من عناء السفر بعد أن وعدني بالحضور مساء اليوم الثاني ليأخذ بقية أجره .

في الثامنة من صباح اليوم التالي توجهت إلى جامعة عنابة لمقابلة عميدة معهد اللغة العربية وآدابها فقيل لي أنها ما زالت في إجازتها خارج البلاد وأنها لن تحضر قبل أسبوع .

ذهبت إلى محاسب الكلية لأتسلم ثلاثة آلاف دينار التي يسمونها "بدل استقرار" ففوجئت بعدم وجوده لأن زوجته كانت تنتظر حادثاً سعيداً .
أسقط في يدي بعد أن تحول "بدل الاستقرار" إلى "بدل حيرة واضطراب" عند ذلك اضطررت إلى أن أشرح ورطتي المالية لسكرتير الكلية، فتفهم الرجل الوضع وأقرضني مبلغ ٧٠٠ د.ج كانت هي كل ما يحملة في جيبه من نقود .

سررت من خلاصي من هذا المأزق، وعدت إلى الفندق أنتظر عودة السائق الذي لم يلبث أن حضر في موعده فنقدته بقية أجره وانصرف شاكراً مودعاً .

في عصر ذلك اليوم وصل الدكتوران صلاح عيد وحسن محسن إلى الفندق فسررت بوصولهما إلى حد كبير .

في اليوم التالي توجهنا ثلاثتنا إلى الجامعة فوجدنا العميدة مازالت منغيبه، ولكننا تمكنا من مقابلة رئيس قسم اللغة العربية، وكان شاباً رشيقاً لم يبلغ الثلاثين، يرتدي سروالاً من الجينز وقميصاً من النوع الذي يسمونه T-Shirt لا يوحي مظهره بأن له أية صلة باللغة العربية وآدابها .
وكان - وفقاً لما حدثنا عن نفسه - حاصلاً على درجة الماجستير ويستعد في الوقت نفسه للحصول على الدكتوراه .

وقد أخبرنا بأن وضع العميدة العلمي يشبه وضعه تماماً . سألنا عن المحاسب فقيل لنا بأنه ما يزال في إجازة، وتكرر سؤالنا في اليوم الثالث فقيل لنا إنه ما زال منغيباً. قلت لسكرتير الكلية في دهشة: هل يقضي الرجل

الجزائري أيام النفاس كلها إلى جانب زوجته؟! فقال ضاحكاً: يبدو أنه لا مانع من ذلك عند بعض الرجال .

بعد أسبوع حضرت العميدة، واستقبلتنا، ولكن بعد أن كان رأينا نحن الثلاثة قد استقر على عدم تسلم مهام عملنا في الجامعة والعودة بأسرع وقت ممكن إلى الكويت. لقد قبلنا الأمر على جميع وجوهه، فرأينا أن بقاءنا في الجزائر ضرب من الحمافة. لقد رأينا من بطء الإجراءات ومن عدم اكترائهم بنا ما دفعنا إلى اتخاذ هذا القرار. وقد توجت إدارة الكلية أخطاءها في حقنا بنقلنا من فندق بلزا إلى فندق آخر من الفنادق العادية يدعى فندق الأندلس بحجة أن الجامعة لم تعد تتعامل مع فندق بلزا .

كان فندق الأندلس فندقاً قميئاً مكتظاً بالعمال التونسيين والبرتغاليين، وكان يقع في زقاق ضيق من أزقة عنابة القديمة بجوار أحد مخافر الشرطة. عبرنا للعميدة عن امتعاضنا من ذلك وأبلغناها بقرار عودتنا إلى الكويت .

استاءت العميدة من موقفنا وقالت: إن حظنا سيء جداً مع إخواننا المشاركة الذين لا يكاد أحدهم يصل حتى يبادر بحزم أمتعته للعودة من حيث أتى .

قلت معلقاً : ألم تسألوا أنفسكم لماذا يفعل إخوانكم المشاركة ذلك؟

قلت : ماذا تعني ؟!

قلت: ألم تحاولوا البحث عن الأسباب التي تدفع بالمشاركة إلى الهروب سريعاً من الجزائر .

قلت: وما وجدت أنت وصديقك من الأسباب ما حملكم على اتخاذ قرار العودة وعدم تسلم مهام عملكم والدراسة لم تبدأ بعد .

وانطلقت أحدثها عما عانيت منذ أن وطئت قدمي أرض المطار وعن تنويع تلك المعاناة بإنزالنا في فندق لا يليق بمكانتنا العلمية أو الاجتماعية .

قالت: أما سوء المعاملة في المطار فلسنا مسؤولين عنه، لأنكم حضرتم إلى الجزائر مبكرين، ولو تأخر وصولكم أسبوعين لوجدتم مندوباً عن وزارة التعليم العالي في استقبالكم ولوفر عليكم كل ما وجدتموه من متاعب. وأما بدل الاستقرار فنحن على استعداد لدفعه إليكم في الحال. وأما الفندق فلن يطول بقاؤكم فيه وما هي إلا أيام حتى تحصلوا على السكن الملائم .

قلت: لقد بحثنا الأمر من كافة وجوهه وتبين لنا أننا قد خُدعنا. وكانت أكبر خدعة لنا هي تلك الخدعة المتعلقة بالراتب، فضلاً عن قيمة الدينار الجزائري المتدنية والتي تجعل الراتب الذي سننقضاه لديكم أقل مما ننقضاه في الكويت، كما أن إجراءات التحويل إلى الخارج كما عرفناها من مصادرها لن تجعلنا قادرين على الوفاء باحتياجات أسرنا وأبنائنا الذين يدرسون في الخارج .

قالت: إن موقفكم هذا سيجعلنا مضطرين إلى عدم التزامنا بنفع نفقات الفندق والسفر من الكويت وإليها . قلت: ندرك ذلك جيداً، وليس في نيتنا أن نطالبكم بشيء، فقد وطنّا أنفسنا على أن نرضى من الغنيمة بالإيجاب .

بعد هذه المقابلة بدأت الاتصال بأم نزار في الكويت، وطلبت إليها أن تبادر وبأسرع وقت ممكن بإرسال تذكرتي عودة إلى الكويت . وصلت التذكرتان بعد عشرين يوماً مما ضاعف نفقاتنا بسبب اضطرارنا للبقاء في الفندق على نفقتنا الخاصة.

وقد تمكن الدكتور حسن محسن - جزاه الله خيراً - من أن يستدين ما يكفي للوفاء باحتياجاتنا واجتياجاته واحتياجات الدكتور صلاح عيد من أحد أصدقائه العاملين في الجزائر العاصمة، ويدعى الأستاذ محمد عبد العزيز، على أن نقوم برد ما استداناه منه بعد عودتنا إلى الكويت. وكان ذلك هو أول عمل قمّت به بعد عودتنا إلى الكويت.

في طريق عودتنا إلى الكويت والتي بدأت في ١٩٨١/٩/٢١ قضينا ليلة في فندق أوروبا بروما. وقد تمسّيت ليلاً مع ابنتي فاطمة في الشارع الذي يقع في الفندق. وفي مطعم الفندق كان لنا تجربة غير سارة مع طبق المعكرونة الأسباكتي الذي حرصت على طلبه للتعرف على الفرق بينه وبين طبق المعكرونة الذي تعودت أن نأكله لنا أم نزار .

كانت المعكرونة في الطبق تشكل حبلاً طويلاً متصلاً يصعب التعامل معه مهما كانت براعة الأكل في استخدام الشوكة والسكين. وقد خرجت من معركتي مع هذا الطبق بقميص أبيض لطخته بقع الطماطم التي تناثرت عليه، مما لفت نظر إيطالي خبيث كان يجلس قبالي... فقد علق الرجل بلهجة عربية مصرية قائلاً وهو يبتسم: "أكلة غريبة ومُتعبة مش كده ولا إيه..." قلت له وأنا أبادله ابتسامته مشوبة بالغيظ: "دي مُتعبة جداً يا سنيور" .

في ١٩٨١/٩/٢٢ أقلتنا الطائرة إلى الكويت وكانت فرحتنا بالوصول إليها لا توصف .

وقد صورت تجربتي في هذه الرحلة إلى الجزائر في قصيدة ميمية بدأت في نظمها في عناية وفرغت منها في الفندق بروما. وعلى الرغم من أن هذه الرحلة قد كَبَدَتْنِي خسائر لا تقل عن ألفي دينار كويتي إلا أنني وجدت أنني أنا الرابع ما دمت قد عدت إلى الكويت... إذ أنني لم أتصور - ولو للحظة واحدة - أنه كان في إمكاني أن أتعايش مع الجزائريين .

الفصل الثالث عشر

العودة إلى الكويت

كان العام الدراسي قد بدأ فعدتُ إلى مزاولة عملي في توجيه اللغة العربية، الذي كنت مرشحاً فيه في هذا العام لتولي منصب موجه اللغة العربية الأول في منطقة الأحمدية التعليمية. وعلى الرغم من أنني كنت أقوى المرشحين لهذا المنصب إلا أن ممالة الموجه الفني العام للغة العربية الدكتور عادل سقف الحيط للكويتيين، قد حرمتني من ذلك . فقد كان الرجل ملكياً أكثر من الملك . وكان يتحيز في قراراته الهامة المتعلقة بالترشيحات إلى جانب الموجهين المصريين حتى لا يتهمه الكويتيون في الوزارة بأنه ينحاز إلى جانب مواطنيه من أبناء فلسطين والأردن .

لحسن الحظ جاءت الفرصة التي جعلتني أتخلص من العمل تحت إمرة هذا الرجل، حيث بادر الأستاذ أحمد المزروعى وكيل الوزارة المساعد للتعليم التطبيقي والتدريب بالاتصال بعادل سقف الحيط وطلب إليه أن يعرض عليّ الانتقال إلى معهد التربية للمعلمين مدرساً للأدب العربي . وقد كان من عادتنا - نحن الموجهين - أن نعرض على مكتب التوجيه بعد أن نكون قد فرغنا من العمل في المدرسة التي نزرورها وفق جدول محدّد .

لم يكد الدكتور عادل سقف الحيط يعلم بوجودي في المكتب حتى استدعاني إلى مكتبه، وبعد تبادل تحيات المجاملة العادية بادرني بقوله: لقد اتصل بي اليوم الأستاذ أحمد المزروعى وكيل الوزارة المساعد وطلب إليّ أن أعرض عليك رغبته في نقلك من التوجيه، للعمل مدرساً للأدب العربي في معهد التربية للمعلمين، فما رأيك في ذلك ؟

قلت وبدون تردد: لا مانع لديّ من ذلك .

قال: ما هذا يا أبا نزار... أرى أنك قد وافقت وبدون تردد .

قلت: ولماذا لا أوافق... هل هناك أفضل من العمل الأكاديمي، وهل هناك متعة تفوق متعة التعامل المباشر مع عقول الشباب الذين قد تخطوا مرحلة التعليم الثانوي ؟!

قال: ما أرى إلا أنك متسرع في التخلص من العمل معنا، وما دار بخلدك أنك تبيننا بمثل هذه السهولة .

قلت: كيف تريد مني أن أحرص على البقاء مع من لا يقدرني حق قدري يا دكتور عادل ؟

قال: معاذ الله يا رجل... من هو ذلك الذي لم يقدرك حق قدرك؟

قلت: سل نفسك يا أبا عزام... هل بين الزملاء من هو أحق مني بتولي منصب الموجه الأول في منطقة الأحمدية ؟!

قال: إنك لأهل لهذا المنصب، بل ولما هو أكبر منه من هذه المناصب لولا أن للأستاذ طاهر الشبراوي أقدمية مدتها سنتان .

قلت: ألا تشفع درجتنا الماجستير والدكتوراه اللتان أمتاز بهما عن الأستاذ شبراوي لتقديمي عليه؟

قال: أخشى لو فعلنا ذلك أن يقال...

قلت مقاطعاً له: أعرف ما الذي تريد أن تقوله أخشى أن يقال أنك تماليء بني جلدتك. ولعل الأفضل لكلينا أن نترك الخوض في الحديث في هذا الموضوع لأن ما حدث قد حدث .

قال: صدقت... ثم واصل حديثه قائلاً: إذن فأنت موافق على تركنا .

قلت: أرجو ألا تصور المسألة على هذا النحو .

قال: حسناً سأبلغ الأستاذ المزروعى بموافقتك حتى تبدأ باتخاذ الإجراءات اللازمة للانتقال .

تطلب انتقالي من التوجيه إلى المعهد إنهاء ارتباطي بوزارة التربية، لأن معهد التربية للمعلمين كان واحداً من المعاهد التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب المستقلة عن الوزارة .

بعد مقابلة الأستاذ المزروعى تقدمت باستقالتي إلى وزارة التربية فصدر قرار قبولها، وبمنحي مكافأة نهاية خدمتي في الوزارة...

لم تزد المكافأة التي تقاضيتها عن مبلغ ٣٦٧٠ ديناراً كويتياً. وبعد الاستقالة تم التعاقد بيني وبين الهيئة بموجب العقد الثالث. وهو أفضل ما يمنح للحاصلين على درجة الدكتوراه. وقد زاد مرتبي مبلغاً لا يقل عن مائتي دينار عن المرتب الذي كنت أتناضاه وأنا في وزارة التربية. ولا يفوتني أن أذكر أنني كنت قد وصلت إلى السنة الثالثة من الدرجة الثالثة عندما قدمت استقالتي إلى وزارة التربية. وبانتقالي إلى معهد التربية للمعلمين، نجحت في تغيير مسار عملي دون أن أضطر إلى مغادرة الكويت. وقد بدأت الدوام في المعهد في ١٩٨٢/٢/٢ .

في ١٩٨٢/٥/٢٢ صدر قرار بمنحي مكافأة قدرها خمسون ديناراً شهرياً مقابل حصولي على درجة الدكتوراه. ولم أكن أتناضى وأنا في التربية سوى ثلاثين ديناراً مقابل الدكتوراه، ولولا جهودي الشخصية التي بذلتها لما فكرت وزارة التربية بتطبيق منح المكافأة للحاصلين على درجة الدكتوراه من العاملين فيها، فقد ظلت متجاهلة لتطبيق القرار حتى أحضرت نسخة منه من وزارة المالية وسلمتها إلى وكيل الوزارة المساعد للشؤون المالية والإدارية، الأمر الذي لم يترك للوزارة مجالاً للتلمص من تطبيق ذلك القرار.

ولا زلت أذكر تعليق الوكيل المساعد الأستاذ سعود الطنب على ما بذلت من جهد حيث قال: بارك الله فيك يا دكتور رجا لقد خدمت نفسك وخدمت إخوانك من الحاصلين على الدكتوراه الذين لم يفكر أحدهم في أن يفعل ما فعلت .

في أوائل إبريل من هذا العام ١٩٨٢ حضر ولدي محمد من حلب لتجديد جواز سفره وإقامته. وبعد أن فرغنا من ذلك عاد إلى جامعته في ١٩٨٢/٥/٤ وكان على أهبة الاستعداد للتقدم إلى الامتحانات النهائية للسنة الثانية في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب .

في ١٩٨٢/٦/٤ بدأ الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان. وقد تصدى رجال المقاومة الفلسطينية من مختلف التنظيمات لمقاومة القوات الإسرائيلية ببسالة منقطعة النظير. وقد استمروا في مقاومتهم أكثر من ثمانين يوماً، وهو رقم قياسي في الصمود لم يستطع أن يسجله أي جيش من جيوش الدول العربية التي قابلت القوات الإسرائيلية في الحروب السابقة .

وقد خسر اليهود في جنوب لبنان أكثر مما خسروا في جميع حروبهم السابقة مع العرب .

أغرب ما في الأمر أن الجيش الإسرائيلي قد استمر في زحفه حتى بيروت دون أن تحرك الأنظمة العربية ساكناً .

وقد تمكن الإسرائيليون من احتلال القسم الجنوبي من بيروت وحصارها دون أن يطرف جفن لمسؤول عربي .

ومما يدعو إلى العجب أن العالم أجمع، وفي مقدمته الأنظمة العربية المتخاذلة قد أصبح لها مطلب واحد، وهو ضرورة خروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان وذلك بدلاً من أن يطالبوا القوات اليهودية الغازية بذلك .

وانتهى الأمر بخروج ياسر عرفات، وزعماء التنظيمات الأخرى وقواتهم من لبنان على متن بعض السفن الفرنسية. وقد توزعت قوات المنظمة بعد خروجها من لبنان في كل من سوريا والجزائر وتونس واليمن، وليس في أيدي أفرادها سوى سلاحهم الخفيف .

كان من عادة ولدنا محمد أن يبادر بالعودة إلى الكويت بعد فراغه من أداء الامتحانات النهائية في كل عام دراسي . ولم يكن يمضي يومان أو ثلاثة على الأكثر حتى نراه بيننا في الكويت التي كان يحبها ويحب العيش فيها أكثر من أي بلد آخر. غير أن محمد في هذا العام قد خرق القاعدة وخرج على عادته التي ألفناها منه فقد مضى أكثر من أسبوع على بدء الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان وهو لم يحضر إلى الكويت، على الرغم من أنه كان قد فرغ من أداء الامتحانات مع نهاية شهر مايو ١٩٨٢ .

بدأ القلق يتسرب إلى نفوسنا، وأصبح كل فرد من أفراد الأسرة يتساءل: لماذا تأخر محمد؟! بعد مضي عشرة أيام على عدم عودته وقر في نفسي أن محمداً لا بد وأن يكون قد التحق بقوات الثورة الفلسطينية في لبنان، فقد بدأنا نسمع عن انضمام مئات من الطلاب الفلسطينيين من الذين يدرسون في جامعات الدول المختلفة إلى صفوف الثورة .

قلت في نفسي: لماذا لا يكون محمد واحداً منهم؟! وبدأت أستعيد ما كان يتردد على لسانه من عبارات في المناسبات التي كنا نتحدث فيها عن قالونيا وفلسطين وجهاد جده محمد سمرين ضد اليهود، والتي كان منها قوله: أنا محمد سمرين الثاني، سوف أحيي ذكرى جدي وجهاده ضد اليهود، وسوف ترون ذلك إن شاء الله طال الزمن أو قصر .

أفضيت بما جال في نفسي إلى والدته التي لم تكن تقل عني اقتناعاً بأن محمداً قد فعلها... أي أنه لا بد وأن يكون قد التحق بقوات الثورة الفلسطينية .

عند ذلك استقر رأينا على التوجه إلى سوريا لاستطلاع أخبار محمد، وكانت ليلى وفاطمة ما تزالان في دمشق لأن مواعيد امتحاناتهما لم تكن تتزامن مع مواعيد امتحانات جامعة حلب، هذا فضلاً عن أننا أبلغناهما هاتفاً بعزمنا على السفر إلى دمشق .

في ١٩٨٢/٦/٢٥ توجهت لفتح صندوق بريدنا في مكتب السالمية. وكانت فرحتي لا توصف عندما عثرت في الصندوق على رسالة من محمد... ولم ينغص على فرحتي سوى عدم وجود ما يشير إلى العنوان الذي أرسلت منه... ولكنني عرفت أنها منه من خطه المميز الجميل الذي يصعب العثور على مثيل له بين الخطوط .

أسرعت بفرض الرسالة وبدأت ألتهم سطورها وإذا بها تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

لبنان - عين السيدة

١٩٨٢/٦/٢١

والدي المحيب

والدتي المحيبة

إخوتي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،،،

أرجو أن تصلكم رسالتي هذه وأنتم بألف خير وصحة وعافية . من ناحيتي فإنني أحب أن أعلمكم أنني اتخذت هذه الخطوة لأنني أردت ذلك، وأحسست أنه يجب علي أن أقوم بدور إيجابي في حياتي، وها أنا أقوم به الآن .

لا تجزعوا... ولا تفكروا كثيراً في... فأنا بخير... وإذا حدث و... فإن هناك كثيراً من الشرفاء قد سبقوني إلى الشهادة... أنا أعلم أنني قد أسبب لكم الحزن ولكن أرجو أن لا تحزنوا... لأنني فعلاً أريد ذلك... فأبلى ذلك الحين لا تفكروا كثيراً...

سلامي إلى الصغير كامل، لقد اشتقت إليه فعلاً. سلامي إلى ماما... أرجوك لا تفكري كثيراً. سلامي إلى نزار-آمال-وكيف أنت يا آمال...

تستطيعين الآن أن تتخذي ما بدا لك من موقف تجاهي، سلامي إلى زياد لقد
افتقدته كثيراً... ولقد بكيت كثيراً كلما تذكرته... على منوال كامل... يبكي
حين يتذكره... جميلة لك سلام، وآسف على ما سببته لكم جميعاً من ألم...
آسف جداً يا بابا... أرجوكم ارضوا عني وادعوا لي كثيراً .
سلامي إلى العمين وزوجاتهم... بالأخص عماد . سلامي إلى جميع
الجيران... أم صلاح بالذات .

ابنكم

m.r.s

لا أستطيع أن أصف المشاعر التي انتابتني بعد الفراغ من قراءة
الرسالة... وليس في إمكاني وصف الحالة التي وضعتني فيها... فُدتُ
سيارتي عائداً إلى المنزل دون أن أدري كيف فُدتُها، وقد لاحظت أم نزار
أنني قد جئتُها بوجه غير الذي غادرت به المنزل قبل ساعة أو أقل.
فتسألت جزعاً :

ماذا هنالك يا أبا نزار... هل حدث شيء لمحمد؟

قلت: وصلتنا رسالة من محمد، وهو بخير والحمد لله .

وقرأت عليها الرسالة... وأخذتها مني وأعادت قراءتها، ثم صرخت قائلة:
راح الولد يا رجا .

قلت محاولاً طمأنيتها- على الرغم من أنني كنت في أمس الحاجة
إلى ما يطمئنني أو من يطمئنني أكثر منها: قال الله ولا فالك يا شبيخة .

قالت: لم يعد الأمر يحتمل التأجيل فاذهب وبادر بالحجز للسفر إلى دمشق .

قلت: أفعل إن شاء الله .

لم نكن نعلم أن محمداً كان يخوض معركته الأخيرة ضد قوات
الجيش الإسرائيلي في مدينة بعمدون في اليوم الذي تسلمت فيه رسالته،
ولكننا علمنا بهذا الأمر بعد ذلك...

كان يوم ٨٢/٦/٢٥ وهو يوم وصول الرسالة يوم الجمعة وكان
موافقاً لليوم الرابع من رمضان ١٤٠٢ هـ .

لم نتمكن من السفر إلى دمشق قبل ١٩٨٢/٨/١٢ وقد وجدنا ابنيتنا
ليلى وفاطمة في انتظارنا في المطار. نزلنا في فندق سميراميس بساحة
المرجة وبقينا فيه بضعة أيام إلى أن جاءنا الأستاذ عبد الرؤوف حطيني
مدرس اللغة العربية الأول في ثانوية الأصمعي وأقسم علينا ألا نبقي في
الفندق، وأصر على أن ننزل في فيلته بالمزة... وكانت الفيلا خالية، لأن
أسرة الأستاذ عبد الرؤوف كانت قد قررت البقاء في الكويت في هذا
الصيف، وأنه شخصياً عائد إلى الكويت بعد يومين. وكان الأستاذ عبد
الرؤوف رئيساً لقسم اللغة العربية في ثانوية الأصمعي التي كنت مسؤولاً
عن عملية التوجيه فيها سابقاً . وقد ربطت بين أسرتنا علاقات ودّ وصداقة
استمرت طوال وجودنا في الكويت .

بعد وصولنا إلى دمشق بدأت رحلة البحث عن محمد الذي لم نكن
نعرف إلى أي تنظيم ينتمي، ولا بأي تنظيم قد التحق .

كان من الطبيعي أن أبدأ بزيارة مكتب فتح، كبرى المنظمات
الفدائية الفلسطينية. وبعد البحث الدقيق تبين أنه لا وجود لاسم محمد في أي
سجل من سجلات المكتب . فقد بحثوا في سجلات المتطوعين والشهداء
والجرحى والمفقودين دون جدوى .

لم يكن في استطاعتي زيارة أكثر من مكتب واحد من مكاتب
التنظيمات المنبئة في أماكن مختلفة من دمشق .

بعد مكتب فتح زرت مكاتب حزب البعث العربي الاشتراكي،
ومكتب الصاعقة، ومكتب جبهة التحرير العربية، ومكتب جبهة التحرير
الفلسطينية، ومكتب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومكتب الجبهة
الديمقراطية، وكان آخر مكتب قمت بزيارته هو مكتب جبهة النضال الشعبي

التي يرأسها الدكتور سمير غوشة، والذي تربطني بأخيه الدكتور صبحي غوشة صلة ود وصداقة، والذي يُعدُّ المؤسس الحقيقي للجبهة. وكانت زيارتي لمكتب جبهة النضال هي الزيارة التي وضعت حداً لمتاعب البحث عن محمد .

فقد اعترف المسؤول عن المكتب بانتماء محمد إلى جبهتهم، بعد أن أطلعته على صورته وذكرته له اسمه، والجامعة التي يدرس فيها. وقد أخبرني المسؤول واسمه الحركي "أبو حسن" أن الاسم الحركي لولدنا محمد هو "جلجامش" وأنه من أشجع الشباب الذين يضمهم تنظيم جبهة النضال .

قلت لأبي حسن: وأين هو محمد الآن؟ وكيف السبيل إلى رؤيته؟ قال: إنه في معسكر الجبهة في البقاع . وأما رؤيته فقد تستغرق بعض الوقت .

قلت: كم من الوقت يلزم لذلك؟ فما جئنا إلى هنا إلا لرؤيته والإطمئنان عليه. قال: أعلم ذلك... ولكنك تعلم صعوبة الظروف . قلت: وكيف ذلك ؟

قال: سوف نطلب إلى قائد المعسكر أن يعطيه إجازة يحضر في أثنائها لرؤيتكم وقد يستغرق ذلك ما بين ثلاثة أيام إلى أسبوع . قلت: أرجو أن تسرع بإجراء اللازم ما استطعت . قال : أفعل إن شاء الله .

عدت إلى حيث أم نزار والأبناء، وأخبرتهم بالمعلومات التي حصلت عليها من جبهة النضال: فاطمánt نفوسهم التي أخذوا يمنونها بقرب رؤية محمد .

قالت أم نزار: ما زلت غير مطمئنة يا أبا نزار، لأنني لا أتصور أن مجيء محمد من البقاع إلى دمشق يحتاج إلى كل هذا الوقت .

قلت محاولاً طمأنيتها على الرغم من أنني كنت أشاطرهما هذا الرأي: إنها ظروف غير عادية يا أم نزار ثم لا تنسي أننا في حرب، وأن اليهود قد احتلوا معظم سهل البقاع . قالت: أسأل الله حسن العاقبة على أي حال .

في اليوم التالي ذهبت إلى مكتب الجبهة أنتظر قدوم السيارة التي تأتي في الساعة الخامسة من كل يوم مقلة بعض الشباب الحاصلين على إجازات قصيرة يقضونها في دمشق .

وجاءت السيارة ونزل منها عدد من الشباب الذين لم يكن محمد بينهم. ومضت خمسة أيام وأنا أذهب كل يوم إلى المكتب منتظراً قدوم محمد دون جدوى .

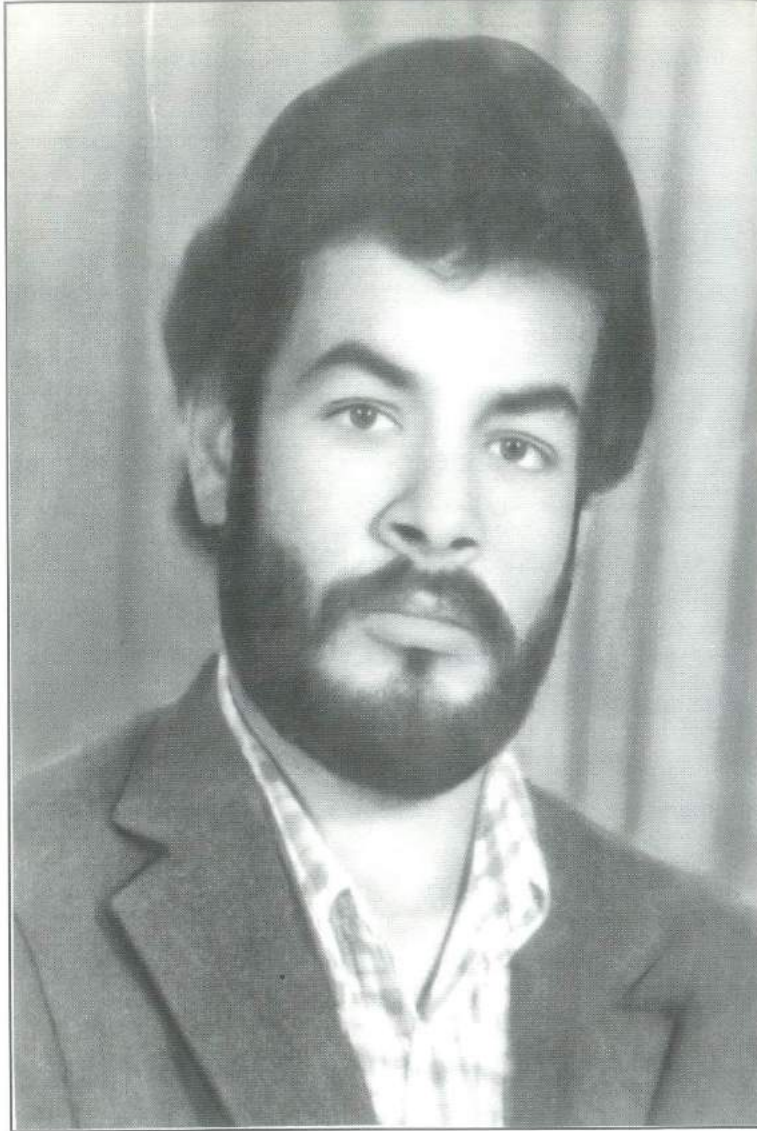
عند ذلك وقر في نفسي أن أبا حسن لم يصدقني القول منذ البداية، وأنه وعدني برؤية محمد تمهيداً لإبلاغي بالحقيقة التي لا يريد أن يبلغني بها بسرعة .

في اليوم الخامس، وبعد أن جاءت السيارة ونزل منها خمسة من الفدائيين لم يكن محمد واحداً منهم قلت لأبي حسن: يا أبا حسن أرجو أن تصدقني القول فما عاد في قوس الصبر منزع وقد طالت هذه اللعبة غير المستساغة أكثر مما ينبغي .

قال: ليس هنالك لعب يا دكتور. كل ما في الأمر أننا لا نحب أن نفاجيء أحداً بالحقيقة منذ أول لحظة .

قلت: إذن أفصح بالله عليك وقل لي ماذا حدث لمحمد ؟ قال: أنت مُربِّ فاضل، وشاعر ثائر معروف، وقد رببت أبنائك على التضحية والفداء .

قاطعه قائلاً: أرجو أن تخبرني بما حدث لمحمد، فإن إطراءك هذا لي لا يطربني ولست في حالة نفسية تجعلني أفخر به أو أحمدك عليه .



الشهيد محمد رجا سمرين الذي استشهد في
١٩٨٢/٦/٢٥ في مدينة بحدون بלבنان

قال: هوّن عليك يا دكتور فليس محمد هو أول من استشهد من شباب
فلسطين ولن يكون الأخير .

قلت وقد تجمدت الدموع في عيني وأحسست بغصّة في حلقي: إذن فقد مات
محمد .

قال: لا لم يمض محمد فالشهداء يا سيدي لا يموتون، إنهم أحياء عند ربهم
يرزقون .

وأخذت أسترجع^(١) وأحوقل^(٢)، والرجل يقدم إلي من عبارات
العزاء ما لم أع منه شيئاً . بعد قليل أخرج من درج مكتبه ملفاً وأخرج من
الملف ورقة فيها قائمة تضم أسماء سبعة عشر شهيداً من شهداء جبهة
النضال. وكان اسم ولدنا الشهيد محمد يحمل الرقم ١٣ بين هؤلاء الشهداء
الأبرار. وقد استشهد في الرابع من رمضان سنة ١٤٢٠هـ الموافق
للخامس والعشرين من يونيو سنة ١٩٨٢م .

قال أبو حسن بعد أن أطلعني على القائمة: سوف أصحبك مع بعض
الرفيقات إلى حيث والدته الشهيد لتقديم التعازي إليها ومواساتها .
قلت: لك ما تريد فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وما هي إلا دقائق حتى انطلق معي أبو حسن ومعه سيدتان من
العاملات في المكتب إلى منزل الأستاذ عبد الرؤوف حطيني في المزة .

قرعنا جرس المنزل وفتحت ليلى الباب، وما أن رأتنا أم نزار
ورأت أبا حسن والسيدتين اللتين كانتا ترتديان السواد حتى صرخت مولولة:
ماذا حدث يا رجا هل مات محمد ؟!

(١) أسترجع: أقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

(٢) أحوقل: أقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

قلت: لم يمّت محمد يا أم نزار، لأن الشهداء لا يموتون، فابك كما تشائين، لأن أحداً لا يستطيع أن يمنع أمّاً من البكاء على ولدها الحبيب .

وانطلق كل من أم نزار ولىلى وفاطمة وكامل يولول وينتحب، وأنا وأبو حسن والسيدتان نولول معهم ومنتحب. كانت لحظات مشبعة بالحزن وليس في استطاعة قلم أن يصفها أو يعبر عنها .

وقد زاد الطين بلة، والمصيبة تفاقماً، أننا علمنا في أثناء بحثنا عن محمد أن شقيقه زياد وابن عمه ناصر موجودان في البقاع .

فقد جاء من الولايات المتحدة الأمريكية التي بعثنا بهما إليها للدراسة متطوعين في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكان معسكرهما لا يبعد عن المعسكر الذي كان فيه محمد بأكثر من كيلومترين دون أن يدري أي من الطرفين بوجود الآخر في المنطقة .

قلت في نفسي: يكفي آل سمرين ما دفعوا من ضريبة الدم، ولا بد من إنقاذ زياد وناصر والعودة بهما إلى الكويت ومن ثم إلى أمريكا لمواصلة الدراسة .

وبدأت أسعى لتنفيذ ذلك، وكان من حسن الحظ أن أحد أبناء عمومتنا- وهو حمدي مطر، أحد القادة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- موجود في دمشق . وقد طلبت إليه أن يعمل وبأقصى سرعة على تسريح زياد وناصر من الخدمة في صفوف متطوعي الجبهة .

وقد اقتنع بذلك لأنه لم يكن يشك مثلي ومثل سائر أبناء شعبنا المحبطين أن المعركة التي نخوضها في لبنان لن تنتهي بخير، وأنها لن تصل إلى نهاية أفضل من تلك النهايات التي وصلت إليها معاركنا السابقة. لم تمض بضعة أيام حتى تم تسريح زياد وناصر على الرغم من معارضتهما الشديدة لذلك، فقد كانا راغبين في البقاء لخوض المعركة حتى النهاية... أية نهاية لا أدري؟!!

وقبل عودتنا إلى الكويت قابلت الدكتور سمير غوشة، قال بعد تعزيته لي وهو يمد إلي يده بظرف فيه مبلغ من المال لا أعرف مقداره: هذا مبلغ رمزي يا دكتور اعتدنا أن ندفعه إلى أسرة كل شهيد إسهاماً متواضعاً من الجبهة في نفقات العزاء .

رفضت تسلم الظرف وأجبت قائلاً: شكراً يا دكتور... لم أكن أنتظر استشهاد محمد حتى آخذ من الجبهة تكاليف عزائه... وأرجو أن تقبل مني المبلغ تبرعاً للجبهة حتى تشتري به رصاصاً يطلقه رفاق محمد على أعدائنا اليهود .

قال: شكراً يا دكتور، إنني سأقبل منك ذلك شريطة ألا تتبرع بعد ذلك بما ستخصمه منظمة التحرير لأسرة الشهيد من مخصصات شهرية هي أقل ما يمكننا أن نقدمه لأسرة أي شهيد .

قلت: لكل حادث حديث يا دكتور .

قال: بعد عودتكم إلى الكويت ستتولى مؤسسة رعاية أسر الشهداء إجراء اللازم .

قلت: لا بأس في ذلك...

قال: أقولها لك غير مجامل يا دكتور... والله إن خسارتنا في الشهيد محمد لتعدل خسارتنا لثلاثمائة شهيد، لقد كان يرحمه الله بطلاً فذاً، وفدائياً مقداماً، لا يجبن ولا يتردد، ولا يتخاذل أو يتقاعس، بل يهجم على الأعداء - كما أخبرني رفاقه - وهو يصرخ فيهم الله أكبر الله أكبر. وسيدحدثك أحد رفاقه بعد عودتكم إلى الكويت عن بطولته التي شهد بها بنفسه في آخر معركة خاضها معه .

قلت: هلا تكرمتم بإعلامي باسم رفيقه ذلك وعنوانه لنبحث عنه فور عودتنا إلى الكويت .

قال: اسمه الحركي أبو الفداء، أما اسمه الحقيقي فهو عطية أبو شنب، وهو من سكان خيطان، وسوف يتصل هو بنفسه بكم إن شاء الله .

كان أحد زملاء محمد في جامعة حلب قد أحضر إلى شقيقتي ليلى وفاطمة، ما تبقى عنده من ملابس محمد ومذكراته ودفاتره في حقيبته، أما جواز سفره وبعض ملابسه التي وضعها في حقيبة يده عند التحاقه بالجبهة فقد احترقت مع حقائب مجموعة من رفاقه كانت كلها موضوعة في سيارة جيب بعد إصابتها بقذيفة في البقاع .

أعلنّا في الصحف عن استشهاد ولدنا محمد وعن إقامة العزاء في منزلنا بالسالمية ثلاثة أيام بلياليهن .

سارع عطية أبو شنب أو "أبو القذا" وهو أحد الشباب الذين خاضوا مع محمد معركته الأخيرة بالحضور بعد قراءته الإعلان عن فتح بيت العزاء. وكان الجيران قد أخبرونا بعد عودتنا مباشرة أن شاباً يحمل أخبار عن محمد قد حضر لمقابلتنا خلال غيابنا في دمشق وأنه قد وعد بالعودة لزيارتنا بعد رجوعنا منها .

حدثنا عطية أبو شنب عن محمد بعد تعزيتنا لنا قال: كنت واحداً من الذين عرفوا الشهيد أكثر من الآخرين... لقد لازمته بعد أن تألفت روحانا وربط حب فلسطين بين قلوبنا منذ أن التحق بالسرية التي كنت أحد أفرادها . وقد خضت معه ست معارك في عالية وعين السيدة وعيتا وسوق الغرب وصوفر وبحمدون .

وكان رحمه الله يبلى بلاءً حسناً في كل معركة يخوضها ويأخذ بحقه كاملاً من أعدائه فيها. وكنت والرفاق نعجب من قفزاته التي عرف بها وهو بطارد العدو... كان يقفز من فوق التلال التي لا يقل ارتفاعها عن ثلاثة أمتار ورجلاه ممدودتان للأمام ورشاشه في موزاتهما وهو يطلق النار... أما آخر معركة خاضتها برفقته وهي معركة بحمدون فقد جرت في يوم الجمعة الرابع من رمضان عام ١٤٢٠هـ الموافق للخامس والعشرين من حزيران - تموز - ١٩٨٢م . وتفاصيل تلك المعركة أن ستة من الفدائيين الذين كانوا في عين السيدة وهم اثنان من فتح، واثنان من الجبهة الشعبية، واثنان من جبهة النضال، هما محمد وأنا قد اضطررنا للانسحاب منها في ٨٢/٦/٢١ بعد أن انسحب الجيش السوري الذي كان مقره على مقربة منا وأصبحنا بسبب انسحابه مكشوفين . واصلنا مسيرتنا حتى بلغنا أطراف مدينة بحمدون من جهتها الغربية المشرفة على بيروت... وهناك التجأنا إلى عمارة من ست طوابق وهي ملك لأحد الكويّتين. وقد فوجئنا بأن هذه

العمارة كانت مقرّاً لقيادة الجيش السوري في بحمدون. وقد انسحب منها السوريون، بعد أن تركوا فيها أسلحة ومعدات وذخائر كثيرة بالإضافة إلى ما يلزم فيها من مؤن تكفي لعدة أسابيع .

تسللنا إلى تلك العمارة وأقمنا فيها ثلاثة أيام بلياليهن. وكنا خلال ذلك نشاهد الإسرائيليين الذين كانوا قد دخلوا بحمدون وهم يقومون بتمشيط منازلها منزلاً وراء آخر... أيقنا عند ذلك أنهم لا محالة واصلون إلى حيث نقيم وأننا إن لم نحاول خوض معركتنا اليائسة للنجاة منهم فلا بد أننا مقتولون أو واقعون أسرى في أيديهم .

تساورنا في الأمر واستقر رأينا على خوض معركة يكون هدفنا منها الخروج من بحمدون .

تروّدنا بأقصى ما استطعنا حملة من الذخيرة والقنابل والرشاشات وبدأنا محاولتنا للنجاة . وكان ذلك في السادسة من يوم ٨٢/٦/٢٥، أحسّ بنا اليهود وبدأنا في تبادل إطلاق النار، واستمرت المعركة حتى الثانية والنصف من بعد الظهر سقط في خلالها أربعة من رفاقنا. وقد نجحت ومحمداً في الخروج من الجهة الشمالية لبحمدون. وكانت لحظة إصابة محمد في تلك اللحظة التي ألقي فيها قنبلة يدوية على عدد من جنود العدو كانوا يكمنون خلف إحدى التلال أعقبها بقفزته الشهيرة وهو يصيح الله أكبر. وقد تمكن من إبادة المجموعة التي كانت متمركزة خلف تلك التلة. وفي أثناء ذلك أصابته رصاصة من قناص في بطنه .

لجأت بعدها مع محمد إلى بستان خارج بحمدون قريباً من إحدى القرى التي يقطنها مسلمون من شعبة البقاع. أحس محمد بالإصابة فقال: لقد تمكن مني الخنازير يا عطية... أعتمد أنني أصيبت .

دعرت لسماع ذلك وسارعت لرفع قميصه عن بطنه فشاهدت ثقبا صغيراً فوق سرته بقليل... لم تحدث الإصابة أي نزيف مما يوحي بأن

الرصاصية التي أصابت محمداً كانت من النوع المحرم دولياً وأن النزيف لا شك داخلي .

بدأت قوى محمد في الانهيار، واستمر ببتسم ثارة ويهمل ويكبر ثارة أخرى... وعندما شاهد دموعي صفعتني على خدي صفقة خفيفة وهو يقول: لا تبك يا رجل لست أول الشهداء ولن أكون آخرهم، وأرجو أن تتذكرني بهذه الصفعة .

وفي الرابعة بعد الظهر ومع انطلاق صوت المؤذن في القرية المجاورة وهو يؤذن لصلاة العصر، ضم محمد كفيّ بعنف ثم لوّح بهما في الفضاء وصاح الله أكبر ثم لم تلبث روحه الطاهرة أن فاضت إلى بارئها وهو صائم .

بعد أن تأكدت من استشهاده، تركت جثمانه الطاهر تحت الشجرة التي كنا نجلس في ظلّها الوارفة، وتوجهت إلى أقرب منزل من منازل القرية، وطرقت بابه بشدة، فخرج إلي رجل في العقد السادس من عمره فتسأل في جزع عند رؤيتي: خيراً يا بني ماذا هناك . قلت: هوّن عليك يا عماء... إن معي رفيقاً من الفدائيين قد استشهد لثوه وجثمانه مسجى تحت شجرة في ذلك البستان. وأرجو أن تأتي ومعك من تقدر على إحضاره لتساعدوني في دفنه .

عند ذلك نادى الرجل على أبنائه فلبى نداءه ثلاثة من أبنائه الشباب، وذهبوا أربعتهم معي حيث جثمان محمد وهناك وتحت الشجرة التي فاضت تحتها روحه الطاهرة حفروا جنداً وأروا فيه جثمانه الطاهر . وعدت أدراجي إلى المعسكر الرئيسي الذي يضم رفاقي من فدائيي جبهة التضال في منطقة البقاع حيث قدمت تقريراً عن تفاصيل آخر معاركنا إلى قائد المعسكر .

وفي مساء ذلك اليوم أذاعت وكالات الأنباء المختلفة تقاريرها عن تلك المعركة حيث ذكرت أن خسائر العدو قد بلغت خمس دبابات، وسبع عربات من ناقلات الجنود، وسبعة عشر قتيلاً وعدداً آخر من الجرحى، كما

أعلنت عن استشهاده أربعة من الفدائيين الفلسطينيين ولم تكن تلك الوكالات قد علمت باستشهاده محمد بسبب عدم العثور على جثمانه .

ومما جاء في تقارير وكالات الأنباء عن تلك المعركة أن وزير الدفاع الإسرائيلي أرييل شارون قد نجا من الموت بأعجوبة بعد أن أصيبت سيارته المصفحة من الخلف بقذيفة مدفع من مدافع الـ R.B.J .

واصل عطية حديثه قائلاً: عندما تعود الأمور إلى طبيعتها في لبنان فأبني على استعداد لمصاحبتكم إلى هناك من أجل أن أدلكم على المكان الذي دُفن فيه محمد لتتقنوا جثمانه الطاهر إلى حيث تريدون .

ولكن مما يحزّ في النفس ويملؤها بجراح القهر والغیظ والإحباط، أنه وحتى الفراغ من كتابة هذه المذكرات لم يقدر لنا أن نشاهد المكان الذي دفن فيه محمد، لأن رفيقه عطية وهو الإنسان الوحيد الذي يمكنه أن يقودنا إليه... عطية هذا الذي تمكن من النجاة من رصاص اليهود لم يقدر له أن ينجو من تلك الفتنة العمياء التي حدثت عند اجتياح العراق للكويت... فقد فوجئت بعد عودتي إلى عمان بقراءة اسم عطية أبو شنب بين أسماء الفلسطينيين المفقودين في الكويت... لا يعلم إلا الله كيف كانت نهاية عطية.

ويل للعرب من أنفسهم، وويل لهم من أعدائهم المتربصين بهم في كل مكان . ويل لهم إن لم يفيقوا قبل فوات الأوان .

وقد وفد لتعزيتنا مئات من أبناء فلسطين وأبناء الجاليات العربية في الكويت وزعماء المنظمات الفدائية والكويتيين . وكان في مقدمة المعزين

سليم الزعنون المعروف بأبي الأديب وهو نائب المجلس الوطني ومدير مكتب فتح في الكويت، وعوني بطاش سفير المنظمة في الكويت، وعدد كبير من زعماء فتح ومنسوبيها بالإضافة إلى رؤساء الاتحادات الشعبية التابعة لمنظمة التحرير، وعدد كبير من المدرسين والموجهين وأساتذة معهد التربية للمعلمين والموظفين .

وقد تلقينا كذلك فيضاً من برقيات ورسانل التعازي من مصر والأردن وسوريا والكويت .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد أحسست بأن كل مظاهر التعزية هذه لا يمكنها أن تمسح شيئاً من الحزن أو تخفف من حدة المصائب، ولكنها العادات والتقاليد التي لا تعبر إلا عن المشاركة الوجدانية من قبل أبناء المجتمع لأهل الفقيد .

أما نحن كأسرة فقد أصبحت الكآبة سمة بارزة تطبع حياتنا وتلقي بظلالها القاتمة عليها.

لقد استوطن الحزن نفوسنا وتشبث ببقائه فيها تشبث غلاة المستوطنين اليهود بمستوطناتهم التي أقاموها فوق أطلال مدن فلسطين العربية وقراها .

إن صورة محمد لا تفارق مخيلتي لحظة واحدة مهما بلغت الفكرة التي تسيطر على نفسي أو تشغل بالي من قوة وهيمنة. كيف يستطيع المرء أن يفكر في أمر، أو يقوم بعمل، وفكره مشغول بفكرة لا تفارقه وصورة لا تبرح خياله؟ لا أدري... ولكن هذا هو الواقع الذي أعيشه والحياة التي أكابدها .

تضاعف حزني، وتضرمت نيرانه تضرماً وازداد لهيبها اشتعالاً بعد قراعتي بعض ما تركه الشهيد من يوميات .

أحسست بعد قراءتها بأنني أب فاشل، لم يتمكن من فهم ولده. وأن ما كنت أرغمه عليه من أمور أظنها في مصلحته كانت أبعد ما تكون عن دائرة اهتماماته وطموحاته .

لا يعني ذلك أنني كنت على خطأ وأنه- رحمه الله- كان على صواب. إن كل ما أعنيه وحسب هو أنني فشلت في معرفة ما يريد. والله يشهد أنني ما كنت أشد له غير الخير والنجاح .

لقد اكتشفت شيئاً آخر، وهو أن الشهيد محمد كان هو الولد الوحيد الذي ورث عني الموهبة الأدبية... أسلوبه في كتابة رسائله ويوميته وقصائده النثرية كلها كانت تنم عن موهبة أدبية لم يقدر لها أن تصل إلى غايتها...

رحمك الله يا ولدي محمد وأسكنك فسيح جناته .

أوحى إلي استشهاده محمد بثلاث قصائد، نظمت الأولى منها وهي بعنوان: "محمد يا ولدي" في ٨٢/١٠/١، وقد ألقيتها في إحدى الأمسيات الشعرية التي أقيمت في معهد التربية للمعلمين في ٨٢/١١/١ .

أما القصيدة الثانية فكانت بعنوان "محمد يا حبيب الروح" وقد نظمتها في الذكرى الثانية لاستشهاده، أي في ٨٤/٦/٢٥ وقد ألقيتها في إحدى الأمسيات الشعرية التي أقيمت في قاعة الشهيد علي ناصر ياسين في مكتب المنظمة .

وأما القصيدة الثالثة فقد نظمتها بمناسبة الذكرى الثالثة لاستشهاده أي في ٨٥/٦/٢٥ وقد ألقيتها في إحدى الأمسيات الشعرية التي اعتاد أن يقيمها اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين- فرع الكويت- في مكتب المنظمة .

والقصيدتان الأولى والثانية منشورتان في مجموعتي الشعرية "وتبقى الفوارس قرب الجياد" التي نشرت مع ديواني الأول "الضائعون"

في ديواني الذي أطلقت عليه اسم "ديوان الدكتور رجا سمرين" . وأما القصيدة الثالثة فقد نشرت في ديواني الثالث "الطريق إلى أرض ليلي" . وقد نشرت كل هذه القصائد في أكثر من صحيفة من صحف الكويت .

كنت أبكي وأبكي جمهور المستمعين في كل مرة ألقى فيها هذه القصائد. وقد وضع الزميل الدكتور عز الدين الجردلي مدرس البلاغة والنقد في معهد التربية للمعلمين دراسة نقدية لهذه القصائد ونشرها في ثلاث حلقات في مجلة "مرآة الأمة" الكويتية تحت عنوان "التفوق الموضوعي في التجربة الشعرية" - قراءة نقدية في رثاء رجا سمرين لولده الشهيد .

في عام ٨٣ ألقى محاضرة عن "الشعر الفلسطيني في معركة بيروت" وقد قام اتحاد الكتاب بنشرها في كتيب يقع في ستين صفحة من القطع الصغير. وقد سقطت من المحاضرة مطبوعاً أربع صفحات مما جعلها مشوهة ناقصة مع الأسف الشديد. وقد قدم للمحاضرة عبد العزيز السيد رئيس الاتحاد .

عاشت الوالدة - رحمها الله - بعد وفاة الوالد عشرة أعوام، ساءت في خلالها صحتها بسبب أمراض الشيخوخة التي انتهت بها في آخر عام من عمرها إلى أن أصبحت مقعدة .

وكنا قد أصررنا على أن تكون معنا في الكويت بعد وفاة الوالد، فرضخت لرغبتنا مكرهة . كانت تفضل رحمها الله أن تبقى في منزلها بالوحدات لكننا لم نوافق على ذلك خوفاً من أن يحدث لها شيء وليس لديها

أحد من أبنائها أو بناتها. وفي الكويت كانت تمكث شهراً عند كل واحد منا نحن أبناءها الثلاثة رجا وغالب وفرج الله.

وقد شاء الله أن تكون في منزلنا في الشهر الأخير الذي عاشته. ففي ليلة السابع من إبريل سنة ١٩٨٤ وقبل صلاة العشاء صرخت الوالدة مستغيثة وهي في سريرها، فهرعنا إليها فوجدناها تتنفس بصعوبة بالغة، ورأينا صدرها يعلو ويهبط مثل كير الحداد .

اتصلت بالإسعاف في الحال وكذلك بالأخ غالب فأسرع بالمجيء وصحبناها في سيارة الإسعاف إلى مستشفى مبارك الكبير في الجابرية فأدخلوها غرفة العناية المركزة .

وفي الصباح الباكر اتصل بنا العاملون في المستشفى وأبلغونا بوفاة الوالدة .

وارينا جثمانها الطاهر في مقبرة الصليبخات في الكويت في ٨٤/٤/١٨ وفتحنا منزلنا كالعادة للعزاء ثلاثة أيام بلياليهن .

كانت الوالدة هي خامس الأحبة الذين يرحلون عن دنيانا هذه بعد والدي أم نزار، ووالدي وولدي محمد . أليس كثيراً أن يفقد المرء خمسة من أحبائه في مدى ثلاثة عشر عاماً لا غير... إنها إرادة الله الذي لا راد لقضائه، فلا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون .

في صيف عام ١٩٨٤ اشترينا قطعة أرض في الجبل الأخضر في عمان من شركة ريفكو العقارية ومساحتها لا تزيد عن ٣٢٣ متراً مربعاً.

من قبل من الذين التقوا به في الكويت. وقد فرغت من سداد الأقساط في شهر أغسطس ١٩٨٦ م.

والقطعة واقعة في شارع شكري القوتلي بالجبل الأخضر المقابل لجبل عمان. وقد عزمنا على إقامة منزل لنا في الوقت المناسب على هذه القطعة إن شاء الله. وبموجب القرارات التنظيمية لأمانة عمان فإنه يحق لنا إنشاء منزل مؤلف من أربع طوابق.

وقبل عودتنا إلى الكويت تسلمت بحد التسجيل الذي يثبت ملكيتي لهذه القطعة. وقد فاتتني أن أذكر أنني كنت قد اشتريت قطعة أرض مساحتها ١٩٤٤ متراً مربعاً في ضاحية سد الملك طلال في طريق جرش، وقد صادرت الدولة منها جزءاً مساحته ٤٤٤م^٢ لصالح توسعة طريق جرش - عمان دون دفع أي تعويض، ولم يبق لنا منها سوى ١٥٠٠م^٢. وكنت قد اشتريت هذه القطعة في ١٩٧٣/٩/١١.

قبل أن نخادر عمان بعد قضاء عطلتنا الصيفية فيها عام ١٩٨٤ استخرجت دفتر عائلة. وقد فوجئت بأن صالح الزيود أمين سجل دائرة الأحوال المدنية هو واحد من طلابي الذين علمتهم في ثانوية رغدان. وقد سر برويتي سروراً بالغاً واحتفى ببلقائي وسهل لي مهمة استخراج الدفتر دون أن أبذل في ذلك أي عناء فحمدت الله على ذلك وشكرت له وفاءه وتقديره.

في إبريل من عام ١٩٨٥ أصدرت ديواني الثاني الموسوم بديوان الدكتور رجا سمرين، وقد ضم هذا الديوان مجموعتين شعريتين هما: "وتبقى الفوارس قرب الجياد" وتشتمل على ٤٨ قصيدة وإحدى عشرة مقطوعة ومجموعتي الأولى: "الضائعون" والتي تضم اثنتين وثلاثين قصيدة، وكنت

قد أصدرته في عمان سنة ١٩٦٠، وقد فعلت ذلك لأنني لم أكن أتوقع بأن القدر سيمهلني حتى أصدر ديواناً ثالثاً أو مجموعة ثالثة.

وقد نوهت جميع صحف الكويت ومجالاتها بصدور الديوان، وكتب عنه عدد كبير من الصحفيين والنقاد أذكر منهم: الدكتور عز الدين الجردلي، والدكتور كامل السوافيري، والأساتذة علي عبد الفتاح وشهاب محمد وحسن عبد الهادي وعبد القادر كراجه وعبد الله الشبتي ومخير الزواري وسهام عبد الهادي وسواهم.

وقد اشترى مكتب فتح في الكويت من هذا الديوان ٢٥٠ نسخة مقابل دينارين ونصف للنسخة الواحدة، واشترى مكتب المنظمة مائة نسخة، واشترى الدكتور صبحي غوشة ٧٥ نسخة، وساعد بعض أصدقائي من المدرسين والموجهين في بيع ١٥٠ نسخة تقريباً في مدارس الكويت. وقد تعاقدت مع شركة كاظمة للنشر والتوزيع على توزيع الديوان في الكويت. وفي استطاعتي أن أقول بأن ما بيع من نسخ، كان كافياً لتغطية تكاليف طبعه، ومن أجل ذلك توسعت في إهداء نسخة إلى من يستحق ومن لا يستحق من الأصدقاء والمعارف، حتى زاد ما أهديت منه في الكويت وحدها عن مائتي نسخة.

كان صديق العمر الشاعر السوري علي دمر أول من فكرت في إهدائه نسخة من الديوان. وكنت على يقين بأنه سيفرح بصدوره فرحاً كبيراً... وكانت رسائله إلي في السنوات القليلة الماضية قد بدأت تقل، حتى لم أعد متنبئاً من صحة آخر عنوان له لدي. وقد حاولت أن أستوثق من صحة العنوان من صديقنا المشترك الشاعر السوري الإعلامي منذر الشعار فلم يستطع أن يؤكد لي ذلك أو ينفيه.

ومهما يكن من أمر، فقد أثرت أن أبعث إليه برسالة أولاً حتى إذا وافاني رده بادرت بإرسال نسخة له من الديوان. وقد بادرت بإرسال تلك

الرسالة في ٨٥/٦/٩ ومما جاء في تلك الرسالة قولي: "أخي وحبيبي أبا أنس حفظه الله . سلامي وحيي واشتياقي وقبلاقي إليك وبعد، فقد طال الأمد الذي فصل بيني وبينك إلى درجة أصبحت معها لا أدري إن كان سيقدرك أن تتسلم رسالتي هذه أم لا، والسبب الذي يجعلني أشك في ذلك هو عدم تثبتي من صحة عنوانك، وقد حاولت أن أتأكد منه عن طريق سؤال الصديق الأستاذ منذر الشاعر ولكنه لم يستطع أن يؤكد ذلك، وكل ما قاله إنه يرجح أنك لا زلت في هذا العنوان..." وهكذا تمضي الرسالة شارحة أسباب تلكني في الكتابة إلى عليّ والمتمثلة في استشهاد ولدي محمد ووفاة الوالدة ومعاناة أم نزار... ثم أنهيت له في ختامها بشرى صدور الديوان .

في ٨٥/٦/١٢ أعيدت إليّ الرسالة حاملة تلك العبارة المشؤومة: "تعاد للمصدر لأن المذكور غير موجود في المدرسة" .

داخلني الروح من عودة الرسالة إليّ وبدأت أتساءل: أين أنت يا عليّ؟ ماذا حدث لك يا أبا أنس؟! ولم يطل بي الوقت حتى علمت من الأستاذ منذر الذي بدأ يسأل عن أخبار صديقنا المشترك منذ أن سألته عن عنوانه بأن أبا أنس قد التحق بالرفيق الأعلى .

مات عليّ دمر في ديار الغربة... مات الشاعر الرقيق خارج مسقط رأسه حماة التي تغنى بها كما لم يتغن بها شاعر من قبل . بؤساً لنظام يحرم شعراءه من الموت في ديارهم وبين أحبائهم .

لقد أخبرني منذر أن علياً كان قد أصيب في السنوات الأخيرة من حياته بمرض السكري . وأنه انتقل إلى جوار ربه في مساء يوم الاثنين الثالث عشر من جمادى الآخرة عام ١٤٠٥ للهجرة الموافق للربيع من آذار سنة ١٩٨٥ ميلادية .

وقد تم تشييع جثمانه الطاهر في اليوم التالي في بلدة الطرف في الهفوف بالمملكة العربية السعودية .

أرسلت برسالة تعزية إلى أسرة المرحوم في حماة، وطلبت من ولده البكر أنس أن يوافيني بكل ما يستطيع من نتاجه الشعري تمهيداً لإصدار دراسة عنه، وتنفيذاً لما كنا قد تعاهدنا عليه في القاهرة بأن يقوم من يبقى منا نحن الاثنين على قيد الحياة بعد صاحبه بالكتابة عن نتاجه الشعري . وقد بادر أنس بإرسال ما توافر لديه من آثار والده الشعرية كما أرسل إليّ بالكلمات والقصائد التي ألقيت في حفل تأبين المرحوم في ذكرى الأربعين لوفاته .

كان أول شيء فعلته هو أنني رثيتُ صديقي علياً بقصيدة مؤلفة من ٤٢ بيتاً، وهي متنوعة القافية وقد جعلت عنوانها "أين الذي ذاب وجداً...؟! ولكن رثائي له لم يتم إلا بعد انقضاء سنة كاملة على وفاته، وكأني بالحزن مثل الخمر التي تصبح أكثر تأثيراً كلما تقادم عليها الزمن .

وقد نشرت هذه القصيدة في جريدة الأنباء الكويتية وفي ديواني الثالث "الطريق إلى أرض ليلي" .

وقد بدأت في التخطيط لدراسة آثار صاحبي الشعرية وإنني أرجو الله أن يعينني على ذلك حتى أفي بما عاهدته عليه وحتى لا أقف يوم القيامة أمامه خجلاً مطاطيء الرأس وهو يسألني معاتباً: لماذا لم تف بوعدك يا أبا نزار؟! .

وفي عام ١٩٨٥ بدأت الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب مهمة تطوير المناهج الدراسية في المعاهد التي تعمل تحت لوائها . وتنفيذاً لذلك قامت الهيئة بتشكيل لجان من المدرسين في هذه المعاهد لوضع كتب جديدة تكون أكثر ملائمة لخطة التطوير .

وقد كنت واحداً ممن أُسندت إليهم هذه المهمة، حيث شكلت الهيئة لجنة مؤلفة مني ومن الدكتور صلاح عبد الأستاذ عبد الرحمن سالم لوضع

كتاب عن مصادر الأدب العربي وفنونه عبر العصور ليكون بين أيدي طلاب شعبة المكتبات بمعهد التربية للمعلمين .

خططنا للعمل وقسمنا الكتاب إلى سبعة أبواب. وقد أسند إلى الأستاذ عبد الرحمن مهمة الكتابة عن الأبواب الثلاثة الأولى والتي تتناول: العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي، وأسند إليّ مهمة كتابة التمهيد والمقدمة والأبواب التي تتناول العصر العباسي بعهوده المختلفة والعصر الأندلسي وعصور الانحسار الأدبي . أما الدكتور صلاح عيد فقد كلف بكتابة الباب السابع الذي خصص للعصر الحديث .

شاعت الأقدار أن يصاب الأستاذ عبد الرحمن سالم بمرض في عينيه منعه من إنجاز المهمة المسندة إليه .

وحتى لا يُحرم الأستاذ المذكور من المكافأة المخصصة لكل من يشارك في تأليف كتاب فقد اتفقنا فيما بيننا نحن الثلاثة على أن أقوم أنا بإنجاز الأبواب التي كلف بإنجازها الأستاذ عبد الرحمن .

وقد تم ذلك فعلاً، ولأنني رئيس اللجنة المشكلة لتأليف هذا الكتاب، فإنني أشرفت أيضاً على طباعته وتصحيح الأخطاء المطبعية. وهكذا فإن هذا الكتاب الذي حمل عنوان "الأدب العربي ومصادره عبر العصور" يعد في الواقع من وضعي أنا مع إسهام قليل لا يكاد يذكر للدكتور صلاح عيد الذي لم يزد ما كتبه منه عن ٥٩ صفحة .

وقد خرج الكتاب في ٢٧٨ صفحة من القطع المتوسط، وكان نصيبني منه تأليف ستة فصول من فصوله السبعة، أما الفصل السابع والأخير منه فقد قام بوضعه الدكتور صلاح عيد .

وقد وضع اسم الأستاذ المرحوم عبد الرحمن سالم- الذي لم يلبث أن انتقل إلى جوار ربه بعد صدور الكتاب بمدة قصيرة إلى جانب اسمي واسم الدكتور صلاح عيد على الغلاف، على الرغم من أنه لم يشارك في كتابة كلمة واحدة من الكلمات التي يتألف منها الكتاب .

بعد ثلاثة أعوام قُمت بسحب الديوان من شركة كاظمة التي فشلت في توزيعه فشلاً ذريعاً وبخاصة وأن الخلاف قد دبّ بين الشركاء الذين يملكونها. وبعد ذلك، بعام قُمت بالاتفاق مع الشركة نفسها في عهدها الجديد وظل الاتفاق بيني وبينها قائماً حتى اجتياح العراق للكويت .

في بداية العام الدراسي ٨٦/٨٥ استقال الأستاذ أحمد المزروعى من رئاسة الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، وخلفه في منصبه الدكتور جاسم خلف، وقد جيء بهذا الرجل لكي ينهض بالمعاهد التابعة للهيئة ويعمل على تطويرها . وبدأ الرجل يعمل وبدأت الشائعات عن طريق عمله تتوالى وتنتشر، ولم يكد يمضي عام حتى تبين للجميع أن هذا الرجل لم يكن إلا لعنة حلت بالهيئة ومعاهدها والعاملين فيها . فقد رأى أن تطوير الهيئة ومعاهدها لن يتحقق إلا بالتخلص من خيرة من كان في تلك المعاهد من أعضاء هيئة التدريس، وهكذا وبقرار واحد يحمل رقم ١٩٨٧/٥٢٤ قرر إنهاء عقود مائة وستة من الأساتذة العاملين في كليات الهيئة ومعاهدها .

وبموجب قرارات التطوير تحول معهد التربية للمعلمين إلى كلية تمنح درجة البكالوريوس فأصبح اسمه " كلية التربية الأساسية " - وكنت قد أصبحت كغيري من الأساتذة- أستاذاً مساعداً في الكلية ابتداءً من ٨٦/٧/١ وأصبح راتبي بعد تطبيق الكادر الجامعي على المعلمين في كليات الهيئة ٨٣٥ د.ك. ولكن فرحتنا بذلك لم تتم، إذ لم يكد يمضي عام دراسي واحد على ذلك، حتى صدر القرار الذي يقضي بإنهاء عملنا في الهيئة ابتداءً من العام الدراسي الجديد ٨٨/٨٧ . وكان من الغريب المستهجن أن الهيئة قد حرصت على إبلاغ هذا العدد الكبير بإنهاء عقودهم قبل صدور القرار رسمياً بمائة يوم، وقد أبلغتُ أنا شخصياً بهذا القرار المشؤوم عشية وقفة عيد الأضحى المبارك .

لقد كان لهذا القرار الغاشم وقع سيء على الرأي العام في الكويت، كما أن آثاره الضارة بالنسبة لمن أصابهم كانت كثيرة ومتعددة .

وبالنسبة لي فقد كنت أعلق آمالاً كبيرة على أنني سوف أمضي ما تبقى من مدة تسبق تقاعدي وأنا أتقاضى هذا الراتب الضخم الذي طالما حلمت وحلم غيري من الزملاء بالوصول إليه وتجاوزه . لقد كان ذلك كفيلاً بإنهاء متاعبنا المالية، وتحقيق ما يدور في خلدنا من مشروعات،

استرينا نصيب المرحومة خضرة خالة أم نزار والبالغ سبعين متراً مربعاً والواقع أمام نصيب أم نزار . من الذين انتقلت إليهم ملكية هذه القطعة بالشراء، وكانوا أربعة رجال وثلاث نساء انتقلت إليهم ملكية القطعة بالوراثة عن طريق والدتهم التي اشترت القطعة من السيدة خضرة بمبلغ خمسمائة جنيه مصري لا غير قبل أن تموت فألت إلى أبنائها السبعة بالوراثة .

في هذا العام ١٩٨٧ نجحت أم نزار باستعادة جنسيتها المصرية دون أن تتخلى عن جنسيتها الأردنية . وقد جاء قرار إنهاء عملي بكلية التربية الأساسية محطماً لكثير من الآمال ومؤشراً لمستقبل مجهول لا نعرف ما يُخبأ لنا فيه .

في ١٦/١/١٩٨٧ سافرت ومعي ولدي الأصغر كامل إلى الولايات المتحدة الأمريكية متجهين إلى شيكاغو لزيارة زياد والاطمئنان على أحواله بعد أن كان قد افتتح مخزناً تجارياً بمشاركة اثنين من أبناء عمومته، هما محمود عثمان وسليمان محمد سليمان عثمان . وكان زياد يملك نصف رأس المال، بينما يملك شريكاه النصف الآخر بالتساوي .

بانتهاه عام ١٩٨٧ تم إنشاء منزلنا في القاهرة،

وقد قمنا بتأثيث منزلنا الجديد بكل ما يتطلبه من الأثاث الحديث وقد جلبنا له الأدوات الكهربائية وأدوات المطبخ والسجاد من الكويت، أما غرف النوم والصالون فقد اشتريناها من مصر .

في الثامن من ديسمبر سنة ١٩٨٧ تفجرت الانتفاضة في قطاع غزة ومدن الضفة الغربية وقراها، وقد قام بهذه الانتفاضة الأطفال الفلسطينيون الذين ولدوا في ظل الاحتلال الصهيوني لبلادهم . وقد حققت هذه الانتفاضة التي لم يتسلح أبطالها من أطفال فلسطين وشبابها وفتياتها ونسائها بغير الحجارة ما لم تحققه ثورات الشعب الفلسطيني السابقة بلا استثناء . فقد تمكنت من تعرية الوجه الصهيوني القبيح، وأحدثت تحولاً جذرياً في مواقف كثيرة من الدول واتجاهات المجتمعات الدولية .

لقد بهر أطفال الحجارة العالم واستحوذوا على إعجابه وأثبتوا أن كتائب الصهيونية المدججة بأحدث ما أنتجته آلة الدمار الأمريكية من سلاح أعجز من أن تقضي على طموحات شعب آلى أطفاله على أنفسهم إلا أن يحققوا أهدافهم في الحرية والاستقلال أو أن يموتوا دون ذلك . لقد حول هؤلاء الأطفال جنود الجيش الإسرائيلي إلى فئران مذعورة فقدت صوابها أمام الحجارة الصغيرة التي يطرهم بها أطفال فلسطين .

وكان من الطبيعي أن يتجاوب الشعراء في جميع أنحاء الوطن العربي مع هذه الانتفاضة الباسلة وأن يتفاعلوا معها . بل امتد هذا التفاعل ليشمل العديد من شعراء العالم الأحرار ممن آمنوا بحق الشعب الفلسطيني في الحرية وتقرير المصير .

ولما كنت واحداً من شعراء فلسطين الذين التزموا وعلى مدى تاريخهم النضالي بالتعبير عن آمال شعبهم في استرداد حقوقه المغتصبة فقد أوجت إلي هذه الانتفاضة بثلاث قصائد هي: يا حجر الطفل، وديالوج، وسيزيف الفلسطيني. وقد نشرت في صحف الكويت وفي ديواني الثالث "الطريق إلى أرض ليلي" .

ولكي تصل الكلمة الشعرية المناضلة إلى ما وصل إليه الحجر في يد الطفل الفلسطيني من مستوى نضالي رفيع فقد قرر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين - فرع الكويت - أن يلم شعث ما صاغه الشعراء من

قصائد في هذه الانتفاضة الباسلة في ديوان يخصص ريعه لدعم الانتفاضة وأبطالها الميامين .

ومن أجل إخراج هذه الفكرة إلى النور فقد عمد الاتحاد إلى تشكيل لجنة أدبية وفنية تتولى مهمة إعداد وإخراج هذا الديوان، وجعلني على رأس هذه اللجنة كما كلفني بكتابة المقدمة لهذا الديوان .

وقد وجدت اللجنة نفسها أمام خضم متلاطم من القصائد، مما اضطرها إلى أسلوب التخير والانتقاء . وفي شهر مارس ١٩٨٩ خرج الديوان الذي أطلقنا عليه اسم "ديوان ثورة الحجارة" في حلة قشبية تمثلت في ٣٤٠ صفحة من الورق الصقيل واشتملت على أربع وتسعين قصيدة لسبعة وسبعين شاعراً يمثلون العالم العربي .

وكان بين قصائد هذا الديوان تسع قصائد شعبية وقصيدتان عالميتان لشاعرين من فيتنام .

استعداداً لحفل تخريج طلبة كليات ومعاهد الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب عام ١٩٨٨ أصدر مدير الهيئة الدكتور عبد الرحمن صالح المحيلان أمراً إدارياً كلفني بموجبه كتابة الكلمات التي ستلقى في هذا الحفل وهي: كلمة وزير التعليم العالي، وكلمة المدير العام للهيئة، وكلمة ممثل الخريجين، وكلمات الربط بين فقرات الحفل التي سيستخدمها عريف الحفل . وقد قمت بتنفيذ ذلك ومنحتني الهيئة مقابل تنفيذه مبلغ مائتين وخمسين ديناراً بموجب بند المكافآت الممتازة . وفي الوقت نفسه منح عريف الحفل مبلغ خمسة آلاف دينار ومنح الطالب الذي ألقى كلمة الخريجين مبلغ ثلاثة آلاف دينار.

في السابع والعشرين من يناير ١٩٨٩ تلقيت مكالمة هاتفية لم أكن أتوقعها، ولم تكن تخطر لي ببال .

كانت المكالمة من الأستاذ كمال العريف نقيب الصحفيين في تونس . وكنت قد عرفته في الفترة التي عقد فيها مؤتمر اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الثاني في تونس سنة ١٩٧٧، أي قبل أكثر من عشرين عاماً، وكنت قد دفعت إليه بإحدى عشرة قصيدة عمل على نشرها تباعاً في صحف تونس ومجلاتها .

جائني صوت الأستاذ كمال العريف من تونس قائلاً: هالو دكتور رجا... أنا كمال العريف أكلّمك من تونس... هل تذكرني؟

قلت: أهلاً وسهلاً أستاذ كمال... أجل يا أخي إنني أذكرك تماماً ولن أنساك... كيف حالك يا أستاذ كمال؟

قال: بخير والحمد لله... كيف حالكم أنتم؟

قلت: على خير حال والحمد لله... أمرني بما تشاء .

قال: استغفر الله... أرجو أن تغفر لي إزعاجك إن كنت قد أزعجتك بهذا الاتصال المفاجيء .

قلت: كيف تقول ذلك يا أستاذ... إنني سعيد جداً بهذا المبادرة الطيبة منك فبارك الله فيك .

قال: لقد حصلت على رقم هاتفك من مكتب المنظمة في تونس .

قلت: جزاهم الله خيراً لقاء ذلك .

قال: تذكر أنك كنت قد دفعت إلي في أثناء انعقاد مؤتمركم سنة ١٩٧٧ بعدد من قصائدك العصماء...

قلت: أجل... أذكر ذلك ولا أنساه .

قال: لقد قرر إخواننا في دار الحرية للطباعة والنشر وهي كبرى المؤسسات التابعة لحزبنا وهو "حزب التجمع الدستوري الديمقراطي" أن يكرموا الأدب الفلسطيني في صورة نشر ديوان لكم .

قلت: بارك الله فيك وفيهم وأرجو أن أكون عند حسن ظنكم بي .

قال: إن أذنت لي فأبني أقترح عليك أن ترسل إلينا مجموعة جديدة من القصائد نضمها إلى ما لدينا من قصائد لنخرجها في ديوان تختار له ما يعجبك من الأسماء وتقدم له بمقدمة تتحدث فيها عن تجربتك الشعرية، كما لا تنسى أن تبعث مع كل ذلك برسم حديث لك ونبذة قصيرة عن حياتك .

قلت: بالنسبة للقصائد التي لديكم فأبني أرجو عدم نشر أي منها في الديوان المقترح، لأنها قد نشرت جميعاً في آخر ديوان صدر لي في الكويت، وسأبعث إليك بنسخة منه إن شاء الله . وسوف أوافيك بمشينة الله بمجموعة من القصائد الحديثة التي لم ينشر أي منها في مجموعاتي الشعرية السابقة مع سائر ما طلبته .

قال: نحن في انتظار ذلك بفارغ الصبر .

قلت: بارك الله فيك وفي تونس ورجالها في عهدها الجديد .

قال: شكراً لك يا دكتور، منذ يومين بعثت إليكم برسالة مفصلة تتعلق بهذا الموضوع .

قلت: يشرفني تلقيها وأرجو ألا يطول انتظاري حتى أسعد بقرائها .

قال: شكراً مرة أخرى واستودعكم الله .

قلت: مع السلامة يا أستاذ كمال... وفي رعاية الله .

بعد انتهاء المكالمات التي تعد من أهم المكالمات التي تلقيتها في حياتي بدأت أعد الغدة لتلبية طلب هؤلاء العرب الطيبين الذين يقدرون الشعر والشعراء ولا يفتأون يبنلون ما يقدرون عليه لنصرة الشعب الفلسطيني وقضيته .

ألا يكفي التونسيين فخراً أنهم فتحوا صدر بلادهم ليضم منظمة التحرير الفلسطينية ومكاتبها بعد أن ضاقت بها الأرض العربية بما رحبت على أثر خروجها من بيروت؟!!

في ٣١/يناير/١٩٨٩ تلقيت الرسالة الأولى من الأستاذ كمال العريف الذي كان يشغل منصب الأمين العام لديوان الوزير الأول "أي

رئيس الوزراء" في ذلك الوقت . وكانت الرسالة مؤرخة في ٢٦ من الشهر نفسه . وقد حثني في هذه الرسالة على سرعة الاستجابة لطلبهم .

اخترت ثلاثاً وثلاثين قصيدة من قصائدي التي لم تنشر في ديوان، وبعثت بها مع ترجمة قصيرة لحياتي، ومقدمة تحدثت فيها عن قصتي مع الشعر، ولكنني نسيت أن أرسل مع كل ذلك بصورة من صوري .

في ١/٥/١٩٨٩ سافرت إلى القاهرة وفي ١٧/٦/٨٩ وصلتني رسالة ثانية من الأستاذ كمال، وقد بعث بها من الكويت التي كان يأمل أن يجديني فيها . وفي أواخر مايو سنة ١٩٩٠ تلقيت طرداً بريدياً من تونس يشتمل على عشرين نسخة من الديوان الذي طبعه لي التونسيون والذي كنت قد اخترت له اسم "الطريق إلى أرض ليلي" . وقد أهديته إلى زوجتي أم نزار بهذه الأبيات :

إليها... إلى من شامركني مباحجي

وحبي وأتراجي وسعدي وشوقي

إلى من هلت الحب منها فبددت

بنور محياها دياجير وخدتي

إلى ربعة الطهر المضخ بالتقي

إلى أم أولادي... إلى خير زوجة

وقد فوجئت وسعدت كثيراً بالمقدمة الرائعة التي تصدرت الديوان والتي كتبها الأستاذ كمال العريف بقلمه .

خرج الديوان في ١١٠ صفحات من القطع المتوسط وقامت بطباعته دار المعارف للطباعة والنشر في سوسة .

وقد طبعته منه ثلاثة آلاف نسخة وجعلت له ثمناً دينارين تونسيتين
أو ما يعادلها بالعملة الأخرى .

بعد وصول الطرد المشتمل على عشرين نسخة من الديوان بعثت
برسالة شكر إلى الأستاذ كمال... ولكن تلك الرسالة لم تلبث أن عادت إليّ
بالبريد وعليها تلك العبارة العتيقة... المذكور غير موجود في العنوان .

ما هذا الذي يحدث... أهنأ يصبح الإنسان العربي بين عشية
وضحاها مجهول العنوان... بالأمس كان الأستاذ كمال إنساناً ذا نفوذ
وسلطان، واليوم وبكل بساطة يصبح مخلوقاً بلا هوية وبلا عنوان .

سألت عن كمال بعد ذلك كثيراً ولكني لم أستطع أن أهتدي إلى
عنوانه... ماذا حدث؟... هل غضب عليه النظام الجديد الذي كان هو أحد
المكافحين في سبيله . هل أقيل من منصبه؟... هل أصبح وراء القضبان؟
حتى كتابة هذه السطور ما زلت أجهل ما الذي حدث للأستاذ كمال
العريف....!

كان الأستاذ كمال العريف قد وعدني في رسالته الثانية أن يعمل
على دعوتي لحضور مهرجان قرطاج الشعري، وقد خيرني بين أن يرسل
بالقسط الأول من مستحقاتي عن الديوان وبين أن يبقها معه حتى نلتقي في
تونس فاخترت الأمر الثاني... ولكن ها هي ذي عشرة أعوام تمر دون أن
أعرف ما الذي حل بكمال العريف ودون أن يصلني شيء من مستحقاتي
عن الديوان .

قلت في نفسي: " قليل البخت يلاقي العظم في الكرشة " ثم عزيتُها
بقولي: يكفيك يا أبا نزار أنك قد خرجت من كل ذلك بديوان جديد تكفل
غيرك بدفع نفقات طباعته .

في صيف عام ١٩٨٩ حضر زياد لزيارتنا في الكويت، عاد بعده
إلى شيكاغو حيث أنهى شراكته في المخزن مع كل من محمود عثمان
وسليمان عثمان . وقد اضطر الشركاء الثلاثة إلى تصفيته وبيعه بأرخص

الأثمان، بعد أن تبين لهم أن بعض العاملين فيه قد نهبوا وسلبوا من بضائعه
وعائداته ما شاء الله لهم أن ينهبوا دون رقيب أو حسيب .

في ٨٩/٥/١ سافرت إلى القاهرة، وبعد شهرين عدت إلى الكويت،
ثم ما لبثت أن عدت إلى القاهرة في ١٩٩٠/١/٢٢، وبعد ثلاثة أيام غادرت
القاهرة إلى الأردن ومعني سيارتي عن طريق ميناء السويس .

بقيت في عمان حتى السادس من مارس ١٩٩٠، وفي يوم عيد
ميلادي الحادي والستين عدت بسيارتي إلى الكويت عن طريق المملكة
العربية السعودية، وكنت قبيل سفري قد سقطت في الشارع العام أمام منزل
الشقيقة نعمة في المصداق بعمان مما أدى إلى إحداث شرخ عرضي في
مرفق يدي اليسرى، وعلى الرغم من الآلام المبرحة التي كنت أعاني منها
فقد قدت سيارتي إلى الكويت غير عابئة بما يحدث . وقد ارتجلت وأنا في
طريقي بين عرعر ورفحاء قصيدة مؤلفة من أربعة عشر بيتاً وعنوانها "في
طريق رفحاء" .

بعد وصولي إلى الكويت بعث سيارتي الشيفيل من طراز ١٩٧٦
وفي ١٩٩٠/٤/٢٣ عدت إلى القاهرة، وبقيت فيها حتى ١٩٩٠/٧/١٣ حيث عدت
من جديد إلى الكويت .

كنت أقضي معظم وقتي بعد عودتي إلى الكويت في منزل ولدنا
نزار في منطقة سلوى، وكنت أقوم بين الحين والآخر بزيارة ابنتي جميلة
وليلي، وذلك بعد أن لم يعد لنا مقر خاص بعد إحالتي على التقاعد . وكنت
قد حصلت على إقامة التحاق بعائل لأظل حراً في التحرك بين الكويت
والخارج من أجل الاطمئنان على الأولاد الذين كان يقيم معظمهم في
الكويت. بينما تقيم أم نزار وولدنا كامل في القاهرة .

وكان نزار قد رزق من زوجته آمال حتى الآن بثلاث بنات وولد واحد هم
على التوالي: آيات وقد ولدت في ١٨/٢/١٩٨٣، وآلاء المولودة في
٩/١٠/٨٥، ومحمد الذي من الله به علينا وعلى أبويه في ٢٤/١١/١٩٨٧
وقد أسميناه محمداً تيمناً برسول الله ﷺ، وإبقاءً على هذا الاسم المبارك في
محيط العائلة، وليكون خير عوض عن جده محمد سميرين وعمه الشهيد
محمد رجا . وقد فرحت بمقدم محمد الذي يعد وجوده امتداداً لوجودنا.
وعبرت عن غبطتي بمقدمه في قصيدة منشورة في ديواني الثالث "الطريق
إلى أرض ليلي" . أما الابنة الثالثة لنزار فهي إشراق التي وضعتها أمها في
الكويت في ٣٠/٦/١٩٩٣، وفي ٧/٧/١٩٩٩ أسعدنا الله بولد ثانٍ لنزار هو
محمود الذي عبرت عن فرحتنا بمقدمه بقصيدة "ريحانة الوجود" التي نظمناها
في ٢٤/٤/٢٠٠٢.

وكانت فاطمة قد التحقت بالعمل في شركة "كريمكو" وهي شركة
مقاولات تعمل من الباطن مع شركة البترول الوطنية. وكان مقر عملها في
ميناء الأحمدى .

في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤

في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤
في ١٩٩٣/١١/٢٤

الفصل الرابع عشر

الزلازل

في الساعة السابعة من صبيحة اليوم الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠ استيقظت من نومي وأنا في شقة ابنتي جميلة بمجمع الهيدان في المنقف على رنين الهاتف .

تناولت السماعة فإذا بصوت زوج ابنتي ليلي "مجدي" يقول: بابا لا تخرج من البيت في هذا اليوم .

قلت: خيراً ما السبب الذي يدفعك إلى هذا القول ؟

قال: ألم تسمع بما حدث اليوم ؟

قلت: لا... خيراً إن شاء الله .

قال: لقد دخل الجيش العراقي إلى الكويت وقد وصلت طلائعه إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون .

قلت: ما هذه المفاجأة التي لا يتوقعها أحد ؟

قال: هذا ما حدث... فلا تخرج .

قلت: أفعل إن شاء الله فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وسارعت إلى فتح التلفزيون والإذاعة وبدأنا نستمع إلى أنباء اجتياح العراق للكويت . وفي اليوم التالي وصلت الدبابات العراقية إلى منطقة الأحمدية، وبدأ بعضها يتركز قبالة مجمع الهيدان الذي كانت جميلة وزوجها يسكنان في الطابق العاشر منه .

وبدأت فصول مهزلة اجتياح العراق للكويت تتوالى على مسرح الأحداث .

كان أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الصباح وولي عهده وجميع أفراد الأسرة الحاكمة غادروا الكويت قبل أن تبدأ الطائرات بقصف

التصور والمطارات والمعسكرات. وبدأ كثير من العائلات الكويتية في مغادرة الكويت إلى المملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج .

ولم يكد يمضي يومان على دخول الجيش العراقي أرض الكويت حتى أصيبت جميع المؤسسات العامة والخاصة فيها بالشلل التام .

بعد أيام قليلة من انتشار الجيش العراقي في الكويت لم أعد أصدق ما أرى وما أسمع . لقد أدركت بما لا يدع مجالاً للشك أن ما كنا نسمعه عن الجيش العراقي ما هو إلا أوهام لا أساس لها من الصحة... لقد وقر في أذهاننا أن هذا الجيش كان يشكل القوة الرابعة أو الخامسة في العالم وفقاً لأسوأ التقديرات، ولكن هل ما يحدث من تصرفات جنوده هذا يتفق وهذه السمعة التي تناهت إلينا قبل اجتياحهم أرض الكويت الوادعة المطمئنة .

بدأ الجنود يداهمون المنازل والشقق المهجورة، وينهبون منها ما خف حملة وغلا ثمنه. وكان أفرادهم يأتون إلى منزل ابنتي جميلة سائلين أن تعطيهم قليلاً من السكر، أو قليلاً من الشاي أو الأرز أو غير ذلك من ألوان الطعام . وكانوا يفعلون ذلك مع جميع المنازل .

سألت أحدهم ذات مرة: كيف تسول لكم أنفسكم أن تطرقوا الأبواب سائلين أهلها ما تتبلغون به، أو ما يقيم أودكم ويقيكم لهيب الجوع؟ ألا يأخذ كل جندي منكم ما هو مقرر له من وجبات الطعام اليومية كما هي العادة في سائر الجيوش ؟

أجابني الجندي البائس: لا والله يا سيدي... إننا لا نأخذ شيئاً مما نقول. لقد قال لنا قادتنا: إن الكويت غنية، وإن كل من فيها أغنياء، فليدبر كل منكم رأسه .

عجبت لهذا الرد ثم قلت في نفسي: إن جيشاً يسأل جنوده الناس الطعام لا يمكن أن ينتصر، ولن يتمكن من تحقيق ما يسند إليه من مهام .

تلاشت هيبة الجيش العراقي من النفوس، وما لبثت ممارساته جنوداً وقيادة أن غرست الكراهية له في نفوس جميع المقيمين في الكويت .

كانت الشاحنات والحاويات الكبيرة تعمل على مدار الساعة في نهب المخازن والمتاجر الحكومية والخاصة وتنقلها إلى بغداد . ولم يعد يعمل من الأجهزة الحكومية سوى قطاع الماء والكهرباء... حتى نظام المرور قد تعطل، وكانت السيارات تذرع الشوارع دون أن تتقيد بالشخصيات أو الإشارات الضوئية .

وبدأت الأغذية تنناقص، وأصبح الحصول على بعض الأغذية مغماً يفوق كل تقدير .

وأصبح كل من يقود سيارته مضطراً إلى التوقف عند كل حاجز من الحواجز التي ملأ بها العراقيون شوارع الكويت الحزينة. ولم يعد الحصول على البترول للسيارة - في بلد البترول - سهلاً مثلما كان . باختصار شديد أصبحت الحياة في الكويت أشبه ما تكون بأحداث مسرحية ألفها كاتب مخبول من الكتاب المؤمنين بمدرسة اللامعقول .

وبدأت مشكلة اجتياح الكويت تستأثر باهتمام العالم، وسارع مجلس الأمن بإصدار قرار يقضي بضرورة انسحاب الجيش العراقي من الكويت. وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية باستعداد العالم على العراق، وتجميع قواته لإجبار العراقيين على الخروج من الكويت بعد أن رفضوا قرار المجلس بصَلَفٍ منقطع النظير، وبعد أن أعلنوا عن ضمها إلى العراق وجعلوها المحافظة التاسعة عشرة من محافظات الجمهورية العراقية .

وكان من أغرب المضحكات المبكيات ما زعمه العراقيون من أنهم لم يدخلوا الكويت إلا استجابة لنداء وجهه إليهم بعض الضباط الإنقلابيين من جيش الكويت الذين قاموا بإنقلاب عسكري للقضاء على حكم أسرة آل الصباح .

كان هذا الإدعاء باطلاً بشهادة كل من يقيم على ثرى الكويت، ولم يكن سوى كذبة كبيرة لا تثير غير السخرية والاشمئزاز .

لقد مرت الأمة العربية في القرن العشرين بكثير من الكوارث والأزمات والتحديات؛ ولكن جميع العقابيل والعواقب الوخيمة التي خلفتها نضاعت كثيرًا أمام العواقب التي خلفتها مأساة اجتياح العراق للكويت . لقد أعادت هذه الحماقة العراق والأمة العربية من ورائه إلى الوراء مسيرة قرن على الأقل . فقد أعطت المبرر لأعداء العروبة والإسلام للإنقضاض علينا من جديد .

لم يكن يخطر ببال أحد من أبناء الأمة العربية أن يوماً سيأتي يقف فيه جيش عربي إلى جانب أجنبي في مواجهة عربي آخر . ولكن هذا الإنجاز المخزي قد تحقق على يد صدام حسين .

لقد انضمت جيوش دول مجلس التعاون الستة بالإضافة إلى الجيشين المصري والسوري إلى قوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة لمحاربة الجيش العراقي وإخراجه من الكويت .

وقد أصاب العراق وشعبه من الإذلال والمهانة والفقر ما لا يعلمه إلا الله بسبب الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة عليه .

لقد دُمِرت آلتة العسكرية وأصبح مفتشو الأمم المتحدة يصلون ويجولون في أرضه مفتشين عما يسمونه بأسلحة الدمار الشامل دون أن يتمكن صدام وزبانيته من التصدي لواحد منهم ولو بكلمة. وقد تفرق شمل الأمة العربية وأصبح مجرد الدعوة إلى عقد مؤتمر قمة أمراً مستكراً من قبل دول أعراب شبه الجزيرة العربية والخليج .

وبعد ستة أشهر من تجميع القوات العالمية وحشدتها في حفر الباطن، نشبت الحرب التي أطلق عليها الأمريكيون اسم "عاصفة الصحراء" في ١٧/١/١٩٩١ وانتهت في ٢٧/٢/١٩٩١ وأسفرت عن خروج الجيش العراقي من الكويت وتدمير آلتة العسكرية، وتقليص نفوذ صدام بعد أن جعلت قوات التحالف من المنطقة الكردية الشمالية منطقة محرمة على صدام وحكومته وجيشه. ولكن تلك العاصفة لم تتمكن أو لم تشأ أن تعصف بصدام

الفصل الخامس عشر

العودة إلى الأردن

تسارعت الأحداث بعد احتلال العراقيين الكويت، وبدأت الآفاق تتلبد بغيوم مرعبة لا يعلم إلا الله ما الذي ستمطره على رؤوسنا . فكُرت في الأمر فهداني تفكيري إلى أن البقاء في الكويت قد أصبح ضرباً من المغامرة المجنونة التي لا تحمد عقباها . وقد أفضيت بفكرتي هذه إلى نزار ومجدي وإلى كل من يهمني أمره من الأقارب والأصدقاء . وهكذا عقدنا العزم على مغادرة الكويت .

في الثاني والعشرين من أغسطس سنة ١٩٩٠ شددنا الرحال إلى الأردن في قافلة ضمتني وضمت كلاً من ولدي نزار وأسرته وصهره أحمد وشقيقته إحسان وزوجها وولدهما، وابنتي ليلى وزوجها وطفلهما محمود، وشقيقة مجدي وزوجها أحمد وأفت وأبناءهما الأربعة . كانت القافلة مكونة من أربع سيارات نقل ١٨ راكباً لا يحملون سوى الحقائب التي تحتوي على ملابسهم . لقد خلفنا أثاث بيوتنا في الكويت إذ لم تكن الظروف تسمح بنقله إذ ذاك .

قدمنا إلى عمان عن طريق العراق الذي بتنا فيه ثلاث ليال قضينا إحداهما في الرمادي والثانية في الرطبة والثالثة على الحدود في منطقة طربيل .

وصلنا إلى عمان منهكين نحمل من وعاء السفر ما لا تحمله الأبعرة التي كانت تستخدم في الأزمنة الغابرة . وحلنا ضيوفاً على الشقيق غالب الذي لم يشهد وأسرته ما حدث في الكويت، لأنه كان قد غادرها لقضاء العطلة الصيفية كعادته قبل اجتياح العراقيين لها بشهرين . رحب بنا

حسين ذاته فظل جاثماً فوق صدر الشعب العراقي البائس المسكين غير عابيء بما يعاني من ألوان اليأس والفقر والمرض . لقد خرجت أعداد كبيرة من العراقيين إلى الأردن وغيرها من دول العالم فراراً من المعاناة دون أن يحاول صدام ونظامه منعهم من ذلك .

ولن أكون مغالياً إن قلت: إن صدام لن يعبأ حتى لو خرج جميع العراقيين من بلادهم... المهم أن يبقى هو ومن حوله من أبناء أسرته التكريتية جاثمين فوق صدر أرض الرافدين . فله الأمر من قبل ومن بعد، غير أنني على يقين من أن نهاية صدام آتية لا ريب فيها لأنه لن يكون أول النمردة والفراعين ولن يكون آخرهم .

لقد عصفت "عاصفة الصحراء" بأحلام صدام وبالحدود الدنيا التي يلتقي حولها العرب، وأصبح مجرد الحديث عن الوحدة والنضام ونبيذ الخلافات بين الدول العربية كافياً لوصم صاحبه بالغباء والجهل والجري وراء أحلام اليقظة والترهات .

في أواخر عام ١٩٩١ إنهار الاتحاد السوفيتي وسقطت الشيوعية وتجزأ هذا الاتحاد واستقلت عنه ١٥ جمهورية كان الروس قد أخضعوها لنفوذهم بالقوة منذ عام ١٩١٧ وبذلك أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية سيدة العالم التي تجلس على عرشه وتحرك أحداثه وفقاً لمصالحها، معلنة عن قيام ما أسمته بالنظام العالمي الجديد .

أبو ناصر وأبنائه وزوجته أجمل ترحيب، واستضافوا القبيلة التي كانت يصحبني ثلاثة أيام بلياليهن .

بقيت أنا وفاطمة في عمان أما نزار وصحبه فقد يموا وجوههم

شطر مصر و

وبدأت بالبحث عن عمل لي في إحدى كليات المجتمع، ولم تمض

بضعة أيام حتى هيا الله لي ولابنتي فاطمة فرصة العمل، حيث تعاقدت مع

الكلية الوطنية لتدريس اللغة العربية وآدابها ابتداءً من أيلول ١٩٩٠م

$\frac{1}{x} = x^{-1}$

[Faint handwritten notes at the bottom of the page]

$\frac{1}{x} = x^{-1}$

10. *Phragmites australis* (Cav.) Trin. ex Steud.

بعد خروجنا من الكويت أصبح وضعنا الأسري على النحو التالي:

أنا وفاطمة في الأردن، أم نزار وكامل في القاهرة ونزار وعائلته.



صاحب السيرة في السبعين من عمره

أما زياد فقد كان في ولاية أوهايو .

لم يبق في الكويت سوى جميلة بحكم زواجها من الدكتور عبد الله الذي أصبح مديراً للمستشفى مكافأة على صموده ومحافظة عليها .

لقد سلك الدكتور عبد الله منذ اجتياح العراقيين للكويت سلوكاً إنسانياً يليق بمهنة الطبيب . فقد كان يؤدي واجبه ويأمر العاملين معه بتأدية واجبهم تجاه كل من يأتي إلى المستشفى بغض النظر عن هويته، وقد أجرت محطة الـ CNN معه مقابلة تحدث فيها عن هذا الأمر فقال : "كنا في مستشفى الأحمدى نعالج كل من يفد إليه سواء كان كويتياً أو عراقياً أو من أية جنسية أخرى من الجنسيات المقيمة على أرض الكويت... وكانت هذه سياستنا قبل حرب عاصفة الصحراء وفي أثناء هذه الحرب .

وقد أقرت شركة البترول الوطنية بحق الدكتور عبد الله في بقاءه في منصبه بعد عودتها إلى الكويت .

في كل زيارة كنت أقوم بها للقاهرة كنت أحرص - قبل كل شيء - على الاتصال هاتفياً بالصدیق العزیز الدكتور کامل السوافیری لتحديد موعد التقیة فیة .

كان الدكتور کامل فی طلیعة الأصدقاء الأدياء الذین عرفتهم فی بداية الخمسینات، وأنا ما أزال على مقاعد الدراسة فی کلیة اللغة العربیة . وفی کل زیارة للقاهرة كنت أحرص على لقائه، فیهش للقائی ویبش، وأقضي معه من الأوقات أكثر مما أقضیه مع أي صديق آخر ممن ربطتني بهم وشائج الشعر والأدب .

وكانت لقاءاتنا فی الندوات الیومیة التي كان یحرص على عقدها فی مقهى غرناطة بمصر الجدیة - منذ أن أحیل إلى التقاعد - من أكثر اللقاءات إمتاعاً وموانسة .

كان یتحلق حول الدكتور کامل فی ندوته تلك كوكبة من كتاب مصر وشعرائها المعروفین فی طلیعتهم الدكتور عبد القادر القط وإبراهیم عبد الرحمن والدكتور رجاء عید وودیع فلسطين وأحمد عبد الوهاب وشوقي هیکل وعبد العزیز جاوید وعبد البدیع عراق وعلي هاشم رشید وأبو رغید وسواهم . ناهیک عن کان یوم القاهرة من کتاب العالم العربی وشعرائه وطلاب الدراسات العلیا الذین کان یمد إلیهم ید العون فی أبحاثهم وأطروحاتهم .

كان الدكتور کامل یرتبط بكثير من هؤلاء بأواصر الصداقة الوطیة التي رسخت جذورها على مر الأيام، وترکت آثارها الواضحة فی نشاطه الأدبی .

وفی العشرین من كانون الثاني سنة ١٩٩٢ قمت بزیارة القاهرة واتصلت کعادتی بمنزل الدكتور کامل السوافیری فأخبرتني کریمته الآسفة عفاف بأنه یرقد فی غرفة العنایة المركزة بمستشفى فلسطين بمصر الجدیة نتیجة لإصابته بنزيف فی المخ .

هزني الخبر من الأعماق، فبادرت بزیارته فإذا به مستلق على سريره لا ینس ببنت شفه، ولكن عینیه الذابلتین کائناً نقولان وبأفصح بیان "هذه هی النهایة یا أبا نزار" .

زرتة بعد ذلك عدة مرات دون أن یطراً على حالته أي تقدم . وفی الزیارة التي خصصتها لوداعه قبیل عودتي إلى عمان وجدته نائماً، فکتبت إلیه کلمة وداعیة دعوت له فیها بالشفاء . ولكنی لم أكد أصل إلى عمان حتی تنهای إلى مسمعی نبأ انتقاله إلى جوار ربه .

انضم الدكتور کامل إلى قائمة الأحبة الذین فُجِعَتْ بفقدهم خلال رحلتي فی هذه الحیاة الفانیة .

لقد أقل نجم هذا الأديب الکبیر والصديق الوفی بعد أن تلاً فی سماء الأدب العربی مدة لا تقل عن نصف قرن أثری فی خلالها المکتبة العربیة بعدد کبیر من الأبحاث والدراسات .

وقد حرص رحمه الله على أن یخلد ذکری فی عدد من کتبه التي أصدرها فی حیاته منها : الشعر العربی الحدیث فی مأساة فلسطين، والأدب العربی المعاصر فی فلسطين، والاتجاهات الفنیة فی الشعر الفلسطيني المعاصر .

وکان رحمه الله خیر سفير للأدب الفلسطيني فی القاهرة عاصمة الأدب العربی بدون منازع . کان بالإضافة إلى ذلك لا یضن على أحد من طلاب الدراسات العلیا من أبناء فلسطين یمد ید العون والمساعدة والتوجيه والإرشاد، وکان رحمه الله معتزاً بکرامته، لم یُسخر قلمه للإشادة بصاحب

سلطان، فعاش حياة متواضعة هي إلي الفاقة أقرب منها إلى الغنى، فلم ينتقل من شقته التي اتخذها سكناً له منذ تخرجه حتى لقي وجه ربه .

وقد غدت تلك الشقة البسيطة معلماً بارزاً من معالم مصر الجديدة عرفه كثيرون من كتاب العالم العربي وشعرائه ومفكره، فليس بينهم من يجهل المنزل رقم ٢٠ الواقع في شارع بطرس غالي بمصر الجديدة والذي تقع فيه تلك الشقة . وقد كرمت منظمة التحرير الدكتور كامل سنة ١٩٨٩، كما أكثر - رحمه الله - من زيارة الأردن في السنوات الأخيرة من حياته لأنه كان يتنصّب في هوائه عبير فلسطين .

في أوائل عام ١٩٩٠ عبر لي عن رغبته في زيارة الكويت فسعيت لدى مكتب فتح وأقنعت مديره الأستاذ سليم الزعنون باستضافته، فحضر إلى الكويت وأقام فيها مكرماً قرابة شهر احتفى به في خلاله أحابؤه ومريده احتفاءً يليق به وبمكانته بين أدباء فلسطين .

كانت أمنيته الكبرى أن تكتحل عيناه برؤية فلسطين، وأن يدفن جثمانه في ثراها المقدس الطهور، ولكنه قضى يرحمه الله في وقت وصلت فيه أمته إلى درجة من التردّي والانحدار لم تخطر ببال إنسان .

وإن أنس فلن أنسى تلك الكلمات الرقيقة المعبرة التي بعث بها إلي في رسالته التي يشكرني فيها على ما قمت به تجاهه من واجب الضيافة في أثناء حلوله ضيفاً علينا في الكويت .

يقول رحمه الله في تلك الرسالة المؤرخة في ١٦/٤/١٩٩٠ :
"صديق الصبا ورفيق الشباب وصفي النفس الشاعر المبدع والعالم الباحث الأخ الكريم الشهم المخلص الأستاذ الدكتور رجا سمرين حفظه الله ورحاه،،

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فإنني ليسعدني أن أتقدم إليك بأصدق آيات شكر وتقدير لما غمرتني به من مظاهر الحفاوة والتكريم وما حبوتني من مشاعر الأخوة والمحبة في غضون الفترة الباسمة التي

قضيتها في الكويت من الخامس من مارس ١٩٩٠ إلى السادس والعشرين منه، لقد جعلت للرحلة مذاقها الحلو وبسمة أيامها وبهجة لياليها . لقد طوّقت عنقي بأبيادك، وأسرتني بفضلك حين تفضلت مشكوراً بزيارتي لأول مرة في منزل ابن عمي المهندس عبد الفتاح في حولي صباح يوم السبت العاشر من مارس . وبعد خمسة أيام من وصولي إلى الكويت ومعك سيارتك الفخمة التي أقلتنا إلى كلية المعلمين في أول زيارة من زيارتنا للمعاهد الثقافية حيث التقينا لأول مرة بالدكتور يوسف نوفل والدكتور سعد مصلوح .

لقد كانت رحلتي إلى الكويت بصحبتك ضاحكة الأيام والساعات إذ ضحيت من أجلي بوقتك وصحتك وأبيت إلا أن تزيد في تكريمي، فتفضل أخوك الأستاذ غالب بإقامة مأدبة غداء فاخرة في الكويت بعد مأدبته الفاخرة في عمان، وتفضل نجلك المهندس نزار بدعوتي .

لقد أزلت وحشتي، وأطلعتني على معالم الكويت الحسية والفكرية، وكنت الشاعر الأديب الألمعي فيما أقيم لي من ندوات ومحاضرات وتحدثت فأحسنت الحديث فحيك الله وبارك فيك، وحيأ إخوتك وأبناءك وبناتك، وآل سمرين الكرام والأسرة التي نمّتك، وقالونيا التي أنبتك ورعت طفولتك وصباك .

إن بياني لعاجز عن صياغة عبارات الشكر لك... أرجو أن أسعد بقلبك بين أشجار وأزهار غرناطة التي افتقدناها في أثناء رحلة الكويت...
حيك الله يا أبا نزار وحيأ إخاءك ووفاءك .

وكل عام وأنتم بخير

ودم واسلم لأخيك المخلص

د. كامل السوافيري

لم يكن الدكتور كامل هو الصديق الوحيد الذي فجعتني الأيام بفقدته، لقد أكلت الغربة كثيراً من الأصدقاء وسقتني من كأس الحزن عليهم حتى

الثمالة وحسبي أن أشير إلى أسمائهم لأن الحديث عن علاقتي لكل منهم أمر يطول.

من هؤلاء : الأستاذ جميل عطية ناظر مدرسة الصديق المتوسطة للبنين، والأستاذ محمد عامر من مدرسي تلك المدرسة، والأستاذ أحمد زهران من أساتذة ثانوية الرميثة للبنين، والأساتذة : رشاد أبو عوف ومحمد ندا رجب ومحمود سلطان من موجهي قسم اللغة العربية في وزارة التربية في الكويت، والأستاذ محمود سعد الدين والأستاذ إبراهيم عابدين والشهيد علي ناصر ياسين مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت وغيرهم كثير .

لم تنقطع صلاتي بعائلة المرحوم صديقي الدكتور كامل السوافيري بعد وفاته، فقد رأيت أن واجب الوفاء لتلك الصداقة يقتضي مني أن أظل على اتصال بهم، ومن أجل ذلك فإنني أحرص على زيارة أرملة وولديها علاء وعفاف في كل مرة أتوجه فيها لزيارة القاهرة .

وقد علمت في زيارتي لهم في مارس سنة ١٩٩٤ أنهم قد باعوا مكتبته العامرة بنفائس الكتب والمراجع بالشروط التي تركها في وصيته، فقد أوصى - رحمه الله - ألا يبيعوها إلا إلى جامعة، أو هيئة علمية، أو أدبية تعرف قيمتها، وتنفيذاً لهذه الوصية فقد باعوها إلى جامعة غزة الإسلامية واشترطوا على الجامعة أن تطلق على الركن الذي توضع فيه اسم مكتبة الدكتور كامل السوافيري . أما الثمن الذي تفاضوه مقابل تلك المكتبة فلم يزد عن سبعة آلاف دولار أمريكي مع أنها تستحق أكثر من ذلك بكثير .

في تصوري أن روح الدكتور كامل السوافيري ستكون راضية عن هذه الصفقة لأن المستفيد الأكبر منها هم طلاب فلسطين الذين طالما دافع الدكتور كامل عنهم وعن شعبهم وبلادهم بقلمه الوفي الأمين .

لم يكن السفر إلى مصر، ولا إلى أية دولة عربية، منذ أن بدأت قصتي مع الترحال بالأمر السهل أو المريح، لقد اعتدت واعتاد كل مواطن عربي تضطره الظروف إلى السفر إلى أي بلد من بلدان وطنه العربي الكبير أن يجد نفسه متهماً لدى سلطات ذلك البلد حتى تثبت براءته .

كنت كلما وصلت إلى أي منفذ أود الولوج منه إلى داخل القطر المسافر إليه أجد نفسي موضع الاتهام . أنقرس في وجوه العاملين في المطار أو الميناء أو أية نقطة حدودية أخرى فلا أجد إلا وجوهاً متجهمة وسحناً مقلوبة وعيوناً مغممة بالشك والارتباب، وفظاظة في اللهجة لا تتم إلا عن الاستخفاف والازدراء .

وكنت كلما أسأل نفسي عن الأسباب أجد أن ليس هنالك غير سبب واحد هو تلك الخلافات التي لا تعدم أن تنشب بين الأنظمة العربية، أو الحكام العرب .

والضحية دائماً هو المواطن العربي البسيط، الذي ينسبه سوء المعاملة كل ما يجده من فائدة أو متعة بعد أن يظفر بالدخول إلى البلد المراد.

كنت قد ألفت ذلك في أسفاري الكثيرة حتى خيل إلي أن هذا اللون من المعاملة قد أصبح أمراً لا مفر منه، ولا محيص عنه حتى في البلد الذي أنتمي إليه وأحمل جنسيته . وقد أشرت إلى شيء من ذلك في بعض الفصول السابقة كما شرحت بالتفصيل ما لقيت من معاناة في رحلتي إلى الجزائر . إلا أن ما حدث لي عندما توجهت إلى القاهرة في ١٥/١/١٩٩٢ قد فاق أسوأ ما تصورته مخيلتي من احتمالات سوء المعاملة .

عزمت على قضاء العطلة التي تفصل بين الفصلين الأول والثاني من العام الدراسي ٩٢/٩١ في القاهرة مع زوجتي وولدي كامل الذين كانا يقيمان في مصر حتى ذلك الحين .

هبطنا في مطار القاهرة في الخامسة من مساء ذلك اليوم . وكالعادة وقفت في صف طويل انتظاراً للحصول على التأشيرة . وكانت أم نزار وكامل في انتظاري خارج المطار . حيث أنني كنت قد أخبرتهما هاتفياً بموعد الوصول . بعد أكثر من ساعة أمرني ضابط الجوازات - بعد أن ختم جواز سفري - بالاستراحة حتى يتم الكشف في الكمبيوتر لدى جهاز أمن الدولة الذي ترجع إليه الكلمة الأخيرة في مسألة السماح بدخولي مصر أو منعي منه .

في الثامنة مساء استدعاني أحد ضباط أمن الدولة وبدأ معي هذا الحوار :
- حضرتك كنت في العراق .

قلت : لقد كان آخر عهدي بالعراق هو يوم ١٠/٢٧/١٩٩٠ عندما خرجت عن طريقه قادماً من الكويت إلى الأردن ومعني أثاث منزلي الذي نقلته من الكويت إلى الأردن . ولم يكن هنالك من طريق آنذاك توصل بين البلدين غير العراق شأني في ذلك شأن مئات الآلاف من الذين غادروا الكويت من مختلف الجنسيات .

قال : لدينا قرار يمنع دخول أي إنسان يحمل جواز سفر مختوماً من قبل السلطات العراقية .

قلت : ولكنني سبق أن دخلت مصر ومعني هذا الجواز دون أن تمنعوني من ذلك !

قال : متى كان ذلك ؟

قلت : تفحص الجواز فستجد أنني جئت إلى مصر في ٢١/٦/١٩٩١ دون أن تعترضوا على ذلك .

قال بعد أن تفحص الجواز وشاهد الختم : صدقت لم يكن القرار الذي نطبقه اليوم قد صدر بعد .

قلت : ولكن ما تأثير ختم موجود على جواز سفر ساري المفعول - وقد وضع على ذلك الجواز في ظروف يعلمها العالم أجمع - على دخول صاحبه إلى مصر ؟!

قال : إنها أوامر يا دكتور .

قلت : أنا أعلم أن للقوانين وللقرارات روحاً . وأنها ليست مجرد كلمات وعبارات يعامل الناس بموجبها دون مراعاة لظروفهم وأحوالهم .

قال : لا داعي لهذا الجدل العقيم يا دكتور .

قلت : من حقي يا سيادة المقدم أن أجادل، فلقد ربط القدر بيني وبين مصر بروابط أبدية منذ أكثر من أربعة وأربعين عاماً، وإن حبي لمصر لا يقل عن حبك لها إن لم يكن يزيد .

قال : ما تلك الروابط التي تربطك بمصر التي تحبها كل هذا الحب الذي لا يسعنا إلا أن نشكرك عليه .

قلت : أنا لا أبتغي شكراً على حبي لمصر، أما الروابط فاعلم بأنني قد حصلت على شهادتي العليا كلها من مصر، وأن زوجتي مصرية، وقد شيدت في القاهرة منزلاً قبل أن أشيد مثله في عمان، وأن أربعة من أبنائي السبعة مولودون في القاهرة، وأن زوجتي وولدي الأصغر الذي يدرس في جامعة حلوان في انتظاري خارج المطار، فأني روابط أقوى من هذه تريد ؟!

قال : روابط عظيمة ولا شك، ولكنها لا تحول بيننا وبين منعك من الدخول، ولو كان في إمكاني أن أتغاضى عن جوازك المختوم بالختم العراقي لما منعتك من الدخول .

قلت : عجب أمركم ورب الكعبة، تعاملونني وكأنني قد خططت مع صدام حسين لغزو الكويت .

قال : لا داعي لمثل هذا الكلام يا دكتور، ستعود على الطائرة التي قدمت عليها وإذا شئت أن تأتي لزيارة مصر مرة أخرى فما عليك إلا أن تحصل

على جواز سفر جديد، لا يحمل على إحدى صفحاته ختم العراق . عند ذلك نرحب بك وستدخل مصر آمناً بسلام .

قلت : لقد دخلها بالأمس أكثر من ثلاثمائة يهودي ومئات غيرهم من الأمريكيين والأوروبيين بسلام آمنين، وكأني بالآية الكريمة التي تزين بوابة المطار الرئيسية والتي تقول : 'ادخلوا مصر إن شاء الله آمين' موجهة إلى هؤلاء وحسب، وأنها لا تعني بأي حال العرب أو المسلمين .

قال : أرجوك... لقد أفسحنا لك صدورنا أكثر مما ينبغي .

قلت : شكراً على سعة صدرك... ولكن قل لي بريك... أين سأقضي ليلتي؟

قال : في ضيافتنا بالردهة داخل هذا المبنى .

قلت : ولماذا تسمحون لي بقضائها في فندق المطار ؟

قال : آسف... لا نستطيع أن نسمح لك بذلك .

قلت : هل من اللائق أن تجبروا رجلاً في الثالثة والستين وله مثل مكانتي العلمية والاجتماعية أن يقضي الليلة جالساً على كرسي خشبي في ردهة مكاتب أمن الدولة بالمطار .

قال : إنها الأوامر يا دكتور، وأرجو أن تتحملنا، وهي ليست أكثر من ليلة ثم تنقضي .

قلت : ما دام الأمر كذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله .

بعد هذا الحوار احتفظ المقدم بجواز سفري، وقادني - بعد أن أرسل حملاً معي لإحضار حقيبتَي من صالة الأمتعة - إلى الردهة التي تفصل بين مكاتب أمن الدولة في مبنى المطار .

قضيت الليلة جالساً على الكرسي دون أن يغمض لي جفن، وفي نفسي ما فيها من الحقد على من أوصلونا إلى هذا الحد من الذلة والصغار . كان عدد الذين منعوا معي من الدخول إلى مصر في تلك الليلة أربعة عشر مسافراً بينهم خمسة من المغاربة وامرأة عراقية شاء لها حظها الأغبر أن تتزوج من مصري، وسبعة آخرون من جنسيات عربية مختلفة .

كنت كلما حضر إلى المكتب ضابط جديد أتعمد فتح حوار معه حول موضوع احتجازي وملابساته بقصد التأثير فيه وإفهامه أن مثل هذه المعاملة لا تكسب مصر ولا المصريين أية محبة أو احترام .

في الصباح عدت إلى عمان على الطائرة نفسها وفي ١٧/١/١٩٩٢ تقدمت بطلب إلى دائرة الجوازات للحصول على جواز سفر جديد بعد أن كتبت استدعاء ذكرت فيه قصتي مع مباحث أمن الدولة في مطار القاهرة .

حصلت على جواز سفري الجديد في ١٩/١/٩٢ وفي ٢٠/١/٩٢ عدت إلى القاهرة بعد أن اتصلت بنزار ليتخذ من الاجراءات ما يضمن دخولي إليها إذ لم أشأ أن أترك مسألة نجاحي في الدخول خاضعة للاحتتمالات .

هبطت من الطائرة وفوجئت عند وصولي البوابة الرئيسية بنزار ومعه ضابط من ضباط أمن الدولة . رحب بي نزار وصديقه الضابط وهنئاني بسلامة الوصول؛ ثم أخذ الضابط جواز سفري ولم يمس أكثر من ربع ساعة حتى كنت خارج المطار أعانق أم نزار وكامل اللذين كانا في انتظاري .

بعد انتقالنا إلى الشقة التي استأجرناها في شارع جعفر الحسني بالجبل الأخضر سارت بنا الحياة سيراً رتيباً لا يتغير... في كل يوم تذهب فاطمة إلى عملها في شركة دار الدواء في ناعور في السادسة صباحاً ولا تعود منها إلا بعد الخامسة مساء .

أما أنا فقد كنت انطلق إلى عملي في الكلية الوطنية في السابعة ولا أعود منها إلا بعد الثالثة من بعد الظهر . وكنت أعاني إلى حد كبير من مشكلة التنقل في وسائل المواصلات لقد كان علي أن أستخدم ثلاث سيارات على ثلاث مراحل في ذهابي إلى الكلية وفي عودتي منها .

وقد استمرت المعاناة منذ ارتباطي مع الكلية في العمل فيها منذ مطلع أكتوبر سنة ١٩٩٠ حتى نهاية يناير ١٩٩٣ .

وأخيراً شاء الله سبحانه أن يضع حداً لمعاناتي هذه فقرر ولدنا زياد - حفظه الله وأبقاه - أن يشتري لنا سيارة لأن الحياة في أيامنا هذه لا يمكن أن تسير في يسر وسهولة دون أن يكون لدى الأسرة سيارة تسهل تنقلاتها .

وهكذا قمت بشراء سيارة جديدة من طراز "دايو ريسر" موديل ١٩٩٣ في مطلع فبراير من هذا العام، وبدأت استخدمها في ذهابي إلى الكلية والعودة منها وسائر تنقلاتي الضرورية .

وكانت أم نزار وكامل يأتيان لقضاء العطل معنا في عمان منذ استقرارهما في القاهرة حتى نهاية عام ١٩٩٣ تقريباً .

بعد خروجنا من الكويت أصبح امتلاك الأسرة منزلاً خاصاً بها أمراً ملحاً لا غنى عنه

وقد استغرق بناء المنزل الذي بدأنا في حفر أساساته في ١٩٩٢/٦/٢٦ عاماً كاملاً، حيث انتهى العمل فيه في منتصف حزيران - يونيو - ١٩٩٣ م . وقد تولت عملية بنائه "مؤسسة بلدنا" التي يمتلكها المهندسان ناصر ورمزي سميرين ابنا الشقيق غالب .

وفي الثامن والعشرين من حزيران - يونيو - ١٩٩٣ م انتقلنا للإقامة في الطابق الأرضي من المنزل، .

والمنزل مؤلف من طابقين يتكون كل طابق من شقة مؤلفة من ثلاث غرف للنوم، وحمّامين ومطبخ وصالون كبير إضافة إلى طابق تسوية يستخدم كملجأ، وبناء منفرد كحانوت، وللمنزل شرفة واسعة تطل على الشارع العام يقع تحتها بئر ماء يتسع إلى نحو ١٧ متراً مكعباً من المياه التي تضخ بواسطة مضخة رافعة إلى الخزانات التي تعلو سقف الطابق الأول . وقد كفّل لنا ذلك عدم المعاناة من انقطاع الماء الذي يعاني منه كثير من سكان المدن . وللمنزل كذلك كراج مكشوف يتسع لسيارة واحدة، وغرف المنزل وحمّاماته مزودة بالتدفئة المركزية . وقد أنشأنا حوله حديقة تشتمل الآن على ثلاث دوالٍ من العنب الأبيض والأسود، وعلى شجرة دراق وشجرتي برفوق، وشجرة لوز واحدة، وشجرتي مشمش، وشجرتي تفاح، وشجرة ليمون . وقد كُسي سورهُ الأمامي بالياسمين، وأمام الشرفة الأمامية تنصب شجرة سرو وشجرة كولونيا .

وقد شعرنا بالراحة والاستقرار في هذا المنزل ولم يعد يعكر علينا صفو الإقامة فيه غير ضجيج السيارات الذي يستفحل يوماً بعد يوم .

في التاسعة من مساء ١٩٩٣/١١/١٧ انتقلت الشقيقة دلة إلى جوار ربها بعد معاناة شديدة من مرض السكري الذي كلفها بتر ساقها قبل وفاتها ببضعة أشهر . وفي السادسة والنصف من صبيحة اليوم

التالي ١٩٩٣/١١/١٨ فوجئنا بانتقال الشقيقة الصغرى "نعمه" إلى الرفيق الأعلى كذلك . وهكذا فإنه لم يفصل بين وفاة الشقيقتين إلا بضع ساعات .

وقد ضاعف موت الشقيقة نعمه من حزننا وألمنا . لقد كان موت دلة متوقعا في أية لحظة، بل إن معاناتها من المرض قد جعلت جميع المحيطين بها يدعون لها بإحدى الراحتين... الشفاء أو الموت . أما موت نعمه فقد كان مفاجأة للجميع ف سبحانه الذي يحيي ويميت، ويقرر الآجال، ويستوفي أماناته حين يشاء .

شيعنا الشقيقتين في جنازة واحدة إلى مقرهما الأخير في مقبرة سحاب . وتقبلنا العزاء في منزلنا الجديد مدة ثلاثة أيام بلياليهن .

بعد تشييع جنازة الفقيدتين العزيزتين - رحمهما الله - اتصلت بأم نزار وكامل اللذين كانا لا يزالان في القاهرة لأبلغهما بذلك .

وقبل مغيب يوم ١٩٩٣/١١/١٨ وصلت أم نزار ومعها نزار وكامل إلى عمان للمشاركة في تقبل العزاء .

استقر رأينا على ضرورة التنازل عن العائلة، وعدم بقائها موزعة بين القاهرة وعمان . وعزمنا على ألا نساغر إلى القاهرة بعد ذلك إلا للراحة والاستجمام، أو لتفقد منزلنا في الزيتون .

وتنفيذاً لهذه الخطة فقد ألحقنا "كامل" في الفصل الدراسي الثاني من عام ١٩٩٣ بقسم العلوم السياسية من كلية الاقتصاد في جامعة العلوم التطبيقية بناء على رغبته . وقد تكفل نزار بالإنفاق عليه حتى الانتهاء من دراسته .

وقد اختار كامل هذا القسم بمحض حريته، وأقبل على الدراسة والتحصيل بهمة ونشاط وبدأ يسجل تفوقاً ملحوظاً في دراسته، حيث كانت معدلاته الفصلية والتراكمية كلها تدور في دائرة الامتياز . وقد أنهى متطلبات البكالوريوس في هذه الجامعة في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات

ونصف حصل في نهايتها على درجة البكالوريوس في العلوم السياسية بتقدير ممتاز .

وقد التحق كامل بكلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية وواصل دراسته فيها من أجل الحصول على درجة الماجستير .

وقد نوقشت رسالته عن (مسيرة التسوية السياسية بين سلطة الحكم الذاتي وإسرائيل) بين عامي ١٩٩١ و ١٩٩٩ في ٢١/٥/٢٠٠٠م ونال بموجبها درجة الماجستير بتقدير جيد جداً.

التحقت ليلي بكلية العربية متخصصة في تربية الطفل، وسوف تنهي دراستها في هذه الكلية في صيف هذا العام (٢٠٠٤) إن شاء الله.

أما فاطمة فقد التحقت بقسم اللغة الإنجليزية من كلية الآداب بجامعة الزيتونة متخصصة في مجال الترجمة الفورية.

ولم يبقَ مطلوباً منها سوى الترتين وأربعين ساعة معتمدة من متطلبات التخرج تحصل بعد أن تنتهي من دراستها بنجاح على درجة البكالوريوس في مجال الترجمة الفورية إن شاء الله.

في ١٣/٩/١٩٩٣ فوجيء العالم بتوقيع إعلان المبايء بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية بشأن قيام حكم ذاتي في الأراضي المحتلة . وقد عرف هذا الاتفاق الذي جاء نتيجة لمفاوضات سرية بين المنظمة وإسرائيل باتفاق أوسلو رقم ١ .

كان الفلسطينيون يتفاوضون سراً في عاصمة الترويج بعد أن وصلت المفاوضات العربية الإسرائيلية المنبثقة عن مؤتمر مدريد إلى طريق مسدود .

وقد ذهل العالم عند رؤية ياسر عرفات وهو يصفاح اسحق رابين - محطم عظام شباب الانتفاضة ومذل العرب في حرب ١٩٦٧م - وزير خارجيته شمعون بيريز في حديقة البيت الأبيض وتحت رعاية سيد النظام العالمي الجديد الرئيس بل كلينتون .

وقد ظلت إسرائيل تماطل في تنفيذ بنود هذا الاتفاق ثمانية أشهر كاملة، ولم تبدأ بإعادة انتشار جيشها في قطاع غزة ومنطقة أريحا إلا بعد توقيع اتفاقية القاهرة حول الحكم الذاتي في ٤/٥/١٩٩٤ ذلك الاتفاق الذي سمح ببقاء المستوطنات اليهودية تحت الحماية العسكرية الإسرائيلية . وفي ١/٧/١٩٩٤ عاد عرفات وبطانته إلى غزة كرئيس لسلطة الحكم الذاتي الفلسطينية .

وفي ٢٦/١٠/١٩٩٤ تم توقيع معاهدة سلام بين الأردن وإسرائيل في وادي عربة، وقد حضر الرئيس كلينتون حفل التوقيع... وفي هذه الأثناء بدأت المفاوضات بين سوريا وإسرائيل ولكنها تعثرت نتيجة للتصلب في مواقف الطرفين المتفاوضين .

وفي ٢٨/٩/١٩٩٥ وقعت إسرائيل والنظمة اتفاقية لتوسيع سلطة الحكم الذاتي لتشمل معظم أراضي الضفة الغربية . كان المعارضون لاتفاق أوسلو يقولون : إن إسرائيل لن تعطي لعرفات سوى أريحا والقطاع ولكنهم بدأوا يرون أن عرفات سيبسط سلطته على الضفة الغربية بالتدريج باستثناء القدس والمستعمرات التي سيتم التباحث بشأن الوضع النهائي لها ولقضية اللاجئين في المرحلة الثانية والأخيرة من المفاوضات والتي ستبدأ في منتصف عام ١٩٩٦ .

ومهما يكن من أمر هذه الاتفاقيات التي سيسترد بموجبها الفلسطينيون الضفة الغربية والقطاع، وحتى لو أدى ذلك إلى قيام دولة فلسطينية، فإن ذلك لا يحجب تلك الحقيقة الصارخة التي تقول بأن الفلسطينيين بخاصة والعرب بعامه قد أقرروا بوجود إسرائيل، وبأنهم قد تنازلوا عن بقية فلسطين .

قد عشنا لكي نرى الزعماء العرب وهم يصفون اليهود بأنهم أبناء عمومة وشركاء، وبأننا وإياهم يجمعنا جد واحد هو إبراهيم .

لقد أصبح التنازل عن الحقوق شجاعة، ومصافحة الأعداء والاعتراف بما سرقوه من بلادنا سلاماً، والقبول بالمذلة والمهانة انصياعاً للشرعية الدولية، والسكوت عن المطالبة بالحقوق واقعية . والأدهى من ذلك كله أن الناس قد صاروا يترحمون على السادات وعلى غيره ممن كانوا يدعون إلى التفاهم مع اليهود .

لقد أصبح السادات بطلاً جاء في غير أوانه، وأن أمته المتخلفة احتاجت إلى ما يزيد عن عشر سنوات حتى تفهم ما دعا إليه وما تبناه من سياسات . فتأمل يا رعاك الله !!!

لقد صورت موقفي من اتفاقية أوسلو في قصيدة بعنوان "يا ذل الروح" . ولم تقبل أية صحيفة أو مجلة أردنية بنشر هذه القصيدة مما جعلني أكتشف أننا لا نزال نعيش في وهم كبير اسمه "الديمقراطية وحرية التعبير" .

في إسرائيل من عام ١٩٩٣م أصبحت عضواً في رابطة الكتاب الأردنيين، وفي فبراير من عام ١٩٩٤م حصلت على عضوية الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب .

في ١٩٩٤/٢/١٢ جرت الانتخابات لاختيار هيئة إدارية جديدة لرابطة الكتاب الأردنيين . وقد اختار الكتاب وعددهم ١٨٧ عضواً لجنة مؤلفة مني ومن العين حسني عايش، والنائب محمد داودية للإشراف على هذه الانتخابات .

وقد قامت اللجنة بواجبها خير قيام، وأسفرت الانتخابات عن فوز الروائي مؤنس الرزار برئاسة الرابطة، كما فاز بعضوية الهيئة الإدارية عشرة كتاب بينهم كاتبان .

ولم يُقدّر لهذه الهيئة ورئيسها أن ينهوا مدتهم، حيث قدّم الرئيس استقالته بعد أن عجز عن مواجهة التيار الداعي لتطبيع العلاقات الثقافية مع العدو، فأجريت انتخابات جديدة في إبريل ١٩٩٥م فاز فيها الكاتب إبراهيم العبسي برئاسة الرابطة .

في صيف عام ١٩٩٤ حضر زياد لزيارتنا، وبعد وصوله بأيام حضر نزار وعائلته إلى عمان، ومكثوا في ضيافتنا قرابة شهر نعمنا فيه بالتّام شمل العائلة، ورؤية الأحفاد الأعزاء .

قبل عودة زياد إلى أوهايو حصل عمه فرج الله على تأشيرة من السفارة الأمريكية في عمان تمهيداً لسفّره مع زياد والعمل معه في متجره في أوهايو بعد أن ضاقت به الدنيا في عمان .

بعد عودة زياد إلى أوهايو قرر وبدون إبداء الأسباب أن يُصعّي أعماله فيها والتوجه إلى ولاية تينسي ليفتج فيها متجرين، وانتقل معه عمه فرج الله إلى تلك الولاية .

في مطلع أغسطس عام ١٩٩٥م حضر زياد من أمريكا لقضاء شهر بين ظهرانينا، وبدأ يعاني من آلام في خاصرته اليمنى، وبعد إجراء التحاليل والفحوصات اللازمة والتقاط صور الأشعة تبين أنه يعاني من التهاب في المرارة .

أدخلنا زياداً مستشفى الحكمة الذي يعمل فيه ابن عمه الدكتور عماد في الزرقاء حيث أجريت له عملية إزالة المرارة وخرج زياد من تلك العملية سالماً معافى والحمد لله . وقبل عودة زياد إلى أمريكا - وعلى الرغم من أنه كان لا يزال في دور النقاهة - فقد قام بزيارة خاطفة لشقيقته جميلة في الكويت . وقد عاد زياد إلى عمان في ١٩٩٥/٨/٢٣ ليغادرها في صبيحة اليوم التالي إلى أمريكا مصحوباً برعاية الله وعنايته .

في ١٩٩٥/١٠/١٥ اتصل بنا زياد من ولاية تينسي ليخبرنا أنه يصعد تصفية أعماله فيها والعودة إلى أوهايو، بعد أن وجد متجره على شفا الإفلاس، وأن عمه فرج الله سيعود إلى الأردن في الأول من شهر نوفمبر ١٩٩٥م .

وقد تمكن الشقيق فرج الله من رحلته هذه إلى أمريكا والتي لم تستغرق سوى أربعة عشر شهراً من أن يحقق حلمه وحلم أسرته في الخلاص من الإقامة في مخيم الوحدات .

عاد فرج الله إلى عمان في اليوم الذي حدده زياد، بعد أن أمضى في أمريكا أربعة عشر شهراً عمل في خلالها مع زياد.

في ١٩٩٥/١١/٤م اغتيل رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين على يد مستوطن يهودي متعصب يدعى "إيجال عومير" حيث أطلق عليه ثلاث رصاصات وهو يشارك في تظاهرة مؤيدة للسلام في ميدان الملوك بتل أبيب .

وهكذا شاء الله لهذا المجرم أن يموت بالطريقة نفسها التي طالما استخدمها أو أمر باستخدامها للقضاء على حياة الآلاف من أبناء العروبة وأبناء فلسطين، فإلى النار وبئس القرار يا رابين .

في السادس من صبيحة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٩٥ أيقظني كامل وهو يقول : انهض يا ولدي فقد حدث زلزال كبير شمل كلا من مصر والأردن وفلسطين .

استيقظتُ فرعاً وأنا استعيز بالله من شر المفاجآت، وانطلق كامل ليتصل بوالدته التي كانت قد سافرت في ١٣/١١/١٩٩٥ إلى القاهرة لتفقد منزلنا في مصر فطمأنته بأن شيئاً لم يحدث لها أو للمنزل والحمد لله .

وفي العاشر من صبيحة هذا اليوم اتصلت بنا أمال زوجة ولدي نزار للطمئنان علينا فطمأنأناها بأننا جميعاً والحمد لله سالمون واتصلت كذلك فاطمة بأخيها وبوالدتها من مقر عملها في دار الدواء فاطمأنت عليهم وطمأنتهم .

مسكين ابن آدم... ما أقربه من الموت! إنه لا يفزع إلى الله إلا ساعة إحساسه بالخطر حتى إذا ما زال انغمس في الدنيا ومشاغلا وكان شيئاً لم يكن وصدق الله العظيم إذ يقول : "وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه الضر مراكباً لم يدعنا إلى ضره، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون" (١) .

وإذ يقول : "وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون" (٢) .

(١) الآية (١٢) سورة يونس.

(٢) الآية ٥٣ سورة النحل.

ما أشد غفلة الإنسان الذي لا يذكر ربه إلا عند الشدة حتى إذا نجا منها تناساها وتناساه وعاد إلى غيه وإشراكه وما أكثر الآيات التي صورت ذلك وما أعظم دلالاتها وأدق معانيها . يقول جل شأنه وهو أصدق القائلين : "ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يريهم يشركون" (١) ويقول : "وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا فقههم منه رحمة إذا فريق منهم يريهم يشركون" (٢) .

ويقول : "وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً . أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً . أم أمتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كرمتم ثم لا تجدوا لكم تبعاً" (٣) .

ويقول عز من قال : "قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل من ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أتم تشركون . قل هو القادر على أن يعث عليكم عذاباً من فوقكم أم من تحت أرجلكم أم بلبسكم شيعاً ويزيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون" (٤) .

ترى هل يفقه الناس ويعلمون أن هناك زلزالاً لا ينفع عند حدوثه الدعاء، زلزالاً حذرهم خالقهم منه ووصفه وصفاً تقشعر منه الأبدان حيث قال : "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما

(١) الآية ٥٤ سورة النحل.

(٢) الآية ٢٣ سورة الروم.

(٣) الآيات ٦٧ - ٦٩ من سورة الإسراء.

(٤) الآيات ٦٣ - ٦٥ من سورة الأنعام.

أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد" (١) .

ويقول وقوله الحق الذي لا مرأى فيه : "إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشقاء كيروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" (٢) .
أجل والله سوف يرى كل إنسان نتيجة عمله وإنها لجنةٌ أبداً أو نار أبداً . فلفظك اللهم وغفرانك، فأنت حسبنا ونعم الوكيل .

في ١٩٩٥/١٢/٨م لحقت بأم نزار التي كانت قد سافرت إلى القاهرة لتفقد المنزل، وفي اليوم الأول من يناير ١٩٩٦، وفي أثناء وجودنا في القاهرة انتقل صهري إسماعيل كامل إلى جوار ربه عن عمر يناهز السبعين . وقد قمت مع أم نزار بالمشاركة في تشييع جنازة أخيها ومواساة زوجته وبناته وأبنائه في مصابهم الأليم .

وفي هذه الزيارة نعى إليّ الأصدقاء صديقاً عزيزاً هو الشاعر الكبير المرحوم علي هاشم رشيد الذي انتقل إلى جوار ربه في ١٩٩٥/٧/٨ في مدينة غزة بعد عودته إليها بأسابيع قليلة .

وقد أبنته رحمه الله في مقال طويل نشرته في العدد الثالث من مجلة الشراع التي تصدر في العقبة . وبعد عودتنا إلى عمان حضر عدد كبير من الأصدقاء والأقارب لتعزيتنا بوفاة أخي أم نزار المرحوم إسماعيل كامل عبد المقصود .

(١) الآيات ١-٢ من سورة الحج.

(٢) سورة الزلزلة.

في ليلة الثالث عشر من يناير ١٩٩٦م، وبينما كان الشقيق فرج الله يشارك في الرقص ابتهاجاً بعقد قران صغرى بناته إذا به يسقط على الأرض . وقد سارعنا بنقله إلى أقرب مركز صحي في المنطقة، وهو مركز خليل الرحمن .

وبعد الكشف عليه من قبل الدكتور نادر الننتشه أوصى بتحويله إلى مستشفى الخالدي، فأسرعت ومعى كامل الذي قاد السيارة بأقصى سرعة غير عابئة بإشارات المرور إلى نقله لتلك المستشفى حيث تبين بعد الكشف عليه أن قلبه قد أصيب بجلطة حادة .

أوصلنا فرج الله إلى المستشفى في العاشرة والربع مساءً حيث أدخل إلى غرفة العناية المركزة .

بعد أن قام الطبيب المختص بأمراض القلب بالكشف على أبي إيهاب استدعاني واستدعى (الأخ غالب) الذي كان قد أسرع باللاحاق بنا في المستشفى كما استدعى ولده الأكبر (إيهاب)، وأبلغنا بأن الأمل ضعيف في إنقاذ المريض، لأن الجلطة التي داهمته قد تسببت في انسداد معظم الشرايين التي تصل القلب بالجسد . كما أن معظم الأحشاء الداخلية كالقلب والكبد والكليتين كانت قد توقفت عن أداء وظائفها .

أما الرئتان فقد امتلأتا بالماء . وكان فرج الله مدخناً شراً، لا يكاد يتوقف عن التدخين .

وكان قد التقطت لرئتيه قبل أربع سنوات صورة بالأشعة أظهرت أن الرئتين عبارة عن صفحتين سوداوين، لا تظهر فيهما أية خلية واحدة من خلاياهما بصورتها الطبيعية .

في الساعة الثالثة والربع فجرأ انتقل فرج الله إلى جوار ربه بعد أن فشل الأطباء في إنقاذه . ولا يعلم إلا الله وحده مدى ما أحدثته وفاة فرج الله في نفسي من ألم لا أستطيع وصفه .

وإن أنس فلن أنسى كثرة ما كنت أوجه إليه من نصائح تتعلق بإفراطه في الإقبال على التدخين . فقد كان رحمة الله لا يتورع عن تدخين أي نوع من أنواع السجائر المحلية أو الأجنبية، إضافة إلى تدخين السجائر والنارجلية والسجائر اللف التي كان يلجأ إليها عندما كان يعاني من ضائقة مالية . ولكنه وكغيره من المدخنين كان يضرب بكل تلك النصائح عرض الحائط... بل إنه في كثير من الأحيان كان يقابلها بالسخرية والاستهزاء. رحم الله الشقيق فرج الله وألهمنا عن فقده وفقد غيره من الأحبة الصبر والسلوان .

في أوائل حزيران يونيو ١٩٩٦ أحس العرب بالخطر المحدق بهم بعد أن اختار الإسرائيليون نتنياهو زعيم حزب الليكود رئيساً للوزراء ليحل محل زعيم حزب العمل شيمون بيريز . وقد اتفق الرئيس حسني مبارك والرئيس الأسد والأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية الذين عقدوا قمة ثلاثية في دمشق على الدعوة لمؤتمر عربي شامل تُستثنى منه العراق للنظر في إعادة التضامن الذي مزقته حرب الخليج . وقد كلف الرئيس مبارك بالدعوة إلى القمة .

وأخيراً حدثت المعجزة وعُقد مؤتمر القمة العربي الثاني والعشرون، وخرج بقرارات عديدة تهدف إلى إعادة التضامن والتصدي لتعنّت الحكومة الجديدة في إسرائيل، تلك الحكومة التي ترفض استئناف مباحثات السلام على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام، وإيقاف الاستيطان في الأراضي المحتلة، وتصر على بقاء القدس موحدة، وعاصمة لإسرائيل وحسب . الشيء الملموس الوحيد من انعقاد هذا المؤتمر هو تصفية الأجواء بين البلدان العربية .

والملاحظ أن الكويت ظلت على موقفها المتصلب فلم يلتق الشيخ سعد العبد الله ممثلها في المؤتمر بأي من ممثلي الدول التي تطلق عليها

الكويت اسم دول الضد، وعاد سعد العبد الله إلى بلاده دون أي تغيير في مواقفه.

في اعتقادي أن حظ قرارات هذا المؤتمر من التنفيذ لن تكون أفضل من حظ المؤتمرات التي سبقته . وإن غداً لناظره قريب، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

في ٢٥/٧/١٩٩٦م حضر زياد لزيارتنا بعد أن صفى أعماله في ولاية تينسي، وبعد أن أمضى في ولاية يوتا قرابة شهر مستطلعاً إمكانية إقامة مشروع له في تلك الولاية التي يُقال بأنها تكاد تخلو من الزوج وعصاباتهم.

كان أول شيء فعله زياد بعد وصوله إلى عمان هو زيارة ضريح عمه المرحوم فرج الله بصحبة ابن عمه ناصر سمرين وقراءة الفاتحة على روحه وروح عمته ذله ونعمه وسائر أموات المسلمين .

بعد أسبوعين من وصوله سافر إلى الكويت لزيارة شقيقته جميلة، وبعد أن قضى هناك اثني عشر يوماً عاد إلى عمان . وفي ٢٥/٨/١٩٩٦م غادرنا إلى أمريكا بحفظ الله ورعايته . وقد أوصانا قبل مغادرته بالبحث عن عروس مناسبة تقبل بالعيش معه في ديار الغربة .

في التاسع من أغسطس سافرت أم نزار إلى مصر لتكون في وداع زوجة نزار وأطفاله الذين سيسافرون إلى كندا في ١٣/٨/١٩٩٦ ولحقت فاطمة بوالدتها في ١٤/٨/١٩٩٦ لقضاء عطلتها السنوية هناك برفقتها ورفقة شقيقتها جميلة التي التحقت بهما في ١٧/٨/١٩٩٦ . وقد عادت أم نزار وفاطمة إلى عمان في ٦/٩/١٩٩٦ شاكيتين شدة معاناتهما من الحر الشديد في القاهرة في هذه الرحلة، وكانت جميلة قد عادت مع طفلها إلى الكويت قبل عودة أمها وشقيقتها بخمسة أيام .

في مطلع أيلول - سبتمبر ١٩٩٦ أرسل صدام حسين نحو خمسة وأربعين ألفاً من جنود الحرس الجمهوري تدعمهم أربعمائة دبابة إلى المنطقة الكردية في شمال العراق استجابة لاستغاثة تلقاها من مسعود البرزاني يطلب إليه أن يعينه في المعارك التي تدور بين مقاتلي حزيه المعروف بالحزب الديمقراطي الكردستاني ومقاتلي حزب الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يتزعمه جلال الطالباني المدعوم من إيران .

وقد تمكن جنود الجيش العراقي من السيطرة على مدينة أربيل وطرد قوات الطالباني منها ثم أعلن طارق عزيز أن القوات العراقية ستبدأ في الانسحاب من المنطقة الكردية بعد أن أتمت مهمتها .

وقد أزعج ذلك أمريكا وحلفاءها فانطلقت وسائل إعلامهم تنذر العراق بالويل والثبور وعظائم الأمور .

بعد يومين قامت الولايات المتحدة الأمريكية بأمر من رئيسها المافون "كلينتون" الذي وجد في هذا العمل فرصة لتحسين فرص إعادة انتخابه بالرد على ما فعله صدام، حيث أطلقت البحرية الأمريكية في يوم الثلاثاء الثالث من أيلول سبعة وعشرين صاروخاً على قواعد الدفاع الجوي في جنوب العراق من سفن أسطولها الخامس المرباط في الخليج، ثم أعقبت ذلك في اليوم التالي بإطلاق أربعة عشر صاروخاً آخر من طراز توماهوك.

وقد أعلنت أمريكا عن توسيع منطقة الحظر الجوي في الجنوب، لتصل إلى مسافة لا تبعد عن بغداد بأكثر من ثلاثين كيلومتراً .

ورداً على ذلك فقد بادر صدام حسين بإعلان عدم اعترافه بمنطقة الحظر الجوي في الشمال والجنوب، وأنها لم تعد قائمة، وأنذر بإطلاق النار على كل طائرة تخترق المجال الجوي العراقي .

بعد ثلاثة أيام تأكد انسحاب الجيش العراقي من الشمال، واستمر القتال بين الفصائل الكردية، ولم يأت اليوم العاشر من أيلول حتى دخل البرزاني مدينة السليمانية، ولجأ الطالباني وأنصاره إلى إيران . وبدأت

وسائل الدفاع الجوي العراقي تطلق النار على الطائرات الأمريكية التي تحلق في أجواء العراق .

وأعلن البرزاني وصدام عفواً عن الأكراد والمعارضين، وبدأ عدد كبير منهم في العودة إلى أربيل والسليمانية وغيرهما من المدن والقرى التي فروا منها في أثناء القتال .

تمكن صدام من هذه المغامرة من خلخلة التحالف العالمي ضده . فقد أعلنت روسيا وفرنسا والصين معارضتها للقصف الأمريكي للعراق، واستنكر معظم الدول العربية ذلك واعتبرته تدخلاً في الشؤون الداخلية للعراق .

حتى مجلس دول التعاون الخليجي أعرب في بيان مشترك عن ذلك وعن حرصه على وحدة الأراضي العراقية .

واستمرت أمريكا المتغطرسة في تهديدها للعراق، وأعلنت تركيا عن عزمها على إقامة حزام أمني عازل في شمال العراق لمنع هجمات ثوار حزب العمال الكردستاني على أراضيها واستنكرت دول العالم ذلك واعتبرته عملاً غير مشروع .

لست أدري إن كان صدام قد أجرى حساباته هذه المرة بدقة أم أنه ارتكب كعادته عملاً متهوراً لا يدري أحد ما عاقبته . أما أمريكا فلن يظامن من غطرستها ولن يقضي على صلفها وعجفقتها سوى الله . فغوثك اللهم ونصرتك، فما من مغيب أو ناصر للضعفاء سواك .

في ١٢/٩/١٩٩٦ توجهت برفقة أم نزار ولبلى إلى القاهرة وأمضينا فيها ثمانية عشر يوماً عدنا بعدها إلى عمان . وقد أنجزت في رحلتي هذه قسماً من الدراسة التي أقوم بإعدادها عن شعر صديقي المرحوم علي دمر .

وفي ١٤/١٠/١٩٩٦ منحتني السفارة الكندية في عمان ومنحت أم نزار تأشيرة سفر لزيارة كندا . وفي ٢٨/١٠/١٩٩٦ حجزنا مقعدين لنا على طائرة الخطوط الجوية الملكية الأردنية المتجهة إلى مونتريال في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس ٣١/١٠/١٩٩٦ م .

وصلنا إلى مطار مونتريال في منتصف الليل من يوم الجمعة تقريباً، وقد فوجئنا بالبرد الشديد الذي لم نعرف مثيلاً له في حياتنا . وقد قضينا بقية الليلة في أحد الفنادق في مونتريال . وفي الصباح أقلتنا طائرة كندية تابعة للخطوط الكندية الداخلية إلى هاليفاكس حيث وصلناها بعد ساعتين تقريباً، وكانت آمال وابنها محمد وابنتها آيات في انتظارنا . وفي غضون ساعة تقريباً توقفت بنا سيارة آمال أمام المنزل الذي كانت تقيم فيه مع أولادها .

كانت الثلوج تغطي كثيراً من المناطق في هاليفاكس، ولكن الشوارع كانت خالية من الثلوج التي لا تلبث الجرافات وشركات النظافة أن تزحيتها من جميع الشوارع الرئيسة منها والفرعية . أقمنا في هاليفاكس شهرين وعشرة أيام عدنا بعدها إلى عمان .

وفي أثناء إقامتنا فيها اتصل بي أحد المذيعين الفلسطينيين العاملين في القسم العربي من إذاعة هاليفاكس وأجرى معي مقابلة إذاعية استغرقت إذاعتها نصف ساعة .

وكنّت طوال مدة إقامتي أقوم بتوصيل أحفادي وحفيداتي من أبناء نزار إلى مدارسهم في الصباح وأعود بكل منهم منها عند الظهر . وقد أتممت هناك دراستي التي وضعتها عن شعر صديق العمر الشاعر السوري علي دمر .

وقد سافرت بعد عودتي من كندا إلى دمشق وسلمت نسختين من تلك الدراسة إلى الدكتور علي عقله عرسان رئيس اتحاد الأدباء العرب راجياً أن يقوم الاتحاد بنشرها . وقد صدرت هذه الدراسة فعلاً عن الاتحاد المذكور في أواخر عام ١٩٩٩ .

في ٢٨/١/١٩٩٨ سافرت برفقة أم نزار إلى مصر لقضاء عطلة عيد الفطر مع ولدنا نزار وعائلته .

وفي اليوم الثالث من أيام العيد قمنا برفقته ورفقة عائلته وحمويه بزيارة المدينة الإعلامية التي تعد معجزة حضارية من معجزات مصر في هذا القرن. إنها حقا هوليود الشرق، وقد أمضينا فيها يوماً كاملاً دون أن ندرك أبعادها كاملة . شاهدنا ونحن نتجول في أنحائها مباني تمثل جميع البيئات العمرانية والسكانية والاجتماعية القديمة منها والحديثة . وقد إلتقيت في رحلتي هذه عدداً كبيراً من الشعراء والشواعر وحضرت عدداً من أنشطة معرض القاهرة الدولي للكتاب . وفي الخامس والعشرين من فبراير عدنا إلى منزلنا في عمان .

في عام ١٤١٨ هـ الموافق ١٩٩٨م أدبت برفقة أم نزار فريضة الحج، كانت هذه هي المرة الأولى التي تؤدي فيها أم نزار هذه الفريضة العظيمة أما أنا فقد سبق أن أدبتها عام ١٩٦٣ ولهذا فقد قمت بتأديتها في هذه المرة عن ولدي الشهيد محمد طيب الله ثراه .

بعد أربعة وثلاثين عاماً من ابتعادي القسري عن فلسطين هياً لي الصديق الوفي الأستاذ الدكتور الشاعر عبد البديع عراق فرصة زيارتي لما تبقى من أرض فلسطين .

في ١٩٩٨/٥/٢٥ اتصل بي الدكتور عبد البديع هاتفياً يبشرني باستخراج تصريح يتيح لي فرصة زيارة الأراضي الخاضعة للسلطة الفلسطينية التي أنشئت بموجب اتفاقية أوسلو السيئة الذكر . وقد حددت يوم الخميس الموافق للثامن عشر من (حزيران - يونيو) ١٩٩٨ موعداً للبدء في تنفيذ تلك الزيارة . وفي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم وصلت إلى استراحة أريحا حيث كان الدكتور عبد البديع في انتظاري . ومن هناك صحبني إلى منزله العامر في قرية سنجل، مُصراً على أن أكون في ضيافته طوال المدة التي سوف تستغرقها زيارتي .

بعد يومين من استضافته لي أعلنت دائرة التوجيه السياسي الوطني التي يعمل فيها الدكتور عبد البديع عن تنظيم رحلة لزيارة بعض أرجاء الوطن المحتل الذي تسرب من أيدينا عام ١٩٤٨ .

قال الدكتور عبد البديع: ما رأيك يا دكتور رجا، هل لديك رغبة في المشاركة بهذه الرحلة ؟ قلت ضاحكاً وبدون تردد : أهذا سؤال يُطرح على مثلي وأنا العاشق الذي يتمنى أن يرى كل حجر من حجارة فلسطين، وكل ذرة تراب من ترابها الحبيب !؟

وانضمت برفقته إلى المشاركين في هذه الرحلة التي بلغ عددهم فيها أكثر من أربعين شخصاً ضمت مجموعة خيرة من العاملين في دائرة التوجيه السياسي الوطني وعائلاتهم .

كانت حكومة الكيان الصهيوني في تلك الفترة برئاسة بنيامين نيتياهو . ولم يكن هنالك مصادمات بين جيش الكيان وبين الفلسطينيين، فقد كانت سياسة نيتياهو في السنوات الثلاث التي تولى فيها رئاسة الوزارة تتمثل في تجميد جميع الاتفاقيات التي وقّعت بين الفلسطينيين وبين حكومته والحكومة التي سبقته وعدم الانسحاب من أية رقعة جديدة من الأراضي التي توجب تلك الاتفاقيات على الصهاينة أن ينسحبوا منها . وقد أتاح هذه السياسة للسكان في الضفة الغربية وفي الأراضي المحتلة التي يسيطر عليها الصهاينة منذ عام ١٩٤٨ أن يتنقلوا بسهولة في جميع أنحاء فلسطين .

في الثامنة من صباح يوم الأحد ١٩٩٨/٦/٢١ ركبنا حافلة سياحية تحمل رقماً إسرائيلياً ويقودها سائق فلسطيني متجهين إلى الأراضي المحتلة. تجاوزنا عدداً من الحواجز التي تُشوّه شوارع فلسطين . وكان أحد جنود العدو عند كل حاجز من تلك الحواجز يكتفي بالصعود إلى الحافلة وينفّس بسرعة في وجوه الركاب ثم لا يلبث أن يشير إلى السائق بمواصلة السير . وكانت حديقة رامات جان التي بلغناها في التاسعة صباحاً أول محطة لنا نستريح فيها حيث قضينا فيها قرابة ساعة تناولنا في أثناها وجبة الإفطار . ثم ولينا وجوهنا بعد ذلك شطر الساحل متجهين إلى الشمال مارين بمستعمرة هرتسليا التي شاهدنا فيها تمثال تيودور هيرتل منصوباً على الجانب الأيمن من الشارع على مقربة من خزان مياه ضخيم يمد المستعمرة بالمياه . وعلى بعد أمتار قليلة من ذلك التمثال البغيض رأينا القارب الذي استخدمته الشهيدة دلال المغربي وزملاؤها في عملياتها المشهورة التي قُتل فيها عدد

كبير من جنود العدو وأدت إلى استشهاده واستشهاد رفاقها . بعد ذلك وقبل أن نصل إلى مدينة حيفا مررنا بعدد من المستعمرات من أشهرها مستعمرة الخضير . ولم نتمكن من التوقف في حيفا لأن السلطات الصهيونية لا تسمح بذلك . شاهدنا سلسلة جبال الكرمل وجامعة حيفا المشيدة فوق قمة أحد جبال هذه السلسلة الشاهقة .

وفي الواحدة والنصف حططنا رحالنا في مدينة عكا التي قضينا فيها نحو ثلاث ساعات تمشينا في خلالها بأسواقها القديمة التي ذكرتني بباب خان الزيت في القدس ويسوق الحميدية في دمشق وبشارع الموسكي والغورية في مدينة القاهرة .

وقد ركبنا سفينة تجولت بنا في خليج عكا نحو نصف ساعة أدينا بعدها صلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً في مسجد الجزائر التاريخي . وقد شاهدنا ما تبقى من أسوار المدينة، كما شاهدنا سجنها الكبير الذي طالما رج فيه الإنجليز بآلاف الأحرار من أبناء شعبنا في ثوراتهم المتعددة إبان الإنتداب الذي كان همه الأول تهيئة الأجواء المناسبة لزرع هذا الكيان السرطاني الصهيوني في فلسطين .

أواه يا عكا كيف لم تستعص أسوارك على شذاذ الأفاق مثلما استعصت على جيوش نابليون ؟!

في الرابعة والنصف غادرنا عكا إلى قيسارية حيث أخذنا قسطاً من الراحة فوق رمال شاطئها الجميل . وقد واصلنا السير نحو يافا مارين بتل أبيب التي شاهدنا فيها أعلى بناية في الكيان الصهيوني، وهي مؤلفة من خمسين طابقاً . وعلى شاطئ يافا قضينا أكثر من أربع ساعات تناولنا في خلالها طعام الغداء المكون من اللحم المشوي .

التقطنا كثيراً من الصور التذكارية تخليداً لذكرى هذه الزيارة لربوع وطننا السليب . شاهدنا في يافا جامع حسن بك ومنازل يافا القديمة التي يرفض الصهاينة أي ترميم أو تجديد لأي منزل من منازلها .

في التاسعة مساءً شددنا الرحال عائدين إلى مدينة البيرة، وهي النقطة التي بدأنا منها، وقد بلغناها في العاشرة والنصف مساءً . أما سنجل فقد وصلنا إليها في الحادية عشرة وبضع دقائق . وقد اكتمل سرورنا بفوز المنتخب الإيراني على منتخب الشيطان الأكبر أمريكا في المباراة التي جمعت بينهما ضمن مسابقات كأس العالم في فرنسا .

في ١٩٩٨/٦/٢٢ تناولنا طعام الغداء على مائدة ابن العم حمدي مطر عضو المجلس الوطني والمقيم في منزل أبناء العم المرحوم عبد الله محمد في رام الله .

وفي ١٩٩٨/٦/٢٣ صحبني الدكتور عبد البديع وبرفقتنا عمه السيد حسن سعد عراق عضو المجلس الوطني الذي يمثل المغتربين الفلسطينيين في البرازيل في زيارة لمدينة قلقيلية. وقد عرّجنا في زيارتنا هذه على دار المحافظة للسلام على محافظ قلقيلية السيد مصطفى المالكي (أبو أيمن) وقد أصر على دعوتنا لتناول الغداء . ولم نستطع التخلص من دعوته الكريمة تلك . وقد قمنا بجولة قصيرة في بعض شوارع المدينة ومحلاتها التجارية قبل عودتنا إلى سنجل .

وفي ١٩٩٨/٦/٢٤ تناولنا ومعا ابن العم حمدي مطر طعام الغداء على مائدة السيد أنور الشايب (أبو عبد الله) وهو من أكثر الأصدقاء التصاقاً بولدنا زياد المقيم في ولاية أوهايو في أمريكا . ويمتاز السيد أنور الشايب بسعة الثقافة وحبه الكبير للشعر وبخفة الظل التي تجعل منه خير جليس، ومما يزيده خفة ظل إصراره على التحدث باللهجة الريفية الفلسطينية المحببة على الرغم من طول اغترابه في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم يشأ أبو عبد الله أن يودعنا قبل أن نعهده بأننا سنلبي دعوته في أي وقت يريده بعد هذه الدعوة فوعدهنا بذلك . وفي عصر ذلك اليوم قمنا بزيارة ابن العم عطا مصطفى رمضان في منزله برام الله .

في يوم الخميس الخامس والعشرين من حزيران - يونيو ١٩٩٨ من الله علينا بلحظات ممتعة من عمرنا هيّا لنا فيها فرصة زيارة بيت المقدس .

لم يكن مسموحاً لأي فلسطيني لا يحمل هوية تثبت أنه من سكان القدس بتجاوز حاجز الرام، وللتغلب على هذه المشكلة كان عليّ وعلى الدكتور عبد البديع أن نلجأ إلى أسلوب خداع أولئك الجنود الذين يقفون عند الحاجز كالخنازير البرية .

وكان ذلك الأسلوب على درجة كبيرة من البساطة حيث أنه لم يتطلب منا سوى التوجه إلى مكتب بريد الرام الذي يفصل بين حدود بلدية القدس الكبرى وحدود المنطقة التابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية . وتخطى الحاجز الحديدي الذي لا يزيد ارتفاعه عن متر واحد يصبح من يخطاه ضمن حدود بلدية القدس .

بعد أن قفزنا عن الحاجز الحديدي سرنا نحو مائة متر في اتجاه القدس حيث كان ينتظرنا السيد أبو ناصر أبو غربية في سيارته التي أوصلتنا إلى باب الأسباط ... ألمني منظر أسوار القدس التي بدت عليها علامات الشيخوخة والهرم بسبب عوامل التعرية، وفي مقدمتها محاولات العدو التي لا تنتهي لتعريضها من عربيتها وإسلامها . لقد خيل إلي أن حجارة أسوار القدس تشعر بالحزن أكثر مما يشعر به أي عربي من أولئك الذين قد تحولوا إلى مجرد متفرجين على مأساتها .

لم أكد أصدق أنني قد وصلت فعلاً إلى ساحة الصخرة المشرفة والحرم الشريف . التقطنا بعض الصور أمام مسجد الصخرة، وصلينا الظهر في الحرم الشريف، والتقطنا بعض الصور عند الميضأ المعروفة بالكأس، والتي ما زالت على ما كانت عليه منذ أن عرفتُها وأنا فتى حديث السن لم يكن يخطر له على بال أن وصوله إليها سيصبح في يوم ما أقرب ما يكون إلى المستحيل .

زرنا المسجد المرواني الذي اكتشفته إدارة الأوقاف حديثاً . العمارة في هذا المسجد شيء مبهّر . جدرانها مبنية بحجارة تفوق حجارة الأهرام في الضخامة وأعمدته التي تحمل سقفه المشيد على الطريقة الجملونية (أقواس) لا تقبل في روعتها وإتقانها عن أعمدة الكرنك في مدينة الأقصر . أما مساحة المسجد فهي أكبر من مساحة المسجد الأقصى بكثير .

مما قيل عن هذا المسجد أنه كان اسطبلًا لخيول صلاح الدين . أما وقد أدركت إدارة الأوقاف المقدسية أن العرب والمسلمين قد طلقوا الفروسية ولوازمها طلاقاً لا رجعة عنه فإنها لم تتردد في تحويله إلى مسجد، وحسناً فعلت .

التساجون العرب تبرعوا بكسوة أرضية هذا المسجد بالسجاد الذي تنتجه مصانعهم جزاهم الله كل خير .

أدينا في هذا المسجد ركعتين تحية له، وصلينا العصر في مسجد الصخرة المشرفة، وزرنا المغارة الصغيرة التي تقع تحت الصخرة التي تشرفت بوقوف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عليها عندما عرج إلى السماء .

التقطنا المزيد من الصور التذكارية ثم غادرنا ساحة الأقصى من (باب محمد) عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . والتقطنا بعض الصور في سوق القطانين، وأمام دار الأيتام الإسلامية، وفي باب خان الزيت . وقد شاهدت لأول مرة في حياتي السيارات وهي تسير في هذا السوق الذي لم تسر فيه سيارة قبل أن تدنس أقدام الصهاينة المحتلين .

تناولنا طعام الغداء في مطعم العائلات في هذا السوق ثم خرجنا من باب العامود متجهين إلى رام الله .

المعالم الخارجية لساحة باب العامود قد تغيرت لم تعد سهلة منبسطة متصلة بالشارع العام بصورة مباشرة كما كانت ... إنها الآن سلام

حجرية متدرجة تعيق أكثر أطفال الحجارة الذين تسول لهم نفوسهم رجم جنود العدو بالحجارة، كما تمكن هؤلاء الجنود من ملاحقتهم بصورة أفضل.

السبت ١٩٩٨/٦/٢٧

زرنا السيد محمد وفيق عبد اللطيف (أبو نضال) وهو الذي عرفناه والسيدة حرمه في حنا إلى الأراضي المقدسة وقد زرناه في مطبعة الشرق التي يملكها مع إخوته رفيق ويعقوب و خليل، وتقع في الشارع الرئيسي لقرية شعفاط بالقرب من محطة أبو جينة . وقد أهدانا أخوه أبو خليل كتاباً من مجلدين أصدره أديب فلسطيني من أدباء الجليل وهو عبارة عن معجم للأدباء العرب وقد فوجئت مع الدكتور عبد البديع بورود اسمينا ضمن من ترجم لهم الأديب المذكور من الأدباء. وفي هذا اليوم قمنا بزيارة الدكتور أحمد صبح في وزارة التخطيط والتعاون الدولي وقد رافقنا في هذه الزيارة السيد حسن سعد عراق .

الأحد ١٩٩٨/٦/٢٨

تناولنا طعام الغداء على مائدة ابن العم عمر محمد أمين عبد الله وقد سررت بمشاهدة أبنائه وبناته وزوجته ووالدته وشاهدنا معاً شريطاً عن حفل الذكرى الخمسين لاغتصاب قالونيا والذي أقامته جمعية قالونيا الخيرية التي كان الفضل الأكبر في إنشائها راجعاً إلى جهود ابن العم السيد حمدي مطر . جزاه الله عن قالونيا وأهلها أفضل الجزاء .

الاثنين ١٩٩٨/٦/٢٩

زرنا السيد أحمد نافع المدير في وزارة الأوقاف ثم توجهنا بعد ذلك إلى بيت الشعر والتقىنا بالشاعر الأستاذ المتوكل طه والشعراء رفيق عوض ويوسف المحمود .

الثلاثاء ١٩٩٨/٦/٣٠

قابلنا اليوم الأستاذ الروائي يحيى يخلف وكيل وزارة الثقافة، وقد رحب بنا ترحيباً حاراً ووعدني بالمساعدة في الحصول على رقم وطني يتيح لي البقاء في فلسطين كما وعدني باستيراد ما تبقى من ديواني ومن كتابي عن شعر المرأة العربية المعاصرة لحساب الوزارة . وقد وقعت معه عقداً بهذا الشأن، وقد قام بإبرام العقد الأستاذ أحمد غبن من لفناً وهو المسؤول عن مثل هذه الأمور .

وقد زرت الشاعر علي الخليلي في مكتبه، وتقابلت بالصدفة مع الأستاذ وليد أبو بكر الذي فوجيء برؤيتي في المصعد، ورحب بي بحرارة وأعطانني بطاقته وألح علي بضرورة الاتصال به ليقوم بالواجب فوعدته بذلك ولكن ضيق الوقت لم يمكنني من الاتصال به بعد ذلك .

وفي هذا اليوم لبينا دعوة الفنان الفلسطيني المطرب نائل حلتم وكان برافتنا على مائدة الغداء التي أقامها لنا الصديقان الشاعران شهاب محمد ورحي محمود . وفي المساء شهدنا حفل السمر التراثي الذي أقامته جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني والذي أشرفت على التحضير له الشاعرة نهى قسيس . وكان طبق المجثرة الفلسطينية هو الطبق الرئيس الذي قدم للمدعوين في هذا الحفل .

الأربعاء ١٩٩٨/٧/١

قدمنا الطلب الخاص بالرقم الوطني إلى الأستاذ يحيى يخلف ليرفعه إلى أبي عمار، كما أتمنا معاملة استيراد الكتاب والديوان لدى الأستاذ أحمد غبن الذي وعدني بمتابعة الموضوع وإرسال (١٨٣٥) دولار وهي قيمة الكتب التي بأسرع وقت ممكن . وها قد مضى على تسلمهم للكتب ما يقرب من ست سنوات دون أن يصلني دولار واحد من ثمن هذه الكتب التي تتألف من (٢٣٥) نسخة من كتاب شعر المرأة وأربعمئة نسخة من الديوان . فهل

هنالك دليل أكثر من ذلك على الفساد الذي ينخر في مؤسسات السلطة ونفوس القائمين عليها .

لقد أرسلت رسائل شفوية مع عدد من الذين زاروا أراضي السلطة وقابلوا يحيى يخلف تذكره بهذا الموضوع، كما أنني قابلته في عمان مرتين وسألته عما تم بهذا الشأن .
فكان في كل مرة يعدني خيراً، ويقول بأنه لم ينس الأمر، وبأن حقي لن يضيع !!!

الخميس ١٩٩٨/٧/٢

في هذا اليوم زرنا الشاعرة أنيسة درويش من المالحة وأمضينا معها أكثر من ساعتين . وقد استقبلتنا زوجها استقبالاً حاراً وأهدتني جميع دواوينها الشعرية وديواني أختها الشاعرة وداد . وقد أوصلنا زوجها بسيارته إلى موقف باصات سنجل بالقرب من مسجد جمال عبد الناصر .

الجمعة ١٩٩٨/٧/٣

لبينا دعوة الشاعرة حنان عواد لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم الفاخرة في رام الله، وقد أهدتني بعض مؤلفاتها ونماذج من شعرها .

السبت ١٩٩٨/٧/٤

زرت برفقة الدكتور عبد البديع جامعة النجاح في نابلس والتقيت فيها الدكتور يحيى جبر عضو مجمع اللغة العربية الفلسطيني والأساذ بالجامعة المذكورة . وقد تعرفت إلى الدكتور عادل الأسطى والدكتور عادل العمشة وعميد كلية الآداب الدكتور خليل عودة .

بعد تناول طعام الغداء في مطعم السيلوي زرنا الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان في منزلها بضاحية رفيديا، وقد استقبلتنا استقبالاً حاراً، ورحبت بنا أجمل ترحيب . وقد أهدتني أعمالها الشعرية الكاملة كما أهديتها بالمقابل كتاب (شعر المرأة العربية المعاصرة) الذي استشهدت في معظم

أبوابه بالعديد من قصائدها . وقد أهديتها كذلك ديواني الموسوم بـ (ديوان الدكتور رجا سمرين) .

وقد التقطنا معها بعض الصور التذكارية وودعناها متمنين لها الصحة والعافية والعمر المديد .
ولم تغادر نابلس قبل أن نتناول الكنافة النابلسية في (حلويات دمشق) والتقاط بعض الصور التذكارية في شوارع نابلس الجميلة .

بعد وصولنا إلى سنجل وفي الساعة والنصف تماماً اتصل بنا السيد أنور الشايب (أبو عبد الله) وأصر على دعوتنا لتناول طعام الغداء في منزله برام الله في اليوم التالي . ولم نستطع التملص من هذه الدعوة الكريمة حيث قمنا بتليبيتها . وقد أمضينا ساعات ممتعة في ضيافته وكان الحديث ذا شجون شمل السياسة والأدب والاجتماع، وسائر شؤون الحياة . وقد قمنا بجولة في الحديقة المحيطة بمنزل أبي عبد الله الذي يشبه القلعة الحصينة وقطفنا بعض الثمار من أشجارها اللوزية التي ما زالت في بدايات نضجها .

الإثنين ١٩٩٨/٧/٦

قمت ومعى الدكتور عبد البديع وابن العم حمدي مطر بزيارة السيد إسماعيل طاهر عطية ملبن دعوته لتناول طعام الغداء، والسيد إسماعيل هذا من أبناء قريتنا العزيزة قالونيا وهو أحد أعضاء الهيئة الإدارية في جمعية قالونيا الخيرية .

وقد التقطنا معه بعض الصور التذكارية التي تخلد هذه الزيارة .

الأربعاء ١٩٩٨/٧/٨

في هذا اليوم قمنا بزيارة مدينة بيت لحم، وقد تناولنا طعام الغداء على مأدبة السيد عبد الله حجازي (أبو كرم) وكيل وزارة السياحة المساعد، وقد زرنا كنيسة المهد والتقطنا في داخلها بعض الصور التذكارية، ثم تجولنا في سوق التحف القريب من الكنيسة، وقمت بشراء مجسم للصخرة

المشرفة مصنوع من الصدف وثلاثة جمال مصنوعة من الخشب مختلفة الأحجام . وقد أدينا صلاتي الظهر والعصر جمعاً وقصراً في مسجد عمر بن الخطاب القريب من كنيسة المهدي والذي أنشئ عام ١٩٥٧ .

كان الطريق الذي سلكناه من سنجل إلى بيت لحم طريقاً طويلاً يسمى طريق وادي النار، وهو طريق متعب لا يقل طوله عن ستين كيلو متراً، وهو من أخطر الطرق التي تسلكها السيارات في الضفة الغربية . وقد شقه اليهود ليمنعوا الفلسطينيين من دخول القدس واستخدام طريق القدس - بيت لحم القديم .

الخميس ١٩٩٨/٧/٩

في هذا اليوم عزمنا على زيارة قالونيا مهما كانت العواقب وقد استأجرت والدكتور عبد البديع سيارة تاكسي يقودها سائق من أبناء القدس... كنت أتمنى لو أننا نسلك طريق شارع مامن الله الذي يخترق محنات يهودا لنصل إلى لفنا الملاصقة لها حتى أتمكن من مشاهدة مدرسة لفنا الابتدائية التي قضيت من عمري فيها أربع سنوات دراسية، ولكن السائق لم ينصحنا بذلك، فسلك طريقاً آخر يمر من أسفل الجزء القديم من قرية لفنا، وقد فوجئت بعد ذلك بقليل بوصولنا إلى مستعمرة موتسا... وطلبت إلى السائق أن يقف عند أول طريق البزونيا وهي الطريق التي تؤدي إلى سفح الجبل الذي كانت تقوم فوقه قريتي قالونيا .

ما هذا ؟! لا ليست هذه هي قالونيا التي أعرفها لم يبق من معالمها المحفورة في ذاكرتي شيء . لقد غير الخنازير معالم المنطقة كلها . المستعمرات تمتد في كل اتجاه كأذرع الأخطبوط... لم يبق على حاله إلا قرية بيت إكسا . موتسا وآرزا تضخمتا كثيراً... جبل الزحيلة الذي كنا نملك منه سبعة عشر دونماً أصبح غابة حרשية، أراضي الجفير والقرنة والتعامير التي كنا نملك منها واحداً وستين دونماً شيدت فوقها مستعمرة

كبيرة تدعى (مفا سيرييت بروشلايم) يقطنها أكثر من عشرة آلاف نسمة من شذاذ الأفاق .

القرية نفسها ليس لها أي أثر... الأرض التي كانت تقوم عليها مهمة مغطاة بالأعشاب والأشواك التي لا تمكن أحداً من سكانها من معرفة الأساسات التي كان يقوم فوقها منزله . حتى الوادي الكبير لم يعد هو الوادي الذي نعرفه.. الوادي مكسو بالخضرة ولم يعد وادياً... كيف ؟ لا أدري. حتى المقبرة الواقعة إلى الجنوب على طريق القدس - يافا تلاشت . تمنيت لو أنني لم أقم بزيارة قالونيا حتى لا تزاحم صورتها البائسة الحالية تلك الصورة الجميلة التي أحتفظ بها لها في ذاكرتي .

واصلنا مسيرتنا بعد ذلك عائدين إلى سنجل عن طريق باب الواد... ما هذا أين ذهبت الغابات التي كانت تغطي جانبي باب الواد... لقد أحرقها الخنازير بعد أن عانوا منها ومن الثوار الفلسطينيين الكثير في المصادمات التي سبقت نكبة عام ١٩٤٨ .

محطة بنزين قطينة ما زالت على ما كانت عليه . دير أيوب هدمت كما هدمت قالونيا .

وصلنا إلى سنجل عن طريق عمواس - رام الله بعد أن التقطنا كثيراً من الصور عند قالونيا وفي طريق عمواس .

لم أعد أحتمل البقاء في الضفة بعد الذي رأيته في قالونيا، وقررت العودة إلى عمان في الليلة نفسها والحسرة تملأ قلبي . ودعت الدكتور عبد البديع وآله شاكراتاً لهم كرم الضيافة ويممت وجهي شطر عمان التي بلغت في العاشرة مساءً. ولم يخف من ألمي ومتاعبي سوى وجود نزار وأولاده فالحمد لله أولاً وآخراً .

لم يشأ عام ٢٠٠٠ أن ينقضي دون أن يضيف إلى أحزاننا المتركمة حزناً جديداً . فقد انتقلت الشقيقة امدش إلى رحمته تعالى في

مستشفى البشير في الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة من يوم الإثنين العاشر من رجب عام ١٤٢١ هـ الموافق للتاسع من أكتوبر عام ٢٠٠٠ .
وذلك عن عمر يناهز الرابعة والثمانين . كانت امد الله - رحمها الله - هي الشقيقة الكبرى لي وهي أول من قدر له أن يعيش من الأبناء والبنات الذين أنجبهم والدائي .

إن ما أذكره عنها كشقيقة كانت تعيش في منزلنا قبل أن تتزوج أشبه ما يكون بالخيال، فقد كنت عندما تزوجت صبيّاً أصغر من أن تحتفظ ذاكرته بشيء عن شقيقته الكبرى التي لم تلبث أن فارقت منزلها الذي كانت تعيش فيه.

في أوائل يناير من عام ٢٠٠٠ حضر زياد لزيارتنا من أمريكا . وبعد حضوره بأيام تمكنا من التعرف على أسرة مقدسية من آل غنيم فقمنا بخطبة ابنتهم حنان رياض غنيم لولدنا زياد واحتفلنا بهذه الخطبة في حفل بهيج في مطعم القلعة بعمان عاد بعده زياد إلى أمريكا .
وفي أوائل يوليو من عام ٢٠٠٠ عاد زياد إلى عمان وأتممنا مراسم زفافه في السابع والعشرين من يوليو من ذلك العام وقد تم ذلك في حفل بهيج أقمناه في قاعة جبيري في عمان وقد حضره ما لا يقل عن ثلاثمائة من المدعوين .

وحتى كتابة هذه السطور التي أخطها في يناير من عام ٢٠٠٤ رزق زياد والحمد لله بطفلتين جميلتين من زوجته حنان هما ميلودي وناتالي . وقد تحققت لي ولأم نزار أمنية غالية من أمانينا بإنجاب هاتين الطفلتين وهي رؤية أحفاد لنا من زياد قبل أن نودع الحياة .

وقد بقيت أمنية غالية أخرى نسأل الله أن يمن بها علينا وهي أن نرى لنا بعض الأحفاد من ولدنا كامل . ولكي نهيب الأجراء لتحقيق ذلك فقد قمنا وبفضل جهود ولدنا نزار في أثناء زيارتنا للكويت عام ٢٠٠٢ بطلب يد فتاة لكامل هي الأنسة لنا كريمة السيد شوكت سليمان وهو من قرية بيت دجن الواقعة في منطقة نابلس .

وخطيبة كامل تشاركه في صفة وهي كونها مولودة لأب فلسطيني وأم مصرية . وقد تخرجت من الجامعة الأمريكية في القاهرة متخصصة في الإقتصاد والمحاسبة .

وقد تكفل والدها - وهو من رجال الأعمال المعروفين في الكويت، ومن أصدقاء نزار المقربين - بإقامة حفل بهيج لخطبة ابنته الوحيدة في التاسع من مايو عام ٢٠٠٢ وذلك في القاعة الكبرى في فندق شيراتون الكويت .

وفي زيارتنا التالية للكويت عام ٢٠٠٣ قمنا بالاحتفال بزفاف ولدنا كامل على عروسه لنا في السادس من مارس عام ٢٠٠٣ . وقد أقمنا الحفل في قاعة الجوهرة وهي على شكل سفينة تابعة لفندق راديسون ساس في منطقة البدع بالسالمية . وقد ضم الحفل أكثر من ثلاثمائة من المدعوين الذين يمثلون النخبة من أبناء الأردن والكويت وفلسطين ومصر وسوريا ولبنان .

كنا في سباق مع الزمن ونحن نعد العدة للاحتفال بزفاف ولدنا كامل، فقد كانت نذر الحرب التي تنوي أمريكا شنها على العراق لا تخفى على أحد . لذلك فإننا لم نكد نفرغ من مهمتنا تلك حتى بدأت الصواريخ الأمريكية تنهال على بغداد وغيرها من المدن العراقية في ليلة العشرين من مارس ٢٠٠٣ غير مفرقة بين قاعدة عسكرية أو حي مدني . إن مقدار الخسائر التي أوقعها الأمريكيون بالعراق لا يعلمه إلا الله .

المذهل هو ذلك السقوط السريع لنظام صدام . مرة أخرى أخطأ صدام في حساباته . لماذا لم يصمد جيشه ؟ لماذا لم يقاوم فدائيوه ؟ كيف تبخر الحرس الجمهوري ؟ أسئلة لا يمكن أن يجيب عليها أحد في هذا الوقت .
لا شك أن في الأمر خيانة... إن هولاكو لم يفعل بالعراقيين مثلما فعل بوش وزمرته .

بعد ثلاثة أسابيع من اندلاع نيران تلك الحرب الظالمة أعلن بوش انتهاءها . ونفس ريشه كما يفعل الطاووس مباهياً بانتصاره على صدام حسين . ولكن هل انتصر بوش فعلاً كما يقول ؟ هل انتهت الحرب كما يدعي ؟ وإن كان الأمر كذلك فما الذي يمكن أن نقوله فيما يحدث من هذه المقاومة الضارية التي تُشنُّ على الأمريكيين ومن يسير في ركبهم من الدول القمينة التي تبعث بجنودها إلى العراق ليقتلوا بدلاً من الأمريكيين .

طائرات بوش تتساقط كما تتساقط العصافير، وجنوده في كل يوم يعود منهم عدد لا يعرفه إلا الناطق الرسمي في توابيت إلى ذويهم في أمريكا . أما القتلى من المرتزقة فإن جثثهم ترمى في منطقة نهر دباله للذئاب والضباع لأن هيئة الأركان في الجيش الأمريكي غير ملزمة أخلاقياً كما تقول بإعادة جثثهم إلى أمريكا لأن العقد المبرم بينها وبين المرتزق الذي ذهب إلى الجحيم لا ينص على ذلك .

مصابة العراق الكبرى تتمثل في عدم معرفة الأعداد الصحيحة من الخونة . بعض هؤلاء الخونة ظاهرون ومكشوفون ولا يخلون من المجاهرة بخيانتهم لأنهم يحكمون العراق ولو بصورة شكلية .

أما الخونة الآخرون فلا يعلم عددهم إلا الله . لم يعد في استطاعتنا أن نستثني منهم حتى أولئك الذين أخطأوا في حساباتهم .

هل كان صدام الذي انتهى به الأمر على النحو الذي شاهده فيه العالم على شاشات التلفاز بعد أن وقع في أسر القوات الأمريكية على صواب عندما رفض أن يتنحى أو يستقيل ؟

وهل كان تنحيه لو حدث كافياً لأن يرضى بوش وزبانيته من الصليبيين المتصهينين ؟! أسئلة لا يعلم الإجابة عليها إلا الله .
أقنر ما وصل إليه نظام العولمة الجديد هو إصراره على نعت مقاومة الاحتلال في أي مكان بالإرهاب . معنى ذلك أن على الشعوب المهجورة أن ترضى بنعمة الإذلال التي ينعم بها عليهم المحتلون .

مصابة كبرى سوف تحل بالعالم إذا أعاد الأمريكيون انتخابهم لهذا الرئيس المأفون بوش . وحتى لو لم يفعلوا ذلك وأحلوا محله في البيت الأبيض رئيساً من الحزب الديمقراطي فهل سيكون ذلك كافياً لتخلي أمريكا عن كبرياتها وعطرساتها وإصرارها على أن تظل سيدة العالم التي لا ينازعها أحد على هذه السيادة ؟

أما أنظمتنا العربية التي لم يغذ يغطي سواتها أية ورقة فإلى متى ستظل مضبوغة من عدوها الأول إسرائيل ؟ وإلى متى ستراهن على أن ٩٩% من أوراق اللعبة في أيدي أمريكا ؟! وأن أمريكا هي الجهة الوحيدة القادرة على إنقاذ الشعب الفلسطيني المناضل من مؤامرات الصهيونية وآلتها الجهنمية التي تمدها بها أمريكا ؟! هل مانت الأمة العربية حقاً أم أن الله لا بد أن يبعثها من جديد ؟!

في السابع من نوفمبر ٢٠٠٣ دعانا نزار لزيارتهم في الكويت . وقد أقمنا لديهم أسبوعين لا غير وهي أقصر مدة نقضها في ضيافتهم . في هذه الرحلة فجعت بانتقال الصديق الوفي الأستاذ الشاعر المصري محمد

يوسف إلى رحمة الله، حيث قضى نحيبه في اليوم الثامن عشر من نوفمبر بعد غيبوبة استغرقت أكثر من شهر في العناية المركزة بمستشفى الصدر في الكويت . لقد شكلت وفاته يرحمه الله لي صدمة عنيفة فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أشد ما ألمني هو أنني لم أتمكن من زيارته أو إلقاء النظرة الأخيرة عليه لأن الأطباء حظروا زيارته . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

في هذا العام صدر لي كتابان عن دار اليراع للنشر والتوزيع هما الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، وتحت المجهر . وفي هذا العام الكتيب فقدت أم نزار اثنتين من بنات خالتها خضرة وهما رجاء ومحاسن تغمدهما الله برحمته، وقد قمنا بزيارة القاهرة لتعزية أبنائهما بوفاتهما في شهر أغسطس من هذا العام .

الخاتمة

لكل شيء نهاية كما هو معروف. وقد آن لي أن أقف بهذه السيرة عند هذا الحد، وقبل أن أفعل ذلك أقول: إنه ليس بين كل ما كُتب من سير ذاتية سيرة واحدة كاملة، إذ لا بد لكاتب هذا النوع من السير من أن يقف عند معلم تاريخي مُعَيَّن . ولا بد له من اللجوء إلى أسلوب التخيُّر والانتقاء لأن في حياة أي كاتب من الأسرار ما لا يجب أن يطلع عليه أحد من الناس مهما كانت درجة قرابته منه، ولأن في حياة أي كاتب من الأحداث ما لا يستطيع أن يسجله حتى لو رغب في ذلك لأسباب كثيرة لا تخفى على أحد . لهذا كله فإنني لا أستطيع أن أزعم أنني قلت كل ما أردت قوله وأثبت كل ما رغبت في إثباته في هذه السيرة التي مزجتها ببعض الإشارات التاريخية التي تساعد المطلع عليها في فهم أحداثها وتقلباتها.

وقد رأيت أن أوجز الحديث عن ستة أبعاد من شخصيتي في خاتمة هذه السيرة لقناعتي بأن هذا الإيجاز سيكون بمثابة تلخيص لأحداثها من جهة وضوء كاشف نفاذ يساعد على فهم مراحلها وتطوراتها من جهة أخرى .

البعد الأول هو البعد الذاتي: وعن ذلك أقول بأنني راض عن نفسي وعن ذاتي والحمد لله، وليس معنى ذلك أنني أدعي الكمال أو أنني أبريء نفسي من الهفوات والأخطاء، فأنا كغيري من الذين خلطوا عملاً صالحاً بأخر غير صالح، ولكني وبعون من الله وحده قد تمكنت من تغليب جانب الصلاح على جانب الخطل. وجاهدت نفسي حتى قهرتها وانتصرت عليها وأصبحت قائداً لها أسيرها ولا تُسيرني منذ أربعين عاماً ونيف .

ولو أنني استقبلت من أمري ما استدبرت لما سلكت طريقاً غير
الذي سلكت ولما رضيت بأن أكون غير رجا سمرين الذي يعرفه الناس
بعجزه وبجبره .

وإذا شئتُم أيها الأبناء والأحفاد الأعزاء أن أصف لكم نفسي فإني
أقول: إن أبرز صفاتي هي البساطة والطيبة والوضوح، وليس في شخصيتي
شيء من الغموض أو التعقيد، فأنا أشبه ما أكون بكتاب خطه مؤلفه بأسلوب
سهل ممتع .

يصعب علي الاحتفاظ بأسراري الخاصة ولكني أضع ما أوتيتُ
عليه من أسرار في حرز حريز وقرار مكين . ومن صفاتي أنني عصاميٌّ
بنييت نفسي بنفسي، وليس معنى ذلك أنه لا فضل لأحد عليّ، فالذين أزروني
كثيرون، وأرجو أن يجزيهم الله عني أفضل الجزاء . وأنا - أيها الأبناء
والأحفاد- ذكي مجتهد، وأديب أريب. وليس أدل على ذلك من حصولي
على اسمي درجة علمية وهي الدكتوراه . وقد رزقني الله الموهبة الشعرية
والكتابية التي لا يهبها إلا إلى نفر قليل من خلقه هم الصفوة دائماً بين
الناس. ويكفي أن هذه الموهبة قد كُفِلَتْ لاسمي أن يحتل زاوية صغيرة في
سجل الخالدين .

تراودني في اليقظة أحلام كثيرة، ولكن ما من حلم تخيلته إلا أصبح
بعد مدة- طالت أو قصرت- حقيقة ماثلة للعيان .

يعمر قلبي الحب والود، وأكره الضغينة والحقد، وسرعان ما أنسى
الإساءة، وأغض الطرف عما يرتكبه الآخرون في حقّي من آثام.
مؤمن بالله، متدين في غير ترمّت، أعمل لدنياي كأنني أعيش أبداً،
وأعمل لآخرتي كأنني أموت غداً .

أعشق الصراحة التي جرّت عليّ كثيراً من المتاعب . وأضيق
ذرعاً بالغباوة والأغبياء، ولا أصبر على مخالطتهم والتعامل معهم، ولا
أطيق السكوت على الانحراف والاعوجاج .

حسن المعشر، سرعان ما آلف وأولف، دمث الطباع، سهل الانقياد،
سريع الرضاء، سريع الغضب، تسعدني الكلمة الحلوة، وتُسقيني النظرة
الشريفة، سريع البديهة، عذب الحديث، محب للفكاهة والنكتة، وأكره
التقطيب والعبوس .

اجتماعي بطبعي، أحب مخالطة الناس، ولا أطيق البعد عنهم،
وأكره العزلة، ولكني أميل في بعض الأحيان إلى الاعتزال المؤقت وبخاصة
عندما تعثرني بعض نوبات الاكتئاب التي لا أجد تفسيراً لحدوثها حتى
الآن.

مخلص في عملي، محب له، كريم لا أبخل بما أقدر عليه، وأكره
الاسراف والتبذير، وأمقت البخل والبخلاء .

متهور مندفع، لا أبالي بالعواقب إذا شعرت بأنه لا بد لي من أن
أقف موقفاً معيناً أو من بصحته. وقد نجوت والحمد لله من كثير من المآزق
التي أوقعت فيها نفسي نتيجة لتهوري واندفاعي .

خال من العقد النفسية التي تسم حياة كثير من الناس. مُتَسَرِّع في
اتخاذ كثير من القرارات، ولكني لست نادماً على أي قرار اتخذته في حياتي
لأنني لم أتخذ من القرارات ما لم أكن مقتنعاً بصحته وجدواه. هل يعني ذلك
أن الله كان يلهمني القرار الصحيح بسرعة؟ ربما.

أكره التدخين، وأشفق على المدخنين، وأرثي لهم. وأسوأ اللحظات
عندي تلك التي أرى فيها أحد أبنائي وهو يهم بإشعال سيجارة؛ إنني أحس
وكأنه يشعل النار في جزء من جسدي .

من المؤلم أن يكون أبناء غير المدخنين من المدخنين. هل جاء
الزمن الذي أصبح فيه الآباء غير صالحين لأن يكونوا قدوة لأبنائهم؟! أعتقد
أن ذلك الزمن الأخير قد جاء .

فيما يتصل بصحتي أقول: إذا استثنينا ما أشرت إليه من معاناتي
من الندوب التي ظهرت في وجنتي في مرحلة الطفولة وما آلم بعيني من

متاعب لم تؤثر على قوة الإبصار فيهما في مرحلة المراهقة... إذا استثنينا ذلك فإن في إمكاني أن أزعج أنني أتمتع بصحة جيدة أسأل الله أن يديمها عليّ حتى آخر لحظة من حياتي .

وقد جاءت نتائج التحاليل المخبرية الشاملة التي أجراها لي الدكتور زياد كاتبه اختصاصي ومستشار الطب المخبري في عمان في ٩٦/٨/٢٥ مؤكدة لزعمي هذا والحمد لله .

هأنذا أوشك أن أتم الخامسة والسبعين من عمري دون أن تسقط لي سن واحدة، ودون أن أضطر إلى زيارة أطباء الأسنان إلا للقيام بعملية التنظيف في أوقات متباعدة وغير منتظمة .

"لا فض فوك" دعاء كان يتردد على ألسنة الكثيرين ممن كانوا - ولا يزالون - يستمعون إليّ في الأمسيات الشعرية والمحاضرات والندوات التي أشارك فيها. ترى هل استجاب الله لدعوات هؤلاء فحفظ فمي عامراً بالأسنان؟! ليس ذلك على الله ببعيد .

إن كل ما أصيب به من أمراض خلال حياتي لا يتعدى تلك الأمراض الموسمية التي يعاني منها معظم الناس نتيجة لتقلبات الطقس وتغير الفصول مثل الانفلونزا والزكام .

البعد الثاني وهو البعد الأسري: وينقسم إلى مرحلتين : مرحلة أولى كنت فيها صبيّاً في أسرة ريفية بسيطة يقوم على الأمر فيها أب مكافح ومجاهد شجاع تساعد أم فاضلة تحرص كما يحرص زوجها على أداء الصلوات في مواقيتها. وقد تمتع هذا الأب بين أبناء قريته بقدر كبير من الهيبة والاحترام، وحظى في بلاده بقدر كبير من الشهرة وحسن السمعة وذبوع الصيت بسبب جهاده وبطولاته وصلته المباشرة بالحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين . من أجل ذلك سأظل أشعر بالفخر لانتمائي إلى هذه الأسرة .

ومرحلة ثانية كوّنت فيها أسرتي الخاصة التي أصبحت تتألف من تسعة أفراد هم أنا وزوجتي وأبنائي السبعة . وما أود أن أقوله لأبنائي السبعة. في هذا المجال هو أنني أولاً وقبل كل شيء قد أحسنت اختيار أهم التي يصدق فيها قول الشاعر العربي القديم الذي كان أول ما منّ به علي أبنائه من أبياديه عليهم قوله :

وأول إحساني إليكم تخيري لأجدة الأعراق بادِعفاؤها

أجل لقد ساعدتني سيدة في تكوين أسرة سليمة متماسكة يحب أعضاؤها بعضهم بعضاً، ويضحى كل منهم في سبيل الآخرين. كانت سيدة تقف ورائي وتشد من أزري في كل خطوة كنت أخطوها من أجل تحقيق طموحاتي .

وفي مجال تربية الأبناء وما يتعلق بالأسرة من مشروعات وقرارات فإن الأمر دائماً كان شورى بيني وبين أم نزار. لم نفرض على أي واحد من أبنائنا وبناتنا السير في طريق لم يرق لأحد منهم أن يسير فيه. وإن كل ما وصل إليه أي منهم إنما كان نتيجة لاختياره هو، سواء كان هذا الذي وصل إليه نجاحاً أو فشلاً على المستويين الدراسي والاجتماعي. وفي الحالتين فإن المسؤولية في النجاح أو الإخفاق إنما تقع على عاتق صاحب الاختيار نفسه وليس على أحد آخر سواه .

البعد الثالث وهو البعد المهني: عشقت التدريس منذ نعومة أظفاري. وقد تأثرت بشخصيات عدد من أساتذتي الذين كان حبي لهم وإعجابي بهم مشوباً بما يشبه التقدير . لهذا كانت أمنيتي هي أن أصبح مدرساً مهيب الجانب يحمل طلابي لي في أنفسهم مثلاً كنت أحمل لأساتذتي الأجلاء من الاحترام والتقدير.

وقد حقق الله لي هذه الأمنية فقامت بالتدريس في جميع المراحل التعليمية بدءاً من المرحلة الابتدائية وانتهاءً بالمرحلة الجامعية. وقد مارست مهنة التدريس أو التوجيه الفني في المراحل المختلفة مدة عشرة أعوام. وكنت خلال ذلك كله محباً لعملتي متفانياً في أدائته مما جعلني أحظى بحب الطلاب والمعلمين والمسؤولين خلال ما يزيد عن أربعين عاماً امضيتها في مجال التعليم .

كان أول راتب تقاضيته من عملي في مجال التدريس هو ثمانية جنيهات فلسطينية ونصف، وكان ذلك عام ١٩٤٧م . أما أكبر راتب تقاضيته من عملي في هذا المجال وذلك قبل تقاعدي بسنتين تقريباً فقد بلغ ثمانمائة وخمسة وثلاثين ديناراً كويتياً، أي ما يعادل ١٩٨٠ ديناراً أردنياً بالسعر الحالي للعملة .

البعد الرابع وهو البعد الاجتماعي : عبر الكفاح المتواصل من أجل التميز والبقاء استطعت والحمد لله أن أرقى بأسرتي إلى مكانة اجتماعية مرموقة بحيث أصبحت جزءاً من الطبقة المتوسطة التي تشكل الغالبية العظمى من المجتمع في معظم البلدان العربية .

صحيح أننا لم نصبح أغنياء، ولكننا والحمد لله قد حققنا لأنفسنا حياة ميسورة نأت بنا عن المعاناة. ومكنتنا من تعليم الأبناء وتثنتهم تنشئة صالحة، ومكنتنا من اقتناء الأثاث الفاخر وكل ما يتطلبه البيت من الأدوات الكهربائية الحديثة التي تجعل حياة ربة البيت وسائر أفراد أسرتها سهلة ميسرة، وقد تمكنا من اقتناء السيارات الخاصة، وقد أصبح لنا بيت في القاهرة وبيت آخر في عمان . بل إن هنالك من المؤشرات ما يوحي بأن معظم أبنائي إن لم يكن كلهم في طريقهم إلى أن يصبحوا من الأثرياء لقد تمتعت أسرتنا بحب كل من اختلطت بهم وتعاملت معهم من الأقرباء والجيران والمعارف في كل قطر من الأقطار التي قدر لنا أن نقضي فيها

مدة من الزمن . وإن كان قد حدث أي شرخ في العلاقة بيننا وبين أحد فالذي لا شك فيه هو أننا لم نكن المتسببين في حدوثه .

البعد الخامس وهو البعد الأدبي : في هذا المجال وصلت إلى أرقى الدرجات وبخاصة بعد حصولي على الدكتوراه التي وضعتني في صفوف الطبقة الأولى من الأدباء المبدعين، والمتقنين المعروفين، الذين يملأون الساحة بنشاطهم ونتاجهم .

وقد أصبت حظاً من الشهرة في كثير من أنحاء الوطن العربي وبخاصة في الأقطار التي قُدر لي أن أعمل فيها، وذلك على الرغم من أنني لم أحظ بعناية وسائل الإعلام التي لا تفتأ تسلط أضواءها على أدعياء الأدب والثقافة وعلى الممثلين والممثلات والمهرجين والراقصات أكثر مما تسلطها على الأدباء والشعراء والمفكرين الحقيقيين .

وبصدور هذه السيرة يكون قد صدر لي حتى الآن ستة عشر كتاباً هي على التوالي :-

١. عصور الأدب العربي - بالإشتراك مع خالد السكاك وقد صدر عن مطبعة حداد في السلط عام ١٩٥٨م، وكان مقرراً على طلاب الصف الثالث الإعدادي في المدارس الأردنية .
٢. الضائعون - وهو أول دواويني الشعرية - وقد صدر عن الشركة الصناعية في عمان عام ١٩٦٠م .
٣. الجنة الضائعة - مسرحية شعرية - وقد صدرت في الكويت عام ١٩٧٠م .
٤. الشعر الفلسطيني في معركة بيروت - وهو العدد الأول من سلسلة حصاد ثقافي التي كانت تصدر عن فرع اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في الكويت وقد صدر عام ١٩٨٣م .

٥. الأدب العربي ومصادره عبر العصور - بالإشتراك مع الدكتور صلاح عيد والمرحوم الأستاذ عبد الرحمن سالم . وقد صدر عن الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب عام ١٩٨٣م، وكان مقررا على طلاب شعبة المكتبات في معهد التربية للمعلمين ثم في كلية التربية الأساسية فيما بعد.
٦. وتبقى الفوارس قرب الجياد - وهو الديوان الثاني من دواويني الشعرية، وقد صدر عن دار القبس في الكويت في إبريل من عام ١٩٨٥م كما صدر لهذا الديوان طبعة ثانية عن دار اليراع للنشر والتوزيع في عمان عام ٢٠٠٢م .
٧. ديوان الدكتور رجا سمرين - وقد ضم هذا الديوان بين دفتيه - ديوان الضائعون، وديوان وتبقى الفوارس قرب الجياد، وشذرات . وقد صدر عن دار القبس الكويتية عام ١٩٨٥م .
٨. شعر المرأة العربية المعاصرة - وقد صدر عن دار الحداثة في بيروت عام ١٩٩٠م .
٩. الطريق إلى أرض ليلي - وهو ديواني الثالث - وقد صدر عن دار المعارف في سوسة بتونس عام ١٩٩٠م .
١٠. بيني وبين الشعراء - وهو الديوان الرابع - وقد صدر عن دار اليراع للنشر والتوزيع عام ١٩٩٧م، وهو عبارة عن مجموعة من المساجلات الشعرية المتبادلة بيني وبين عدد من الأصدقاء الشعراء، وفيه بعض القصائد التي شاركت في نظمها مع شاعر أو أكثر.
١١. علي دمر شاعر الحب والغربة والحنين - وهو من منشورات اتحاد الكتاب العرب في دمشق عام ١٩٩٩م، وقد وضع الاتحاد هذا الكتاب بأكمله على شبكة الإنترنت الخاصة به .
١٢. خميلة الروح - وهو الديوان الخامس من دواويني وقد صدر في إبريل من عام ٢٠٠٢م عن دار اليراع للنشر والتوزيع .

١٣. الأعمال الشعرية الكاملة، وقد صدرت عن دار اليراع للنشر والتوزيع في أكتوبر من عام ٢٠٠٢م وقد ضم جميع دواويني السابقة بالإضافة إلى المسرحية الشعرية اللجنة الضائعة .
 ١٤. الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر وقد صدر عن دار اليراع للنشر والتوزيع عام ٢٠٠٣م
 ١٥. تحت المجهر - وهو دراسات نقدية لعدد من الأعمال الأدبية في الشعر والنثر وقد صدر عن دار اليراع للنشر والتوزيع عام ٢٠٠٣م .
 ١٦. أوراق الشتات - وهو سيرة ذاتية ومذكرات - وقد صدرت عن دار اليراع للنشر والتوزيع عام ٢٠٠٤م .
- وما زال في جعبتي عدد من المؤلفات التي أرجو من الله أن يهيئ لي فرص نشرها في أقرب وقت ممكن . أما هذه المؤلفات فهي :-
١. امرأة في القمة - وهي رواية طويلة للكاتب الأمريكي - كون سيلرز - وقد قمت بترجمتها عن الإنجليزية عام ١٩٦٣م .
 ٢. شعر المرأة العربية المعاصرة - الكتاب الثاني، وهو دراسة نقدية للشعر النسائي العربي من عام ١٩٧٠م إلى عام ٢٠٠٢م
 ٣. ماذا نعرف عن القرآن الكريم ؟
 ٤. الإسلام والحياة .
 ٥. نساء من التاريخ .

وقد انتسبت إلى عدد من الروابط الأدبية والأندية الثقافية في العالم العربي، ومن هذه الروابط :-

رابطة الأدب الحديث، وندوة شعراء العروبة في القاهرة ، واتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين فرع الكويت، ورابطة الكتاب الأردنيين، واتحاد الأدباء العرب في دمشق، والنادي العربي للثقافة والفنون في عمان .

ولا زلت أشارك في نشاط هذه الروابط والأندية والإتحادات كلما سمحت لي الظروف بذلك .

وقد مارست كتابة المقال حيث نشر لي في صحف العالم العربي ومجلاته زهاء مائة مقال ما بين أدبي وديني وسياسي . وقد كتبت للإذاعات العربية أكثر من مائة حديث إذاعي أذعتها بصوتي من إذاعات الكويت وعمان . وقد كتب عن شعري زهاء خمسين مقالا، وأجري معي نحو عشرين مقابلة إذاعية وخمس مقابلات تلفازية وعشرات المقابلات الصحفية في كل من القاهرة وعمان والكويت وكندا .

وقد قمت بتقديم عدد كبير من الندوات والأمسيات الشعرية والمحاضرات، وكتبت مقدمات لعدد من الدواوين منها :-

ديوان (نداء الأرض وحجارة الأعماق) للشاعرة جوهرة سفاريني، وديوان (جراحات فلسطينية) للشاعر المرحوم علي هاشم رشيد، وديوان (نفحات أردنية) للشاعر خالد فوزي عبده، وديوان (ثورة الحجارة) وهو الديوان الذي جمع أشهر ما قاله الشعراء العرب في ثورة الحجارة الأولى .

وممن كتب عن بعض الاتجاهات في شعري الدكتور كامل السوافيري في كتابه (الشعر الحديث في مأساة فلسطين) وكتابته (الأدب العربي المعاصر في فلسطين) ومنهم الدكتور عبد الرحمن الكيالي في كتابه (الشعر الفلسطيني المعاصر في نكبة فلسطين) والدكتور جميل سعيد في كتابه (دور الأدب في معركة التحرير والبناء) - القسم الأول - والدكتور محمد شحاده عليان في كتابه (الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث) والدكتور واصف أبو الشيبان في كتابه (شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر) .

وقد أورد عدد من المعجمات الأدبية وكتب الأعلام والموسوعات نبذاً تتفاوت في طولها وقصرها عن سيرتي الذاتية ونتاجي الشعري الأدبي. ومن ذلك :-

١. معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين - المجلد الثاني - طبعة عام ١٩٩٥م ص ٣٨١ .

٢. الموسوعة الفلسطينية - المجلد الرابع ص ٣٣ حيث صنفنتي هذه الموسوعة مع الشعراء المخضرمين .

٣. موسوعة أعلام الأدب العربي في العصر الحديث - المجلد الأولي - وهي من إعداد الدكتور كمال قاسم فرهود ومراجعة الدكتور محمود عباس - وقد صدر عن دار المشرق في شفا عمرو - الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٨م ص ٤٩١ .

٤. أعلام فلسطين - الجزء الثالث - دار قتيبة - الطبعة الأولى - إعداد محمد عمر حمادة سنة ١٩٩١م ص ١١٩ .

٥. أعلام من أرض السلام - إعداد عرفان سعيد الهواري - مطبعة الشروق سنة ١٩٧٩ - شفا عمرو ص ١٦٧ .

٦. من أعلام الفكر والأدب في الأردن - ص ٤٠٠ .

٧. دليل كتاب فلسطين - طلعت سفيرق - دار الفرقد للطباعة والنشر - الطبعة الأولى عام ١٩٩٨ دمشق - ص ٢٦٤ .

٨. سلسلة أعلام من الأردن - شخصيات أردنية - الجزء الثاني - إعداد عمر محمد ديارنة - دار اليراع للنشر والتوزيع سنة ٢٠٠٠ ص ٢٧١ . ولهذا الكتاب طبعة ثانية صدرت عام ٢٠٠٣م بعنوان (أدباء من الأردن).

وقد أبدى عدد من الأدباء والنقاد آراءهم في شعري ضمنوها مقالات نشروها في صحف العالم العربي ومجلاته .

ومن هؤلاء الشاعر أكرم الشقيري الذي يقول في مقدمة حوار أجراه معي سنة ١٩٨٠ ونشره في العدد رقم (٦٠٩٤) من جريدة الرأي العام الكويتية:-

(عرفته عن كُتب لسنوات خلت وعرفت فيه الصدق والالتزام ... الصدق في أحاسيسه ومشاعره، والالتزام في خطه واتجاهه وتسخير قلمه شعراً

ونثراً في خدمة وطنه ونصرة قضايا أمته. يعيش مأسيتها ويتفاعل مع أحداثها . يتألم بالآلام شعبه المشرّد ويشقى بشقاء أمته المغلوبة على أمرها . فهو إذن التزام أدبي وخلقي ووطني، وتلك في يقيني مقومات الشاعر إلى جانب موهبة يصيغها الله فيه صياغة ويصحبها صباً فتغدو سليفة وطبعاً .

ويقول الناقد الأستاذ ناجح خليل في مقدمته للحوار الذي أجراه معي عام ١٩٨١ ونشره في العدد رقم ٤٩٣ من مجلة مرآة الأمة الكويتية: "الدكتور رجا سمرين واحد من الذين يمارسون أدواراً متعددة في المحافل التربوية والأدبية، وذلك بحكم شخصيته الأدبية التي تتسم بأبعاد متنوعة، فهو موجه للغة العربية بوزارة التربية ومقدم بارع للأسميات الأدبية، وخطيب موهّب، وشاعر رقيق، ومحاوّر ذكي لباح واسع الأفق" .

وتقول الكاتبة الأستاذة سهام عبد الهادي في مقدمتها لحوار أجرته معي عام ١٩٨٠ ونشرته في العدد رقم ٦٨١ من مجلة النهضة الكويتية "الدكتور رجا سمرين الإنسان الشاعر الرهيف الذي يجمع بين الجد والرصانة والدمائة وهذوء الطبع وعمق التفكير وحلاوة الديباجة، وقوة الشخصية... الدكتور الشاعر وما كل يوم يولد شاعر... وحقنا أن نفرح بولادته وهو الشاعر الملتزم بقضايا بلده والدفاع عن مقدساته بصدق وإيمان وحرارة" .

وتقول الكاتبة الصحفية يسرا الأسمر في معرض تقديمها لي إلى القراء في مقدمة الحوار الذي أجرته معي عام ١٩٨٤ ونشرته في العدد ٦٤١ من مجلة مرآة الأمة الكويتية: "الدكتور رجا سمرين شخصية أدبية عرفت بمواقفها المنافحة عن التراث في وجه النيل منه والحط من قيمته، وفي كل كتاباته الأدبية كان الصوت الجريء الذي يقف بحماس إلى جانب الموروثات الشعرية بكل تقاليدها . وهو إلى ذلك شاعر ملتزم قلما سمع له شعر غير الشعر النضالي في الأسميات الشعرية" .

ويقول الأستاذ الناقد منير الزواري في مقاله الذي نشره عام ١٩٨٥ عن ديواني الثاني في العدد رقم ١١٤٠ من مجلة الرسالة الكويتية : "إن أهم ما يلفت الانتباه في الديوان هو طغيان القصائد ذات النزعة القومية لدى الدكتور الشاعر... وإن الشاعر قد اتخذ من الشعر منبراً يعبر من خلاله عن هموم هذه الأمة وصراعاها الطويل مع الاستعمار. وهو ما اصطلاح على تسميته بالالتزام، وهو من وجهة نظرنا أرقى أنواع الالتزام..." .

ويقول الأستاذ الناقد الدكتور كامل السوافيري -رحمه الله- في مقال نشره عن ديواني الآنف الذكر بتاريخ ١٧/١/١٩٨٦ في جريدة الدستور الأردنية "... ونظراً لأن الشاعر من الشعراء الذين أوجدتهم مأساة فلسطين وفجرت في قلوبهم ينابيع الشعر نلاحظ أنه استلهم مأساة بلاده في أكثر قصائده... ومن خلال هذه القصائد التي قدمناها في الجوانب الوطنية والقومية والاجتماعية والإنسانية... نستطيع أن تصدر حكماً على الدكتور رجا سمرين بأنه شاعر رزق الموهبة الشعرية وأوتي طاقة فنية متسقة، وأنه يجيد نظم الدر، وأن لديه من الثروة اللغوية ما يتيح له استخدام الألفاظ والكلمات المشعة ذات الظلال، وأنه حافظ في أسلوبه الشعري وفي صياغة جملة وعباراته على قواعد اللغة العربية وضوابط إعرابها، وتوخي السهولة والرفقة في ألفاظه . وكان صادقاً كل الصدق في التعبير عن عاطفته نحو بلاده ونحو عرويته وأمته، فما عبر في شعره إلا عما يضطرب بين جوانحه..." .

ويقول الأستاذ القاص حسن عبد الهادي في مقال عن الديوان ذاته منشور في جريدة الوطن الكويتية : "... الشعر ملكة نادرة لأنه لا يأتي إلا من النفوس العظيمة التي أنبتتها التربة الطيبة وأنضجتها التجربة العقلانية الواعية . والدكتور يملك الملكة والتربة الطيبة معاً، ولا يخرج الطيب إلا من الطيب أبداً، فقد زرع بديوانه هذا حبة قمح لا أغالي إذا قلت أنها ستنبث

في نفوس محبيه من جيلنا والأجيال القادمة عشر سنابل، فشكراً للكلمة الطيبة حين تأتي بالخير في زمن الجذب والخواء ... *.

ويقول الدكتور عبد القادر كراجة في مقال له عن ديواني هذا والذي نشره في العدد رقم ٧٧١٩ من جريدة الرأي العام الكويتية: (للدكتور رجا سمرين) صدر ديوانه الجديد الذي ضمته لواعج نفسه ونفحات صراعه كمثقف عربي باحث عن الحقيقة في زمن أصبح قول الحقيقة فيه ضرباً من ضروب التخوف .

وفي هذا الديوان ينتقل الدكتور من موضوع إلى آخر مدركاً لأبعاد اللعبة الشعرية متمكناً من بحور الشعر ممسكاً بيد المشاعر، حتى أنك لتحسب هذا النوع من الشعر غريباً على الأذن والعين لجودته في زمن أصبح فيه بائع الحلوى شاعراً... شعر هذا الرجل من النوع الجزل القوي يختار فيه الكلمة بعناية ويضمه جرسه الفني ببراعة المحترف وإبداع الخيال المتقد من الحزن إلى الألم إلى الشكوى... ثم يحلق بك إلى سماء الهم العربي حتى لتحسب نفسك وأنت تقرأ تلك الأشعار أنك تسير معه في قطار سريع الحركة يمر على مختلف العصور والحياة والمراحل التي مرت بها حركة الشعر العربي .

هو يؤمن بشعر تكاد أعداد من يقرضه لا تزيد على أصابع اليدين، ففي غزلياته يقترب من شعر الفحول، وفي مراثياته تشم رائحة محمود درويش، وفي أحزانه الذاتية تحسبه الأعشى. لقد حلق في القوافي فطوعها لخدمة الموضوع، فبحور الشعر عنده تختار وتُسَدَّعي حسب إيقاع الهم الذي يشاغله ويحرك قريحته. هو لا يحشر الكلمات حشراً ولا تجده يتصعب عرفاً حينما يبحث عن رمز من الرموز .

أعجبت جداً بديوان هذا السمرين الأسمر الملتاع الفواد واكتشفت همي وأنا أقلب صفحات الديوان وأعتقد أن القاريء سيجد متعة فكرية كبيرة حينما يطلع عليه ... " .

وفي ختام دراسة نقدية حول قصائدي التي قلتها في رثاء ولدي محمد - طيب الله ثراه - يقول أستاذ النقد الأدبي في كلية التربية الأساسية الدكتور عز الدين الجردلي : "إن شعر رجا سمرين شعر يتفوق في موضوعيته لأن المعاني التي يتعرض لها هي المعاني التي تمس قلب القاريء وتؤثر فيه حتى لو قدمت مباشرة أو يقليل من التصوير الفني والأسلوب الإيحائي الذي يسمو عادة بموضوع التجربة الشعرية إلى آفاق التجلي الشعوري .

هذه المعاني تملأ نفسية كل عربي يشعر بالضياع والفقد وتيه المقصد، فما أن يقرأها - ولو كانت بثوب وصفي تقريرى - حتى يحس أنها تعبر عن موقفه وقضيته في الإطارين الخاص والعام . ومن ثم يتفاعل بها وقد شعر بالراحة النفسية والرضا الوجداني، وتلك لعمري هي لحظة قبول الشعر والسماح له بدخول دائرة المعالجة الفنية، وهو ما أشرنا إليه سابقاً من أن الشاعر يسمو في بعض المواقف خلال التجربة إلى درجات من التحليق الفني في آفاق تصوير الشعوري الإيحائي إلى جانب تفوقه الموضوعي .

ويقول الدكتور محمد شحادة عليان في كتابه "الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث": "وفي قصائد الدكتور رجا سمرين تصوير دقيق لحياة اللاجئين ومآسهم. وما يكابدونه من آلام وأوصاب فهو أحد أبناء النكبة الذين اکتوا بنارها... وهو يهيب بكل حر يأبى الضيم أن ينفض عن نفسه الذل والهوان، ويثوب إلى الواقع البائس الأليم الذي يزرخ تحت نيرة اللاجئين... وهو بتصويره لحياة اللاجئين وأوضاعهم البائسة يدعو للتخلص من حياة الخيام والسعي من أجل العودة .

لقد راع الشاعر ما شاهده من مصائب ومحن وأهوال وإذلال ونوازل تحيط بشعبه وحياة قاسية لا تبقى ولا تذر فعجب من أمة غارقة في سباتها لا تفزعها كارثة هذا الوطن وشعبه وكأنهم من كوكب آخر .

لقد رأى مظاهر الخنوع والرضوخ للذل متفشية في بني أمته، وهو الذي يريد لهم أهل عزة وفخار ليهبوا هيئة رجل واحد يدافعون عن حق أصيل ويؤدّون عن مقدساتهم، ويحمون مسرى الرسول محمد ﷺ .

ويقول الناقد التونسي الأستاذ كمال العريف: هنا شعر متعدد الأشكال والأساليب، ولكنها أشكال ألفها الذوق العربي وكرستها التجارب الشعرية الناضجة القديمة والحديثة على السواء. وهنا شعر يشرف الشعر فهو يتعنى بالجمال ويحببه للناس، ويوظف الضمائر النائمة على واقعها الأليم، ويستنفر الطاقات المخدرة بالشعارات المستهلكة، ويعبئها لخدمة أهداف الأمة الكبرى في التخلص من أوزار قرون العبودية والظلام، وتحرير الأرض التي اغتصبها كل طامع.

إنه بكلمة واحدة يسمي الأشياء بأسمائها دون لف أو دوران أو مواربة. وحتى شعر المناسبات الذي تقرأ نماذج منه إن هو إلا تسجيل لبعض الأحداث العائلية التي هاجت قريحة الشاعر، أو تحية أو عتاب لبعض أصدقائه وخلاته، أو تهنية للكويت بعيد الاستقلال، والكويت هو البلد العربي الذي أوى الشاعر وأكرم وفادته، واعترف بقيمته وعرف كيف يفيد منها، والكويت من قبل ومن بعد غرة في جبين العرب. ثم إن الشاعر في هذه القصائد القليلة لا يلبث أن يخرج من الخاص إلى العام ويحملها تلك المعاني^(١) النبيلة التي وقف شعره بل حياته على تجليتها وبثها والمنافحة عنها .

وكما أشاد الكتاب بي وبشعري كما بينت فقد أدلى عدد من الشعراء بدلوهم في هذا المجال ومن ذلك قول الشاعرة الفلسطينية مريم الصيفي من قصيدة لها بعنوان "رفيق الدرب":

(١) مقدمة ديوان "الطريق إلى أرض ليلي" ص ٩ .

نُجِّلِكَ يَا مَعْلَمَنَا جَمِيعاً
تَعْلَمُنَا دُرُوسَنَا مِنْكَ تَجَلُّو
فَأَنْتَ الرَّمْزُ فِي حُجْجِ الْعَطَاءِ
بِدَرْبِ السُّورِ مَعْنَى الْكِبَرِيَاءِ
تَجَلَّتْ فِيكَ نَخْوَةُ عَرَبِي
تَحَلَّى بِالشَّهَامَةِ وَالْإِبَاءِ
سَمَوْتَ مَهَابَةً وَشَرَفْتَ أَصْلَا
فَأَبْعَ فِيكَ مَوْرُوثَ الْقَدَاءِ

نُحْنُ إِلَيْكَ يُؤَسِّنَا قَصِيدِ
وَسَعْدُنَا إِذَا مَا قَمْتَ تَشْدُو
بِدِيعِ الْفَلْظِ أَخَاذَ الْمَعَانِي
لَنَا (بِالْشَفْتَشِيَّاتِ) الْحَسَانِ
فَمَا أَحْلَى سَوِيَعَاتِ قَضَائِهَا
مِرْفَاقِ الشَّعْرِ مِنْ عَمْرِ الزَّمَانِ
تَقَرَّدَ فِي لِيَالِهِمْ بِحُورِ
فَتَرَاهُ يَنْجَالِيهَا الْأَغْنَانِي

ويقول الشاعر الفلسطيني الأستاذ هلال الفارح من قصيدة له بعنوان "أخي في النفي":

أَخِي فِي النَّفْيِ هَاتِ الشَّعْرَ هَاتِ
فِي ظَمَأٍ إِلَى شَعْرِ الشَّتَاتِ
وَجِدْ - مَا شَفَعَكُمْ وَجِدْ فَيَانِي
ضَرَعْتَ إِلَى شَيَاطِينِي الْعَصَاةِ
وَمَا أَفْلَحْتَ عِنْدَكُمْ بِنَظْمِ
أَفْلَحَ عِنْدَكُمْ نَظْمُ الْهَوَاةِ ؟ !
وَمَا إِلَّاكَ إِنْ نَبْتَ الْقَوَايِ
فَهَاتِ الشَّعْرَ . . هَاتِ السِّيفَ هَاتِ

أَخِي جَرْدَ حُرُوفِكَ إِنْ فِيهَا
لَغَرَفَانَا تَبَاشِيرَ النِّجَاةِ
أَذَاكَ تَسْرِي قَصِيدَ أُمِّ سَيُوفِ
تَقْفِيهَا بِأَعْنَاقِ الْوَلَاةِ ؟
أَمْ أَفْتَرْتَ حُرُوفَكَ عَنْ وَرُودِ
مَفْتَتَةٍ بِوَجَنَاتِ الْحَيَاةِ
أَخِي فِي الرُّوحِ هَاتِ الشَّعْرَ هَاتِ
فَشْهَدِ الرُّوحَ مِنْ نَحْلِ الدَّوَاةِ

ويقول الأستاذ هلال في قصيدة أخرى بعنوان "إلى أخي الدكتور رجا سمرين":

جاءت إليك فلا ترد الموعدا إن الحروف تترك فينا الأوحدا
عزت على الشعراء فاحترقوا بها فأشر إليها بالبنان لتوجدا
وانظم تفاعل القصيدة كأنها دمرت تقلدت القصيد الأجيلا
بأيها الرجل الذي بأبعته بدمرا على درب القوافي مرشدا
تستأنس الخطوات عند تمامه فتضي من سهل لتسفي أنجدا
صب القوافي في مراحلتنا فقد تحيي الحروف على يدك الموقدا
فلأنت فينا قائد ومعلم ولأنت فينا لا تزال الأصيدا

ويقول الشاعر الفلسطيني الأستاذ ربحي محمود من قصيدة له بعنوان "مكانك يا أخي":

مكانك يا أخي بشغاف قلبي وقد ترك عندنا بلغ السحابا
عهدك صادقاً حراً وفيها وقلبا فاض من حب مرضابا
وفكرنا ثاقبا صلبا قويا يخلق في الفلايسمواسابا
أضأت لقاءنا وشدوت فيه وأشجبت الأحبة والصحابا
نشرت الشعر في أرجاء مروحي نقياً صافياً فحلا وطابا
وكنت النجم في ظلم الليالي تلاكسا طعنا وغزا الرجابا
قوافيك العذاب لها اصطخاب وبحركنا خريروا الشبابا

ويقول الشاعر المصري الدكتور صلاح عيد من قصيدة له بعنوان "الذوق والحجا":

الذوق والحجا هما مرجعا
يشع جردا أو شعرا مدحجا
كالشمس في السرا ضن إن تأمر جحا
أمتان في كلالا ممرين متهجا
يشطط فيهما لا يشككي الوجحا
ككبير يوتر... غدا مبرجحا
ما كان فيه قيطوما عرجا
أوسا الكا إليه الدرب أعوجا
تسرى قصيدة ذلك المدججا
معناه فارس للفظ أسرجا
قد رق مدخلا وراق مخرجا

وعلى الرغم من هذه الشهادات التي أعتز بها كثيرا فإنني أرى أن شعري لم يجد حتى الآن ما يستحقه من عناية الباحثين والنقاد الذين اتهموني بأن أسلوبني يتسم بالعنف والمبالغة في الهجاء والتجريح أو ما يسمونه بأسلوب جلد الذات .

ولست أدري وعمرو الحق ما الذي يريده هؤلاء؟ هل يريدون مني ومن أمثالي من الشعراء أن نسيح بحمد المتقاعسين والمتخاذلين من الحكام والقادة وأن نلهج بالثناء على خطبهم الرنانة وتصريحاتهم الطنانة، وأن تشيد بالصمم الذي أصاب أسماعهم فجعلهم لا يأنهون لاستغاثات الثكالي وصرخات المنكوبين.

وليت هؤلاء النقاد الأماجد يذلونا على الأسلوب الأمثل في مخاطبة ووصف أولئك الذين يصرون على تجاهل وإهدار كل ما لدى أمتهم من مقومات النصر وعوامل الوحدة والتضامن ...

بقيت كلمة أوجهها لأولئك الذين يتهمونني بالإغراق في الكلاسيكية والحرص على جميع معطياتها وتجاهل الحداثة وما تدعو إليه من أساليب التجديد... إلى هؤلاء أقول: "إنني صاحب شخصية شعرية مستقلة يابى صاحبها أن يكون غير نفسه، على الرغم من سيف الإرهاب الذي يرفعه دعاة الحداثة. بمعنى آخر، لقد أبيت أن أكون غير نفسي لأنني أستطيع أن أميز جيداً بين التفاعل مع الجديد وبين تغيير جلدي كل يوم ألف مرة ومرة استجابة للدلائل العاملين في سوق التنظير الشعري الكبير.

البعد السادس والأخير وأعني به البعد السياسي: لا يسعني إلا أن أعترف بأنني قد سجلت في هذا المجال فشلاً ذريعاً لا يحسدني عليه أحد. ولعل عدم قدرتي على تغليب السياسي على الشاعر هو السبب الأول في ذلك الفشل .

كانت أول تجربة سياسية لي هي انتمائي إلى جماعة أنصار السلام في القاهرة، ذلك الانتماء الذي لم يدم أكثر من ثمانية أيام قدمت بعدها استقالاتي للأسباب التي ذكرتها في هذه المذكرات .

بعد ذلك انضمت إلى جماعة الإخوان المسلمين التي استمر انضمامي إليها أكثر من عامين وانتهت بمفارقتي لهذه الجماعة قبيل قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ببضعة أيام وللأسباب التي ذكرتها في هذه المذكرات.

وفي أثناء عملي في ثانوية السلط كنت مناصراً للجبهة الوطنية التي كانت تضم عدداً من الأحزاب التقدمية. لقد اقترح عليّ بعض من كانوا يعملون معي في ثانوية السلط أن أسير في الطريق الذي كانوا يسيرون فيه إذا شئت أن أحقق طموحي في الوصول إلى المناصب الرفيعة التي تقود إلى الوزارة ولكنني أبيت ذلك، ومهما يكن من أمر فقد وصل عدد من هؤلاء إلى الوزارة بعد أن ارتضوا لأنفسهم السير في ذلك الطريق.

إنني أحمد الله كلما استمعت إلى اللعنات التي يصبها الناس على رؤوس هؤلاء ورؤوس أمثالهم كلما ألمت بالوطن والمواطنين مصيبة من المصائب أو نازلة من النوازل .

إن أبناء شعبنا الواعي يميزون جيداً بين الخبيث والطيب وبين الخائن والوطني، وبين الطموح الأناني القاتل والطموح الإنساني البناء. وهم يعلمون كذلك أننا نعيش الزمن الذي وصفه الرسول ﷺ بقوله: "سيأتي على الناس سنوات خداعات يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويُخون فيها الأمين، وتنطق فيها الرويبضة. قيل: ما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الرجل التافه والحقير يتحدث في أمور العامة".

"صدقت يا سيدي يا رسول الله، يا من لا تنطق عن الهوى، لقد أظلتنا هذه السنوات الخداعات وقام ينطق في أمر هذه الأمة آلاف الروبيضات.

في الكويت وفي عام ١٩٧٤ انضمت رسمياً إلى جماعة فتح اعتقاداً مني بأنها ليست أكثر من تنظيم ثوري لا ينادي بأية أيديولوجية معينة بل يفتح أبوابه لكل فلسطيني بغض النظر عن المبدأ الذي يعتنقه أو الأيديولوجية التي يتبناها .

غير أنني لم أستطع الصبر على ما ينخر في الكيان الداخلي لهذا التنظيم من فساد وتناقضات . فقد تبين لي أن الإنقياد الأعمى لما يتبناه أبو عمار من سياسات وأفكار وقرارات، والنقمة المطلقة في شخصه هو المقياس الذي يقيس به ياسر عرفات أقدار الرجال ولا شيء غير ذلك .

في عام ١٩٨٦ وجهت سؤالاً إلى أبي عمار وفقاً للأصول التنظيمية. ولما طال الوقت دون أن أتلقي جواباً من أبي عمار أعلنت تجميد نشاطي حتى يأتيني الرد من الرئيس .

عند ذلك اتهمني المسؤول عن الخلية بأنني أنطق بلسان خصوم فتح. وردت عليه بعنف وانسحبت من الجلسة، وكان ذلك هو آخر عهدي بذلك التنظيم .

وقد جرت محاولات عدة لإعادتي إلى صفوف فتح من قبل عدد من المسؤولين الكبار في الحركة، ولكنني أصررت على موقفي إصراراً وتشبثت به تشبثاً .

من خلال هذه التجارب المتعاقبة خرجت بنتيجة واحدة وهي أنه ليس هنالك أفضل من أن يظل الإنسان وبخاصة إذا كان أديباً مستقلاً لا يقوده حزب بمبادئه، ولا جماعة بعقيدتها، ولا تنظيم بمواقفه وشعاراته.

لذلك فإن أهم ما أوصيكم به أيها الأبناء والأحفاد هو أن تحافظوا على استقلاليتكم وأن تعيشوا عليها بالنواجز، وألا يفكر أحد منكم ذات يوم في الانضمام إلى أي حزب أو جماعة أو تنظيم مهما كانت الإغراءات أو المبررات، وبخاصة وأنكم تعيشون في ظلال أنظمة لا تعترف بالآخر ولا برأيها، ولتعلموا أن الديمقراطية في وطننا العربي أكذوبة كبرى، وأنها منحة من الحاكم يفصلها وفقاً للمقاس الذي يريده ويهبها للشعب متى يشاء، وينزعها عنه عندما يشاء .

وفي ختام هذه السيرة لا يسعني إلا أن أقر بموافقة رائد المسرح العربي يوسف وهبي الذي شبه هذه الدنيا بمسرح كبير يؤدي كل إنسان دوره فوق خشبته ثم لا يلبث أن يترجل بعد أن يفرغ من أداء دوره ليتوارى خلف الكواليس .

لقد أدبت أدواراً كثيرة طوال هذه الأعوام التي استمرت فيها مسرحية حياتي قمت بتأدية دور الصبي الصغير والمراهق اليافع الطري العود والطالب الناجح الطموح، والمعلم المصلح، والمدرس المخلص في مهنته، والموجه الفني الصادق، والأساذ الجامعي المحبوب، والأديب الملتزم بقضايا أمته وبلاده .

وهأنذا أقوم الآن بدور المتقاعد الذي لا يدري إلى أي مدى يطول به الوقت وهو يؤدي هذا الدور الذي هو في الحقيقة من أصعب الأدوار، بل أصعبها على الإطلاق .

د. رجا سمرين

عمان - الجبل الأخضر

العاشر من محرم ١٤٢٥هـ

الموافق للثاني من آذار/ مارس ٢٠٠٤م

عناوين المؤلف

١. العنوان السكني في الأردن:

الأردن - عمان - الجبل الأخضر.

١٤ شارع شكري القوتلي.

الهاتف:

الخلوي: ٧٩١٥٦٩٦٤٤.

٢. العنوان البريدي في الأردن:

الأردن - عمان - مكتب بريد حيّ نزال

ص.ب ٧١٠٩٠٦ الرمز ١١١٧١

٣. العنوان الإلكتروني E - MAIL

drsumrain @ Yahoo. Com

٤. العنوان السكني في مصر:

مصر - القاهرة - الزيتون

٨ حارة عبد السيد/ شارع طومانباي

الهاتف: ٠٠٢٠٢/٤٥٥٣٥٩٦

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء
٧	المقدمة
١١	الفصل الأول - قريتنا
٣٧	الفصل الثاني - الجذور
٧١	الفصل الثالث - في قالونيا
١١٢	الفصل الرابع - في لبنان
١٢٣	الفصل الخامس - العودة إلى قالونيا
١٤٧	الفصل السادس - في مصر
١٨١	الفصل السابع - في رحاب الأزهر
١٩٧	الفصل الثامن - حب جديد
٢٤٦	الفصل التاسع - في الأردن
٢٩٥	الفصل العاشر - في المملكة العربية السعودية
٣١٦	الفصل الحادي عشر - في الكويت
٣٤٥	الفصل الثاني عشر - محاولة فاشلة للتغيير
٣٥٤	الفصل الثالث عشر - العودة إلى الكويت
٣٩٦	الفصل الرابع عشر - الزلزال
٤٠١	الفصل الخامس عشر - العودة إلى الأردن
٤٤٩	الخاتمة
٤٧٢	عناوين المؤلف
٤٧٣	المحتويات

اصدارات دار البعاع للنشر والتوزيع

١. ألوذ بالحجر/ ديوان شعر / د. إبراهيم الخطيب .
٢. البركان الكبير/ شعر غنائي للانتفاضة / د. شحدة الزاغ.
٣. الوثوب الأعظم/ ديوان شعر/ محمود العمري .
٤. من أحاديث الصعلكة/ خواطر أدبية/ أميمة الناصر و خلود جرادة.
٥. مرآة النفس / ديوان شعر / محمد الكسجي .
٦. أطلت الكسوف لأنني.../ ديوان شعر/ د. عمر حيدر أمين.
٧. سلسلة أعلام من الأردن/ جزءان/ شخصيات أردنية / إعداد عمر محمد الديارنة.
٨. والذاكرين الله كثيراً والذاكرات / المرحوم فوزي المومني.
٩. سيدة الأفواه / قصص - كوثر عياد .
١٠. أعلام من فلسطين/ التربوي المتميز عبد السلام الطيبي/ إعداد عمر محمد الديارنة .
١١. هناك شيء لا يموت/ ديوان شعر / فيصل جرادات .
١٢. بقيت على الإخلاص... / ديوان شعر / سامي الخوري جوينات.
١٣. الخروج عن ثقافة نيوتن/ مقالات فلسفية للأديب الراحل مصطفى الفواخيري - كشف عنها وقدمها وأعدّها للنشر - تيسير النجار .
١٤. الأعمال الشعرية الكاملة / د. رجا سميرين .
١٥. الاتجاه الإنساني في الشعر العربي / د. رجا سميرين.
١٦. تحت المجهر / د. رجا سميرين .

١٧. قالونيا - الأرض والجذور / غالب سميرين .
١٨. أشواك في العيون / غالب سميرين .
١٩. أدباء من الأردن ج١/ عمر ديارنة و هناء شراب .
٢٠. مدن وقرى فلسطينية ج١/ عمر ديارنة و هناء شراب .
٢١. مدن وقرى فلسطينية ج٢ / عمر ديارنة و هناء شراب.
٢٢. ماذا لو - ديوان شعر - د. عمر حيدر أمين .

* تحت الطبع:

١. أدباء من الأردن ج٢/ عمر ديارنة و هناء شراب .
٢. مدن وقرى فلسطينية ج٣/ عمر ديارنة و هناء شراب.
٣. مدن وقرى فلسطينية ج٤/ عمر ديارنة و هناء شراب .
٤. امرأة في القمة - رواية مترجمة - د. رجا سميرين .
٥. الهاشميون في الشعر العربي المعاصر - فيصل علي عبد الخالق.

هذا الكتاب



هذا الكتاب سيرة ذاتية للشاعر الكبير

الدكتور رجاسميرين تتسم

بقدر كبير من الصراحة والجرأة التي

قلما يتحلى بها كتاب السيرة الذاتية .

وقد مزج صاحب السيرة بين أحداث

حياته الخاصة والأحداث العامة التي عاصرها وصور موقفه منها بصراحة

تامة . وقد قام بهذا المزج اعتقاداً منه باستحالة الفصل بين الخاص والعام لأن كلا

منهما متأثر بالآخر ومؤثر فيه .

وسيعتري القارئ قدر كبير من الدهشة بسبب الأثر الذي تركه عامل الصدفة

في حياة صاحب السيرة ، والتي يعدّها تدبيراً إلهياً مُحكماً يأتي في مواعده المقتدر .

والكتاب بعد كل ذلك صورة صادقة لحياة إنسان فلسطيني مشردّ حكمت عليه الحضارة

الغربية المعاصرة بأن يعيش في الشتات ، وأن يحلّ في منزله وأرضه التي سلخ من سنوات

عمره فيها تسعة عشر عاماً واحداً من يهود الشتات لا يعلم إلا الله من أين جاء ؟

وبعد فإنه بالإضافة إلى ما سيخرج به القارئ من العظات والعبر من قراءته لهذا

الكتاب فإنه سيكتشف لا محالة أنه قد قرأ عملاً روائياً فيه من المتعة قدر كبير .

دار اليراع
نشر والتوزيع